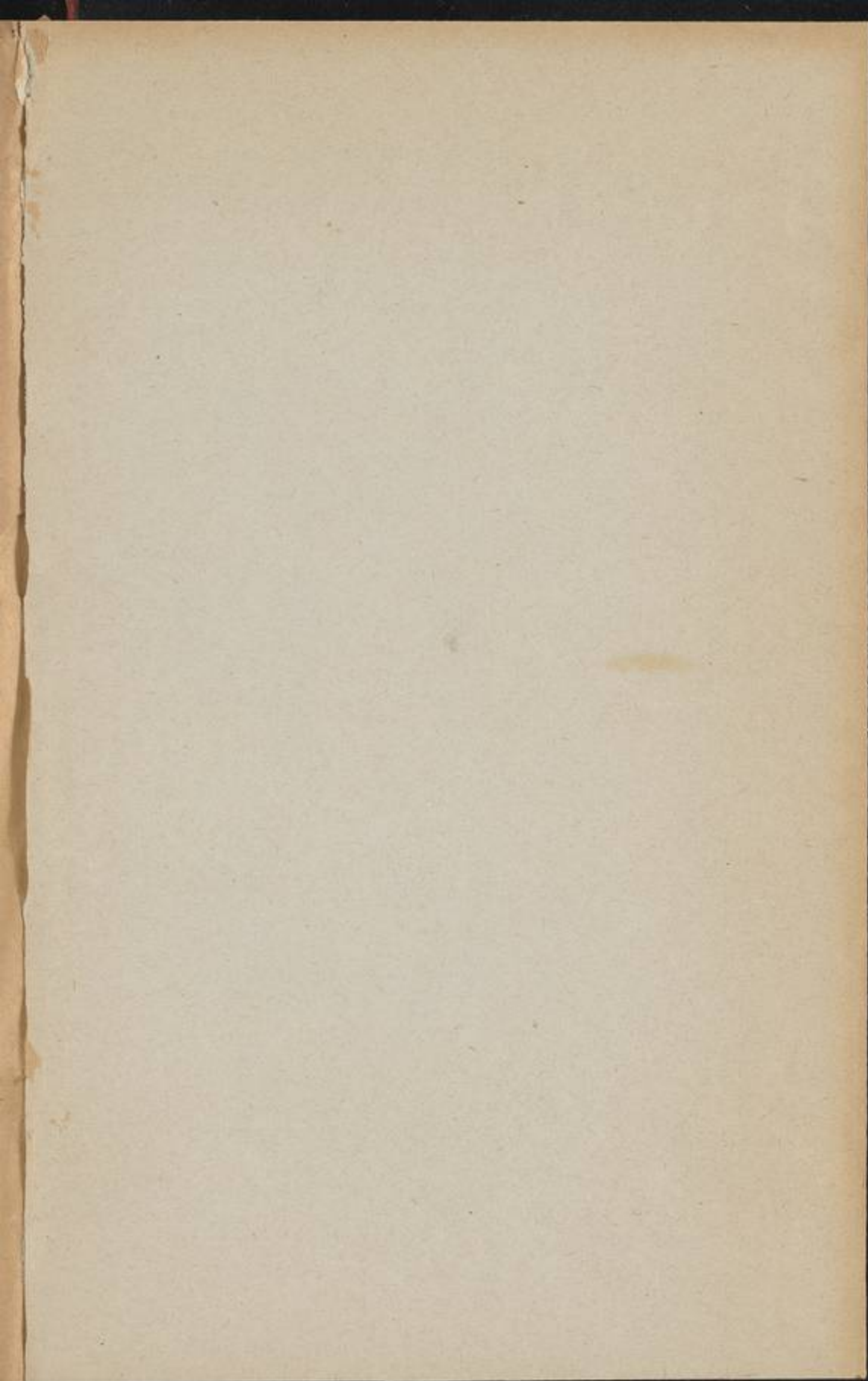




W. Arthur Jeffery

William Jeffrey
Jerusalem. 1846.



كتاب

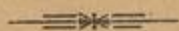
شرح الطحاوية في العقيدة السلفية

١٣٤٩

عني بتصحيحها والاشراف على طبعها

لجنة من المشايخ والعلماء تحت رئاسة

العلامة المحقق فضيلة الشيخ عبد الله بن حسن بن حسين آل الشيخ



أمر بطبعه على نفقته وجمله وقفاً لله تعالى

خالد بن عبد العزيز آل سعود

ملك الحجاز ونجد وملحقاتها

أمر الله بضربها وتأييدها

المطبعة السلفية - ومكاتبها

لاصحابها: عبد الستار قنديل ومحمد صالح نصيب وشركاؤهما

بمسئلة المحترمة - الحجاز

١٣٤٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة النشر

الحمد لله عالم السر والخفيات . المطلع على الضمائر والنيات
(أما بعد) حيث ان مؤلف هذا الشرح الحافل الجليل . وجامع هذا
السفر العديم المثيل . لم يجعل لكتابه المذكور اسماً ولم يذكر اسم نفسه كما
هو عادة غالب الشراح والمؤلفين إما تواضعاً منه رحمه الله وهضماً لحقوق
نفسه ، وأما لغير ذلك من المقاصد الحسنة ؛ وقد نسب الشرح المذكور في
عنوان النسخة الخطية التي بأيدينا إلى أحد تلامذة ابن كثير صاحب
التفسير بلا تعيين اعتماداً على ما صرح به الشارح نفسه في موضعين أو ثلاثة
من شرحه حيث يقول : قال شيخنا العماد ابن كثير .

فحرصاً على الوقوف على حقيقة الشارح وخدمة للمعلم وقياماً بواجبه
راجعنا ما في أيدينا من كتب التراجم والفنون فلم نجد ما يمكننا معه الجزم
بنسبته لشخص بعينه وأنا نثب هنا أسماء شارحي هذه العقيدة الذين عدم
صاحب « كشف الظنون » وهم سبعة من علماء الاحناف في مختلف الازمان
منهم : محمود بن احمد الحنفي القونوي المتوفي سنة ٧٧٠ صدر شرحه بقوله
: حمداً لله المتوحد بكمال صمديته .

ومنهم : المولى ابو عبد الله محمود بن محمد ابن ابي اسحاق الفقيه الحنفي
صدر شرحه بقوله : الحمد لله الذي هدانا لهذا .

وهاتان الخطبتان مغايرتان لخطبة الشارح ومنهم : شجاع الدين هبة الله
التركستاني المتوفى سنة ٧٣٦ . ومنهم : نجم الدين بكبرس بالتركي المتوفى
سنة ٩٥٢ . والقاضي سراج الدين عمر بن اسحاق الهندي الحنفي المتوفى سنة
٧٧٣ . ورتب الاصل على مقدمة ، ومهمات ، وتتمة وفي مقدمته عشر تنبيهات .
ومنهم المولى كافي الحسن البسنوي الاقحصاري المتوفى سنة ١٠٢٥ . وكل
هؤلاء كما ترى لا يغلب الظن على احد منهم بانه صاحب هذا الشرح لتباين
ما بينهم وبين الشيخ ابن كثير في الزمن والوطن . ولغايرة صنيعهم في شروحم
لصنيع صاحب الشرح ومنهم : صدر الدين علي بن محمد بن العز الاذري
الدمشقي الحنفي المتوفى سنة ٧٤٦ وهو الذي يرجح الظن انه الشارح لاتفاقه
مع الشيخ ابن كثير في الوقت والبلد والله اعلم

ولما كانت النسخة الخطية لشرح « العقيدة الطحاوية » التي جرى
عليها الطبع كثيرة الغلط والتعريف حيث انها لم تصحح ولم يوجد لها اصل
صحيح للمقابلة عليه . فقد اعتنى صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ « عبد الله
ابن حسن بن حسين آل الشيخ » بتصحيحها . فشكل لجنة من المشايخ
وطلبة العلم النجديين والحجازيين لا يقل عددهم عن العشرة ، فقرئت على
فضيلته بسمع من المذكورين وصححت بقدر الطاقة والاجتهاد لتتم الفائدة
ويم النفع بها للمسلمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه استعين

الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له . ونشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

﴿ أما بعد ﴾ فإنه لما كان علم اصول الدين اشرف العلوم اذ شرف العلم بشرف المعلوم وهو الفقه الاكبر بالنسبة إلى فقه الفروع ، ولهذا سمي الامام أبو حنيفة رحمه الله تعالى ما قاله وجمعه في أوراق من أصول الدين الفقه الاكبر وساجدة العباد اليه فوق كل حاجة وضرورتهم اليه فوق كل ضرورة لانه لاهياة للقلوب ولا نعيم ولا طمانينة إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاضرها بأسمائه وصفاته وأفعاله ويكون مع ذلك كله أحب اليها مما سواه ويكون سعيها فيما يقربها اليه دون غيره من سائر خلقه ومن المحال ان تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل فاقتضت رحمة العزيز الرحيم ان بعث الرسل به معرفين واليه داعين ولين أجابهم مبشرين ولين خالفهم منذرين وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم معرفة المعبود سبحانه ^(١) باسمائه وصفاته وأفعاله إذ على هذه المعرفة تبني مطالب الرسالة كلها من أولها إلى آخرها ، ثم يتبع ذلك أصلاً عظيماً (أحدها) تعريف الطريق الموصل اليه وهي شريعته المتضمنة لأمره ونهيه (والثاني) تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول اليه من النعيم المقيم

(١) لو قال معرفة المعبود بأهليته واسمائه إلخ لكان أحسن

فأعرف الناس بالله عز وجل اتبعهم للطريق الموصل اليه وأعرفهم بحال السالكين
عند القدوم عليه . ولهذا سمي الله ما أنزل على رسوله روحاً والتوقف الحياة الحقيقية
عليه . ونور التوقف الهداية عليه فقال الله تعالى (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ
مِنْ عِبَادِهِ) وقال تعالى (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي
مَّا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا
وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) ولا روح إلا فيما جاء به الرسول ولا نور إلا في
الاستضاء به وهو الشفاء كما قال تعالى (قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً) فهو
وان كان هدى وشفاء مطلقاً لكن لما كان المنتفع بذلك هم المؤمنون خصوصاً
بالذكر والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق فلا هدى إلا فيما جاء به
ولا ريب أنه يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيماناً عاماً بجملاً . ولا
ريب أن معرفة ما جاء به الرسول على التفصيل فرض على الكفاية فان ذلك
داخل في تبليغ ما بعث الله به رسوله وداخل في تدبر القرآن وعقله وفهمه وعلم
الكتاب والحكمة وحفظ الذكروالدعاء إلى الخير والامر بالمعروف والنهي
عن المنكر وإلى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي احسن
ونحو ذلك مما أوجبه الله على المؤمنين فهو واجب على الكفاية منهم . وأما
ما يجب على أعيانهم فهذا يتنوع بتنوع قدرهم^(١) وحاجتهم ومعرفتهم وما أمر
به أعيانهم ولا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم أو عن فهم دقيقه ما يجب على
القادر على ذلك ويجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل ما لا يجب
على من لم يسمعها . ويجب على المفتي والمحدث والحاكم ما لا يجب على من ليس

كذلك . وينبغي أن يعرف ان عامة من ضل في هذا الباب أو عجز فيه عن معرفة الحق فإما هو لتفريطه في اتباع ما جاء به الرسول وترك النظر والاستدلال الموصل الى معرفته . فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلوا كما قال تعالى (فَأَمَّا يَا تِئِنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَمَّكَ آيَاتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) قال ابن عباس : رضي الله عنه تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ان لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآية كما في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « انها ستكون فتن » قلت فما المخرج منها يا رسول الله قال « كتاب الله فيه بناء ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله . وهو جبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسن ولا تتفضي عجائبه ولا تشبع منه العلماء من قال به صدق ومن عمل به اجر ومن حكم به عدل ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم » الى غير ذلك من الآيات والاحاديث الدالة على مثل هذا المعنى ولا يقبل الله من الاولين والآخرين ديننا يدينون به الا ان يكون موافقا لدينه الذي شرعه على السنة رسله وقد نزه الله تعالى نفسه عما يصفه به العباد الا ما وصفه به المرسلون . بقوله سبحانه (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَآلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فتره نفسه سبحانه عما يصفه به الكافرون ثم سلم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب ثم حمد نفسه على تفرده بالأوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد ومضي على ما كان عليه الرسول ﷺ خير

القرون وهم الصحابة والتابعون لهم باحسان يوصي به الأول للآخر ويقتدي فيه
اللاحق بالسابق وهم في ذلك كله بنبيهم محمد ﷺ مقتدون وعلى منهاجه سالكون كما
قال تعالى في كتابه العزيز (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)
فان كان قوله (ومن اتبعني) معطوفا على الضمير في (ادعوا) فهو دليل على ان اتباعه
هم الدعاء الى الله وان كان معطوفا على الضمير المنفصل فهو صريح ان اتباعهم اهل
البصيرة فيما جاء به دون غيرهم وكلا المعنيين حق وقد بلغ الرسول ﷺ البلاغ
المبين واوضح الحجة للمستبصرين وسلك سبيله خير القرون ثم خلف من بعدهم
خلف اتبعوا اهواءهم وافترقوا فاقام الله لهذه الامة من يحفظ عليها اصول
دينها كما اخبر الصادق ﷺ « لا تزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق لا يضرهم
من خذلهم » ومن قام بهذا الحق من علماء المساميين الامام ابو جعفر احمد بن
محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي تغمدته الله برحمته بعد المائتين فان مولده سنة
تسع وثلاثين ومائتين ووفاته سنة احدى وعشرين وثلاثمائة . فاخبر رحمه الله
عما كان عليه السلف ونقل عن الامام ابي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي
وصاحبيه ابي يوسف يعقوب بن ابراهيم الحميري الانصاري ومحمد بن الحسن
الشيباني رضي الله عنه ما كانوا يعتقدون من اصول الدين ويدينون به رب
العالمين . وكل ما بعد العهد ظهرت البدع وكثر التعريف الذي سماه اهله تأويلا
ليقبل وقل من يهتدي الى الفرق بين التعريف والتأويل اذ قد يسمى صرف الكلام
عن ظاهره الى معنى آخر محتمله اللفظي الجملة تأويلا وان لم يكن ثم قرينة توجب ذلك
ومن هنا حصل الفساد فاذا سموه تأويلا قبل وراج على من لا يهتدي الى الفرق بينهما
فاحتاج المؤمنون بعد ذلك الى ايضاح الادلة ودفع الشبه الواردة عليها وكثر الكلام

والشغب وسبب ذلك اصغافهم الى شبه المبطلين وخوضهم في الكلام المذموم الذي
عابه السلف ونهو عن النظر فيه والاشتغال به والاصغاء اليه امثالاً لامر ربهم حيث
قال (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ)
فان معنى الآية يشملهم. وكل من التحريف والانحراف على مراتب فقد يكون
كفراً وقد يكون فسقاً وقد يكون معصية وقد يكون خطأ فالواجب اتباع
المرسلين واتباع ما أنزله الله عليهم وقد ختمهم الله بمحمد ﷺ فجعله آخر الانبياء
وجعل كتابه مهيمناً على ما بين يديه من كتب السماء وانزل عليه الكتاب والحكمة
وجعل دعوته عامة لجميع الثقيلين الخن والانس باقية الى يوم القيامة وانقطعت به
حجة العباد على الله وقدين الله به كل شيء واهل له ولائته الدين خيراً وامراً^(١)
وجعل طاعته طاعة له ومعصيته معصية له واقسم بنفسه انهم لا يؤمنون حتى
يحكموه فيما شجر بينهم واخبر ان المنافقين يريدون ان يتحاكوا الى غيره وانهم
اذا دعوا الى الله والرسول وهو الدعاء الى كتاب الله وسنة رسوله صدوا
صدوداً وانهم يزعمون انهم انما ارادوا احساناً وتوفيقاً كما يقوله كثير من المتكلمة
والمتفلسفة وغيرهم انما نريد ان نحسن الاشياء بحقيقتها اي نذكرها ونعرفها ونزيد
التوفيق بين الدلائل التي يسمونها العقليات وهي في الحقيقة جهليات وبين الدلائل
النقلية المنقولة عن الرسول . او نزيد التوفيق بين الشريعة والفلسفة . وكما يقوله
كثير من المبتدعة من المتسكة والمتصوفة انما نريد الاعمال بالعمل الحسن والتوفيق
بين الشريعة وبين ما يدعونه من الباطل الذي يسمونه حقائق وهي جهل وضلال .
وكما يقوله كثير من المتماكة والتأثرة انما نريد الاحسان بالسياسة الحسنة
(١) قوله خيراً وامراً الخبر هو توحيد الربوبية وتوحيد الاسماء والصفات .
والامر هو توحيد الالهية . انتهى من تقرير شيخنا ووالدنا حسن بن حسين

والتوفيق بينها وبين الشريعة ، ونحو ذلك فمكل من طلب ان يحكم في شيء من
امر الدين غير ما جاء به الرسول ويظن ان ذلك حسن وان ذلك جمع بين ما جاء
به الرسول وبين ما يخالفه فله نصيب من ذلك بل ما جاء به الرسول كاف كامل
يدخل فيه كل حق وانما وقع التقصير من كثير من المنتسبين اليه فلم يعلم ما جاء
به الرسول في كثير من الامور الكلامية الاعتقادية ولا في كثير من الاحوال
العبادية ولا في كثير من الامارة السياسية او نسبوا الى شريعة الرسول بظنهم
وتقليدهم ما ليس منها واخرجوا عنها كثيرا مما هو منها . فبسبب جهل هؤلاء
وضلالهم وتفريطهم وكبس عدوان اولئك وجهلهم ونفاقهم كثر النفاق ودرس
كثير من علم الرسالة بل انما يكون البحث التام والنظر القوي والاجتهاد الكامل
فيما جاء به الرسول ﷺ ليعلم ويعتقد ويعمل به ظاهرا وباطنا فيكون قد تلى حق
تلاوته وان لا يهمل منه شيء وان كان العبد عاجزا عن معرفة بعض ذلك والعمل
به فلا يهني عما عجز عنه مما جاء به الرسول بل حسبه ان يسقط عنه اللوم لعجزه
لكن عليه ان يفرح بقيام غيره به ويرضى بذلك ويود ان يكون قائما به وان
لا يؤمن ببعضه ويشرك ببعضه بل يؤمن بالكتاب كله وان يصان عن ان يدخل
فيه ما ليس منه من رواية او رأى او يتبع ما ليس من عند الله اعتقادا او عملا
كما قال تعالى (وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) . وهذه
كانت طريقة السابقين الاولين وهي طريقة التابعين لهم باحسان الى يوم القيامة
واولهم السلف القديم من التابعين الاولين . ثم من بعدهم ومن هؤلاء ائمة
الدين المشهود لهم عند الامة الوسط بالامامة . فعن ابي يوسف رحمه الله تعالى
انه قال لبشر المريسي العلم بالكلام هو الجهل والجهل بالكلام هو العلم واذا صار

الرجل رأساً في الكلام قيل زنديق او رمي بالزندقة اراد بالجهل به اعتقاد عدم صحته فان ذلك علم نافع او اراد به الاعراض عنه او ترك الالتفات الى اعتباره فان ذلك يصون علم الرجل وعقله فيكون عليها بهذا الاعتبار والله أعلم . وعنه ايضا انه قال : من طلب العلم بالكلام تزندق ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ومن طلب غريب الحديث كذب . وقال الامام الشافعي رحمه الله تعالى حكيم في اهل الكلام ان يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة واقبل على الكلام . وقال ايضا رحمه الله تعالى شعرا .

كل العلوم بسوى القرآن مشغلة * الا الحديث والا الفقه في الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا * وما سوى ذلك وسواس الشياطين
وذكر الاصحاب في الفتاوى انه لو اوصي لعلماء بلده لا يدخل المتكلمون
واوصي انسان ان يوقف من كتبه ما هو من كتب العلم فافتي السلف ان يباع
ما فيها من كتب الكلام . ذكر ذلك بمعناه في الفتاوى الظهيرية فكيف يرام
الوصول الى علم الاصول بغير اتباع ما جاء به الرسول ولقد احسن القائل .
ايها المقتدي ليطلب علما * كل علم عبد لعلم الرسول
تطلب الفرع كي تصحح اصلا * كيف اغفلت علم اصل الاصول
ونبينا ﷺ اوتي فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه فبعث بالعلوم الكلية
والعلوم الأولية والاخروية على اتم الوجوه ولسكن كل ما ابتدع شخص
بدعة اتسموا في جوابها فلذلك صار كلام المتأخرين كثيرا قليل البركة بخلاف
كلام المتقدمين فانه قليل كثير البركة لا كما يقوله ضلال المتكلمين وجهلهم

ان طريقة القوم اسلم وان طريقنا احكم واعلم ولا كما يقوله من لم يقدرهم من
المتسبين الى الفقه انهم لم يتفرغوا لاستنباط الفقه وضبط قواعده واحكامه
اشتغالا منهم بغيره . والمتأخرون تفرغوا لذلك فهم افقه فكل هؤلاء محجوبون
عن معرفة مقادير السلف وعمق علومهم وقلة تكلفهم وكمال بصائرهم وتالله
ما امتاز عنهم المتأخرون الا بالتكلف والاشتغال بالاطراف التي كانت هممة
القوم مراعاة اصولها وضبط قواعدها وشد معاقدها وهمهم مشمرة الى الطالب
العالية في كل شيء فالتأخرون في شان والقوم في شان آخر وقد جعل الله
لكل شيء قدرا . وقد شرح هذه العقيدة غير واحد من العلماء ولكن رأيت
بعض الشارحين قد اصنى الى اهل الكلام المذموم واستمد منهم وتكلم بعباراتهم
والسلف لم يكرهوا التكلم بالجواهر والجسم والعرض ونحو ذلك لجرد كونه
اصطلاحا جديدا على معان صحيحة كاصطلاح على الفاظ العلوم الصحيحة ولا
كرهوا ايضا الدلالة على الحق والحاجة لاهل الباطل بل كرهوه لاشتماله على
امور كاذبة مخالفة لالحق ومن ذلك مخالفتها للكتاب والسنة . ولهذا لا تجد
عند اهلها من اليقين والمعرفة ما عند عوام المؤمنين فضلا عن علماءهم . ولاشمال
مقدماتهم على الحق والباطل كثر الكلام وانتشر القيل والقال وتولد لهم عنها
من الاقوال المخالفة للشرع الصحيح والعقل الصريح ما يضيق عنه المجال .
وسياتي لذلك الكتاب زيادة بيان عند قوله : فن رام علم ما خطر عنه علمه .
وقد احييت ان اشرحها سالكا طريق السلف في عباراتهم وانسج على منوالهم
متظفلا عليهم لعل ان انظم في سلكهم وادخل في عدادهم واحشر في زميرتهم
(مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ)

وَحَسَنَ أَوْلَيْكَ رَفِيقًا . ولما رأيت النفوس مائلة الى الاختصار آثرته على
التطويل والاسهاب (وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)
وهو حسبنا ونعم الوكيل قوله ﴿ نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله ان

الله واحد لا شريك له ﴾ ش . اعلم ان التوحيد اول دعوة الرسل واول منازل

الطريق واول مقام يقوم فيه السالك الى الله قال تعالى (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ

قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) وقال هو د عليه السلام لقومه

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) وقال صالح عليه السلام لقومه (اعْبُدُوا اللَّهَ

مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) وقال شعيب عليه السلام لقومه (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ

إِلَهٍ غَيْرُهُ) وقال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

الطَّاغُوتَ) وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ

إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) وقال ﷺ « أمرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله

إلا الله وأن محمداً رسول الله » ولهذا كان الصحيح ان أول واجب يجب على

المكلف شهادة ان لا إله إلا الله لا النظر ولا القصد الى النظر ولا الشك كما

هي اقوال لارباب الكلام المذموم ، بل أئمة السلف كلهم متفقون على ان اول

ما يؤمر به العبد الشهادتان ومتفقون على ان من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر

بتجديد ذلك عقيب بلوغه بل يؤمر بالطهارة والصلاة إذا بلغ او ميز عند

من يرى ذلك ولم يوجب احد منهم على وليه ان يخاطبه حينئذ بتجديد الشهادتين

وان كان الاقرار بالشهادتين واجباً باتفاق المساميين ووجوبه يسبق وجوب

الصلاة لكن هو أدى هذا الواجب قبل ذلك . وهنما مسائل تكلم فيها الفقهاء

كمن صلى ولم يتكلم بالشهادتين أو أتى بغير ذلك من خصائص الاسلام ولم

يتكلم بها هل يصير مساماً أم لا ؟ فالصحيح انه يصير مساماً بكل ما هو من

خصائص الاسلام فالتوحيد أول ما يدخل في الاسلام وآخر ما يخرج به من
 الدنيا كما قال النبي ﷺ « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة »
 وهو اول واجب وآخر واجب . فالتوحيد أول الامر وآخره اعنى توحيد
 الالهية فان التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع (احدها) الكلام في الصفات
 (والثاني) توحيد الربوبية وبيان ان الله وحده خالق كل شيء ، (والثالث)
 توحيد الالهية وهو استحقاقه سبحانه وتعالى ان يعبد وحده لا شريك له
 أما (الاول) فان نفاة الصفات ادخلوا نفي الصفات في مسمى التوحيد كالجهم بن
 صفوان ومن وافقه فانهم قالوا اثبات الصفات يستلزم تعدد الواجب وهذا
 القول معلوم الفساد بالضرورة فان اثبات ذات مجردة عن جميع الصفات لا يتصور
 لها وجود في الخارج وانما الذهن قد يفرض المحال ويتخيله وهذا غاية التمطيل
 وهذا القول قد افضى بقوم الى القول بالحلول والاتحاد وهو اقبح من كفر
 النصارى ، فان النصارى خصوه بالمسيح وهؤلاء عموا جميع المخلوقات . ومن
 فروع هذا التوحيد ان فرعون وقومه كاملو الايمان عارفون بالله على الحقيقة .
 ومن فروعه ان عباد الاصنام على الحق والصواب وانهم انما عبدوا الله لا غيره .
 ومن فروعه انه لا فرق في التحريم والتحليل بين الام والاخت والاجنبية ولا
 فرق بين الماء والخمر والزنا والنكاح السكل من عين واحدة لا بل هو العين
 الواحدة . ومن فروعه ان الانبياء ضيقوا على الناس تعالى الله عما يقولون علوا
 كبيرا وأما (الثاني) وهو توحيد الربوبية كالاقرار بانه خالق كل شيء ، وانه ليس
 للعالم صنمان متكافيان في الصفات والافعال وهذا التوحيد حق لا ريب فيه وهو
 الغاية عند كثير من اهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية . وهذا التوحيد لم

يذهب الى تقيضه طائفة معروفة من بني آدم بل القلوب مفطورة على الاقرار
به اعظم من كونها مفطورة على الاقرار بغيره من الموجودات كما قالت الرسل
فيما حكى الله عنهم (قَالَتْ رُسُلُهُمْ اَفِي اللّٰهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ) واشهر
من عرف تجاهله وتظاهرة بانكار الصانع فرعون وقد كان مستيقنا به في الباطن
كما قال موسى (لَقَدْ عَلِمْتَمَا اَنْزَلْ هٰؤُلَاءِ اِلَّا رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ بَصٰئِرًا)
وقال تعالى عنه وعن قومه (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا اَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)
ولهذا قال: وما رب العالمين على وجه الانكار له تجاهل العارف قال له موسى (رَبُّ
السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا اِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ اَلَا تَسْتَمِعُونَ
قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ اَبَائِكُمُ الْاَوَّلِينَ قَالَ اِنْ رَسُوْلَكُمُ الَّذِي اُرْسِلَ اِلَيْكُمْ
لَمَجْنُوْنٌ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا اِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)
وقد زعم طائفة ان فرعون سأل موسى مستفهما عن الماهية وان المسئول عنه
لما لم يكن له ماهية معجز موسى عن الجواب وهذا غلط وانما هذا استفهام
انكار وجحد كما دل سائر آيات القرآن على ان فرعون كان جاحدا لله نافيا له
لم يكن مثبتا له طالبا للعلم بماهيته فلماذا بين لهم موسى انه معروف وان آياته
ودلائل ربوبيته اظهر واشهر من ان يسأل عنه بما هو بل سبحانه اعرف
واظهر واين من ان يجهل بل معرفته مستقرة في الفطر اعظم من معرفة كل
معروف ولم يعرف عن احد من الطوائف انه قال ان العالم له صانعان متماثلان
في الصفات والافعال فان الثنوية من المجوس والمناوية القائلين بالاصلين النور
والظلمة وان العالم صدر عنهما متفقون على ان النور خير من الظلمة وهو الاكبر
الحمود وان الظلمة شريرة مذمومة وهم متنازعون في الظلمة هل هي قديمة او

محدثة فلم يثبتوا ريتين متماثلين . وأما النصارى القائلون بالتثليث فانهم لم يثبتوا العالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض بل متفقون على أن صانع العالم واحد ويقولون باسم الابن والآب وروح القدس آله واحد وقولهم في التثليث متناقض في نفسه وقولهم في الحلول أقدم منه . ولهذا كانوا مضطرين في فهمه وفي التعبير عنه لا يكاد أحد منهم يعبر عنه بمعنى معقول ولا يكاد اثنان يتفقان على معنى واحد فانهم يقولون هو واحد بالذات ، ثلاثة بالاقنوم . والاقانيم يفسرونها تارة بالخواص وتارة بالصفات وتارة بالأشخاص . وقد فطر الله العباد على فساد هذه الأقوال بعد التصور التام . وبالجمله فهم لا يقولون بأثبات خالقيين متماثلين . والمقصود هنا انه ليس في الطوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين مع ان كثيرا من اهل الكلام والنظر والفلسفة تعبوا في اثبات هذا المطلوب وتقريره . ومنهم من اعترف بالعجز عن تقريره هذا بالعقل وزعم انه يلتقي من السمع والمشهور عند اهل النظر اثباته بدليل التمانع وهو انه لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما مثل ان يريد احدهما تحريك جسم والآخر تسكينه او يريد احدهما احياءه والآخر اماتته . فالمان يحصل مرادها أو مراد احدهما أو لا يحصل مراد واحد منهما والاول ممتنع لانه يستلزم الجمع بين الضدين . والثالث ممتنع لانه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون وهو ممتنع ويستلزم ايضا عجز كل منهما والعاجز لا يكون إلهًا واذا حصل مراد احدهما دون الآخر كان هذا هو الآله القادر والآخر عاجز لا يصلح للآلهية . وتام الكلام على هذا الاصل معروف في موضعه وكثير من اهل النظر يزعمون ان دليل التمانع هو معنى قوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) لاعتقادهم ان

توحيد الربوبية الذي قرروه يظن انه مناسب للكواكب من طباعها، وشرك
 قوم ابراهيم عليه السلام كان فيما يقال من هذا الباب وكذلك الشرك بالملائكة
 والجن واتخاذ الاصنام لهم وهؤلاء كانوا مقرين بالصانع وانه ليس للعالم صانعا
 ولكن اتخذوا هذه الوسائط شفعا كما اخبر عنهم تعالى بقوله (وَيَعْبُدُونَ مِن
 دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَدْعُونَ
 اللَّهَ بِمَالٍ يَمْالَأُ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)
 وكذلك كان حال الامم السالفة المشركين الذين كذبوا الرسل . كما حكي الله
 تعالى عنهم في قصة صالح عن التسعة الرهط الذين تقاسموا بالله اي تحالفوا بالله
 لتبيئته واهله فهؤلاء المفسدون المشركون تحالفوا بالله على قتل نبيهم واهله
 وهذا يبين انهم كانوا مؤمنين بالله ايمان المشركين فعلم ان التوحيد المطلوب
 هو توحيد الالهية الذي يتضمن توحيد الربوبية . قال تعالى (فَأَقِمْ وَجْهَكَ
 لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ
 وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) الى قوله (إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ) . وقال تعالى (أَفِي اللَّهِ
 شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقال ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة فابواه
 يهودانه او ينصرانه او يمجسانه » ولا يقال ان معناه يولد ساذجا لا يعرف
 توحيدا ولا شركا كما قاله بعضهم لما تلونا لقوله ﷺ فيما يروي عن ربه عز
 وجل « خلقت عبادي حنفاء فاجتالهم الشياطين » - الحديث . وفي الحديث
 المتقدم ما يدل على ذلك حيث قال يهودانه او ينصرانه او يمجسانه ولم يقل
 ويسلمانه وفي رواية يولد على الملة وفي اخرى على هذه الملة وهذا الذي اخبر
 به ﷺ هو الذي تشهد الادلة العقلية بصدقه منها ان يقال لا ريب ان الانسان

قد يحصل له من الاعتقادات والارادات ما يكون حقا وتارة ما يكون
باطلا وهو حساس متحرك بالارادات ولا بد له من احدها ولا بد له من مرجح
لاحدها ونعلم انه اذا عرض على كل احد ان يصدق وينتفع وان يكذب
وينظر مال بفطرته الى ان يصدق وينتفع . وحينئذ فلا عتراض بوجود الصانع
والايمان به هو الحق او تقيضه والثاني فاسد قطعاً فتميز الأول فوجب ان
يكون في الفطرة ما يقتضى معرفة الصانع والايمان به وبعد ذلك اما ان يكون
محبته انفع للعبد اولاً . والثاني فاسد قطعاً فوجب ان يكون في فطرته محبة ما ينفعه
ومنها انه مفطور على جلب المنافع ودفع المضار بحسبه . وحينئذ لم تكن فطرة
كل احد تستقل بتحصيل ذلك بل محتاج الى سبب معين للفطرة كالتعليم
ونحوه فاذا وجد الشرط واتفى المانع استجابت لما فيها من المقتضى لذلك .
ومنها ان يقال من المعلوم ان كل نفس قابلة للعلم واردة الحق ومجرد التعليم
والتحضيض لا يوجب العلم والارادة لولا ان في النفس قوة تقبل ذلك والا
فلو علم الجهال والبهائم وحضضا لم يقبلوا . ومعلوم ان حصول اقرارها بالصانع
ممكن من غير سبب منفصل من خارج ويكون الذات كافية في ذلك فاذا
كان المقتضى قائماً في النفس وقدر عدم المعارض فالمقتضى السالم عن المعارض
يوجب مقتضاه فعلم ان الفطرة السليمة اذا لم يحصل لها من يفسدها كانت
مقرة بالصانع عابدة له . ومنها ان يقال انه اذا لم يحصل المفسد الخارج ولا
المصلح الخارج كانت الفطرة مقتضية للصالح لأن المقتضى فيها للعلم والارادة
قائم والمانع منتف . ويحكى عن ابي حنيفة رحمه الله ان قوماً من اهل الكلام
ارادوا البحث معه في تقرير توحيد الربوبية فقال لهم اخبروني قبل ان نتكلم

في هذه المسئلة عن سفينة في دجله تذهب فتمتلىء من الطعام والمتاع وغيره
 بنفسها وتعود بنفسها فترسي بنفسها وتفرغ وترجع كل ذلك من غير ان
 يدبرها احد فقالوا هذا محال لا يمكن ابدا فقال لهم اذا كان هذا محالا في
 سفينة فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله . وتحكى هذه الحكاية ايضا عن
 غير ابى حنيفة فلو اقر الرجل بتوحيد الربوبية الذي يقر به هؤلاء النظار
 وينفى فيه كثير من اهل التصوف ويجعلونه غاية السالكين كما ذكره صاحب
 منازل السائرين وغيره وهو مع ذلك ان لم يعبد الله وحده ويترأ من عبادة
 ما سواه كان مشركا من جنس امثاله من المشركين . والقرآن مملوء من تقرير
 هذا التوحيد وبيانه وضرب الامثال له . ومن ذلك انه يقرر توحيد الربوبية
 ويبين انه لا خالق الا الله وان ذلك مستلزم ان لا يعبد الا الله فيجعل الاول
 دليلا على الثاني اذ كانوا يسمون الأول وينازعون في الثاني فيبين لهم سبحانه
 انكم اذا كنتم تعلمون انه لا خالق الا الله وحده وانه هو الذي يأتي العباد بما
 ينفعهم ويدفع عنهم ما يضرهم لا شريك له في ذلك فلم تعبدون غيره وتجعلون معه
 آلهة اخرى كقوله تعالى (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ
 اٰمًا يُشْرِكُونَ اَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَاَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَآءً فَاَنْبَتْنَا
 بِهٖ حَدٰٓئِقَ ذٰتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ اَنْ تُنْبِتُوْا شَجَرَهَا اِلٰهَ مَعَ اللّٰهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْبُدُوْنَ)
 الآيات . يقول الله تعالى في آخر كل آية (اِلٰهَ مَعَ اللّٰهِ) اي آله مع الله فعلى
 هذا وهذا استفهام انكار يتضمن نفي ذلك وهم كانوا مقرين بانه لم يفعل ذلك
 غير الله فاحتج عليهم بذلك وليس المعنى انه استفهام هل مع الله آله كما ظنه
 بعضهم لأن هذا المعنى لا يناسب سياق الكلام والقوم كانوا يجعلون مع الله

آلهة اخرى كما قال تعالى (اِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ اَنْ مَعَ اللّٰهِ اٰلِهَةٌ اٰخَرٰى قُلْ لَا
اَشْهَدُ) وكانوا يقولون (اَجْعَلْ الْاٰلِهَةَ لِلّٰهِ اَوْ اٰحِدًا اِنْ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ) وكانوا
يقولون معه (اَمْ نَجْعَلُ الْاَرْضَ قَرَارًا وَنَجْعَلُ لِّخَلَائِهَا اَنْهَارًا وَنَجْعَلُ لَهَا رَوَاسِيًا
وَنَجْعَلُ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا) بل هم مقرون بأن الله وحده فعل هذا وهكذا
سائر الآيات وكذلك قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) وكذلك قوله في سورة الانعام (قُلْ اَرَأَيْتُمْ
اِنْ أَخَذَ اللّٰهُ مَمْعَكُمْ وَاَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلٰى قُلُوبِكُمْ مِنْ اٰلِهَةٍ غَيْرِ اللّٰهِ
يَا تُبٰىكُمُ بِهِ) وامثال ذلك . واذا كان توحيد الربوبية الذي يجعله هؤلاء

النظار ومن وافقهم من الصوفية هو الغاية في التوحيد داخلًا في التوحيد الذي
جاءت به الرسل ونزلت به الكتب فيعلم ان دلائله متعددة كدلائل اثبات
الصانع ودلائل صدق الرسول فان العلم كلما كان للناس اليه احوج كانت
ادلته اظهر رحمة من الله بخلقه . والقرآن قد ضرب الله للناس فيه من كل
مثل وهي المقاييس العقلية المفيدة للمطالب الدينية لكن القرآن يبين الحق
في الحكم والدليل فاذا بعد الحق الا الضلال وما كان من المقدمات معلومة
ضرورية متفقًا عليها استدلل بها ولم يحتج الى الاستدلال عليها والطريقة
الفصيحة في البيان ان تحذف وهي طريقة القرآن بخلاف ما يدعيه الجهال
الذين يظنون ان القرآن ليس فيه طريقة برهانية بخلاف ما قد يشته
ويقع فيه نزاع فانه يبينه ويدل عليه ولما كان الشرك في الربوبية معلوم
الامتناع عند الناس كلهم باعتبار اثبات خالقين متماثلين في الصفات والافعال
وانما ذهب بعض المشركين الى ان ثم خالق خالق بعض العالم كما يقوله الثنوية في
الظامة وكما يقوله القدرية في افعال الحيوان وكما يقوله الفلاسفة الدهرية في حركة

الافلاك او حركات النفوس أو الأجسام الطبيعية فان هؤلاء يثبتون أموراً
محدثه بدون احداث الله اياها فهم مشركون في بعض الربوبية وكثير من مشركي
العرب وغيرهم قديظن في آلهته شيئاً من نفع او ضرر بدون ان يخلق الله ذلك فلما
كان هذا الشرك في الربوبية موجوداً في الناس بين القرآن بطلانه كما في قوله تعالى
(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّعَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيه الظاهر فان
الا له الحق لا بد ان يكون خالقاً فاعلاماً يوصل الى عابده النفع ويدفع عنه الضرر
فلو كان معه سبحانه ا له آخر يشركه في ملكه لكان له خلق وفعل . وحينئذ
فلا يرضى تلك الشركه بل ان قدر على قهر ذلك الشريك وتفرد به بالملك والالهية
دونه فعل وان لم يقدر على ذلك انفرد بخلق وذهب بذلك الخلق كما انفرد
ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه اذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر
والعلو عليه فلا بد من احد ثلاثة أمور : اما ان يذهب كل ا له بخلق وسلطانه .
واما ان يعلموا بعضهم على بعض . واما ان يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف
فيهم كيف يشاء ولا يتصرفون فيه بل يكون وحده هو الا له وهم العبيد
المربوبون المقهورون من كل وجه . وانتظام امر العالم كله واحكام امره من ادل
دليل على ان مدبره ا له واحد وملك واحد ورب واحد لا اله الا لخلق غيره
ولا رب لهم سواه كما قد دل دليل التمانع على ان خالق العالم واحد لا رب
غيره ولا ا له سواه فذلك تمنع في الفعل والايجاد وهذا تمنع في المباداة والالهية
فكما يستحيل ان يكون للعالم ربان خالقان متكافيان كذلك يستحيل ان يكون
لهم ا لهان معبودان . فالعلم بان وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته مستقر

في الفطرة معلوم بصريح العقل بطلانه فكذا تبطل إلهية اثنين فالآية الكريمة
موافقة لما ثبت واستقر في الفطر من توحيد الربوبية دالة مثبتة مستلزجة لتوحيد
الإلهية . وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ
لَفَسَدَتَا) وقد ظن طوائف ان هذا دليل التمانع الذي تقدم ذكره وهو انه لو كان
للعالم صانعان الخ . وغفلوا عن مضمون الآية فانه سبحانه أخبر انه لو كان فيهما آلهة
غيره ولم يقل ارباب وايضا فان هذا انما هو بعد وجودها وانه لو كان فيهما وهما
موجودتان آلهة سواء لفسدتا ، وايضا فانه قال لفسدتا وهذا فساد بعد الوجود ولم
يقل لم يوجد ودلت الآية على انه لا يجوز ان يكون فيهما آلهة متعددة بل
لا يكون الا له الواحد وعلى انه لا يجوز ان يكون هذا الا له الواحد الا الله
سبحانه وتعالى وان فساد السموات والأرض يلزم من كون الآلهة فيهما متعددة
ومن كون الا له الواحد غير الله وانه لا صلاح لهما الا بان يكون الا له فيهما هو الله
وحده لا غير فلو كان للعالم إلهان معبودان لفسد نظامه كله فان قيامه انما هو بالعدل
وبه قامت السموات والأرض . وأظلم الظلم على الاطلاق الشرك وأعدل العدل
التوحيد ^(١) وتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس فمن لا يقدر
على ان يخلق يكون عاجزا والعاجز لا يصلح ان يكون إلهاً قال تعالى
(أَيْشْرِكُونَ مَا لَمْ يَخْلُقْ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) وقال تعالى (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ

(١) قوله وتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس وقد تقدم
من كلامه أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الإلهية فالمعنى أن الاستلزام غير
التضمن فمن لازم الاقرار بتوحيد الربوبية وان الله هو الذي تفرد بالخلق والرزق
والاحياء والاماتة الاقرار بتوحيد الإلهية وانه هو المعبود ، المرجو المسئول
وحده دون من سواه ، وأما التضمن فلا يقال ان الاقرار بتوحيد الربوبية يتضمن
توحيد الإلهية لا بالعكس . انتهى من تقرير شيخنا والدنا حسن بن حسين .

لَا يَخْلُقُ أَفْلاَنَدَ كَرُونَ) وقال تعالى (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَدَعُوا
إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا) وفيها للمتأخرين قولان (أحدهما) لا تأخذوا سبيلا إلى مغالبتة
(والثاني) وهو الصحيح المنقول عن السلف كقتادة وغيره وهو الذي ذكره
ابن جرير لم يذكر غيره لا تأخذوا سبيلا بالتقرب إليه كقوله تعالى (إِنَّ هُدًى
تَدْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا) وذلك انه قال : لو كان معه آلهة كما
يقولون وهم يقولون ان العالم له صانعان بل جعلوا معه آلهة تأخذونهم شفعا
وقالوا ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى بخلاف الآية الاولى

﴿ أنواع التوحيد الذي دعت إليه الرسل ﴾

ثم التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان : توحيد
في الاثبات والمعرفة ؛ وتوحيد في الطلب والقصد (فالاول) هو اثبات
حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وافعاله واسمائه ليس كمثل شيء في ذلك كله
كما اخبر به عن نفسه وكما اخبر رسوله ﷺ وقد افصح القرآن عن هذا النوع
كل الافصاح كما في أول الحديد وطه وآخر الحشر وأول الم تنزيل السجدة
وأول آل عمران وسورة الاخلاص بآياتها وغير ذلك (والثاني) وهو توحيد
الطلب والقصد مثل ما تضمنه سورة (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . وَقُلْ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) وأول سورة تنزيل الكتاب
وآخرها وأول سورة يونس واوسطها وآخرها وأول سورة الاعراف
وآخرها وجملة سورة الانعام . وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد بل
كل سورة في القرآن . فان القرآن أما خبر عن الله واسمائه وصفاته وهو التوحيد
العامي الخبري . واما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد

من دونه فهو التوحيد الارادي الطلبي . واما امر ونهي وإلزام بطاعته فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته . واما خبر عن اكرامه لاهل توحيدهم وما فعل بهم في الدنيا وما بكرهم به في الآخرة وهو جزاء توحيدهم . واما خبر عن اهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما فعل^(١) بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد . فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم . فالحمد لله رب العالمين توحيد الرحمن الرحيم توحيد اهدنا الصراط المستقيم توحيد متضمن لسؤال الهداية الى طريق اهل التوحيد الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين الذين فارقوا التوحيد . وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد وشهدت له به ملائكته وانبياءه ورسله قال تعالى (شهد الله انه لا إله الا هو واللائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله الا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الإسلام) فتضمنت هذه الآية الكريمة اثبات حقيقة التوحيد والرد على جميع طوائف الضلال فتضمنت أجل شهادة واعظها واعدها واصدقها من أجل شاهد بأجل مشهود به . وعبارات السلف في شهد تدور على الحكم والقضاء والاعلام والبيان والاختبار وهذه الاقوال كلها حق لا تنافي بينها ، فان الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره وتتضمن اعلامه واخباره وبيانه فلها اربع مراتب : (فأول مراتبها) علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته . (وثانيها) تكلمه بذلك وان لم يعلم به غيره بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها او يكتبها . (وثالثها) ان يعلم غيره بما يشهد به ويخبره به ويبينه له (ورابعها) ان يلزمه بمضمونها وأمره به فشهادة

(١) لعاه وما يفعله

الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الاربع
علمه بذلك سبحانه وتكلمه به واعلامه واخباره خلقه به وامرهم والزمام به .
فاما مرتبة العلم فان الشهادة تضمنتها ضرورة والا كان الشاهد شاهدا بما لا علم
له به قال تعالى (اِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) . وقال عليه السلام « على مثلها
فاشهد » و اشار الى الشمس واما مرتبة التكلم واخبار فقال تعالى (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ
الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ اِنَّا اَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكْتَبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ)
فجعل ذلك منهم شهادة وان لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ولم يؤدوها عند غيرهم .
واما مرتبة الاعلام والاخبار فنوعان : اعلام بالقول . واعلام بالفعل وهذا شأن
كل معلم لغيره بامر تارة يعلمه به بقول وتارة بفعل . ولهذا كان من جعل داره
مسجدا وفتح بابها وبرزها بطريقها واذن للناس بالدخول والصلاة فيها معلما
انها وقف وان لم يتلفظ به وكذلك من وجد متقربا الى غيره بانواع المسار
يكون معلما له ولغيره انه يحبه وان لم يتلفظ بقوله وكذلك بالعكس وكذلك
شهادة الرب عز وجل وبيانه واعلامه يكون بقوله تارة وبفعله اخرى فالقول
ما ارسل به رسله وانزل به كتبه . واما بيانه واعلامه بفعله فكما قال ابن كيسان
شهد الله بتدبيره العجيب وموره المحكمة عند خلقه انه لا اله الا هو وقال آخر

وفي كل شيء له آية * تدل على انه واحد

ومما يدل على ان الشهادة تكون بالفعل قوله تعالى (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ
اَنْ يَعْبُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ اَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ) فهذه شهادة منهم على
انفسهم بما يفعلونه . والمقصود انه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه
ودلائها انما هي بخلقها وجملها . واما مرتبة الامر بذلك والالزام به وان مجرد الشهادة

لا يستلزمه لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه فانه سبحانه
 شهد به شهادة من حكم به وقضى وامر والزم عبادته به كما قال تعالى (وَقَضَى
 رَبُّكَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) وقال الله تعالى (لَا تَتَّخِذُوا إِلِهَيْنِ إِلَّا
 تَعَالَى) وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ — وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا
 إِلَهًا وَاحِدًا) وقال تعالى (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) وقال تعالى (وَلَا تَدْعُ
 مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) والقرآن كله شاهد بذلك ووجه استلزام شهادته سبحانه
 لذلك انه اذا شهد انه لا اله الا هو فقد اخبر ونبأ واعلم وحكم وقضى ان ما سواه
 ليس باله وان الهية ما سواه باطلة فلا يستحق العبادة سواه كما لا تصالح الا الهية
 لغيره وذلك يستلزم الامر باتخاذ وحده الهًا والنهي عن اتخاذ غيره معه الهًا وهذا
 يفهمه المخاطب من هذا النبي والاثبات كما اذا رأيت رجلا يستفتي رجلا او
 يستشده او يستطبه وهو ليس اهلا لذلك ويدع من هو اهل له فتقول هذا ليس
 بعفت ولا شاهد ولا طيب. المنفي فلان والشاهد فلان والطيب فلان فان هذا امر
 منه ونهي. وايضا فلا يدلت على انه وحده المستحق للعبادة فاذا اخبر انه هو وحده
 المستحق للعبادة تضمن هذا الاخبار امر العباد والزام باداء ما يستحقه الرب
 تعالى عليهم وان القيام بذلك هو خالص حقه عليهم وايضا فلفظ الحكم والقضاء
 يستعمل في الجملة الخبرية ويقال للجملة الخبرية قضية وحكم وقد حكم فيها بكذا
 قال تعالى (أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهَمْ يُقَوِّلُونَ وَكَذَّابُونَ) وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ — أَصْطَفَى
 الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) فجعل هذا الاخبار المجرد منهم حكما
 وقال تعالى (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) لكن هذا حكم
 لا الزام معه والحكم والقضاء بأنه لا اله الا هو متضمن الالزام ولو كان
 المراد مجرد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها ولم ينتفعوا بها ولم تقم عليهم بها لجهة

بل قد تضمنت البيان للعباد ودلائلهم وتعريفهم بما شهد به كما ان الشاهد من العباد
اذا كانت عنده شهادة ولم يبينها بل كتبها لم ينتفع بها احد ولم تقم بها حجة
واذا كان لا ينتفع بها الا ببيانها فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة:
السمع ، والبصر ، والعقل . اما السمع فبسمع آياته المتلوة المينة لما عرفنا اياه من
صفات كماله كلها الوجدانية وغيرها غاية البيان لا كما يزعمه الجهمية ومن وافقهم
من المعتزلة ومعتلة بعض الصفات من دعوى احتمالات توقع في الحيرة تنافي
البيان الذي وصف الله به كتابه العزيز ورسوله الكريم كما قال تعالى (حَمَّ
وَٱلْكِتَآبِ الْمُبِينِ - ٱلْم تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَآبِ الْمُبِينِ - ٱلْم تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَآبِ
وَقرَّ أَن مُّبِينٍ - هَذَا يَكُونُ لِلنَّاسِ وَهَدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ - فَٱعْلَمُوا أَنَّمَا
عَلَىٰ رُسُلِنَا ٱلْبَلَغُ ٱلْمُبِينُ - وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ
وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) وكذلك السنة تأتي مبينة ومقررة لما دل عليه القرآن لم
يجوزنا ربنا سبحانه وتعالى الى رأي فلان ولا الى ذوق فلان ووجدته في اصول
ديننا ولهذا تجد من خالف الكتاب والسنة مختلفين مطربين . بل قد قال تعالى
(ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَٱتَّمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ
ٱلْإِسْلَامَ دِينًا) فلا يحتاج في تكميله الى امر خارج عن الكتاب والسنة . والى
هذا المعنى اشار الشيخ ابو جعفر الطحاوي فيما يأتي من كلامه بقوله لا ندخل في
ذلك متأولين بأرائنا ولا متوهمين باهوائنا فانه ما سلم في دينه الامن سلم لله عز
وجل ولرسوله ﷺ . واما آياته العيانة الخلقية فالنظر فيها والاستدلال بها يدل
على ما تدل عليه آياته القولية السمعية والعقل يجمع بين هذه وهذه فيجزم بصحة
ما جاءت به الرسل فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة فهو سبحانه
لكمال عدله ورحمته واحسانه وحكمته ومحبته للعذر واقامة الحجة لم يبعث نبيا

الا ومعه آية تدل على صدقه فيما اخبر به قال تعالى (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ
 وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا
 مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
 بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ) وقال تعالى (قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي
 قُلْتُمْ) وقال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
 وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) وقال تعالى (اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ)
 حتى ان من اخفى آيات الرسل آيات هو دحى قال له قومه يا هو وما جئتنا بيينة
 ومع هذا فينته من اوضح البيئات لمن وفقه الله لتدبرها وقد اشار اليه بقوله
 (اِنِّي اُشْهِدُ اللَّهَ وَاَشْهَدُوْا اَنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تُشْرِكُوْنَ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُوْنِي جَمِيْعًا ثُمَّ
 لَا تَنْظُرُوْنَ اِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ اِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا
 اِنَّ رَبِّيَّ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ) فهذا من اعظم الآيات ان رجلا واحدا يخاطب امة
 عظيمة بهذا الخطاب غير جزع ولا فزع ولا خوار بل هو واثق بما قاله جازم
 به فاشهد الله او لا على براءته من دينهم وما هم عليه ايشاد واثق به معتمد عليه معلم
 لقومه انه وليه وناصره وغير مسلطهم عليه ثم اشهدم اشهاد مجاهر لهم بالمخالفة انه
 برىء من دينهم وآلهتهم التي يوالون عليها ويعادون عليها ويبدلون دماءهم واموالهم
 في نصرتهم لها ثم اكد ذلك عليهم بالاستهانة لهم واحتقارهم وازدراءهم و^(١) لو
 يجتمعون كلهم على كيدته وشنى غيظهم منه ثم يعاجلونه ولا يمهلونه لم يقدروا على
 ذلك الا ما كتبه الله عليه ثم قرر دعوتهم احسن تقرير وبين ان ربه تعالى
 وربهم الذي نواصيهم بيده هو وليه ووكيله القائم بنصره وتأيدته وانه على
 صراط مستقيم فلا يخذل من توكل عليه واقرب به ولا يشمت به اعداءه

فأي آية وبرهان احسن من آيات الانبياء وبراھينهم وأدلتهم وهي شهادة من الله سبحانه بينها لعباده غاية البيان . ومن اسمائه تعالى المؤمن وهو في احد التفسيرين المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم فانه لا بد ان يرى العباد من الآيات الاقضية والنفسية ما يبين لهم ان الوحي الذي بلغه رسله حق . قال تعالى (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) اي القرآن فانه المتقدم في قوله (قُلْ أَرَأَيْتُمْ أَن كَان مِن عِنْدِ اللَّهِ) ثم قال (أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) فشهد سبحانه لرسوله بقوله ان ما جاء به حق ووعد انه يرى العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك ايضا ثم ذكر ما هو اعظم من ذلك كله واجل وهو شهادته سبحانه بانه على كل شيء شهيد فان من اسمائه الشهيد الذي لا يغيب عنه شيء ولا يعزب عنه بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له عليم بتفاصيله وهذا استدلال باسمائه وصفاته والاول استدلال بقوله وكلماته واستدلال بالآيات الاقضية والنفسية استدلال بافعاله ومخلوقاته (فان قلت) كيف يستدل باسمائه وصفاته فان الاستدلال بذلك لا يعهد في الاصطلاح (فالجواب) ان الله تعالى قد اودع في الفطرة التي لم تنتجس بالجحود والتعطيل ولا بالتشبيه والتمثيل انه سبحانه الكامل في اسمائه وصفاته وانه الموصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسله وما خفي عن الخلق من كماله اعظم واعظم مما عرفوه منه ومن كماله المقدس شهادته على كل شيء واطلاعه عليه بحيث لا يغيب عنه ذرة في السموات ولا في الارض باطنا وظاهرا ومن هذا شأنه كيف يليق بالعباد ان يشركوا به وان يعبدوا غيره ويجعلوا معه إلهآ آخر وكيف يليق بكاله ان يقر من يكذب عليه اعظم الكذب ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه ثم ينصره على ذلك ويؤيده ويعلي شأنه ويوجب دعوته

ويهلك عدوه ويظهر على دينه من الآيات والبراهين ما يعجز عن مثله قوى
البشر وهو مع ذلك كاذب عليه مفتر . ومعلوم ان شهادته سبحانه على كل
شيء وقدرته وحكمته وعزته وكماله المقدس يابي ذلك ومن جوز ذلك فهو
من ابعد الناس عن معرفته والقرآن مملوء من هذه الطريق وهي طريق الخواص
يستدلون بالله على افعاله وما يليق به ان يفعله ولا يفعله قال تعالى (وَكُوِّنَ لَكُم
عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقْوَابِ لِأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ
أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) . وسيأتي لذلك زيادة بيان ان شاء الله . ويستدل ايضا
باسمائه وصفاته على وحدانيته وعلى بطلان الشرك كما في قوله تعالى (هُوَ اللَّهُ
الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ
سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) واضعاف ذلك في القرآن وهذه الطريق قليل
سالكها لا يهتدي اليها الا الخواص وطريقة الجمهور الاستدلال بالآيات
الشاهدة لانها اسهل تناولا واوسع والله سبحانه يفضل بعض خلقه على بعض
فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه مالم يجتمع في غيره فانه الدليل والمدلول عليه
والشاهد والمشهود له قال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ
أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)
الآيات . واذا عرف ان توحيد الالهية هو التوحيد الذي ارسلت به الرسل
وانزلت به الكتب كما تقدمت اليه الاشارة . فلا يلتفت الى قول من قسم
التوحيد الى ثلاثة انواع وجعل هذا النوع توحيد العامة . والنوع الثاني توحيد
الخاصة وهو الذي يثبت بالحقائق . والنوع الثالث ، توحيد قائم بالقدم وهو
توحيد خاصة الخاصة فان اكل الناس توحيداً الانبياء صلوات الله عليهم

والمرسلون منهم اكل في ذلك . وأولوا العزم من الرسل اكلهم توحيداً
وهم نوح و ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم اجمعين واكلهم
توحيداً الخليلان محمد و ابراهيم صلوات الله عليهما وسلامه فانها قاما من التوحيد
بالم يقم به غيرهما علماً ومعرفة وحالاً ودعوة للخلق وجهاداً فلا توحيد اكل
من الذي قامت به الرسل ودعوا اليه وجاهدوا الأم عليه . ولهذا امر سبحانه
نبيه ان يقتدي بهم فيه كما قال تعالى بعد ذكر مناظرة ابراهيم قومه في بطلان
الشرك وصحة التوحيد و ذكر الانبياء من ذريته (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ
اَفْتَدِيَهُ) فلا اكل من توحيد من امر رسول الله ﷺ ان يقتدي بهم وكان
ﷺ يعلم اصحابه اذا اصبحوا ان يقولوا : اصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة
الاخلاص ودين نبينا محمد وملة ابينا ابراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين
فأمة ابراهيم التوحيد ودين محمد ﷺ ما جاء به من عند الله قولاً وعملاً واعتقاداً
وكلمة الاخلاص هي شهادة أن لا إله إلا الله وفطرة الاسلام هي ما فطر عليه
عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له والاستسلام له عبودية وذلاً وانقياداً
وإثابة فهذا توحيد خاصة الخاصة الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء
قال تعالى (وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ اِبْرَاهِيمَ اِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي
الدُّنْيَا وَاِنَّهُ فِي الْاٰخِرَةِ لَمِنَ الصّٰلِحِيْنَ اِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ اَسْلِمْ قَالَ اَسَلْتُ رَبِّي
الْعَالَمِيْنَ) وكل من له حس سليم وعقل يميزه لا يحتاج في الاستدلال الى
اوضاع اهل الكلام والجدل واصطلاحهم وطرقهم البتة بل ربما يقع بسببها
في شكوك وشبه يحصل له بها الحيرة بالضلال والريبة فان التوحيد إنما ينفع
إذا سلم قلب صاحبه من ذلك وهذا هو القلب السليم الذي لا يصاح الامن أنى

الله به ولاشك أن النوع الثاني والثالث من التوحيد الذي ادعوا أنه توحيد
الخاصة وخاصة الخاصة ينتهي أي إلى الفناء الذي يشمر إليه غالب الصوفية وهو
درب خطر يفضي إلى الاتحاد . إلى ما نشد شيخ الإسلام أبو إسماعيل رحمه
الله تعالى حيث يقول شعرا

ما وحد الواحد من واحد * إذ كل من وحده جاهد
توحيد من عن نعته ينطق * عاربه أبطلها الواحد
توحيد إياه توحيد * ونعت من ينعت لاجد

وإن كان قائله رحمه الله لم يرد به الاتحاد لكن ذكر لفظاً مجازاً محتملاً جذبته
به الاتحادي إليه واقسم بالله جهد إيمانه أنه معه وعليه لو سلك الالفاظ الشرعية
التي لا أجمال فيها كان أحق مع أن المعنى الذي حام حوله لو كان مطلوباً منا
لنبيه الشارع عليه ودعا الناس إليه وبينه فإن على الرسول البلاغ المبين فإين قال
الرسول هذا توحيد العامة وهذا توحيد الخاصة وهذا توحيد خاصة الخاصة
أوما يقرب من هذا المعنى أو أشار إلى هذه النقول والعقول خطرة فهذا كلام الله
المنزل على رسوله ﷺ وهذه سنة الرسول وهذا كلام خير القرون بعد الرسول
وسادات العارفين من الأئمة هل جاء ذكر الفناء وهذا التقسيم عن أحد منهم
وإنما حصل هذا من زيادة الغلو في الدين المشبه لغلو الخوارج بل لغلو النصاري
في دينهم . وقد ذم الله تعالى الغلو في الدين ونهى عنه فقال (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ
لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا
كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) وقال ﷺ « لا تشددوا فيشدد الله عليكم فإن
من كان قبلكم شددوا فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات

رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم « رواه ابو داود قوله ﴿ ولا شيء مثله ﴾
اتفق اهل السنة على ان الله ليس كمثل شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في
افعاله ولكن لفظ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظا مجملا يراد به المعنى
الصحيح وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل من ان خصائص الرب تعالى
لا يوصف بها شيء من المخلوقات ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من
صفاته ليس كمثل شيء رد على المثلة المشبهة وهو السميع البصير رد على النفاة
المعطلة فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق فهو المشبه المبطل المذموم
ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق فهو نظير النصارى في كفرهم
ويراد به انه لا يثبت لله شيء من الصفات فلا يقال له قدرة ولا علم ولا
حياة لان العبد موصوف بهذه الصفات ولازم هذا القول انه لا يقال له حي
عليم ، قدير ، لان العبد يسمى بهذه الاسماء وكذلك كلامه وسمعه وبصره
وارادته وغير ذلك وهم يوافقون اهل السنة على انه موجود عليم ، قدير حي
والمخلوق يقال له موجود حي عليم قدير ولا يقال هذا تشبيه يجب نفيه وهذا
مما دل عليه الكتاب والسنة وصرح العقل ولا يخالف فيه عاقل فان الله مسمى
نفسه باسماء وسمى بعض عبادها وكذلك سمي صفاته باسماء وسمى ببعضها صفات
خلقه وليس المسمى كالمسمى فسمى نفسه حيا عليما قديرا رؤوفا رحيمًا عزيزا حكيمًا
سميما بصيرا ملكا مؤمنا جبارا متكبرا وقد سمي بعض عبادها بهذه الاسماء فقال
(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ - وَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ - حَكِيمٍ . يَا مُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَحِيمٌ -
جَعَلْنَاهُ سَمِيمًا بَصِيرًا * قَالَتْ أَمْرَأَةٌ الْعَزِيزِ - وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ - أَفَمَنْ كَانَ
مُؤْمِنًا - كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) ومعلوم انه لا يماثل

الحلي والحلي ولا العليم العليم ، ولا العزيز العزيز وكذلك سائر الاسماء وقال تعالى
(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ . أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ . وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا
بِعِلْمِهِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ . أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ
مِنْهُمْ قُوَّةً) وعن جابر رضي الله عنه قال « كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة
في الامور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول اذا هم احدكم بالامر فليركع
ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل اللهم اني استخيرك بعلمك واستقدرك
بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فانك تعلم ولا اعلم وتقدر ولا اقدر وانت
علام الغيوب اللهم ان كنت تعلم ان هذا الامر خير لي في ديني ومعاشي
وعاقبة امري او قال عاجل امري واجله فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه
وان كنت تعلم ان هذا الامر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة امري او قال
عاجل امري واجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني
به قال ويسمي حاجته » رواه البخاري وفي حديث عمار بن ياسر الذي رواه
النسائي وغيره عن النبي ﷺ انه كان يدعو بهذا الدعاء « اللهم بعلمك الغيب
وقدرتك على الخلق احيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني اذا كانت الوفاة
خيرا لي اللهم اني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في
الغضب والرضا وأسألك القصد في الغنا والفقر وأسألك نعيما لا ينفد وقرة عين
لا تنقطع وأسألك الرضا بعد القضا وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك لذة
النظر الى وجهك الكريم والشوق الى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة
مضلة اللهم زيننا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين » فقد سمي الله ورسوله
صفات الله علما وقدرة وقوة وقال تعالى (ثُمَّ جَعَلْ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً . وَإِنَّهُ لَذُو

عِلْمٍ لِمَا عَلَّمَنَاهُ) ومعلوم انه ليس العلم كالعلم ولا القوة كالقوة ونظائر هذا كثيرة
 وهذا لازم لجميع العقلاء فان من نفي صفة من صفاته التي وصف الله بها نفسه كالرضا
 والغضب والحب والبغض ونحو ذلك وزعم ان ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم
 (فيل له) فانت تثبت له الارادة والكلام والسمع والبصر مع ان ما تثبته له
 ليس مثل صفات المخلوقين فقل فيما نفيته واثبته الله ورسوله مثل قولك فيما
 اثبته إذ لا فرق بينهما فان قال : أنا لا أثبت شيئاً من الصفات قيل له : فانت
 تثبت له الأسماء الحسنى مثل حي ، عليم ، قدير ، والعبد يسمى بهذه الاسماء
 وليس ما يثبت للرب من هذه الاسماء مماثلاً لما يثبت للعبد فقل في صفاته
 نظير قولك في مسمى اسمائه (فان قال) وانا لا اثبت له الاسماء الحسنى بل
 أقول هي مجاز وهي اسماء لبعض مبتدعائه كقول غلاة الباطنية والمتفلسفة
 (قيل له) فلا بد ان تعتقد انه موجود ^(١) حق قائم بنفسه والجسم موجود
 قائم بنفسه وليس هو مماثلاً له (فان قال) انا لا اثبت شيئاً بل انكر وجود
 الواجب (قيل له) معلوم بصرح العقل ان الموجود إما واجب بنفسه
 واما غير واجب بنفسه واما قديم أزلي واما حادث كائن بعد ان لم يكن واما
 مخلوق مفتقر الى خالق واما غير مخلوق ولا مفتقر الى خالق واما فقير الى ما
 سواه واما غني عما سواه وغير الواجب بنفسه لا يكون الا بالواجب بنفسه
 والحادث لا يكون الا بقديم والمخلوق لا يكون الا بخالق والفقير لا يكون
 الا بغني عنه فقد لزم على تقدير التقيضين وجود موجود واجب بنفسه قديم
 أزلي خالق غني عما سواه وما سواه بخلاف ذلك . وقد علم بالحس والضرورة

وجود موجود حادث كائن بعد ان لم يكن والحادث لا يكون واجبا بنفسه
ولا قديما أزليا ولا خالفاً لمساواه ولا غنياً عما سواه ، فثبت بالضرورة وجود
موجودين احدهما واجب والاخر ممكن ، احدهما قديم والاخر حادث
احدهما غني والاخر فقير ، احدهما خالق والاخر مخلوق وهما متفقان في كون
كل منهما شيئا موجودا ثابتا . ومن المعلوم ايضا ان احدهما ليس مماثلا للاخر
في حقيقته اذ لو كان كذلك لثاملا فيما يجب ويجوز ويمتنع واحدهما
يجب قدمه وهو موجود بنفسه والاخر لا يجب قدمه ولا هو موجود بنفسه
واحدهما خالق والاخر ليس بخالق واحدهما غني عما سواه والاخر فقير
فلو تماثلا للزم ان يكون كل منهما واجب القدم ليس بواجب القدم موجودا
بنفسه غير موجود بنفسه خالقا ليس بخالق غنيا غير غني فيلزم اجتماع الضدين
على تقدير تماثلها فعلم ان تماثلها منتف بصريح العقل كما هو منتف بنصوص
الشرع فعلم بهذه الأدلة اتفاقهما من وجه واختلافهما من وجه فمن نفي ما اتفقا
فيه كان معطلا قائلا للباطل ومن جعلها متماثلين كان مشبها قائلا للباطل والله
أعلم . وذلك لانها وان اتفقا في مسمى ما اتفقا فيه فالله تعالى مختص بوجوده
وعلمه وقدرته وسائر صفاته والعبد لا يشركه في شيء من ذلك والعبد ايضا
مختص بوجوده وعلمه وقدرته والله تعالى منزه عن مشاركة العبد في خصائصه
واذا اتفقا في مسمى الوجود والعلم والقدرة فهذا المشترك مطلق كلي يوجد في
الاذهان لا في الاعيان والموجود في الاعيان مختص لا اشتراك فيه وهذا
موضع اضطرب فيه كثير من النظائر حيث توهموا ان الاتفاق في مسمى
هذه الاشياء يوجب ان يكون الوجود الذي للرب كالوجود الذي للعبد

وطائفة ظنت ان لفظ الوجود يقال بالاشترك اللفظي وكابروا عقولهم فان
هذه الاسماء عامة قابلة للتقسيم كما يقال الوجود ينقسم الى واجب وممكن
وقديم وحادث ومورد التقسيم مشترك بين الاقسام واللفظ المشترك كلفظ
المشترى الواقع على المبتاع والكوكب لا ينقسم معناه ولكن يقال لفظ
المشترى يقال على كذا أو على كذا . ومثال هذه المقالات التي قد بسط الكلام
عليها في موضعه واصل الخطأ والغلط توهمهم ان هذه الاسماء العامة الكلية
يكون مسماها المطلق الكلي هو بعينه ثابتا في هذا المعين وهذا المعين وليس
كذلك فان ما يوجد في الخارج لا يوجد مطلقا كليا بل لا يوجد الامعينا مختصا
وهذه الاسماء اذا سمي الله بها كان مسماها مختصا به فاذا سمي بها العبد كان مسماها
مختصا به فوجود الله وحياته لا يشاركه فيها غيره بل وجود هذا الوجود المعين
لا يشاركه فيه غيره فكيف بوجود الخالق الا ترى انك تقول هذا هو ذلك
فالمشار اليه واحد لكن بوجهين مختلفين وبهذا ومثله يتبين لك ان المشبهة
اخذوا هذا المعنى وزادوا فيه على الحق فضلوا وان المعطلة اخذوا نفي المائلة
بوجه من الوجوه وزادوا فيه على الحق حتى ضلوا . وان كتاب الله دل على
الحق المحض الذي تعقله العقول السليمة الصحيحة وهو الحق المعتدل الذي
لا انحرف فيه فالنفاة احسنوا في تنزيه الخالق سبحانه عن التشبيه بشيء من
خالقه ولكن اساؤا في نفي المعاني الثابتة لله تعالى في نفس الامر . والمشبهة
احسنوا في اثبات الصفات ولكن اساؤا بزيادة التشبيه . واعلم ان المخاطب
لا يفهم المعاني المعبر عنها للفظ الا ان يعرف عينها او ما يناسب عينها ويكون
بينهما قدر مشترك ومشابهة في اصل المعنى والا فلا يمكن تفهيم المخاطبين

بدون هذا قط حتى في اول تعليم معاني الكلام بتعليم معاني الالفاظ المفردة
مثل تربية الصبي الذي يُعلم البيان واللغة ينطق له بلفظ المفرد له ويشار له الى
معناه ان كان مشهودا بالاحساس الظاهر والباطن فيقال له لبن ، خبز ، ام ،
اب ، سماء ، ارض ، شمس ، قمر ، ماء ، ويشار له مع العبارة الى كل مسمى
من هذه المسميات والا لم يفهم معنى اللفظ ومراد الناطق به وليس احد من
بني آدم يستغنى عن التعليم السمعي كيف وآدم ابو البشر اول ما علمه الله تعالى
اصول الادلة السمعية وهي الاسماء كلها وكله وعلمه بخطاب الوحي ما لم يعلمه
بمجرد العقل فدلالة اللفظ على المعنى هي بواسطة دلالاته على ما عناه المتكلم
واراده وارادته وعنايته في قلبه ولا يعرف باللفظ ابتداء ولكن لا يعرف
المعنى بغير اللفظ حتى يعلم اولا ان هذا المعنى المراد هو الذي يراد بذلك اللفظ
ويعنى به فاذا عرف ذلك ثم سمع اللفظ مرة ثانية عرف المعنى المراد بلاشارة اليه
وان كانت الاشارة الى ما يحس بالباطن مثل الجوع والشبع والري والعطش
والحزن والفرح فانه لا يعرف اسم ذلك حتى يجده من نفسه فاذا وجد استنزله
اليه وعرف ان اسمه كذا والاشارة تارة تكون الى جوع نفسه او عطش
نفسه مثل ان يراه انه قد جاع فيقول له جعت انت جائع فيسمع اللفظ ويعلم
ما عينه بالاشارة او ما يجري مجراها من القرائن التي تعين المراد مثل نظر امه
اليه في حال جوعه وادراكه ينظرها او نحوه انها تعني جوعه او يسمعون يعبرون
بذلك عن جوع غيره اذا عرف ذلك فالمخاطب المتكلم اذا اراد بيان معان
فلا يخلو اما ان يكون مما ادر كها المخاطب المستمع باحساسه وشهوده او بمعقوله
واما لا يكون كذلك فان كانت من القسمين الاولين لم تحتج الا الى معرفة

اللغة بان يكون قد عرف معاني الالفاظ المفردة ومعني التركيب فاذا قيل له
بعد ذلك (اَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَ لِسَانًا وَ شَفَتَيْنِ) او قيل له (وَ اَللّهُ اَخْرَجَكُمْ
مِنْ بُطُونِ اُمَّهَاتِكُمْ لَّا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَ جَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَ الْاَبْصَارَ وَ الْاَفْئِدَةَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ونحو ذلك فهم المخاطب بما ادر كه بحسه وان كانت المعاني
التي يراد تعريفه بها ليست مما احسه وشهده بعينه ولا بحيث صار له معقول
كلي يتناولها حتى يفهم به المراد بتلك الالفاظ بل هي مما يدركه بشيء من حواسه
الباطنة والظاهرة ولا بد في تعريفه من طريق القياس والتمثيل والاعتبار بما
بينه وبين معقولات الامور التي شاهدها من التشابه والتناسب وكلما كان
التمثيل اقوى كان البيان احسن والفهم اكمل . فالرسول صلوات الله وسلامه
عليه لما بين لنا امورا لم تكن معروفة قبل ذلك وليس في لغتهم لفظ يدل
عليها بعينها اتى بالفاظ تناسب معانيها تلك المعاني وجعلها اسماء لها فيكون
بينهما قدر مشترك كالصلاة والزكاة والصوم والايمان والكفر وكذلك لما
خبرنا بامور تتعلق بالايمان بالله واليوم الآخر وعم لم يكونوا يعرفونها قبل
ذلك حتى يكون لهم الفاظ تدل عليها بعينها اخذ من اللغة الالفاظ المناسبة
لتلك بما تدل عليه من القدر المشترك بين تلك المعاني الغيبية والمعاني الشهودية
التي كانوا يعرفونها وقرن بذلك من الاشارة ونحوها ما يعلم به حقيقة المراد
كتعليم الصبي كما قال ربيعة بن ابي عبدالرحمن الناس في حجور علماتهم كالصبيان
في حجور آبائهم . واما ما يخبر به الرسول من الامور الغائبة فقد يكون مما
ادر كوا نظره بحسهم وعقلهم كاخبارهم بان الريح اهلكت عادا فان عادا من جنسهم
والريح من جنس ربحهم وان كانت اشد وكذلك غرق فرعون في البحر

وكذا بقية الاخبار عن الامم الماضية . ولهذا كان الاخبار بذلك فيه عبرة لنا
كما قال تعالى (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) وقد يكون الذي يخبر
به الرسول ما لم يدركوا مثله الموافق له في الحقيق من كل وجه لكن في مفرداته
ما يشبه مفرداتهم من بعض الوجوه كما اذا اخبرهم عن الامور الغيبية المتعلقة
بالله واليوم الآخر فلا بد ان يعلموا معنى مشتركا وتشبيها بين مفردات تلك
الالفاظ وبين مفردات الالفاظ ما علموه في الدنيا بحسبهم وعقلهم فاذا كان
ذلك المعنى الذي في الدنيا لم يشهدوه بعد ويريدان يجعلهم يشهدونه مشاهدة كاملة
ليفهموا به القدر المشترك بينه وبين المعنى الغائب اشهدهم اياه و اشار لهم اليه
وفعل قولاً يكون حكاية له وشبها به يعلم المستمعون ان معرفتهم بالحقائق
المشهوره هي الطريق التي يعرفون بها الامور الغائبة فينبغي ان يعرف هذه
الدرجات . (اولها) ادراك الانسان المعاني الحسية المشاهدة . (وثانيها) عقله لعنائها
الكلية . (وثالثها) تعريف الالفاظ الدالة على تلك المعاني الحسية والعقلية . فهذه
المراتب الثلاث لا بد منها في كل خطاب فاذا اخبرنا عن الامور الغائبة فلا
بد من تعريفها المعاني المشتركة بينها وبين الحقائق المشهودة والاشتباه الذي
بينهما وذلك بتعريفنا الامور المشهودة ثم ان كانت مثلها لم تحتج الى ذكر
الفارق كما تقدم في قصص الامم وان لم يكن مثلها بين ذلك بذكر الفارق بأن يقال
ليس ذلك مثل هذا ونحو ذلك واذا تقررا انتفاء المماثلة كانت الاضافة وحدها
كافية في بيان الفارق وانتفاء التساوي لا يمنع منه وجود القدر المشترك الذي
هو مدلول اللفظ المشترك ما امكن ذلك قط . قوله ﴿ ولا شيء يعجزه ﴾
لكمال قدرته قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

مُقْتَدِرًا - وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا
قَدِيرًا - وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)
لا يؤده اي لا يكرهه ولا يثقله ولا يعجزه فهذا النفي لثبوت كمال ضده وكذلك
كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة انما هو لكمال ثبوت
ضده كقوله تعالى (وَلَا يُظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) لكمال عدله (لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) لكمال علمه وقوله تعالى (وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُثُوبٍ) لكمال
قدرته (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) لكمال حياته وقويته (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)
لكمال جلالة وعظمته وكبريائه والا فالنفي الصرف لامدح فيه الا ترى ان
قول الشاعر :

قييلة لا يفترون بذمة * ولا يظلمون الناس حبة خردل
لما اقترن بنفي العذر والظلم عنهم ما ذكره قبل هذا البيت وبعده وتصغيرهم
بقوله قبيلة علم ان المراد عجزهم وضعفهم لا كمال قدرتهم وقول الآخر
لكن قومي وان كانوا ذوي عدد * ليسوا من الشر في شيء وان هانا
لما اقترن بنفي الشر عنهم ما يدل على ذمهم علم ان المراد عجزهم وضعفهم
ايضا، ولهذا يأتي الاثبات للصفات في كتاب الله مفصلا والنفي مجملا عكس
طريقة اهل الكلام المذموم فانهم يأتون بالنفي المفصل والاثبات المجمل يقولون
ليس يجسم ولا شبيح ولا جثة ولا صورة ولا دم ولا لحم ولا شخص ولا جوهر
ولا عرض ولا لون ولا رائحة ولا طعم ولا يخبث ولا يذئ حرارة ولا برودة ولا
رطوبة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق ولا
يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض وليس بذئ ابعاض واجزاء وجوارح واعضاء

وليس بذى جهات ولا بذى يمين ولا شمال وامام وخلف وفوق وتحت ولا
يحيط به مكان ولا يجري عليه زمان ولا يجوز عليه الماسة ولا العزلة ولا
الحلول في الاماكن ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدودهم
ولا يوصف بانه متناه ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات وليس بمحدود
ولا والد ولا مولود ولا تحيط به الاقدار ولا تحجبه الأستار الخ ما نقله ابو
الحسن الاشعري رحمه الله عن المعتزلة وفي هذه الجملة حق وباطل ويظهر ذلك
لمن يعرف الكتاب والسنة وهذا النفي المحدد مع كونه لامدح فيه اساءة
ادب فانك لو قلت للسلطان انت لست بزبال ولا كساح ولا حجام ولا حائك
لا أدبك على هذا الوصف وان كنت صادقا وانما تكون ما دحا اذا اجملت
النفي فقلت انت لست مثل احد من رعيتك انت اعلى منهم واشرف واجل
فاذا اجملت في النفي اجملت في الادب. والتعبير عن الحق بالالفاظ الشرعية النبوية
الالهية هو سبيل اهل السنة والجماعة والمعطلة يعرضون عما قاله الشارع من الاسماء
والصفات ولا يتدبرون معانيها ويجعلون ما ابتدعوه من المعاني والالفاظ هو
الحكم الذي يجب اعتقاده واعتماده. واما اهل الحق والسنة والايمان فيجعلون
ما قاله الله ورسوله هو الحق الذي يجب اعتقاده واعتماده والذي قاله هؤلاء اما
ان يعرضوا عنه اعراضا جمليا او يبينوا حاله تفصيلا ويحكم عليه بالكتاب
والسنة لا يحكم به على الكتاب والسنة. والمقصود ان غالب عقائدكم السلوب
ليس بكذا واما الاثبات فهو قليل وهي انه عالم قادر حي واكثر النفي المذكور
ليس متلقى عن الكتاب والسنة ولا عن الطرق العقلية التي سلكها غيرهم من
مثبتة الصفات فان الله تعالى قال (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

ففي هذا الاثبات ما يقرر معنى النفي ففهم ان المراد انفراده سبحانه بصفات الكمال فهو سبحانه وتعالى موصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسله ليس كمثل شيء في صفاته ولا في اسمائه ولا في افعاله مما اخبرنا به من صفاته وله صفات لم يطلع عليها احد من خلقه ، كما قال رسوله الصادق عليه السلام في دعاء الكرب « اللهم اني اسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك او انزلته في كتابك او علمته احدا من خلقك او استاثرت به في علم الغيب عندك ان تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي . وسيأتي التنبيه على فساد طريقهم في الصفات ان شاء الله تعالى وليس قول الشيخ رحمه الله ولا شيء يعجزه من النفي المذموم فان الله تعالى قال (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا) فنبه سبحانه وتعالى في آخر الآية على دليل انتفاء العجز وهو كمال العلم والقدرة فان العجز إنما ينشأ إما من الضعف عن القيام بما يريد الفاعل وإما من عدم علمه به والله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة وهو على كل شيء قدير وقد علم ببداية (١) العقول والفطر كمال قدرته وعلمه فاتمى العجز لما بينه وبين القدرة من التضاد ولأن العاجز لا يصلح أن يكون إلهاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً قوله ﴿وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ﴾ هذه كلمة التوحيد التي دعت اليها الرسل كلهم كما تقدم ذكره واثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفي والاثبات المقتضي للحصر . فان الاثبات المجرد قد يتطرق اليه الاحتمال . ولهذا والله اعلم لما قال تعالى (وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ) قال بعده (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) فانه قد يخطر

ببإل أحد خاطر شيطاني هب ان الهنا واحد فلغيرنا إله غيره فقال تعالى
(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

وقد اعترض صاحب المنتخب على النحويين في تقدير الخبر في لا إله
إلا هو فقالوا تقديره لا إله في الوجود إلا الله فقال يكون ذلك نفيًا لوجود
الآله . ومعلوم أن نفي الماهية أقوى في التوحيد الصرف من نفي الوجود
فكان اجراء الكلام على ظاهره والاعراض عن هذا الاضمار أولى واجاب
ابو عبد الله محمد بن ابي الفضل المرسي في رأي^(١) الظمان فقال هذا كلام من لا يعرف
لسان العرب فان إله في موضع المبتدأ على قول سيبويه وعند غيره اسم لا .
وعلى التقديرين فلا بد من خبر للمبتدأ والا فما قاله من الاستغناء عن الاضمار
فاسد . وأما قوله اذا لم يضر يكون نفيًا للماهية فليس بشيء لأن نفي الماهية
هو نفي الوجود لا تصور الماهية إلا مع الوجود ولا فرق بين لا ماهية لا
وجود وهذا مذهب أهل السنة خلافًا للمعتزلة فانهم يثبتون ماهية عارية عن
الوجود والا الله مرفوع بدلا من إله لا يكون خبرا للا ولا للمبتدأ وذكر
الدليل على ذلك وليس المراد هنا ذكر الاعراب بل المراد دفع الاشكال الوارد
على النحاة في ذلك وبيان انه من جهة المعتزلة وهو فاسد فان قولهم في الوجود ليس
تقييدا لان المراد ليس بشيء قال تعالى (وَقَدْ خَلَقْتِكُمْ مِنْ قَبْلُ وَكَمْ تَكُ شَيْئًا)
ولا يقال ليس قوله غيره كقوله الا الله لان غير معرب باعراب الاسم الواقع بعد الا
فيكون التقدير للخبر فيهما واحدا فلهذا ذكرت هذا الاشكال وجوابه هنا
قوله ﴿ قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء ﴾ قال الله تعالى (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ)

(١) لعله رى الظمان

« قال ﷺ اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء »
فقول الشيخ قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء هو معنى اسمه الأول والآخِر
والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر في الفطرة فان الموجودات لا بد ان تنتهي
الى واجب الوجود لذاته قطعاً للتسلسل فانت تشهد حدوث الحيوان والنبات
والمعادن وحوادث الجو كالسحاب والمطر وغير ذلك وهذه الحوادث وغيرها
ليس ممتنعة فان الممتنع لا يوجد ولا واجبة الوجود بنفسها فان واجب الوجود
بنفسه لا يقبل العدم وهذه كانت معدومة ثم وجدت فعدمها ينفي وجودها
ووجودها ينفي امتناعها وما كان قابلاً للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه
كما قال تعالى (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ أَنْفَالِقُونَ) يقول سبحانه أحدثوا
من غير محدث أم هم أحدثوا أنفسهم . ومعلوم ان الشيء المحدث لا يوجد
نفسه فالممكن الذي ليس له من نفسه وجود ولا عدم لا يكون موجودا بنفسه
بل ان حصل ما يوجد به وإلا كان معدوما وكلما أمكن وجوده بدلا عن عدمه
وعدمه بدلا عن وجوده فليس له من نفسه وجود ولا عدم لازم . وإذا تأمل
الفاضل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية وجد
الصواب منها ما يعود الى بعض ما ذكر في القرآن من الطرق العقلية
بأوضح عبارة وأجزها وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق ما لا يوجد
عندهم مثله قال تعالى (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا)
ولا تقول لا ينفع الاستدلال بالمقدمات الخفية والادلة النظرية فان
اخفاء والظهور من الامور النسبية فرما ظهر لبعض الناس ما خفي على غيره
ويظهر للانسان الواحد في حال ماخفي عليه في حال اخرى وايضا فالمقدمات

وان كانت خفية فقد يسلمها بعض الناس وينازع فيما هو اجل منها وقد تفرح
 النفس بما علمته بالبحث والنظر مالا تفرح بما علمته من الامور الظاهرة ولا
 شك ان العلم باثبات الصانع ووجوب وجوده امر ضروري فطري وان كان
 يحصل لبعض الناس من الشبه ما يخرجهم الى الطرق النظرية . وقد ادخل
 المتكلمون في اسماء الله تعالى القديم وليس هو من اسماء الله تعالى الحسنى فان
 القديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن هو المتقدم على غيره فيقال هذا
 قديم للعتيق وهذا حديث للجديد ولم يستعمل هذا الاسم الا في المتقدم على
 غيره لافعاله يسبقه عدم كما قال تعالى (حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) والرجون
 القديم الذي يبقى الى حين وجود العرجون الثاني فاذا وجد الحديث قيل
 للأول قديم قال تعالى (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَيَسْمِعُونَ هَذَا مِنْكَ قَدِيمًا) اي
 متقدم في الزمان وقال تعالى (أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَاٰبَاؤُكُمْ
 الْأَقْدَمُونَ) فالقديم مبالغة في القديم ومنه القول القديم والجديد للشافعي
 رحمه الله تعالى وقال تعالى (يَتَدُمُّ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ) اي يتقدمهم
 ويستعمل منه الفعل لازما ومتعديا كما يقال اخذني ما قدم وما حدث ويقال
 هذا قدم هذا وهو يقدمه . ومنه سميت القدم قدما لانها تقدم بقية بدن
 الانسان . واما ادخال القديم في اسماء الله تعالى فهو مشهور عند اكثر اهل
 الكلام وقد انكر ذلك كثير من السلف والخلف منهم ابن حزم . ولا ريب
 انه اذا كان مستعملا في نفس التقدم فان ما يقدم على الحوادث كلها فهو أحق
 بالتقدم من غيره لكن اسماء الله تعالى هي الاسماء الحسنى التي تدل على خصوص
 ما يمدح به والتقدم في اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها فلا يكون

من الاسماء الحسنى . وجاء الشرع باسمه الأول وهو احسن من القديم لانه
يشعر بأن ما بعده آكل اليه وتابع له بخلاف القديم والله تعالى له الاسماء الحسنى
قوله ﴿ لا يفنى ولا يبئد ﴾ ش . اقرار بدوام بقائه سبحانه وتعالى قال عز من قائل
(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) والفناء واليبئد
متقاربان في المعنى والجمع بينهما في الذكر للتأكيد وهو ايضا مقرر ومؤكد
لقوله دائماً بلا انتهاء قوله ﴿ ولا يكون الا ما يريد ﴾ هذا رد لقول القدرية
والمعتزلة فانهم زعموا ان الله اراد الايمان من الناس كلهم والكافر اراد الكفر
وقولهم فاسد مردود لمخالفته الكتاب والسنة والمعقول الصحيح وهي مسألة القدر
المشهوره وسيأتي لها زيادة بيان ان شاء الله تعالى وسموا قدرية لانكارهم القدر
وكذلك تسمى الجبرية المحتجون بالقدر قدرية ايضا والتسمية على الطائفة الأولى
اغلب . واما اهل السنة فيقولون ان الله وان كان يريد المعاصي قدرا فهو لا يجبرها
ولا يرضاها ولا يأمر بها بل يبغضها ويسخطها ويكرهها وينهى عنها وهذا قول
السلف قاطبة فيقولون ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . ولهذا اتفق الفقهاء
على ان الخالف لو قال والله لا فعلن كذا ان شاء الله لم يحنث اذا لم يفعله اذا كان
واجبا او مستحبا ولو قال ان احب الله حنث اذا كان واجبا او مستحبا والمحققون
من اهل السنة يقولون الارادة في كتاب الله نوعان ارادة قدرية كونية خلقية
وارادة دينية امرية شرعية فالارادة الشرعية هي المتضمنة للمحبة والرضا والكونية
هي المشيئة الشاملة لجميع الحوادث وهذا كقوله تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ
لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ)
وقوله تعالى عن نوح عليه السلام (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ)

إِنَّ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ (وقوله تعالى) وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (واما الارادة
 الدينية الشرعية الامرية فكقوله تعالى) يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ
 الْعُسْرَ (وقوله تعالى) يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
 وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ - وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ
 يَتَّبِعُونَ الشَّهْوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا - يريد الله أن يخفف عنكم وخلق
 الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا (وقوله تعالى) مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ
 يُرِيدُ لِيُظَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ (وقوله تعالى) إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ
 عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (فهذه الارادة هي المذكورة في
 مثل قول الناس لمن يفعل القبائح هذا يفعل ما لا يريد الله اي لا يحبه ولا
 يرضاه ولا يأمر به . واما الارادة الكونية فهي الارادة المذكورة في قول
 المسلمين ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن والفرق ثابت بين ارادة المريد ان
 يفعل وبين ارادته من غيره ان يفعل فاذا اراد الفاعل ان يفعل فعلا فهذه
 الارادة معلقة بفعله واذا اراد من غيره ان يفعل فعلا فهذه الارادة
 لفعل الغير ، وكلا النوعين معقول للناس والامر يستلزم الارادة الثانية
 دون الاولى فالله تعالى اذا امر العباد بأمر فقد يريد اعانة المأمور على ما امر به وقد
 لا يريد ذلك وان كان مريدا منه فعلة . وتحقيق هذا مما بين فصل النزاع في
 امر الله تعالى هل هو مستلزم لارادته ام لا فهو سبحانه امر الخلق على السن
 رسله بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم ولكن منهم من اراد ان يخلق فعلة فاراد
 سبحانه ان يخلق ذلك الفعل ويجعله فاعلا له ومنهم من لم يرد ان يخلق فعلة
 جهة خلقه سبحانه لافعال العباد وغيرها من المخلوقات غير جهة امره للعبد
 على وجه البيان لما هو مصلحة للعبد او مفسدة وهو سبحانه اذا امر فرعون

وابا لطلب وغيرهما بالايمان كان قد بين لهم ما ينفعهم ويصاحبهم اذا فعلوه ولا يلزم اذا امرهم ان يعينهم بل قد يكون في خلقه لهم ذلك الفعل واعانتهم عليه وجه مفسدة من حيث هو فعل له فانه يخلق ما يخلق لحكمة ولا يلزم اذا كان الفعل للمأمور به مصلحة للمأمور اذا فعله ان يكون مصلحة للامر اذا فعله هو او جعل المأمور فاعلا له فأين جهة الخلق من جهة الامر فالواحد من الناس بأمر غيره وينهاه مريدا النصيحة ومبيننا لما ينفعه وان كان مع ذلك لا يريد ان يعينه على ذلك الفعل اذ ليس كل ما كان مصالحتي في ان أمر به غيري وانصحه يكون مصالحتي في ان اعونه انا عليه بل قد يكون مصالحتي ارادة ما يضاده فجهة امره لغيره نصحا غير جهة فعله لنفسه واذا امكن الفرق في حق المخلوقين فهو في حق الله اولى بالامكان . والقدرية تضرب مثلا بمن امر غيره بأمره فانه لا بد ان يفعل ما يكون للمأمور اقرب الى فعله كالبشر والطلاقة وتميئة المساند والمقاعد ونحو ذلك فيقال لهم هذا يكون على وجهين (احدهما) ان يكون مصلحة الامر تعود الى الامر كأمر الملك جنده بما يؤيد ملكه وامر السيد عبده بما يصلح ملكه وامر الانسان شركاه بما يصلح الامر المشترك بينهما ونحو ذلك (الثاني) ان يكون الامر يرى الاعانة للمأمور مصلحة له كالامر بالمعروف واذا اعان المأمور على البر والتقوى فانه قد علم ان الله يشبهه على اعانتته على الطاعة وانه في عون العبد ما كان العبد في عون اخيه فأما اذا قدر ان الامر انما امر المأمور لمصلحة المأمور لا نفع يعود على الامر من فعل المأمور كالنصح المشير وقدر اى انه اذا اعانه لم يكن ذلك مصلحة للامر وان في حصول مصلحة المأمور مضرّة على الامر مثل الذي جاء من اقصى المدينة

يسمى وقال لموسى . (إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُتْرَوْنَ بِكَ لِتَقُولُكَ فَأَخْرَجَ إِيَّكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)
 فهذا مصاحته في ان يأمر موسى عليه السلام بالخروج لاني ان يعينه على ذلك اذ لو
 اعانه لضره قومه ومثل هذا كثير . واذا قيل ان الله امر العباد بما يصلحهم لم يلزم من
 ذلك ان يعينهم على ما امرهم به لاسيما وعند القدرة لا يقدر ان يعين احداً على ما به
 يصير فاعلاو إذا عللت افعاله بالحكمة فهي ثابتة في نفس الامر وان كنا نحن لا نعلمها
 فلا يلزم اذا كان في نفس الامر له حكمة في الامر ان يكون في الاعانة على فعل
 المأمور به حكمة بل قد تكون الحكمة تقتضي ان لا يعينه على ذلك فانه اذا امكن
 في المخلوق ان يكون مقتضى الحكمة والمصاحة ان يأمر لمصلحة الأمور وان
 تكون الحكمة والمصاحة للأمر ان لا يعينه على ذلك فامكان ذلك في حق
 الرب أولى وأحرى . والمقصود انه يمكن في حق المخلوق الحكيم ان يأمر غيره
 بأمر ولا يعينه عليه فان الخالق أولى بامكان ذلك في حقه مع حكمته فمن امره واعانه
 على فعل الأمور كان ذلك المأمور به قد تعلق به خلقه وامره انشاء خلقاً
 ومحبة فكان مراداً بوجه الخلق ومراداً بوجه الأمر ومن لم يعنه على فعل
 المأمور كان ذلك المأمور قد تعلق به امره ولم يتعلق به خلقه لعدم الحكمة
 المقتضية لتعلق الخلق به ولحصول الحكمة المقتضية لخلق ضده وخلق احد
 الضدين يتنافى خلق الضد الآخر فان خلق المرض الذي يحصل به ذل العبد
 لربه ودعاؤه وتوبته وتكفير خطاياها ويرق به قلبه ويذهب عنه الكبرياء والعظمة
 والعدوان يضاد خلق الصحة التي لا تحصل معها هذه المصالح ولذلك
 خلق ظلم الظالم الذي يحصل به للمظلوم من جنس ما يحصل بالمرض يضاد
 خلق عدله الذي لا يحصل به هذه المصالح وان كانت مصلحته هو في أن يعدل

وتفصيل حكمة الله في خلقه وامره يعجز عن معرفتها عقول البشر والقدرية
دخلوا في التعطيل على طريقة فاسدة مثلوا الله فيها بخلقهم ولم يثبتوا حكمة
تعود اليه . قوله ﴿ لا تبلغه الا وهام ولا تدركه الا فهم ﴾ قال الله تعالى (وَلَا
يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) قال في الصحاح توهمت الشيء ظننته وفهمت الشيء علمته
فمراد الشيخ رحمه الله انه لا ينتهي اليه وهم ولا يحيط به علم قيل الوهم ما يرجى
كونه ابي يظن انه على صيغة كذا والفهم هو ما يحصله العقل ويحيط به والله
تعالى لا يعلم كيف هو سبحانه الا هو سبحانه وتعالى وانما تعرفه سبحانه
بصفاته وهو انه احد ، صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد ،
(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ - هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ
الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ
لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى . يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
قوله ﴿ ولا يشبه الا نام ﴾ هذا رد لقول المشبهة الذين يشبهون الخالق بالخلق
سبحانه وتعالى قال عز وجل (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) وليس
المراد في الصفات كما يقول اهل البدع فمن كلام ابي حنيفة رحمه الله في الفقه
الاكبر: لا يشبه شيئاً من خلقه ثم قال بعد ذلك وصفاته كلها خلاف صفات
المخلوقين يعلم لا كعلمنا ويقدر لا كقدرتنا ويرى لا كرؤيتنا انتهى . وقال
نعيم بن حماد: من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر ومن انكر ما وصف الله به
نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه . وقال اسحاق
ابن راهويه : من وصف الله بشيء فشبّه صفاته بصفات احد من خلق الله فهو

كافر بالله العظيم وقال علامة جهم وأصحابه : دعوا على أهل السنة و الجماعة ما
أولعوا به من الكذب انهم مشبهة بل هم المعطلة . و كذلك قال خلق كثير من
أئمة السلف علامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة فانه ما من احد من نفاة شيء
من الاسماء والصفات الا يسمى الميث لها مشبهاً فمن انكر اسماء الله بالكلية من غالية
الزنادقة القرامطة والفلاسفة وقال : ان الله لا يقال له عالم ولا قادر يزعم ان من
سماه بذلك فهو مشبه لأن الاشتراك في الاسم يوجب الاشتباه في معناه ومن
اثبت الاسم وقال هو مجاز كغالية الجهمية يزعم أن من قال ان الله عالم حقيقة ؛
قادر حقيقة فهو مشبه ومن أنكر الصفات وقال : إن الله ليس له علم ولا
قدرة ولا كلام ولا محبة ولا إرادة قال لمن اثبت الصفات انه مشبه وانه
مجسم ولهذا كتب نفاة الصفات من الجهمية المعتزلة والرافضة ونحوهم كلها
مشحونة بتسمية مثبتى الصفات مشبهة ومجسمة ويقولون في كتبهم ان من
جملة المجسمة قوما يقال لهم المالكية ينسبون الى رجل يقال له مالك بن انس وقوم
يقال لهم الشافعية ينسبون الى رجل يقال له محمد بن ادريس حتى الذين يفسرون
القرآن منهم كعبد الجبار والزنجشري وغيرهما يسمون كل من اثبت شيئاً
من الصفات وقال بالرؤية مشبها وهذا الاستعمال قد غلب عند المتأخرين من
غالب الطوائف ولكن المشهور من استعمال هذا اللفظ عند علماء السنة
المشهورين انهم لا يريدون بنى التشبيه نفي الصفات ولا يصفون به كل من
اثبت الصفات بل مرادهم انه لا يشبه المخلوق في اسمائه وصفاته وافعاله كما تقدم
من كلام ابي حنيفة انه تعالى يعلم لا كعلمنا ويقدر لا كقدرتنا ويرى لا كرؤيتنا
وهذا معنى قوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) فنفى المثل

واثبت الوصف . وسيأتي في كلام الشيخ اثبات الصفات تنبيها على انه ليس
 نفي التشبيه مستلزما لنفي الصفات . ومما يوضح هذا ان العلم الالهي لا يجوز
 ان يستدل فيه بقياس تمثيلي يستوى فيه الاصل والفرع ولا بقياس شمولى
 يستوى افراده فان الله سبحانه ليس كمثل شيء فلا يجوز ان يمثل بغيره
 ولا يجوز ان يدخل هو وغيره بحيث ^(١) قضية كلية يستوى افرادها ولهذا
 لما سلكت طوائف المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الاقيسة في المطالب الالهية
 لم يضلوا بها الى اليقين بل تناقضت ادلتهم وغلب عليهم بعد التناهي الحيرة
 والاضطراب لما يرونه من فساد ادلتهم او تكافئها ولكن يستعمل في ذلك
 قياس الاولى سواء كان تمثيلا او شمولا كما قال تعالى (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) مثل ان
 يعلم ان كل كمال ثبت للممكن او للمحدث لا نقص فيه بوجه من الوجوه
 وهو ما كان كمالا للوجود غير مستلزم للعدم بوجه فالواجب القديم اولى به
 وكل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه ثبت نوعه للمخلوق والمربوب المدبر
 فانما استفادته من خالقه وربيه ومدبره وهو احق به منه وان كل نقص وعيب
 في نفسه وهو ما تضمن سلب هذا الكمال اذ اوجب نفيه عن شيء من انواع
 المخلوقات والممكنات والمحدثات فانه يجب نفيه عن الرب تعالى بطريق الاولى
 ومن اعجب العجب ان من غلاة نفاة الصفات الذين يستدلون بهذه الآية
 الكريمة على نفي الصفات او الاسماء ويقولون واجب الوجود لا يكون كذا ولا
 يكون كذا ثم يقولون اصل الفلسفة هي التشبيه بالآله على قدر الطاقة ويجهلون
 هذا غاية الحكمة ونهاية الكمال الانساني ويوافقهم على ذلك بعض من يطلق

هذه العبارة وبروي عن النبي ﷺ انه قال « تخلقوا باخلاق الله » فاذا كانوا ينفون الصفات فبأى شيء يتخلق العبد على زعمهم وكما انه لا يشبه شيئا من مخلوقاته تعالى لا يشبهه شيء من مخلوقاته لكن المخالف في هذا النصارى والحنولية والاتحادية لعنهم الله ونفى مشابهة شيء من مخلوقاته له مستلزم لنفي مشابهته لشيء من مخلوقاته فلذلك اكتفى الشيخ رحمه الله بقوله ولا يشبه الاقام والانام الناس وقيل اخلق وقيل كل ذي روح وقيل الثقلان وظاهر قوله تعالى (وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ) يشهد للأول اكثر من الباقي والله أعلم قوله ﴿ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قِيَوْمٌ لَا يَنَامُ ﴾ ش. قال تعالى (اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ) فنفى السنة والنوم دليل على كمال حياته وقيوميته وقال تعالى (الَمْ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ) وقال تعالى (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ) وقال تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ) وقال تعالى (هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) وقال ﷺ « ان الله لا ينام ولا ينبغي له ان ينام » الحديث لما نفى الشيخ رحمه الله التشبيه اشار الى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه بما يتصف به تعالى دون خلقه فن ذلك انه حي لا يموت لأن صفة الحياة الباقية مختصة به تعالى دون خلقه فاهم يموتون ومنه انه قيوم لا ينام اذ هو مختص بعدم النوم والسنة دون خلقه فاهم ينامون وفي ذلك اشارة الى ان نفى التشبيه ليس المراد به نفى الصفات بل هو سبحانه موصوف بصنات الكمال لكمال ذاته فالحي بحياة باقية لا يشبه الحي بحياة زائلة ولهذا كانت الحياة الدنيا متاعا وهو اولعبا وان الدار الآخرة هي الحيوان فالحياة الدنيا كالنمام والحياة الآخرة كالبقعة ولا يقال فهذه الحياة الآخرة

كاملة وهي المخلوق لأننا نقول الحي الذي الحياة من صفات ذاته اللازمة لها هو الذي وهب المخلوق تلك الحياة الدائمة فهي دائمة بادامة الله لها لان الدوام وصف لازم لها لذاتها بخلاف حياة الرب تعالى وكذلك سائر صفاته فصفت الخالق كما يليق به وصفات المخلوق كما يليق به واعلم ان هذين الاسمين اعني الحي القيوم المذكوران في القرآن معاً في ثلاث سور كما تقدم وهما من اعظم اسماء الله الحسنى حتى قيل انها الاسم الاعظم فانها يتضمنان اثبات صفات الكمال اكل تضمن واصدقه ويدل القيوم على معنى الازلية والابدية ما لا يدل عليه لفظ القديم ويدل ايضا على كونه موجودا بنفسه وهو معنى كونه واجب الوجود والقيوم ابلغ من القيام لأن الواو اقوى من الالف ويفيد قيامه بنفسه باتفاق المفسرين واهل اللغة وهو معلوم بالضرورة وهل تفيد اقامته لغيره وقيامه عليه فيه قولان اصحهما انه يفيد ذلك وهو يفيد دوام قيامه وكل قيامه لما فيه من المبالغة فهو سبحانه لا يزول ولا يأفل فان الآفل قد زال قطعاً اي لا يغيب ولا ينقص ولا يفنى ولا يعدم بل هو الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الكمال واقترانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال ويدل على بقائها ودوامها وانتفاء النقص والعدم عنها ازلا وابدا ولهذا كان قوله (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) اعظم آية في القرآن كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ فعلا هذين الاسمين مدار الاسماء الحسنى كلها واليه يرجع معانيها فان الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ولا يتخلف عنها صفة منها الا لضعف الحياة فاذا كانت حياته تعالى اكل حياة واتمها استلزم اثباتها اثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة . واما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته فانه

القويم بنفسه فلا يحتاج الى غيره بوجه من الوجوه لغيره فلا قيام لغيره الا
باقامته فانتظم هذان الاسمان صفات الجمال اتم انتظام قوله ﴿ خالق بلا حاجة
رازق بلا مؤنة ﴾ ش . قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ
مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ -
يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ - وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ
الْفُقَرَاءُ قُلْ أَعْبِرُوا اللَّهَ اتَّخَذَ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ)
وقال ﷺ من حديث ابي ذر رضي الله عنه « يا عبادي لو ان اولكم وآخركم
وانسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً
يا عبادي لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على اجر قلب رجل واحد
منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً يا عبادي لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم
قاموا في صعيد واحد فسألوني فاعطيت كل انسان مسألته ما نقص ذلك مما
عندي الا كما ينقص الخيط اذا ادخل البحر » الحديث رواه مسلم وقوله بلا
مؤنة بلا ثقل ولا كلفة قوله ﴿ مميت بلا مخافة باعث بلا مشقة ﴾ ش . الموت
صفة وجودية خلافا للفلاسفة ومن وافقهم قال تعالى (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ
لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) والعدم لا يوصف بكونه مخلوقا وفي الحديث
انه يؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبش املح فيذبح بين الجنة والنار
وهو وان كان عرضا فالله تعالى يقبله عينا كما ورد في العمل الصالح انه يأتي
صاحبه في صورة الشاب الحسن والعمل القبيح على اقباح صورة وورد في القرآن انه
يأتي على صورة الشاب الشاحب اللون . الحديث اي قراءة القاري ، وورد في الاعمال
انها توضع في الميزان والاعيان هي التي تقبل الوزن دون الاعراض وورد في

سورة البقرة وآل عمران انهما يوم القيامة يظلان صاحبهما كأنهما غمامتان او
غيابتان او فرقان من طير صواف وفي الصحيح ان اعمال العباد تصعد الى السماء .
وسياتي الكلام على البعث والنشور ان شاء الله تعالى قوله ﴿ ما زال بصفاته قديما
قبل خلقه لم يزد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته وكما كان بصفاته ازليا
كذلك لا يزال عليها ابديا ﴾ ش . اي ان الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفا
بصفات الكمال صفات الذات وصفات الفعل ولا يجوز ان يعتقد ان الله
وصف بصفة بعد ان لم يكن متصفا بها لان صفاته سبحانه صفات كمال وفقدتها
صفة نقص ولا يجوز ان يكون قد حصل له الكمال بعد ان كان متصفا
بضده ولا يرد على هذا صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها كخلق
والتصوير والاحياء والامانة والقبض والبسط والطي والاستواء والاتيان
والمجيء والنزول والغضب والرضى ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله
وان كنا لاندر كنهه وحقيقته التي هي تأويله ولا ندخل في ذلك متأولين
بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا ولكن اصل معناه معلوم لنا كما قال الامام مالك
رضي الله عنه . لما سئل عن قوله تعالى (نمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) كيف استوى
فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول وان كانت هذه الاحوال تحدث
في وقت دون وقت كما في حديث الشفاعة « ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم
يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله لان هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير
ممتنع ولا يطلق عليه انه حدث بعد ان لم يكن ، الا ترى ان من تكلم اليوم
وكان متكلم بالامس لا يقال انه حدث له الكلام ولو كان غير متكلم لانه كالصغير
والخرس ثم تكلم يقال حدث له الكلام فالساكت لغير آفة يسمى متكلم بالقوة

بمعنى انه يتكلم اذا شاء وفي حال تكلمه يسمى متكلماً بالفعل وكذلك الكاتب
في حال الكتابة هو كاتب بالفعل ولا يخرج عن كونه كاتباً في حال عدم مباشرته
للكتابة وحلول الحوادث بالرب تعالى المنفي في علم الكلام المذموم لم يرد نفيه
ولا اثباته في كتاب ولا سنة وفيه اجمال فان اريد بالنفي انه سبحانه لا يحل في
ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثه ولا يحدث له وصف متجدد لم يكن
فهذا نفي صحيح وان اريد به نفي الصفات الاختيارية من انه لا يفعل ما يريد
ولا يتكلم بما شاء اذا شاء ولا أنه يفضب ويرضى لا كأحد من الورى ولا
يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والايان كما يليق بجلاله
وعظمته فهذا نفي باطل واهل الكلام المذموم يطلقون نفي حلول الحوادث
فيسلم السني المتكلم ذلك على ظن انه نفي عنه سبحانه ما لا يليق بجلاله فاذا
سلم له هذا النفي الزمه نفي الصفات الاختيارية وصفات الفعل وهو غير لازم له
وانما اتى السني من تسليم هذا النفي المجمل والا فلو استفسر واستفصل له لم
ينقطع معه وكذا مسألة الصفة هل هي زائدة على الذات ام لا لفظها مجمل
وكذلك لفظ الغير فيه اجمال فقد يراد به ما ليس هو اياه وقد يراد به ما جاز
مفارقتة له . ولهذا كان ائمة السنة لا يطلقون على صفات الله وكلامه انه
غيره ولا انه ليس غيره لان اطلاق الاثبات قد يشعر ان ذلك مبياتاً
له واطلاق النفي قد يشعر بانه هو اذ كان لفظ الغير فيه اجمال فلا يطلق
إلا مع البيان والتفصيل فان اريد به ان هناك ذاتاً مجردة قائمة بنفسها منفصلة
عن الصفات الزائدة عليها فهذا غير صحيح وان اريد به ان الصفات زائدة على
الذات التي يفهم من معناها غير ما يفهم من معنى الصفة فهذا حق ولكن

ليس في الخارج ذات مجردة عن الصفات بل الذات الموصوفة بصفات الكمال
الثابتة لها لا ينفصل عنها وانما يعرض للذهن ذات وصفة كل وحده ولكن
ليس في الخارج ذات غير موصوفة فان هذا محال ولو لم يكن الاصفة الوجود
فانها لا تنفك عن الوجود وان كان الذهن يفرض ذاتا ووجودا يتصور هذا
وحده وهذا وحده لكن لا ينفك احدهما عن الآخر في الخارج وقد يقول
بعضهم : الصفة لا عين الموصوف ولا غيره وهذا معنى صحيح وهو أن الصفة
ليست عين ذات الموصوف الذي يفرضها الذهن مجردة بل هي غيرها وليست
غير الموصوف بل الموصوف بصفاته واحد غير متعدد فاذا قلت : أعوذ بالله
فقد عدت بالذات المقدسة الموصوف بصفات الكمال المقدس الثابتة التي لا
تقبل الانفصال بوجه من الوجوه . وإذا قلت : أعوذ بعزة الله فقد عدت
بصفة من صفات الله ولم تعد بغير الله وهذا المعنى يفهم من لفظ الذات فان ذات
في اصل معناها لا تستعمل الا مضافة اي ذات وجود ، ذات قدرة ، ذات
عز ، ذات علم ، ذات كرم الى غير ذلك من الصفات فذات كذا بمعنى
صاحبة كذا ثابت ذو هذا اصل معنى الكلمة فعلم ان الذات لا يتصور
انفصال الصفات عنها بوجه من الوجوه وان كان الذهن قد يفرض ذاتا مجردة
عن الصفات كما يفرض المحال . وقد قال عليه السلام « أعوذ بعزة الله وقدرته من
شر ما اجد واحذر » وقال عليه السلام « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق »
ولا يعوذ عليه السلام بغير الله وكذا قال عليه السلام « اللهم اني اعوذ برضاك من سخطك
وبمغافاتك من عقوبتك واعوذ بك منك » وقال عليه السلام « ونعوذ بعظمتك ان
نفتال من تحتها » وقال عليه السلام « اعوذ بنور وجهك الذي اشرقت له الظلمات »

وكذلك قولهم الاسم عين المسمى وغيره وطالما غلط كثير من الناس في ذلك
وجهلوا الصواب فيه فالاسم يراد به المسمى تارة ويراد به اللفظ الدال عليه
اخرى فاذا قلت قال الله كذا او سمع الله لمن حمده ونحو ذلك فهذا المراد به
المسمى نفسه واذا قلت الله اسم عربي والرحمن اسم عربي والرحمن من اسماء
الله ونحو ذلك فالاسم هاهنا هو المراد لا المسمى ولا يقال غيره لما في لفظ الغير
من الاجمال فان اريد بالمغايرة ان اللفظ غير المعنى فحق وان اريد ان الله سبحانه
كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه اسما او حتى سماه خلقه باسماء من صنعهم
فهذا من اعظم الضلال والاحاد في اسماء الله تعالى . والشيوخ رحمهم الله اشار
بقوله ما زال بصفاته قديما قبل خلقه الى آخر كلامه الى الرد على المعتزلة
والجهمية ومن وافقهم من الشيعة فانهم قالوا ان الله تعالى صار قادرا على الفعل
والكلام بعد ان لم يكن قادرا عليه لكونه صار الفعل والكلام ممكنا بعد
ان كان ممتنعا وانه انقلب من الامتناع الذاتي الى الامكان الذاتي وابن كلاب
والاشعري ومن وافقهما فانهم قالوا ان الفعل صار ممكنا له بعد ان كان ممتنعا
منه . واما الكلام عندهم فلا يدخل تحت المشيئة والقدرة بل هو شيء واحد
لازم لذاته واصل هذا الكلام من الجهمية فانهم قالوا ان دوام الحوادث
ممتنع وانه يجب ان يكون للحوادث مبدء لامتناع حوادث لا اول لها فيمتنع
ان يكون الباري عز وجل لم يزل فاعلا متكلميا بمشيئة بل يمتنع ان يكون
قادرا على ذلك لأن القدرة على الممتنع ممتنعة وهذا فاسد فانه يدل على امتناع
حدوث العالم وهو حادث والحادث اذا حدث بعد ان لم يكن محدثا فلا بد ان
يكون ممكنا والامكان ليس له وقت محدود وما من وقت يقدر الا والامكان

ثابت فيه فليس لامكان الفعل وجوازه وصحته مبدأ ينتهي اليه فيجب انه لم
 يزل الفعل ممكنا جائزا صحيحا فيلزم انه لم يزل الرب قادرا عليه فيلزم جواز
 حوادث لا نهاية لاؤها قالت الجهمية ومن وافقهم نحن لا نسلم أن امكان
 الحوادث لا بداية له لكن نقول امكان الحوادث بشرط كونها مسبوقه
 بالعدم لا بداية له وذلك لأن الحوادث عندنا تمتنع ان تكون قديمه النوع
 بل يجب حدوث نوعها ويمتنع قدم نوعها لكن لا يجب الحدوث في وقت
 بعينه فامكان الحوادث بشرط كونها مسبوقه بالعدم لاوله بخلاف جنس
 الحوادث فيقال لهم هب انكم تقولون ذلك لكن يقال امكان جنس الحوادث
 عندكم له بداية فانه صار جنس الحدوث عندكم ممكنا بعد أن لم يكن ممكنا
 وليس لهذا الامكان وقت معين بل مامن وقت يفرض الا والامكان ثابت
 قبله فيلزم دوام الامكان والا لزم انقلاب الجنس من الامتناع الى الامكان
 من غير حدوث شيء . ومعالم ان انقلاب حقيقي جنس الحدوث او جنس
 الحوادث او جنس الفعل او جنس الاحداث او ما اشبه هذا من العبارات
 من الامتناع الى الامكان هو مصير ذلك ممكنا جائزا بعد ان كان ممتنعا من
 غير سبب تجدد وهذا ممتنع في صريح العقل وهو ايضا انقلاب الجنس من
 الامتناع الذاتي الى الامكان الذاتي فان ذات جنس الحوادث عندم تصير
 ممكنة بعد ان كانت ممتنعة وهذا الانقلاب لا يختص بوقت معين فانه مامن
 وقت يقدر الا والامكان ثابت قبله فيلزم انه لم يزل هذا الانقلاب ممكنا فيلزم
 انه لم يزل الممتنع ممكنا وهذا ابلغ في الامتناع من قولنا لم يزل الحادث ممكنا
 فقد لزمهم فيما فروا اليه ابلغ مما لزمهم فيما فروا منه فانه يعقل كون الحادث

ممكنا ويمقل ان هذا الامكان لم يزل واما كون الممتنع ممكنا فهو ممتنع في نفسه
 فكيف اذا قيل لم يزل امكان هذا الممتنع وهذا مبسوط في موضعه فالخاصل
 ان نوع الحوادث هل يمكن دوامها في المستقبل والماضي ام لا او في المستقبل
 فقط والماضي فقط فيه ثلاثة اقوال معروفة لاهل النظر من المسلمين وغيرهم
 اضعفها قول من يقول لا يمكن دوامها لافي الماضي ولا في المستقبل كقول جهم
 ابن صفوان وابي الهذيل العلاف. وثانيها قول من يقول يمكن دوامها في المستقبل
 دون الماضي كقول كثير من اهل الكلام ومن وافقهم من الفقهاء وغيرهم.
 والثالث قول من يقول يمكن دوامها في الماضي والمستقبل كما يقوله ائمة
 الحديث وهي من المسائل الكبار ولم يقل احد يمكن دوامها في الماضي دون
 المستقبل ولا شك ان جمهور العالم من جميع الطوائف يقولون ان كل ماسوى
 الله تعالى مخلوق كائن بعد ان لم يكن وهذا قول الرسل واتباعهم من المسلمين
 واليهود والنصارى وغيرهم. ومن المعلوم بالفطرة ان كون المفعول مقارنا
 لفاعله لم يزل ولا يزال معه ممتنع محال، ولما كان تسلسل الحوادث في المستقبل
 لا يمنع ان يكون الرب سبحانه هو الآخر الذي ليس بعده شيء فكذا
 تسلسل الحوادث في الماضي لا يمنع ان يكون سبحانه وتعالى هو الاول الذي
 ليس قبله شيء فان الرب سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال يفعل ما يشاء ويتكلم
 اذا يشاء قال تعالى (كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) وقال تعالى (وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)
 وقال تعالى (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ
 مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ)
 وقال تعالى (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ

رَبِّي وَكَوَجِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) والثابت انما هو الكلام الممكن الوجود، وحينئذ
فاذا كان النوع دائماً فالممكن هو القديم على كل فرد من الافراد بحيث لا يكون
في اجزاء العالم شيء يقارنه بوجه من الوجوه، واما دوام الفعل فهو ايضا من الكمال
فان الفعل اذا كان صفة كمال فدوامه دوام الكمال. قالوا والتسلسل لفظ مجمل لم
يرد بنفيه ولا اثباته كتاب ولا سنة ليجب مراعاة لفظه وهو ينقسم الى
واجب وممتنع وممكن التسلسل في المؤثرين محال ممتنع لذاته وهو ان يكون
مؤثرون كل واحد منهم استفاد تأثيره مما قبله لا إلى غاية والتسلسل الواجب
ما دل عليه العقل والشرع من دوام افعال الرب تعالى في الأبد وانه كلما
انقضى لاهل الجنة نعيم احدث لهم نعيماً آخر لا نفاد له وكذلك التسلسل
في افعاله سبحانه من طرف الازل وان كل فعل مسبوق بفعل آخر فهذا
واجب في كلامه فانه لم يزل متكماً اذا شاء ولم يحدث له صفة الكلام في وقت
وهكذا افعاله التي هي من لوازم حياته فان كل حي فعال والفرق بين الحي
والميت بالفعل ولهذا قال غير واحد من السلف الحي الفعال وقال عثمان بن
سعيد كل حي فعال ولم يكن ربنا تعالى قط في وقت من الاوقات معطلا عن
كماله من الكلام والارادة والفعل. واما التسلسل الممكن فالتسلسل في مفعولاته
من هذا الطرف كما تتسلسل في طرف الأبد فانه اذا لم يزل حياً قادراً مريداً
متكماً وذلك من لوازم ذاته بالفعل ممكن له بموجب هذه الصفات له وان
يفعل اكل من ان لا يفعل ولا يلزم من هذا انه لم يزل الخلق معه فانه سبحانه
متقدم على كل فرد فرد من مخلوقاته تقدماً لا اول له فلكل مخلوق اول وخالق
سبحانه لا اول له فهو وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق كائن بعد ان لم يكن

قالوا وكل قول سوى هذا فصرح العقل برده ويقضي ببطلانه وكل من اعترف بان الرب تعالى لم يزل قادرا على الفعل لزمه احد امرين لا بدله منهما . اما ان يقول بان الفعل لم يزل ممكنا . واما ان يقول لم يزل واقعا والافتراض تناقضا بينا حيث زعم ان الرب تعالى لم يزل قادرا على الفعل والفعل محال ممتنع لداه لو اراده لم يمكن وجوده بل فرض ارادته عنده محال وهو مقدور له وهذا قول ينقض بعضه بعضا . والمقصود ان الذي دل عليه الشرع والعقل ان كل ما سوى الله تعالى محدث كائن بعد ان لم يكن . اما كون الرب تعالى لم يزل معظما عن الفعل ثم فعل فليس في الشرع ولا في العقل ما يثبته بل كلاهما يدل على نقيضه وقد اورد ابو المعالي في ارشاده وغيره من النظائر على التسلسل في الماضي فقالوا : الا انك لو قلت لا اعطيتك درهما الا اعطيتك بعده درهما كان هذا ممكنا ، ولو قلت لا اعطيتك درهما حتى اعطيتك قبله درهما كان هذا ممتنعا وهذا التمثيل والموازنة غير صحيحة بل الموازنة الصحيحة ان تقول : ما اعطيتك درهما الا اعطيتك قبله درهما فتجعل ماضيا قبل ماض كما جعلت هناك مستقبلا بعد مستقبل واما قول القائل لا اعطيتك حتى اعطيتك قبله فهو نفي للمستقبل حتى يحصل في المستقبل ويكون قبلي فقد نفي المستقبل حتى يوجد المستقبل وهذا ممتنع لم ينف الماضي حتى يكون قبله ماضي فان هذا ممكن والعطاء المستقبل ايتاؤه من المعطي والمستقبل الذي له ابتداء وانتهاء لا يكون قبله ما لا نهاية له فان ما لا نهاية له فيما يتناهي ممتنع قوله **ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا باحدائه البرية استفاد اسم البارئ** ظاهر كلام الشيخ رحمه الله انه يمنع تسلسل الحوادث في الماضي ويأتي في كلامه ما يدل على انه لا يمنع في المستقبل وهو قوله والجنة

والنار مخلوقتان لا تفتيان ابدا ولا تبيدان . وهذا مذهب الجمهور كما تقدم
ولاشك في فساد قول من منع ذلك في الماضي والمستقبل كما ذهب اليه الجهم
واتباعه وقال بفناء الجنة والنار لما يأتي من الادلة ان شاء الله تعالى واما قول
من قال بجواز حوادث لا اول لها من القائلين بحوادث لا آخر لها فظهر في
الصحة من قول من فرق بينهما فانه سبحانه لم ينزل حيا والفعل من لوازم الحياة
فلم ينزل فاعلا لما يريد كما وصف بذلك نفسه حيث يقول (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ
فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ) والآية تدل على امور (احدها) انه تعالى يفعل بارادته
ومشيئته (الثاني) انه لم ينزل كذلك لانه ساق ذلك في معرض المدح والثناء
على نفسه وان ذلك من كماله سبحانه ولا يجوز ان يكون عادما لهذا الكمال
في وقت من الاوقات . وقد قال تعالى (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)
ولما كان من اوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثا بعد ان لم يكن (الثالث)
انه اذا اراد شيئا ففعله فان (ما) موصولة عامة اي يفعل كل ما يريد ان يفعله
وهذا في ارادته المتعلقة بفعله واما ارادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن
آخر فان اراد فعل العبد ولم يرد من نفسه ان يعينه عليه ويجعله فاعلا لم يوجد
الفعل وان اراده حتى يريد من نفسه ان يجعله فاعلا وهذه هي النكتة التي خفيت
على القدرية والجبورية وخبطوا في مسألة القدر لغفلتهم عنها وفرق بين ارادته
ان يفعل العبد و ارادة ان يجعله فاعلا . وسيأتي الكلام على مسألة القدر في موضعه
ان شاء الله تعالى (الرابع) ان فعله و ارادته متلازمان فما اراد ان يفعل فعل وما
فعله فقد اراده بخلاف المخلوق فانه يريد ما لا يفعل وقد يفعل ما لا يريد . فما
ثم فاعل لما يريد إلا الله وحده (الخامس) اثبات ارادة متعددة بحسب الافعال

وان كل فعل له ارادة تخصه هذا هو المعقول في الفطر فشأنه سبحانه انه يريد
على الدوام ويفعل ما يريد (السادس) ان كل ما صح ان يتعلق به ارادته جاز
فعله فاذا اراد ان ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا وان يجيء يوم القيامة لفصل
القضاء وأن يري عبادته نفسه وان يتجلى لهم كيف شاء ويخاطبهم ويضحك اليهم
وغير ذلك مما يريد سبحانه لم يمتنع عليه فعله فانه تعالى فعال لما يريد وانما يتوقف
صحة ذلك على اخبار الصادق به فاذا امر^(١) وكذلك محو ما يشاء واثبات
ما يشاء كل يوم هو في شان سبحانه وتعالى والقول بان الحوادث لها اول يلزم
منه التعطيل قبل ذلك وان الله سبحانه وتعالى لم يزل غير فاعل ثم صار فاعلا ولا
يلزم من ذلك قدم العالم لان كل ما سوى الله محدث ممكن الوجود موجود
بأيجاد الله تعالى له ليس له من نفسه إلا العدم والفقر والاحتياج وصف ذاتي لازم
لكل ما سوى الله تعالى والله تعالى واجب الوجود لذاته غني لذاته والغنى وصف
ذاتي لازم له سبحانه وتعالى وللناس قولان في هذا العالم هل هو مخلوق من مادة
ام لا . واختلفوا في اول هذا العالم ما هو وقد قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) وروى البخاري
وغيره عن عمران بن حصين قال قال اهل اليمن لرسول الله ﷺ جئناك لنتفق
في الدين ونسألك عن هذا الأمر فقال « كان الله ولم يكن شيء قبله » وفي
رواية « ولم يكن شيء معه » وفي رواية غيره « وكان عرشه على الماء وكتب
في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض » وفي لفظ « ثم خلق السموات
والأرض » فقوله كتب في الذكر يعني اللوح المحفوظ كما قال تعالى (وَتَلَوُّهُ

(١) بياض بالاصل

كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ (يسمي ما يكتب في الذكر ذكرًا كما يسمي ما يكتب في الكتاب كتابًا والناس في هذا الحديث على قولين : منهم من قال ان المقصود اخباره بأن الله كان موجودا وحده ولم يزل كذلك دائما ثم ابتداء احداث جميع الحوادث بجنسها وأعيانها مسبوقه بالعدم وان جنس الزمان حادث لا في زمان وان الله صار فاعلا بعد ان لم يكن يفعل شيئا من الأزل الى حين ابتداء الفعل ولا كان الفعل ممكنا . والقول الثاني المراد اخباره عن مبدأ خلق هذا العالم المشهود الذي خلقه الله في ستة ايام ثم استوى على العرش كما أخبر القرآن بذلك في غير موضع . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ انه قال « قدر الله تعالى مقادير الخلق قبل ان يخلق السموات والأرض بخمسين الف سنة وكان عرشه على الماء » فأخبر ﷺ « أن تقدير هذا العالم المخلوق في ستة ايام كان قبل خلق السموات بخمسين الف سنة وأن عرش الرب تعالى حينئذ على الماء » . دليل صحة هذا القول الثاني من وجوه (احدها) ان قول اهل اليمن جئنا لنسألك عن اول هذا الأمر وهو اشارة الى حاضر مشهود موجود والأمر هنا بمعنى المأمور اي الذي كونه الله بأمره . وقد اجابهم النبي ﷺ عن بدء هذا العالم الموجود لادع عن جنس المخلوقات لأنهم لم يسألوه عنه وقد أخبرهم عن خلق السموات والأرض حال كون عرشه على الماء لم يخبرهم عن خلق العرش وهو مخلوق قبل خلق السموات والأرض وايضا فإنه قال « كان الله ولم يكن شيء قبله » وقد روي معه وروي غيره والمجلس كان واحدا فعلم انه قال احدا لالفاظ والآخران روي بالمعنى ولفظ القبل ثبت عنه في غير هذا الحديث . ففي صحيح مسلم عن ابي هريرة عن النبي ﷺ انه

كان يقول في دعائه « اللهم انت الاول فليس قبلك شيء » الحديث واللفظان
الآخران لم يثبت واحد منهما في موضع آخر ولهذا كان كثير من اهل الحديث
انما يرويه بلفظ القبل كالحميدي والبعغوي وابن الأثير واذا كان كذلك لم يكن
في هذا اللفظ تعرض لابتداء الحوادث ولا لاول مخلوق وايضا فانه قال « كان
الله ولم يكن شيء قبله او معه او غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر
كل شيء » فأخبر عن هذه الثلاثة بالواو وخلق السموات والارض روي بالواو
وبتم فظهر ان مقصوده اخباره ايام بيده خلق السموات والارض وما بينهما
وهي المخلوقات التي خلقت في ستة ايام لا ابتداء خلق ما خلقه الله قبل ذلك
وذكر السموات والارض بما يدل على خلقهما ذكر ما قبلها بما يدل على كونه
ووجوده ولم يتعرض لابتداء خلقه وايضا فانه اذا كان الحديث قد ورد بهذا
وهذا فلا يجوز ان يجزم باحدهما الا بدليل فاذا رجح احدهما فن جزم بان الرسول اراد المعنى
الآخر فهو محطى قطعاً ولم يأت في الكتاب ولا في السنة ما يدل على المعنى
الآخر فلا يجوز اثباته بما يظن انه معنى الحديث ولم يرد كان الله ولا شيء معه
مجردا وانما ورد على السياق المذكور ولا يظن ان معناه الاخبار بتعطيل الرب تعالى
دائماً عن الفعل حتى خلق السموات والارض وايضا فقوله ﷺ « كان الله ولم
يكن شيء قبله او معه او غيره وكان عرشه على الماء » لا يصح ان يكون المعنى انه
تعالى موجود وحده لا مخلوق معه اصلاً لأن قوله « وكان عرشه على الماء »
يرد ذلك فان هذه الجملة وهي كان عرشه على الماء اما حالية او معطوفة وعلى
كلا التقديرين فهو مخلوق موجود في ذلك الوقت فلم ان المراد ولم يكن شيء
من العالم المشهود قوله له معنى الربوبية ولا مربوب ومعنى الخالق ولا

مخلوق ❖ ش . يعني ان الله تعالى موصوف بأنه الرب قبل ان يوجد مر بوب
وموصوف بأنه خالق قبل ان يوجد مخلوق قال بعض المشائخ الشارحين وانما
قال له معنى الربوبية ومعنى الخالق دوز الخالق لان الخالق هو المخرج للشيء
من العدم الى الوجود لا غير والرب يقتضي معاني كثيرة وهي الملك والحفظ
والتدبير وانتمرية وهي تبليغ الشيء كماله بالتدريج فلا جرم اتى بلفظ يشمل
هذه المعاني وهي الربوبية انتهى . وفيه نظر لان الخلق يكون بمعنى التقدير
ايضا قوله ❖ وكما انه عبي الموتى بعدما احيا استحق هذا الاسم قبل احيائهم
كذلك استحق اسم الخالق قبل انشائهم ❖ ش . يعني انه سبحانه وتعالى
موصوف بأنه عبي الموتى قبل احيائهم فكذلك يوصف بأنه خالق قبل خلقهم
از اما المعتزلة ومن قال بقولهم كما حكينا عنهم فيما تقدم وتقدم تقرير انه تعالى لم يزل
يفعل ما يشاء قوله ❖ ذلك بأنه على كل شيء قدير وكل شيء اليه فقير وكل
امر اليه يسير لا يحتاج الى شيء ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ❖ ش . ذلك
اشارة الى ثبوت صفاته في الازل قبل خلقه والكلام على كل وشمولها وشمول
كل في كل مقام بحسب ما يحتف به من القرائن يأتي في مسألة الكلام ان شاء الله
تعالى وقد حرفت المعتزلة المعنى المفهوم من قوله تعالى (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ) فقالوا انه قادر على كل ما هو مقدور له واما نفس افعال العباد
فلا يقدر عليها عندهم وتنازعوا هل يقدر على مثلها ام لا ولو كان المعنى على
ما قالوا لكان هذا بمنزلة ان يقال هو عالم بكل ما يعلمه وخالق لكل ما يخلقه
ونحو ذلك من العبارات التي لا فائدة فيها فسلبوا صفة كمال قدرته على كل شيء
واما اهل السنة فعندهم ان الله على كل شيء قدير وكل ممكن فهو مندرج في

هذا . واما المحال لذاته مثل كون الشيء الواحد موجودا معدوما في حال
واحدة فهذا لا حقيقة له ولا يتصور وجوده ولا يسمى شيئا بانفاق العقلاء
ومن هذا الباب خلق مثل نفسه واعدام نفسه وامثال ذلك من المحال وهذا
الاصل هو الايمان بربوبيته العامة التامة فانه لا يؤمن بانه رب كل شيء الا
من آمن انه قادر على تلك الاشياء ولا يؤمن بتمام ربوبيته وكلها الا من آمن
بانه على كل شيء قدير وانما تنازعوا في المعدوم الممكن هل هو شيء ام لا
والتحقيق ان المعدوم ليس بشيء في الخارج ولكن الله يعلم ما يكون قبل
ان يكون ويكتبه وقد يذكره ويخبره كقوله تعالى (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ
عَظِيمٌ) فيكون شيء في العلم والذكر والكتاب لا في الخارج كما قال تعالى
(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) قال تعالى (وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ
قَبْلُ وَكَمْ تَكُ شَيْئًا) اي لم تكن شيئا في الخارج وان كان شيئا في علمه تعالى
وقال تعالى (هَلْ أُنِىُّ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا) وقوله
(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) رد على المشبهة وقوله تعالى (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) رد على
المعطلة فهو سبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال وليس له فيها شبهة فالمخلوق
وان كان يوصف بانه سميع بصير فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره ولا
يلزم من اثبات الصفة تشبيهه اذ صفات المخلوق كما يليق به وصفات الخالق
كما يليق به ولا تنفي عن الله ما وصف به نفسه وما وصفه به اعرف الخلق
بربه وما يجب له وما يتمتع عليه وأنصحهم لامته وافصحهم وأقدرهم على البيان
فانك ان نفيت شيئا من ذلك كنت كافرا بما انزل على محمد ﷺ واذا وصفته
بما وصف به نفسه فلا تشبيهه بخلقه فليس كمثل شيء فاذا شبهته بخلقه كنت كافرا

به . قال نعيم بن حماد الخزازي شيخ البخاري من شبه الله بخلقه فقد كفر
ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس ما وصف الله به نفسه
ولا ما وصفه به رسوله تشبيها ، وسيأتي في كلام الشيخ الطحاوي رحمه
الله ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه . وقد وصف الله
تعالى نفسه بان له المثل الاعلى فقال تعالى (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) وقال تعالى (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) فجعل سبحانه مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص
وسلب الكمال لأعدائه المشركين وأولئهم واخبر أن المثل الأعلى المتضمن
لاثبات الكمال كله لله وحده فمن سلب صفات الكمال عن الله تعالى فقد جعل
له مثل السوء ونفى عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى وهو الكمال المطلق
المتضمن للأمر الوجودية والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في الموصوف
واكمل كان بها اكمل واعلى من غيره ولما كانت صفات الرب سبحانه وتعالى
أكثر واكمل كان له المثل الأعلى وكان احق به من كل ماسواه بل يستحيل
ان يشترك في المثل الأعلى المطلق اثنان لأنهما ان تكافأ من كل وجه لم يكن
احدهما اعلى من الآخر وان لم يتكافأ فالوصوف به احدهما وحده فيستحيل
ان يكون لمن له امثل الأعلى مثل او نظير .

واختلفت عبارات المفسرين في المثل الأعلى ووفق بين اقوالهم بمض
من وفقه الله وهداه فقال : المثل الاعلى يتضمن الصفة العليا وعلم العالمين بها
ووجودها العلمي واخبار عنها وذكرها وعبادة الرب تعالى بواسطة العلم والمعرفة
القائمة بقلوب عابديه وذاكره فهنا امور اربعة : ثبوت الصفات العليا لله

سبحانه وتعالى سواء علمها العباد اولا وهذا معنى قول من فسرها بالصفة (الثاني)
وجودها في العلم والشعور وهذا معنى قول من قال من السلف واختلف انه
ما في قلوب عابديه وذا كربه من معرفته وذكره ومحبهه وجلاله وتعظيمه
وخوفه ورجائه والتوكل عليه والابانة اليه وهذا الذي في قلوبهم من المثل الأعلى
لا يشركه فيه غيره اصلا بل يختص به في قلوبهم كما اختص به في ذاته وهذا
معنى قول من قال من المفسرين ان معناه اهل السموات يحبونه ويعظمونه
ويعبدونه واهل الأرض كذلك وان اشرك به من اشرك وعصاه وجحد
صفاته من جحدها فاهل الأرض معظمون له ، مجاون ، خاضعون لمظمته ،
مستكينون لعزته وجبروته قال تعالى (وَ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٗ
قَاتِنُونَ) (الثالث) ذكر صفاته واخبر عنها وتنزهها من العيوب والنقائص
والتمثيل (الرابع) محبة الموصوف بها وتوحيده والاخلاص له والتوكل عليه
والابانة اليه وكلما كان الايمان بالصفات اكمل كان هذا الحب والاخلاص اقوى
فمبارات السلف كلها تدل على هذه المعاني الأربعة . فمن اضل ممن يعارض
بين قوله تعالى (وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) وبين قوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ويستدل
بقوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) لى نفي الصفات ويعمى عن تمام الآية وهو قوله
(وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) حتى افضى هذا الضلال يعضهم وهو احمد بن ابي
دواد القاضي الى ان اشار على الخليفة المأمون ان يكتب على ستر الكعبة
ليس كمثل شئء وهو العزيز الحكيم حرف كلام الله بنفي وصفه تعالى بانه
السميع البصير كما قال الضال الآخر جهم بن صفوان : وددت اني احك من
المصحف قوله تعالى (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) فندسأل الله العظيم السميع البصير

ان يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة بمنه وكرمه . وفي اعراب
قوله كمثل وجوه : (احدها) ان الكاف صلة زيدت للتأكيده . وقال اوس بن حجر

ليس كمثل الفتى زهير * خلق يوازيه في الفضائل

وقال آخر ما ان كمثلهم في الناس من بشر *

وقال آخر ومثلي كمثل جذوع النخيل *

فيكون مثله خبر ليس شيء وهذا وجه قوي حسن تعرف العرب معناه في
لغتها ولا يخفى عنها اذا خوطبت به وقد جاء عن العرب ايضا زيادة الكاف

للتأكيده في قول بعضهم وصاليات كما يؤثفين^(١)

وقول الآخر فأصبحت مثل كعصف ما كول *

(الوجه الثاني) ان الزائد مثل اي ليس كهو شيء وهذا القول بعيد لأن مثل
اسم والقول بزيادة الحرف للتأكيده اولى من القول بزيادة الاسم الواحد .

(الثالث) انه ليس ثم زيادة اصلا بل هذا من باب قولهم مثلك لا يفعل كذا

اي انت لا تفعله واتى بمثل للمبالغة وقالوا في معنى المبالغة هنا اي ليس

كمثلهم لو فرض المثل فكيف ولا مثل له وقيل غير ذلك والاول اظهر قوله

«خلق الخلق بعلمه» ش . خلق اي اوجدوا نشأوا وبدعوا ياتي خلق ايضا بمعنى قدر

والخلق مصدر وهو هنا بمعنى الخلق وقوله بعلمه في محل نصب على الحال

أي خلقهم علما بهم قال تعالى (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) وقال

تعالى ((وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ

(١) قوله صاليات هي الحجارة المحترقة . قوله يؤثفين بمنناة تحية مضمومة

فهمزة مفتوحة فثلثة ساكنة ففاء اثنى للقدر يوضع عليها عند الطبخ .

حاشية المعنى

مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسُ إِلَّا فِي
كِتَابٍ مُبِينٍ. وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ) وفي ذلك
رد على المعتزلة. قال الامام عبدالعزيز المكي صاحب الامام الشافعي وجليسه :
في كتاب الحيدة الذي حكى فيه مناظرته بشر المريسي عند المأمون حين سأله
عن عامه تعالى فقال بشر اقول لا يجهل فجعل يكرر السؤال عن صفة العلم تقريراً
له وبشر يقول لا يجهل ولا يعترف له انه عالم بعلم فقال الامام عبدالعزيز نفي
الجهل لا يكون صفة مدح فان هذه الاسطوانة لا يجهل وقد مدح الله الانبياء
والملائكة والمؤمنين بالعلم لا بنفي الجهل فن اثبت العلم فقد نفي الجهل ومن
نفي الجهل لم يثبت العلم وعلى الخلق ان يثبتوا ما اثبتته الله تعالى لنفسه وينفوا
ما نفاه ويمسكوا عما امسك عنه والدليل العقلي على عامه تعالى انه يستحيل ايجاده
الاشياء مع الجهل ولأن ايجاده الاشياء بارادته والارادة تستلزم تصور المراد
وتصور المراد هو العلم بالمراد فكان اليجاد مستلزماً للارادة والارادة مستلزماً
للعلم فاليجاد مستلزم للعلم ولأن المخلوقات فيها من الاحكام والاتقان ما يستلزم
علم الفاعل لها لان الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم ولان من
المخلوقات ما هو عالم والعلم صفة كمال ويمتنع ان لا يكون الخالق عالماً وهذا له
طريقان : (احدهما) ان يقال : نحن نعلم بالضرورة ان الخالق اكمل من
المخلوق وان الواجب اكمل من الممكن ونعلم ضرورة ان لو فرضنا شيئين :
احدهما عالم والاخر غير عالم كان العالم اكمل فلو لم يكن الخالق عالماً لزم ان
يكون الممكن اكمل منه وهو ممتنع . (الثاني) ان يقال : كل علم في الممكنات
التي هي المخلوقات فهو منه ومن الممتنع ان يكون فاعل الكمال ومبدعه عارياً

منه بل هو احق به والله تعالى له المثل الأعلى ولا يستوي هو والمخلوق لافي
قياس تمثيلي ولا في قياس شمولي بل كلما ثبت للمخلوق من كمال فخالق به
احق وكل نقص نزهه عنه مخلوق ما فتزده الخالق عنه أولى . قوله ﴿ وقدر لهم
اقداراً ﴾ قال تعالى (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرَهُ تَقْدِيرًا) وقال تعالى (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ
خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) وقال تعالى (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا) وقال تعالى (الَّذِي
خَلَقَ فَسْوَى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله
عنهما عن النبي ﷺ انه قال « قدر الله مقادير الخلق قبل ان يخلق السموات
والارض بخمسين الف سنة وكان عرشه على الماء . قوله ﴿ وضرب لهم آجالاً ﴾ ش
يعني ان الله سبحانه وتعالى قدر آجال الخلائق بحيث اذا جاء اجلهم لا يستأخرون
ساعة ولا يستقدمون . قال تعالى (إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)
وقال تعالى (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا) وفي صحيح
مسلم عن عبد الله بن مسعود قال قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ « اللهم امتعني
بزوجي رسول الله وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية » قال فقال النبي ﷺ قد
سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة لن يعجل شيئاً
قبل اجله ولن يؤخر شيئاً عن اجله ولو كنت سألت الله ان يعيدك من عذاب
في النار وعذاب في القبر كان خيراً أو افضل « فالقتول ميت بأجله فعلم الله تعالى
وقدر وقضى ان هذا يموت بسبب المرض وهذا بسبب القتل وهذا بسبب الهدم
وهذا بسبب الحرق وهذا بالفرق الى غير ذلك من الأسباب والله سبحانه
خلق الموت والحياة وخلق سبب الموت والحياة وعند المعتزلة المقتول مقطوع
عليه اجله ولو لم يقتل لعاش الى اجله فكان له اجلان وهذا باطل لأنه لا يليق

ان ينسب الى الله تعالى انه جعل له اجلا يعلم انه لا يعيش اليه البتة او يجعل
اجله احد الأمرين كفعل الجاهل بالعواقب ووجب القصاص والضمان
على القاتل لارتكابه المنهي عنه ومباشرة السبب المحذور وعلى هذا يخرج قوله
صلى الله عليه وسلم صلاة الرحم تزيد في العمر اي سبب طول العمر وقد قدر الله ان هذا يصل
رحمه فيعيش بهذا السبب الى هذه الغاية ولو لا ذلك السبب لم يصل الى هذه
الغاية هي ولكن قدر هذا السبب وقضاه وكذلك قدر ان هذا يقطع رحمه فيعيش
الى كذا كما قلنا في القتل وعدمه فان قيل هل يلزم من تأثير صلاة الرحم في زيادة
العمر ونقصانه تأثير الدعاء في ذلك ام لا (فالجواب) ان ذلك غير لازم لقوله
صلى الله عليه وسلم لام حبيبة « قد سألت الله تعالى لآجال مضروبة » الحديث كما تقدم
فعلم ان الاعمار مقدره لم يشرع الدعاء بتغييرها بخلاف النجاة من عذاب الآخرة
فان الدعاء مشروع له نافع فيه الا ترى ان الدعاء بتغيير العمر لما تضمن النفع
الاخرى شرع في الدعاء الذي رواه النسائي من حديث عمار بن ياسر عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « اللهم بعامك الغيب وقدرتك على الخلق احبني ما كانت
الحياة خيرا لي وتوفني اذا كانت الوفاة خيرا لي » الى آخر الدعاء . ويؤيد
هذا ما رواه الحاكم في صحيحه من حديث ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم « لا يرد القدر
الا الدعاء ولا يزيد في العمر الا البر وان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه »
وفي الحديث رد على من يظن ان النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء
وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه نهى عن النذر وقال « انه لا يأتي بخير
وانما يستخرج به من البخيل » واعلم ان الدعاء يكون مشروعا نافعاً في بعض
الاشياء دون بعض وكذلك هو ولهذا لا يجيب الله المعتدين في الدعاء . وكان

الامام احمد يكره ان يدعى له بطول العمر ويقول هذا امر قد فرغ منه .
وأما قوله تعالى (وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ) فقد
قيل في الضمير المذكور في قوله تعالى من عمره انه بمنزلة قولهم عندي درهم
ونصفه أي ونصف درهم آخر فيكون المعنى ولا ينقص من عمر معمر آخر
وقيل الزيادة والنقصان في الصحف التي في أيدي الملائكة وحمل قوله تعالى
(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ بِمَحْوِ اللَّهِ مَا يَشَاءُ وَيُنْتِجُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) على ان
المحو والاثبات من الصحف التي في أيدي الملائكة وان قوله (وعنده ام الكتاب)
الروح المحفوظ وبدل على هذا الوجه سياق الآية وهو قوله (لكل أجل
كتاب) ثم قال (يحو الله ما يشاء ويثبت) أي من ذلك الكتاب (وعنده
ام الكتاب) أي اصله وهو الروح المحفوظ وقيل يحو الله ما يشاء من الشرائع
وينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه والسياق ادل على هذا الوجه من الوجه
الاول وهو قوله تعالى (وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ
أَجَلٍ كِتَابٌ) فأخبر تعالى ان الرسول لا يأتي بالآيات من قبل نفسه بل
من عند الله ثم قال (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ بِمَحْوِ اللَّهِ مَا يَشَاءُ وَيُنْتِجُ) أي ان
الشرائع لها اجل وغاية تنتهي اليها ثم تنسخ بالشرعية الأخرى فينسخ الله
ما يشاء من الشرائع عند انقضاء الأجل ويثبت ما يشاء وفي الآية اقوال أخرى
والله اعلم بالصواب . قوله ﴿ لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ وَعَلِمَ مَا مِمَّ عَامِلُونَ
قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ ﴾ ش . فانه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن ان لو كان
كيف يكون كما قال تعالى (وَتَوَّ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) وان كان يعلم انهم
لا يردون ولكن اخبر انهم لو ردوا لعادوا كما قال تعالى (وَتَوَّ عَلِيمٌ فِيهِمْ)

خَيْرًا لَّاسْمِعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) وفي ذلك رد على الرافضة
والقدرية الذين قالوا: انه لا يعلم الشيء قبل ان يخلقه ويوجده وهو من فروع
مسئلة القدر وسيأتي لها زيادة بيان ان شاء الله تعالى . قوله ﴿ وامرهم بطاعته
ونهاهم عن معصيته ﴾ ش . ذكر الشيخ الأصر والنهي بعد ذكر الخلق والقدر
اشارة الى ان الله تعالى خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ
وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) وقال تعالى (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ
أَحْسَنُ عَمَلًا) قوله ﴿ وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته تنفذ لامشيئته للعباد
الا ما شاء لهم فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن ﴾ ش . قال تعالى (وَمَا تَشَاؤُنَ
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) وقال (وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
رَبُّ الْعَالَمِينَ) وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَهُمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا
عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) وقال تعالى (وَلَوْ شَاءَ
رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ) وقال تعالى (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا)
وقال تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ
يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام
(إِذْ قَالَ لِتَوْبِهِ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ
أَنْ يُغْوِيَكُمْ) وقال تعالى (مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ) الى غير ذلك من الأدلة على انه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن
وكيف يكون في ملكه ما لا يشاء ومن اضل سبيلا واكفر ممن يزعم ان الله
شاء الايمان من الكافر والكافر شاء الكفر فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله
تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . فان قيل يشكل على هذا قوله تعالى (سَيَقُولُ
الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا) الآية . وقوله تعالى (وَقَالَ

الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ (الآية وقوله تعالى) وَقَالُوا لَوْ
شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاكُمْ مَا لَكُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (قد ذمهم الله
تعالى حيث جعلوا الشرك كائنا منهم بمشيئة الله وكذلك ذم ابليس حيث
اضاف الاغواء الى الله تعالى إذ قال (رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ
وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) قيل قد اجيب عن هذا بأجوبة من احسنها انه انكر
عليهم ذلك لانهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته وقالوا لو كره ذلك وسخطه
لما شاءه فجعلوا مشيئته دليل رضاه فرد الله عليهم ذلك او انه انكر عليهم
اعتقادهم ان مشيئة الله دليل على امره به او انه انكر عليهم معارضته شرعه
وامره الذي ارسل به رسله وانزل به كتبه بقضائه وقدره فجعلوا المشيئة العامة
دافعة للأمر فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد وانما ذكروها معارضين بها
لأمره دافعين بها لشرعه كفعل الزنادقة والجهال اذا امروا او نهوا احتجوا
بالقدر ، وقد احتج سارق على عمر رضي الله عنه بالقدر فقال وانا اقطع يدك
بقضاء الله وقدره يشهد لذلك قوله تعالى في الآية (كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ) فعمل ان مرادهم التكذيب فهو من قبل الفعل من اين له ان الله لم يقدره
اطلع الغيب ، فان قيل فما يقولون في احتجاج آدم على موسى بالقدر إذ قال له
اتلومني على امر قد كتبه الله علي قبل ان اخلق باربعين عاما ، وشهد النبي ﷺ
ان آدم حجج موسى اي غلب عليه بالحجة قيل نتلقاه بالقبول والسمع والطاعة
لصحته عن رسول الله ﷺ ولا نتلقاه بالرد والتكذيب لرويه كما فعلت القدرية
ولابالتأويلات الباردة بل الصحيح ان آدم لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب
وهو كان اعلم بربه وذنبيه بل آحاد بنيه من المؤمنين لا يحتج بالقدر فانه باطل

وموسى كان اعلم باييه وبذنبه من ان يلوم آدم على ذنب قد تاب منه وتاب
الله عليه واجتباؤه وهداه وانما وقع اللوم على المصيبة التي اخرجت اولاده من
الجنة فاحتج آدم بالقدر على المصيبة لا على الخطيئة فان القدر يحتج به عند
المصائب لا عند المعائب وهذا المعنى احسن ما قيل في الحديث. فما قدر من
المصائب يجب الاستسلام له فانه من تمام الرضى بالله ربا واما الذنب فليس
للعبد ان يذنب واذا اذنب فعليه ان يستغفر ويتوب فيتوب من المعائب
ويصبر على المصائب قال تعالى (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)
وقال تعالى (وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُكُمْ شَيْئًا) واما قول ابليس
رب بما اغويتني انما ذم على احتجاجه بالقدر لا على اعترافه بالمقدر واثباته له
الم تسمع قول نوح عليه السلام (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ
إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ولقد احسن القائل
فما شئت كان وان لم أشأ * وما شئت ان لم تشأ لم يكن

وعن وهب بن منبه انه قال نظرت في القدر فتحيرت ثم نظرت فيه فتحيرت
ووجدت اعلم الناس بالقدر اكفهم عنه واجهل الناس بالقدر انطقهم به قوله
* يهدي من يشاء ويمصم ويمافي فضلا ويضل من يشاء ويخذل ويبتلى عدلا *

ش. هذا رد على المعتزلة قولهم بوجوب فعل الاصلح العبد على الله وهي مسألة الهدي
والضلال قالت المعتزلة الهدي من الله بيان طريق الصواب والاضلال تسمية العبد
ضالا وحكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد بالضلال في نفسه وهذا مبني
على اصلهم الفاسد: ان افعال العباد مخلوقة لهم والدليل على ما قلناه قوله تعالى
(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) ولو كان الهدي بيان

الطريق لما صح هذا النفي عن نبيه لانه عليه السلام بين الطريق لمن احب وابعض
وقوله تعالى (وَكَوْشَيْنَا لَآ تَيْنَا كُل نَفْسٍ هُدَاهَا - يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي
مَنْ يَشَاءُ) ولو كان الهدي من الله البيان وهو عام في كل نفس لما صح التقييد
بالمشيئة . وكذا قوله تعالى (وَوَلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْخَاسِرِينَ) وقوله
(وَمَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) قوله ﴿ وكلامه
يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله ﴾ ش . فانهم كما قال تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ
فَإِنَّكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ) فمن هداه الى الايمان بفضله وله الحمد ومن
اضله فبعده له وله الحمد . وسيأتي لهذا المعنى زيادة ايضاح ان شاء الله تعالى
فان الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلام في القدر في مكان واحد بل فرقه فانبت
به على ترتيبه قوله ﴿ وهو متعال عن الاضداد والانداد ﴾ ش . الضد المخالف
والند انثل وهو سبحانه لا معارض له بل ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا
مثل له كما قال تعالى (وَكَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ويشير الشيخ رحمه الله بقفي
الضد والند الى الرد على المعتزلة في زعمهم ان العبد يخلق فعله قوله ﴿ لا اراد
لقضائه ولا معقب لحكمه ولا غالب لامره ﴾ ش . اي لا يرد قضاء الله راد
ولا يعقب اي لا يؤخر حكمه مؤخر ولا يغلب امره غالب بل هو الله الواحد
انقهار قوله ﴿ آما بذلك كله وايقنا ان كلا من عنده ﴾ اما الايمان فسيأتي
الكلام عليه ان شاء الله تعالى والايقان الاستقرار من قر الماء في الحوض اذا
استقر والتنوين في كلا بدل اضافي اي كل كايين محدث من عند الله اي
بقضائه وقدره وارادته ومشيئته وتكوينه وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه
ان شاء الله تعالى . قوله ﴿ وان محمداً عبده المصطفى ونبيه المجتبي ورسوله

المرتضى * الاصطفاء والاجتباء والارتضاء متقارب المعنى واعلم ان كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم ان المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه وان الخروج عنها اكمل فهو من اجهل الخلق واصلمهم قال تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ) الى غير ذلك من الآيات وذكر الله نبيه ﷺ باسم العبد في اشرف المقامات فقال في ذكر الاسرا (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ) وقال تعالى (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ) وقال تعالى (فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ) وقال تعالى (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا) وبذلك استحق التقديم على الناس في الدنيا والآخرة ولذلك يقول المسيح عليه السلام يوم القيامة اذا طلبوا منه الشفاعة بعد الانبياء عليهم السلام « اذهبوا الى محمد عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى . وقوله وان محمداً بكسر الهمزة عطفاً على قوله : ان الله وحده لا شريك له لان الكل معمول القول اعني قوله تقول في توحيد الله والطريقة المشهورة عند اهل الكلام والنظر تقرير نبوة الانبياء بالمعجزات لكن كثير منهم لا يعرف نبوة الانبياء الا بالمعجزات وقد روي ذلك بطرق مضطربة والتزم كثير منهم انكار خرق العادات لغير الانبياء حتى انكروا كرامات الأولياء والسحر ونحو ذلك . ولا ريب ان المعجزات دليل صحيح لكن الدليل غير محصور في المعجزات فان النبوة يدعيها اصدق الصادقين او اكذب الكاذبين ولا يلتبس هذا الا على اجهل الجاهلين بل قرأت احوالها تعرب عنهما وتعرب

بهما والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة فكيف بدعوى النبوة . وما احسن ما قال حسان رضي الله عنه :

لو لم يكن فيه آيات مبيته * كانت بديهته تاتيكم بالخبر

وما من احد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له ادنى تمييز فان الرسول لا يبدن يخبر الناس بأمرهم ويأمرهم بأمرهم ولا يبدن يفعل امورا يبين بها صدقه . والكاذب ينظر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوه كثيرة والصادق ضده بل كل شخصين ادعى امرا احدهما صادق والآخر كاذب لا بد ان يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مدة اذ الصدق مستلزم للبر والكذب مستلزم للفجور كما في الصحيحين عن النبي ﷺ انه قال « عليكم بالصدق فان الصدق يهدي الى البر والبر يهدي الى الجنة ولا يزال الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقا واياكم والكذب فان الكذب يهدي الى الفجور وان الفجور يهدي الى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » ولهذا قال تعالى (هَلْ اُنبِئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ اَفَّاكٍ اَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَاكْتُرُهمْ كَاذِبُونَ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ اَلَمْ تَرَ اَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ وَاَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالًا يَقُولُونَ) فالكهان ونحوهم وان كانوا احيانا يخبرون بشيء من المغيبات ويكون صدقا فمعهم من الكذب والفجور ما يبين ان الذي يخبرون به ليس عن ملك وليسوا بانبياء ولهذا لما قال النبي ﷺ لابن صياد « قد خبأت لك خبا ففقال هو الدخ » قال له النبي ﷺ « اخسأ فلن تمدد وقدرك » يعني انما انت كاهن

وقد قال النبي ﷺ « يا أيها الناس اتقوا الله فإنه قد أنزل عليكم الكتاب لعلكم تتقون » وقال « أرى عرشا على الماء وذلك هو عرش الشيطان » وبين أن الشعراء يتبعهم الغاوون والغاوي الذي يتبع هواه وشهوته وإن كان ذلك مضر له في العاقبة فمن عرف الرسول وصدقته ووفاهه ومطابقة قوله لعلمه علم عالما يقينا أنه ليس بشاعر ولا كاهن والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة هي في المدعي للصناعات والمقالات كمن يدعي الفلاحة والفصاحة والكتابة أو علم النحو والطب والفقهاء وغير ذلك والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بد أن يتصف الرسول بها وهي أشرف العلوم وأشرف الأعمال فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب ، ولا ريب أن المحققين على أن خبر الواحد والاثنين والثلاثة قديقترن به من القرائن ما يحصل معه العلم الضروري كما يعرف الرجل رضى الرجل وجبه وبفضه وفرحه وحزنه وغير ذلك مما في نفسه بأمور تظهر على وجهه قد لا يمكن التعبير عنها كما قال تعالى (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَمَرُّ قَتْمِهِمْ بِسِيَامِكُمْ) ثم قال (وَتَلَعَّ قَتْمُهُمْ فِي حَنِّ الْقَوْلِ) وقد قيل ما أسر احد سريرة الا أظهرها الله على صفحات وجهه وقلبات لسانه فاذا كان صدق المخبر وكذبه يعلم بما يقترن من القرائن فكيف بدعوى المدعي انه رسول الله كيف يخفى صدق هذا من كذبه وكيف لا يتميز الصادق في ذلك من الكاذب بوجوه من الأدلة ، ولهذا لما كانت خديجة رضى الله عنها تعلم من النبي ﷺ انه الصادق البار قال لها لما جاءه الوحي اني قد خشيت على عقلي فقالت كلا والله لا يخزيك الله انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق فهو لم يخف من تعمد الكذب فهو يعلم من نفسه ﷺ انه لم يكذب وإنما خاف ان يكون

قد عرض له عارض سوء وهو المقام الثاني فذكرت خديجة ما ينفي هذا وهو
ما كان مجبولا عليه من مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم وقد علم من سنة الله
ان من جبيله على الاخلاق المحمودة ونزهه عن الاخلاق المذمومة فانه لا يخزيه ،
وكذلك قال النجاشي لما استخبرهم عما يخبر به واستقرام القرآن فقرأوا عليه
ان هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة وكذلك ورقة بن نوفل
لما اخبره النبي ﷺ بما رآه وكان ورقة قد تنصر وكان يكتب الانجيل بالعربية
فقال له خديجة اي عم اسمع من ابن اخيك ما يقول فاخبره النبي ﷺ بما
رأى فقال هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى وكذلك هرقل ملك الروم
فان النبي ﷺ لما كتب اليه كتابا يدعو فيه الى الاسلام طلب من كان هناك
من العرب ، وكان ابو سفيان قد قدم في طائفة من قريش في تجارة الى الشام
وسألهم عن احوال النبي ﷺ ، فسأل ابا سفيان وامر الباقي ان كذب ان
يكذبوه فصاروا بسكوتهم موافقين له في الاخبار سألم هل كان في آباءه
من ملك فقالوا لا قال هل قال هذا القول احد قبله فقالوا لا وسألهم اهو
ذو نسب فيكم فقالوا نعم ، وسألهم هل كنتم تهمونه بالكذب قبل ان يقول
ما قال فقالوا لا ماجر بنا عليه كذبا ، وسألهم هل اتبعه ضعفاء الناس ام اشرفهم
فذكروا ان الضعفاء اتبعوه ، وسألهم هل يزيدون ام ينقصون فذكروا انهم
يزيدون ، وسألهم هل يرجع احد منهم عن دينه سخطة له بعد ان يدخل فيه
فقالوا لا ، وسألهم هل قاتلتموه قالوا نعم ، وسألهم عن الحرب بينهم وبينه
فقالوا يدال علينا مرة وندال عليه اخرى ، وسألهم هل يغدر فذكروا انه
لا يغدر ، وسألهم بما ذا يأمركم فقالوا يأمرنا ان نعبد الله وحده لا نشرك به

شيئا وينها ناعما كان يعبد آباؤنا ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .
وهذه اكثر من عشر مسائل ثم بين لهم ما في هذه المسائل من الادلة فقال
سألتكم هل كان في آباءه من ملك فقلتم لا ، قلت لو كان في آباءه من ملك لقلت
رجل يطلب ملك ابيه ، وسألتكم هل قال هذا القول فيكم احد قبله فقلتم لا
فقلت لو قال هذا القول احد قبله لقلت رجل اثم بقول قيل قبله ، وسألتكم
هل كنتم تهمونونه بالكذب قبل ان يقول ما قال فقلتم لا ، فقلت قد علمت
انه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله ، وسألتكم
أضعفاء الناس يتبعونه أم اشرافهم ، فقلتم ضعفاؤهم وهم اتباع الرسل يعني
في أول امرهم ثم قال ، وسألتكم ايزيدون ام ينقصون فقلتم بل يزيدون
وكذلك الايمان حتى يتم ، وسألتكم هل يرد احد منهم عن دينه سخطة له
بعد ان يدخل فيه فقلتم لا وكذلك الايمان اذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه
احد وهذا من اعظم علامات الصدق والحق فان الكذب والباطل لا بد ان
ينكشف في آخر الامر فيرجع عنه صاحبه ويمتنع عنه من لم يدخل فيه والكذب
لا يروج الا قليلا ثم ينكشف ، وسألتكم كيف الحرب بينكم وبينه فقلتم انها
دول ، وكذلك الرسل تبطل وتكون العاقبة لها ، قال وسألتكم هل يغدر فقلتم لا
وكذلك الرسل لا تغدر وهو لما كان عنده من علمه بعادة الرسل وسنة الله
فيهم انه تارة ينصرهم وتارة يبتليهم وانهم لا يغدرون علم ان هذه علامات
الرسل وان سنة الله في الانبياء والمؤمنين ان يبتليهم بالسراء والضراء لينالوا
درجة الشكر والصبر . كما في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال « والذي نفسي
بيده لا يقضي الله له مؤمن قضاء الا كان خيرا له وليس ذلك لاحد الا للمؤمن

ان اصابته سرء شكر فكان خيرا له وان اصابته ضراء صبر فكان خيرا له
والله تعالى قد بين في القرآن ما في ادالة العدو عليهم يوم احد من الحكمة
فقال (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) الآيات وقال تعالى
(الْم أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) الآيات
الى غير ذلك من الآيات والاحاديث الدالة على سنته في خلقه وحكمته التي
بهرت العقول قال، وسألنكم عما يأمر به فذكرتم انه يأمركم ان تعبدوا الله ولا
تشرکوا به شيئا ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة وبينهاكم عما كان
يعبد آباؤكم وهذه صفة نبي وقد كنت اعلم ان نبيا يبعث ولم اكن اعلم منه
ولوددت اني اخلص اليه ولولا ما انا فيه من الملك لذهبت اليه وان يكن
ما تقول حقا فسيملك موضع قدي هاتين وكان المخاطب بذلك ابو سفيان بن
حرب وهو حينئذ كافر من اشد الناس بغضا وعداوة للنبي ﷺ ، قال ابو
سفيان بن حرب فقلت لاصحابي ونحن خرج لقد امر امر ابن ابي كبشة
انه ليعظمه ملك بني الاصفى وما زلت موقنا بان امر النبي ﷺ سيظهر حتى
ادخل الله على الاسلام وانا كاره. ومما ينبغي ان يعرف ان ما يحصل في القلب
بمجموع امور قد لا يستقل بعضها به بل ما يحصل للانسان من شفيق ووزير
وشكر وفرح وغم بامور مجتمعة لا يحصل ببعضها لكن ببعضها قد يحصل
بعض الامر وكذلك العلم بمنجر من الاخبار فان خبر الواحد يحصل للقلب نوع
ظن ثم الآخر يقويه الى ان ينتهي الى العلم حتى يتزايد ويقوى وكذلك الادلة
على الصدق والكذب ونحو ذلك، وايضا فان الله سبحانه اتق في العالم الآثار
الدالة على ما فعله بانبيائه والمؤمنين من الكرامة وما فعله بمكذبيهم من العقوبة

كثيوت الطوفان واغراق فرعون وجنوده ، ولما ذكر سبحانه قصص
الأنبياء نبيا بعد نبي في سورة الشعراء كقصّة موسى وإبراهيم ونوح ومن
بعده يقول في آخر كل قصة (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ
وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) وبالجملّة فالعلم بأنه كان في الأرض من يقول
انه رسول الله وان اقواما اتبعوه وان اقواما خالفوه وان الله نصر الرسل
والمؤمنين وجعل العاقبة لهم وعاقب اعداءهم هو من اظهر العلوم المتواترة
واجلاها ونقل اخبار هذه الأمور اظهر واوضح من نقل اخبار من مضى
من الأمم من ملوك الفرس و علماء الطب كبقراط وجالينوس وبطليموس
وسقراط وافلاطون وارسطو واتباعه ونحن اليوم اذا علمنا بالتواتر من احوال
الأنبياء واوليائهم واعدائهم علمنا يقيناً انهم كانوا صادقين على الحق من وجوه
متعددة : منها انهم اخبروا الامم بما سيكون من انتصارهم وخذلان اولئك
وبقاء العاقبة لهم . ومنها ما حدثه الله لهم من نصرهم واهلاك عدوهم اذا عرف
الوجه الذي حصل عليه كغرق فرعون وغرق قوم نوح وبقية احوالهم عرف
صدق الرسل . ومنها ان من عرف ما جاءت به الرسل من الشرائع وتفصيل
احوالها تبين له انهم اعلم الخلق وانه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل وان
فيما جاءوا به من المصلحة والرحمة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم
ومنع ما يضرهم ما يبين انه لا يصدر الا عن راحم بر يقصد غاية الخير والمنفعة
للخلق . ولذا كردلائل نبوة محمد ﷺ من المعجزات وبسطها موضع آخر وقد
افردھا الناس بمصنفات كالبيهقي وغيره بل انكار رسالته ﷺ طعن في الرب
تبارك وتعالى ونسبة له الى الظلم والسفّه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً بل جهد

للرب بالكلية وانكار. ويان ذلك انه اذا كان محمد عندهم ليس بنبي صادق بل ملك
ظالم فقد تمهياً له ان يفترى على الله ويتقول عليه ويستمر حتى يحلل ويحرم
ويفرض الفرائض ويشرع الشرائع وينسخ الملل ويضرب الرقاب ويقتل
اتباع الرسل وعم اهل الحق ويسبي نساءهم ويفتم امواهم وديارهم ويتم له ذلك
حتى تفتح الأرض وينسب ذلك كله الى امر الله له به ومحبتة له والرب تعالى
يشاهده وهو يفعل بأهل الحق وهو مستمر في الاقتراء عليه ثلاثا وعشرين
سنة وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره ويعلي امره ويمكن له من اسباب النصر
الخارجة عن عادة البشر وابلغ من ذلك انه يجيب دعواته ويهلك اعداءه ويرفع
له ذكره هذا وهو عندهم في غاية الكذب والاقتراء والظلم فانه لا اظلم ممن
كذب على الله واطل شرائع انبيائه وبدلها وقتل اوليائه واستمرت نصرته
عليهم دائماً والله تعالى يقره على ذلك ولا يأخذ منه باليمين ولا يقطع منه الوتين
فيلزمهم ان يقولوا لاصانع للعالم ولا مدبر ولو كان له مدبر قدبر حلیم لاخذ على يديه
ولقابلة اعظم مقابلة وجعله نكالا لاصالحين اذ لا يليق بالملك غير ذلك فكيف
بملك الملوك واحكم الحاكمين . ولا ريب ان الله تعالى قدر فع له ذكره واظهر دعوته
والشهادة له بالتبوة على رءوس الاشهاد في سائر البلاد ونحن لاننكر ان كثيرا
من الكذابين قائم في الوجود وظهرت له شوكة ولكن لم يتم امره ولم تطل مدته
بل يسلط الله عليه رسله واتباعهم وقطعوا دابره واستأصاوه . هذه سنة الله
التي قدخلت من قبل حتى ان الكفار يعلمون ذلك . قال تعالى (اَمْ يَقُولُونَ
شَاعِرٌ تَتَّبِصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَاِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ) افلا تراه
يخبر ان كماله وحكمته وقدرته تآبى ان يقر من تقول عليه بعض الاقويل لابدان

يجمعه عبادة لعباده كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه . وقال تعالى (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخَيِّمَ عَلَى قَلْبِكَ) . وهنا انتهى جواب الشرط ثم اخبر خبراً جاز ما غير معلق انه يمحق الباطل ويحقق الحق وقال تعالى (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ) فأخبر سبحانه ان من نفي عنه الارسال والكلام لم يقدره حق قدره . وقد ذكروا فروقا بين النبي ﷺ والرسول واحسنها ان من نبأه الله بخبر السماء ان امره ان يبلغ غيره فهو نبي رسول وان لم يأمره ان يبلغ غيره فهو نبي وليس برسول فالرسول اخص من النبي فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا ولكن الرسالة اعم من جهة نفسها فالنبوة جزء من الرسالة اذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف الرسل فانهم لا يتناولون الانبياء وغيرهم بل الامر بالعكس فالرسالة اعم من جهة نفسها واخص من جهة اهلها وارسال الرسل من اعظم نعم الله على خلقه وخصوصاً محمداً ﷺ كما قال تعالى (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) قوله ﴿ وانه خاتم الانبياء ﴾ قال تعالى (وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) وقال ﷺ « مثلي ومثل الانبياء كمثل قصر احسن بناؤه وترك منه موضع لبنه فطاف به النظار يتعجبون من حسن بناءه الاموضع تلك اللبنة لا يعيرون سواها فكنتم انا سدوت موضع تلك اللبنة ختم بي البنيان وختم بي الرسل » اخرجاه في الصحيحين وقال ﷺ « ان لي اسما انا محمد وانا احمد وانا الماحي يمحو الله بي الكفر وانا الحاشر الذي يحشر الناس

على قدي وانا العاقب والعاقب الذي ليس بعده نبي « وفي صحيح مسلم عن ثوبان
قال قال رسول الله ﷺ « وانه سيكون في امتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم انه
نبي وانا خاتم النبيين لا نبي بعدي » الحديث ، ولمسلم ان رسول الله ﷺ قال
« فضلت على الانبياء بست : اعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب واحلت
لي الغنائم وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا وارسلت الى الخلق كافة وختم
بي النبيون » قوله ﴿ وامام الاتقياء ﴾ الامام الذي يؤتم به اي يقتدون به
والنبي ﷺ انما بعث للاقتداء به لقوله تعالى (قُلْ اِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِي
يُحْبِبْكُمُ اللّٰهُ) وكل من اتبعه واقتدى به فهو من الاتقياء قوله ﴿ وسيد المرسلين ﴾
ش. قال ﷺ « اناسيد ولد آدم يوم القيمة واول من ينشق عنه القبر واول شافع
واول مشفع » رواه مسلم وفي اول حديث الشفاعة « اناسيد الناس يوم القيمة »
وروى مسلم والترمذي عن وائلة بن الاسقع قال قال رسول الله ﷺ « ان الله
اصطفى كنانة من ولد اسمعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى بني هاشم من
قريش واصطفاني من بني هاشم » فان قيل يشكل على هذا قوله ﷺ
« لا تفضلوني على موسى فان الناس يصعقون يوم القيمة فاكون اول من
يفيق فاجد موسى باطشا بساق العرش فلا ادري هل افاق قبلي او كان ممن
استثنى الله » خرجه في الصحيحين فكيف يجمع بين هذا وبين قوله اناسيد
ولد آدم ولا نفر . (فالجواب) ان هذا كان له سبب فانه كان قد قال يهودي لا
والذي اصطفى موسى على البشر فلطمه مسلم وقال اتقول هذا ورسول الله ﷺ
بين اظهرنا نجاء اليهودي فاشتكى من المسلم الذي لطمه فقال النبي ﷺ هذا لأن
التفضيل اذا كان على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس كان مذموما بل

نفس الجهاد اذا قاتل الرجل حمية وعصية كان مذموما فان الله حرم الفخر
وقد قال تعالى (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ) وقال تعالى (تِلْكَ الرُّسُلُ
فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) فعمل ان
المذموم انما هو التفضيل على وجه الفخر او على وجه الانتقاص بالمفضول
وعلى هذا يحمل ايضا قوله عليه السلام « لا تفضلوا بين الانبياء » ان كان ثابتا فان
هذا قد روي في نفس حديث موسى وهو في البخاري وغيره لكن بعض
الناس يقول ان فيه علة بخلاف حديث موسى فانه صحيح لاعلة فيه باتفاقهم ،
وقد اجاب بعضهم بجواب آخر وهو ان قوله عليه السلام « لا تفضلوني على موسى »
وقوله لا تفضلوا بين الانبياء نهي عن التفضيل الخاص اي لا يفضل بعض الرسل
على بعض بعينه بخلاف قوله اناسيد ولد آدم ولا تفرقانه تفضيل عام فلا يمنع منه
وهذا كما لو قيل فلان افضل اهل البلد لا ينصب على افرادم بخلاف مالو
قيل لأحدم : فلان افضل منك . ثم اني رأيت الطحاوي قد اجاب بهذا الجواب
في شرح معاني الآثار . واما ما يروى ان النبي عليه السلام قال « لا تفضلوني على يونس
ابن متى » وان بعض الشيوخ قال : لا يفسر لهم هذا الحديث حتى يعطى ما لا جز بلا
فلما اعطوه فسرهم بأن قرب يونس من الله وهو في بطن الحوت كقربي من
الله ليلة المعراج وعدوا هذا تفسيرا عظيما وهذا يدل على جهلهم بكلام الله وبكلام
رسوله لفظا ومعنى فان هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه احد من اهل الكتب
التي يعتمد عليها وانما اللفظ الذي في الصحيح « لا ينبغي لعبد ان يقول انا خير من
يونس بن متى » . وفي رواية « من قال انا خير من يونس بن متى فقد كذب »
وهذا اللفظ يدل على العموم اي لا ينبغي لأحد ان يفضل نفسه على يونس بن

متى ليس فيه نهى المسلمين ان يفضلوا محمداً على يونس وذلك لان الله تعالى قد
اخبر عنه ان التقمه الحوت وهو مليم اي فاعل ما يلام عليه . وقال تعالى
(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ
إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) فقد يقع في نفس بعض الناس انه
اكمل من يونس فلا يحتاج الى هذا المقام اذ لا يفعل ما يلام عليه ومن ظن
هذا فقد كذب بل كل عبد من عباد الله يقول ما قال يونس ان لا اله الا انت
سبحانك اني كنت من الظالمين كما قال اول الانبياء و آخرهم فأولهم آدم قد
قال : ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . و آخرهم
وافضلهم وسيدهم محمد ﷺ قال في الحديث الصحيح حديث الاستفتاح من
رواية علي بن ابي طالب وغيره بعد قوله وجهت وجهي الى آخره « اللهم انت
الملك لا اله الا انت ، انت ربي وانا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي
ذنوبي جميعا لا يغفر الذنوب الا انت » الى آخر الحديث . وكذا قال موسى
عليه السلام : رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفرله انه هو الغفور الرحيم .
وايضا فيونس ﷺ لما قيل فيه فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت
فنهى نبينا عن التشبه به وامره بالتشبه بأولي العزم حيث قيل فاصبر كما صبر اولوا
العزم من الرسل فقد يقول من يقول : انا خير من يونس . للأفضل ان يفخر
على من دونه فكيف اذا لم يكن افضل فان الله لا يحب كل مختال فخور وفي
صحيح مسلم عن النبي ﷺ انه قال « اوحى الي ان تواضعوا حتى لا يفخر احد
على احد ولا يبني احد على احد » فالله تعالى نهى ان يفخر على عموم المؤمنين
فكيف على نبي كريم . فهذا قال لا ينبغي لأحد ان يقول : انا خير من يونس

ابن متى فهذا نبي عام لكل احد ان يفضل ويفتخر على يونس وقوله من قال
اني خير من يونس بن متى فقد كذب فانه لو قدر انه كان افضل فهذا الكلام
يصير نقصاً فيكون كاذباً وهذا لا يقوله نبي كريم بل هو تقدير مطلق اي من
قال هذا فهو كاذب وان كان لا يقوله نبي كما قال تعالى (اِنَّ اَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ
عَمَلُكَ) وان كان عليه السلام معصوماً من الشرك لكن الوعد والوعيد لبيان مقادير
الأعمال . وانما اخبر عليه السلام انه سيد ولد آدم لأننا لا يمكننا ان نعلم ذلك الا
بخبرة اذ لا نبي بعده يخبرنا بعظيم قدره عند الله كما اخبرنا هو بفضائل الانبياء
قبله صلى الله عليهم وسلم اجمعين . ولهذا اتبعه بقوله ولا تخر كما جاء في رواية
وهل يقول « من يؤمن بالله واليوم الآخر ان مقام الذي اسرى به الى ربه وهو
مقرب معظم مكرم كمقام الذي التقي في بطن الحوت وهو مليم » وابن المعظم المقرب
من الممتحن المؤدب فهذا في غاية التقريب وهذا في غاية التأديب فانظر الى هذا
الاستدلال لان بهذا المعنى المحرف اللفظ لم يقله الرسول وهل يقاوم هذا الدليل
على نفي عاوانه تعالى على خلقه للأدلة الصحيحة الصريحة القطعية على علوانه تعالى
على خلقه التي تزيد على الف دليل كما يأتي الاشارة اليها عند قول الشيخ رحمه الله
محيط بكل شيء وفوقه ان شاء الله تعالى . قوله « وحبيب رب العالمين » ش .
ثبت له عليه السلام اعلى مراتب المحبة وهي الخلة كما صح عنه عليه السلام انه قال « ان الله اتخذني
خليلاً كما اتخذ ابراهيم خليلاً » وقال « ولو كنت متخذاً من اهل الارض خليلاً
لا اتخذت ابا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الرحمن » والحديثان في الصحيح
وهما يبطلان قول من قال الخلة لابراهيم والمحبة لمحمد فابراهيم خليل الله ومحمد
حبيبه ، وفي الصحيح ايضاً اني ابرأ الى كل خليل من خلته والمحبة قد ثبتت

لغيره قال تعالى (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ - فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ - إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) فبطل قول من خص اخلة بابراهيم والمحبة بمحمد
بل اخلة خاصة بهما والمحبة عامة وحديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه
الترمذي الذي فيه ان ابراهيم خليل الله الا وانا حبيب الله ولا خفر لم يثبت
والمحبة مراتب . (اولها) العلاقة وهي تعلق القلب بالمحبوب . (والثانية) الارادة
وهي ميل القلب الى محبوبه وطلبه له (الثالثة) الصباية وهي انصباب القلب
اليه بحيث لا يملكه صاحبه كانه باب الماء في الحدور (الرابعة) الغرام وهي الحب
اللازم للقلب ومنه الغريم لللازمته ومنه ان عذابها كان غراما (الخامسة) المودة
والود وهي صفو المحبة وخالصها ولها قال تعالى (سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا)
(السادسة) الشغف وهي وصول المحبة الى شغاف القلب (السابعة) العشق وهو
الحب المفرط الذي يخاف على صاحبه منه ولكن لا يوصف به الرب تعالى ولا
العبد في محبة ربه وان كان قد اطلقه بعضهم واختلف في سبب المنع فقيل عدم
التوقيف وقيل غير ذلك ولعل امتناع اطلاقه ان العشق محبة مع شهوة (الثامنة)
التقسيم وهو بمعنى التعبد (التاسعة) التعبد (العاشرة) اخلة وهي المحبة التي تخللت
روح المحب وقلبه وقيل في ترتيبها غير ذلك وهذا الترتيب تقريب حسن لا
يعرف حسنه الا بالتأمل في معانيه . واعلم ان وصف الله تعالى بالمحبة واخلة هو
كما يليق بجلال الله تعالى وعظمته كسائر صفاته تعالى وانما يوصف الله تعالى من
هذه الانواع بالارادة والود والمحبة واخلة حينما ورد النص ، وقد اختلف
في تحديد المحبة على اقوال نحو ثلاثين قولاً ولا تحد المحبة بحد اوضح منها
فالحدود لا تزيد الا خفياً وهذه الاشياء الواضحة لا تحتاج الى تحديد كالماء والهواء

والتراب والجوع ونحو ذلك قوله ﴿ وكل دعوة النبوة بعده فني وهوى ﴾ ش .
لما ثبت انه خاتم النبيين علم ان من ادعى بعده النبوة فهو كاذب ولا يقال فلو جاء
المدعي للنبوة بالمعجزات الخارقة والبراهين الصادقة كيف يقال بتكذيبه لانا
نقول هذا لا يتصور ان يوجد وهو من باب فرض المحال لأن الله تعالى لما
اخبر انه خاتم النبيين . فمن المحال ان يأتي مدع يدعي النبوة ولا يظهر اماراة
كذبه في دعواه والنبي ضد الرشاد والهوى عبارة عن شهوة النفس اي ان تلك
الدعوى بسبب هوى النفس لاعن دليل فتكون باطلة قوله ﴿ وهو المبعوث
الى عامة الجن وكافة الورى بالحق والهدى والنور والضياء ﴾ اما كونه مبعوثا
الى عامة الجن فقال تعالى حكاية عن قول الجن (يَا قَوْمَنَا اٰحِبُّوْا دَاعِيَ اللّٰهِ)
الآية وكذا سورة الجن تدل على انه ارسل اليهم ايضا قال مقاتل لم يبعث الله
رسولا الى الانس والجن قبله وهذا قول بعيد فقد قال تعالى (يَا مَعْشَرَ
الْجِنِّ وَالْإِنْسِ اَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُوْلٌ مِّنْكُمْ) الآية والرسل من الانس فقط وليس
من الجن رسول كذا قال مجاهد وغيره من السلف والخلف ، وقال ابن عباس
الرسل من نبي آدم ومن الجن نذر وظاهر قوله تعالى حكاية عن الجن (اِنَّا سَمِعْنَا
كِتَابًا اُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى) الآية يدل على ان موسى مرسل اليهم ايضا والله اعلم .
وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم انه زعم ان في الجن رسلا واحتج بهذه
الآية الكريمة ، وفي الاستدلال بها على ذلك نظر لانها محتملة وليست بصريحة
وهي والله اعلم كقوله (يَخْرُجُ مِنْهَا التُّورُ وَالْمَرْجَانُ) والمراد من احدهما واما
كونه مبعوثا الى كافة الورى فقد قال (وَمَا اَرْسَلْنَاكَ اِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيْرًا
وَنَذِيْرًا) وقد قال تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اِنِّي رَسُوْلُ اللّٰهِ اِلَيْكُمْ جَمِيْعًا) وقال تعالى

(وَأَوْحِيَ إِلَىٰ هَذَا الْقُرْآنِ لِأَنَّ نَذِيرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) أي وأنذر من بلغه وقال تعالى
(وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكُنْفِي بِاللَّهِ شَهِيدًا) وقال تعالى (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ
أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ
رَبِّهِمْ) الآية وقال تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ
نَذِيرًا) وقد قال تعالى (وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ
أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ) وقال ﷺ « اعطيت خمسا
لم يعطهن احد من الانبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الارض
مسجدا وطهورا فايما رجل من امتي ادركته الصلاة فليصل واحلت لي الغنائم
ولم تحل لاحد قبلي واعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت
الى الناس عامة » اخرجاه في الصحيحين وقال ﷺ « لا يسمع بي رجل من هذه
الامة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي الا دخل النار » رواه مسلم وكونه
ﷺ مبعوثا الى الناس كافة معلوم من دين الاسلام بالضرورة . واما قول
النصارى انه رسول الى العرب خاصة فظاهر البطلان فانهم لما صدقوا بالرسالة
لزمهم تصديقه في كل ما يخبر به . وقد قال انه رسول الله الى الناس عامة
والرسول لا يكذب فلزم تصديقه حتما فقد ارسل رسله وبعث كتبه في اقطار
الارض الى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وسائر ملوك الاطراف يدعو
الى الاسلام وقوله وكافة الوري في جر كافة نظر، فانهم قالوا لم تستعمل كافة
في كلام العرب الاحالا واختلفوا في اعرابها في قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ) على ثلاثة اقوال . (احدها) انها حال من الكاف في ارسلناك
وهي اسم فاعل والتاء فيها للمباينة اي الا كافا للناس عن الباطل وقيل هي مصدر
كف فيه بمعنى كفا اي الاتكف الناس كفا وقوع المصدر حالا كثير (الثاني)

انها حال من الناس واعترض بان حال المجرور لا يتقدم عليه عند الجمهور واجيب
بانه قد جاء عن العرب كثير افوجب قبوله وهو اختيار ابن مالك اى (وما ارسلناك
الا للناس بما كافة) (الثالث) انها صفة لمصدر محذوف اى ارساله كافة واعترض بما
تقدم انها لم تستعمل الا حالا . وقوله بالحق والهدى وبالنور والضياء هذه
اوصاف ما جاء به رسول الله ﷺ من الدين والشرع المؤيد بالبراهين الباهرة
من القرآن وسائر الادلة والضياء اكمل من النور قال تعالى (هُوَ الَّذِي جَعَلَ
الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا) قوله ﴿ وان القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية
قولا وانزله على رسوله وحيا وصدقه المؤمنون على ذلك حقا وايقنوا انه كلام
الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية فمن سمعه فزعم انه كلام البشر
فقد كفر وقد ذمه الله وعابه واوعده بسقر حيث قال تعالى (سَأَصْلِيهِ سَقَرًا)
فلما أوعده الله بسقر لمن قال (ان هذا الا قول البشر) علمنا وايقنا انه قول
خالق البشر ولا يشبه قول البشر ﴿ ش . هذه قاعدة شريفة واصل كبير من
اصول الدين ضل فيه طوائف كثيرة من الناس وهذا الذي حكاه الطحاوي
رحمه الله هو الحق الذي دلت عليه الادلة من الكتاب والسنة لمن تدبرها
وشهدت به الفطرة السليمة التي لم تغير بالشبهات والشكوك والاراء الباطلة
وقد افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة اقوال . (احدها) ان كلام الله
هو ما يفيض على النفوس من المعاني اما من العقل الفعال عند بعضهم او من
غيره وهذا قول الصابئة والمتفلسفة . (وثانيها) انه مخلوق خلقه الله منفصلا
عنه وهذا قول المعتزلة . (وثالثها) انه معنى واحد قائم بذات الله هو الأمر
والنهي والخبر والاستخبار وان عبر عنه بالعربية كان قرآنا وان عبر عنه بالعبيرانية

كان توراة وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه كالأشعري وغيره . (ورابعها)
انه حروف واصوات ازلية مجتمعة في الازل وهذا قول طائفة من اهل الكلام
ومن اهل الحديث . (وخامسها) انه حروف واصوات لكن تكلم الله بها
بعد ان لم يكن متكلمًا وهذا قول الكرامية وغيرهم . (وسادسها) ان كلامه
يرجع الى ما يحدثه من علمه و ارادته القائم بذاته وهذا يقوله صاحب المعتبر ويميل
اليه الرازي في المطالب العالية . (وسابعها) ان كلامه يتضمن معنى قائمًا بذاته
هو ما خلقه في غيره وهذا قول ابي منصور الماتريدي . (وثامنها) انه مشترك
بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلق في غيره من الاصوات وهذا
قول ابي المعالي ومن تبعه . (وتاسعها) انه تعالى لم يزل متكلمًا اذا شاء ومتى شاء
وكيف شاء وهو يتكلم به بصوت سمع وان نوع الكلام قديم وان لم يكن
الصوت المعين قديمًا وهذا المأثور عن ائمة الحديث والسنة وقول الشيخ رحمه
الله وان القرآن كلام الله ان بكسر الهمزة عطف على قوله ان الله واحد
لا شريك له ثم قال وان محمدا عبده المصطفى وكسر همزة ان في المواضع الثلاثة
لانها معمول القول اعني قوله في اول كلامه تقول في توحيد الله . وقوله كلام
الله منه بدا بلا كيفية قولاً رد على المعتزلة وغيرهم فان المعتزلة تزعم ان القرآن
لم يبد منه كما تقدم حكاية قولهم قالوا و اضافته اليه اضافة تشريف كبيت الله
وناقة الله يحرفون الكلام عن مواضعه وقولهم باطل فان المضاف الى الله تعالى
معان واعيان فاضافة الاعيان الى الله للتشريف وهي مخلوقة له كبيت الله
وناقة الله بخلاف اضافة المعاني كعلم الله وقدرته وعزته وجلاله وكبريائه وكلامه
وحياته وعلوه وقهره فان هذا كله من صفاته لا يمكن ان يكون شيء من ذلك

مخلوقا والوصف بالتكلم من اوصاف الكمال وضده من اوصاف النقص قال تعالى
(وَآتَخَذَ قَوْمٌ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ عَجَلًا جَدًّا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ
لَا يَكْلُمُهُمْ وَلَا يَهْتَدِيهِمْ سَبِيلًا) فكان عباد العجل مع كفرهم اعرف بالله
من المعتزلة فانهم لم يقولوا لموسى وربك لا يتكلم ايضا وقال تعالى عن العجل
ايضا (أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا بَلَاءٌ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) فلم ان
نفي رجوع القول ونفي التكلم نقص يستدل به على عدم الوهية العجل وغاية
شبهتهم انهم يقولون يلزم منه التشبيه والتجسيم فيقال لهم اذا قلنا انه تعالى
يتكلم كما يليق بجلاله انتفت . الاترى انه تعالى قال (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ
وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ) فنحن نؤمن انها تكلم ولا نعلم كيف تتكلم
وكذا قوله تعالى (وَقَالُوا لَوْلَا دَرَمَ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي
أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) وكذلك تسبيح الحصى والطعام وسلام الحجر كل ذلك بلا
فم يخرج منه الصوت الصاعد من لديه المعتمد على مقاطع الحروف ، والى
هذا اشار الشيخ رحمه الله بقوله منه بدا بلا كيفية قولاً اي ظهر منه ولا ندرى
كيفية تكلمه به واكد هذا المعنى بقوله قولاً اي بالمصدر المعرف للحقيقة كما
اكد الله تعالى الكلام بالمصدر المثبت النافي للمجاز في قوله (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ
تَكَلِّمًا) فاذا بعد الحق الا الضلال ، ولقد قال بعضهم لابي عمرو بن العلاء
احد القراء السبعة اريد ان تقرأ وكلم الله موسى بنصب اسم الله ليكون موسى
هو المتكلم لا الله فقال له ابو عمرو هب اني قرأت هذه الآية كذا فكيف
تصنع بقوله تعالى (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) فهبت المعتزلي وكم في
الكتاب والسنة من دليل على تكلم الله تعالى لاهل الجنة وغيرهم قال تعالى

سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ) عن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ
«يدنا اهل الجنة في نعيمهم اذ سَطَعَ لهم نور فرفعوا ابصارهم فاذا الرب
جل جلاله قد اشرف عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا اهل الجنة وهو
قول الله تعالى (سلام قولاً من رب رحيم) فلا يلتفتون الى شيء مما هم فيه
من النعيم ماداموا ينظرون اليه حتى يحتجب عنهم وتبقى بركته ونوره» رواه
ابن ماجه وغيره في هذا الحديث اثبات صفة الكلام واثبات الرؤية واثبات
العلو وكيف يصح مع هذا ان يكون كلام الرب كله معنى واحدا وقال تعالى
(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَأَخْلَقُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ
وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ) فاهانهم بترك تكليمهم والمراد انه لا يكلمهم
تكليم تكريم هو الصحيح اذ قد اخبر في الآية الاخرى انه يقول لهم في النار
اخسأوا فيها ولا تكلمون فلو كان لا يكلم عباده المؤمنين لكانوا في ذلك هم واعداؤه
سواء ولم يكن في تخصيص اعدائه بانه لا يكلمهم فائدة اصلا وقال البخاري في صحيح
باب كلام الرب تبارك وتعالى مع اهل الجنة وساق فيه عدة احاديث فافضل نعيم اهل
الجنة رؤية وجهه تبارك وتعالى وتكليمه لهم فانكار ذلك انكار لروح الجنة واعلى
نعيمها وافضله الذي ما طابت لاهلها الا به . واما استدلالهم بقوله تعالى (اللَّهُ
خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) والقرآن شيء فيكون داخلا في عموم كل فيكون مخلوقا
فن اعجب العجب . وذلك ان افعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى وانما يخلقها
العباد جميعها لا يخلقها الله فاخرجوها من عموم كل وادخلوا كلام الله في عمومها
مع انه صفة من صفاته به تكون الاشياء المخلوقة اذ بأمره تكون المخلوقات
قال تعالى (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ مَسْخَرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

ففرق بين الخلق والأمر فلو كان الأمر مخلوقا للزم ان يكون مخلوقا بأمر آخر
والآخر بآخر الى ما لانهاية له فيلزم التسلسل وهو باطل وطرده باطلهم ان
تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة كالعلم والقدرة وغيرها وذلك صريح الكفر
فان علمه شيء وقدرته شيء وحياته شيء فيدخل ذلك في عموم كل فيكون
مخلوقا بعد ان لم يكن، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا وكيف يصح ان يكون
متكلما بكلام يقوم بغيره ولو صح ذلك للزم ان يكون ما احده من الكلام في
الجمادات كلامه وكذلك ايضا ما خلقه في الحيوانات ولا يفرق حينئذ بين نطق
وانطق وانما قالت الجلود انطقنا الله ولم تقل نطق الله بل يلزم ان يكون متكلما
بكل كلام خلقه في غيره زورا كان او كذبا او كفرا وهديانا تعالى الله عن ذلك .
وقد طرد ذلك الاتحادية فقال ابن عربي

وكل كلام في الوجود كلامه * سواء علينا شره و نظامه

ولو صح ان يوصف احد بصفة قامت بغيره لصح ان يقال للبصير اعمى
وللأعمى بصير لأن البصير قد قام وصف العمى بغيره والأعمى قد قام وصف
البصر بغيره. ولصح ان يوصف الله تعالى بالصفات التي خلقها في غيره من
الألوان والروائح والطعوم والطول والقصر ونحو ذلك . وبمثل ذلك الزم
الامام عبد العزيز المكي بشرا المريسي بين يدي المأمون بعد ان تكلم معه
مانتما ان لا يخرج عن نص التنزيل وألزمه الحجة فقال بشر : يا امير المؤمنين
ليدع مطالبتي بنص التنزيل وينظرني بغيره فان لم يدع قوله ويرجع عنه ويقر
بخلق القرآن الساعة والا فدمي حلال قال عبد العزيز : تسألني أم أسألك فقال
بشر انت وطمع في . فقلت له : يلزمك واحدة من ثلاث لا بد منها . اما ان

تقول ان الله خلق القرآن وهو عندي انا كلامه في نفسه او خلقه قائما بذاته
ونفسه او خلقه في غيره قال اقول : خلقه كما خلق الأشياء كلها وحاد عن
الجواب فقال المأمون : اشرح انت هذه المسئلة ودع بشرا فقد انقطع فقال
عبد العزيز : ان قال خلق كلامه في نفسه فهذا محال لأن الله لا يكون محالا
للحوادث المخلوقة ولا يكون منه شيء مخلوقا وان قال خلقه في غيره فهو كلامه
وان قال خلقه قائما بنفسه وذاته فهذا محال لا يكون الكلام الامن متكلم كما
لا تكون الارادة الامن مرید ولا العلم الا من عالم ولا يعقل كلام قائم بنفسه
يتكلم بذاته فلما استحال من هذه الجهات ان يكون مخلوقا علم انه صفة لله
هذا مختصر من كلام الامام عبد العزيز في الحيدة وعموم كل في كل موضع
بحسبه ويعرف ذلك بالقرائن الاترى الى قوله تعالى (تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ
رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَکِينُهُمْ) ومساكنهم شيء ولم تدخل في عموم كل
شيء دمرته الريح وذلك لأن المراد تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة
وما يستحق التدمير وكذا قوله تعالى حكاية عن بلقيس (وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ
شَيْءٍ) المراد من كل شيء يحتاج اليه الملوك وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام
اذ مراد الهدهد انها ملكة كاملة في امر الملك غير محتاجة الى ما يكمل به امر
ملكها . ولهذا نظائر كثيرة والمراد من قوله تعالى خالق كل شيء اي كل شيء مخلوق
وكل موجود سوى الله فهو مخلوق فدخل في هذا العموم افعال العباد حتما ولم يدخل
في العموم الخالق تعالى وصفاته ليست غيره لانه سبحانه وتعالى هو الموصوف
بصفات الكمال وصفاته ملازمة لذاته المقدسة لا يتصور انفصال صفاته عنه كما تقدم
الاشارة الى هذا المعنى عند قوله ما زال بصفاته قديما قبل خلقه بل نفس ما استدلوا

به يدل عليهم فاذا كان قوله تعالى (خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) مخلوقا لا يصلح ان يكون دليلا
واما استدلالهم بقوله تعالى (اِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) فما افسده من استدلال
فان جعل اذا كان بمعنى خلق يتعدى الى مفعول واحد كقوله تعالى (وَجَعَلَ
الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) وقوله تعالى (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ اَفَلَا يُؤْمِنُونَ -
وَجَعَلْنَا فِي الْاَرْضِ رَوَاسِيًا اَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ -
وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّٰنًا مَّحْفُوظًا) واذا تعدى الى مفعولين لم يكن بمعنى خلق
قال تعالى (وَلَا تَنْقُضُوا الْاَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّٰهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا)
وقال تعالى (وَلَا تَجْمَعُوا اللّٰهَ عُرْضَةً لِاِيْمَانِكُمْ) وقال تعالى (الَّذِيْنَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ
عِضِيْنَ) وقال تعالى (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُوْلَةً اِلَىٰ عُنُقِكَ) وقال تعالى (وَلَا تَجْعَلْ
مَعَ اللّٰهِ اِلٰهًا اٰخَرَ) وقال تعالى (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِيْنَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ اِنۡاْنَا)
ونظائره كثيرة فكذا قوله تعالى (اِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) . وما افسد
استدلالهم بقوله تعالى (نُودِيَ مِنَ شَاطِئِ الْوَادِي الْاَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ
مِنَ الشَّجَرَةِ) على ان الكلام خلقه الله تعالى في الشجرة فسمعه موسى النداء من
وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها فان الله تعالى قال (فَلَمَّا اَتَاهَا نُودِيَ مِنَ
شَاطِئِ الْوَادِي الْاَيْمَنِ) والنداء هو الكلام من بعد فسمع موسى النداء من
حافة الوادي ثم قال (فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ) اي ان النداء كان في
البقعة المباركة من عند الشجرة كما يقول سمعت كلام زيد من البيت يكون
من البيت لا ابتداء الغاية لا ان البيت هو المتكلم ولو كان الكلام مخلوقا في
الشجرة لكانت الشجرة هي القائلة يا موسى اني انا الله رب العالمين . وهل قال
اني انا الله رب العالمين غير رب العالمين ولو كان هذا الكلام بدا من غير

الله لكان قول فرعون انا ربكم الاعلى صدقا اذ كل من الكلامين عندهم مخلوق قد قاله غير الله وقد فرقوا بين الكلامين على اصولهم الفاسدة ان ذلك كلام خلقه الله في الشجرة وهذا كلام خلقه فرعون خرفوا وبدلوا واعتقدوا خالفا غير الله . وسيأتي الكلام على مسألة افعال العباد ان شاء الله تعالى فان قيل فقد قال تعالى (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) وهذا يدل على ان الرسول احده اما جبرائيل او محمد قيل ذكر الرسول معرف انه مبلغ عن مرسله لانه لم يقل انه قول ملك او نبي فعلم انه بلغه عن مرسله به لانه انشاء من جهة نفسه وايضا فالرسل في احدي الآيتين جبرائيل وفي الاخرى محمد فاضافته الى كل منهما تبين ان الاضافة للتبليغ اذ هو احدهما احدهما امتنع ان يحدثه الآخر . وايضا فقوله رسول امين دليل على انه لا يزيد في الكلام الذي ارسل بتبليغه ولا ينقص منه بل هو امين على ما ارسل به يبلغه عن مرسله وايضا فان الله قد كفر من جعله قول البشر ومحمد ﷺ بشر فمن جعله قول محمد بمعنى انه انشاء فقد كفر ولا فرق بين ان يقول انه قول بشر او جني او ملك والكلام كلام من قاله مبتدئا لا من قاله مبلغا ومن سمع قائلا يقول * ففا نيك من ذكرى حبيب ومنزل *

قال هذا شعر امرىء القيس ومن سمعه يقول « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى » قال هذا كلام الرسول وان سمعه يقول (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ - الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ - اِيَّاكَ نَعْبُدُ وَاِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) قال هذا كلام الله ان كان عنده خبر ذلك والا قال لا ادري من كلام من هذا ولو انكر عليه احد ذلك لكذب . ولهذا من سمع من غيره نظما وثرا

يقوله هذا كلام من هذا كلامك او كلام غيرك . وبالجملة فاهل السنة كلهم
من اهل المذاهب الاربعة وغيرهم من السلف والخلف متفقون على ان
كلام الله غير مخلوق ولكن بعد ذلك تنازع المتأخرون في ان كلام الله
هل هو معنى واحد بالذات او انه حروف واصوات تكلم الله بها بعد ان لم
يكن متكلمها او انه لم يزل متكلمها اذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وان نوع
الكلام قديم وان يطلق بعض المعتزلة على القرآن انه غير مخلوق ومرادهم
انه غير مخلوق مفترى مكذوب بل هو حق وصدق ، ولا ريب ان هذا المعنى
منتف باتفاق المسلمين والنزاع بين اهل القبلة انما هو في كونه مخلوقا خلقه الله
او هو كلامه الذي تكلم به وقام بذاته واهل السنة انما سئلوا عن هذا والا
فكونه مكذوبا مفترى مما لا ينازع مسلم في بطلانه ولا شك ان مشأخ المعتزلة
وغيرهم من اهل البدع معترفون بأن اعتقادهم في التوحيد والصفات والقدر
لم يتلقوه لاعن كتاب ولا سنة ولا عن ائمة الصحابة والتابعين لهم باحسان وانما
يزعمون ان العقل دلهم عليه وانما يزعمون انهم تلقوا من الائمة الشرع ولو ترك
الناس على فطرتهم السليمة وعقولهم المستقيمة لم يكن بينهم نزاع ولكن التي
الشیطان الى بعض الناس اغلوطة من اغاليطه فرق بها بينهم وان الذين اختلفوا
في الكتاب لني شقاق بعيد والذي يدل عليه كلام الطحاوي رحمه الله انه تعالى
لم يزل متكلمها اذا شاء كيف شاء وان نوع كلامه قديم وكذلك ظاهر كلام
الامام ابي حنيفة رحمه الله في الفقه الاكبر فانه قال والقرآن في المصاحف
مكتوب وفي القلوب محفوظ وعلى الالسن مقروء وعلى النبي ﷺ منزل ولفظنا
بالقرآن مخلوق والقرآن غير مخلوق وما ذكر الله في القرآن عن موسى عليه

السلام وغيره وعن فرعون وابليس فان ذلك كلام الله اخبارا عنهم وكلام
موسى وغيره من المخلوقين مخلوق والقرآن كلام الله لا كلامهم وسمع موسى
عليه السلام كلام الله تعالى فلما كلم موسى كلمه بكلامه الذي هو من صفاته لم
يزل وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين يعلم لا كعلمنا ويقدر لا كقدرتنا
ويرى لا كرؤيتنا ويتكلم لا ككلامنا انتهى . فقوله ولما كان موسى كلمه بكلامه
الذي هو من صفاته يعلم منه انه حين جاء كلمه لانه لم يزل ولا يزال اذلا وابدأ
يقول يا موسى كما يفهم ذلك من قوله تعالى ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾
فهم منه الرد على من يقول من اصحابه انه معنى واحد قائم بالنفس لا يتصور ان
يسمع وانما يخلق الله الصوت في الهواء كما قاله ابو منصور الما تريدي وغيره
وقوله الذي هو من صفاته لم يزل رد على من يقول انه حدث له وصف الكلام
بعد ان لم يكن متكلماً . وبالجملة فكل ما يحتاج به المعتزلة مما يدل على انه كلام
متعلق بمشيئته وقدرته وانه يتكلم اذا شاء وانه يتكلم شيئاً بعد شيء فهو
حق يجب قبوله وما يقوله به من يقول ان كلام الله قائم بذاته وانه صفة له
والصفة لا تقوم الا بالموصوف فهو حق يجب قبوله والقول به فيجب الاخذ
بما في قول كل من الطائفتين من الصواب والعدول عما يردده الشرع والعقل من
قول كل منهما فاذا قالوا لنا فهذا يلزم ان تكون الحوادث قامت به قلنا هذا
القول مجمل ومن انكر قبلكم قيام الحوادث بهذا المعنى به تعالى من الأئمة
ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك ونصوص الأئمة ايضاً مع صريح العقل . ولا
شك ان الرسل الذين خاطبوا الناس واخبروهم ان الله قال ونادى وناجى ويقول
لم يفهموهم ان هذه مخلوقات منفصلة عنه بل الذين افهموهم اياه ان الله نفسه هو

الذي تكلم والكلام قائم به لا بغيره وانه هو الذي تكلم به وقاله كما قالت عائشة رضي الله عنها في حديث الافك . ولشأنني في نفسي كان احقر من ان يتكلم الله في بوحى يتلى ولو كان المراد من ذلك كله خلاف مفهومه لوجب بيانه اذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز ولا يعرف في لغة ولا عقل قائل متكلم لا يقوم به القول والكلام وانما قام الكلام بغيره وان زعموا انهم فروا من ذلك حذرا من التشبيه فلا يثبتوا صفة غيره فانهم اذا قالوا يعلم لا كما علمنا قلنا ويتكلم لا كما تكلمنا وكذلك سائر الصفات وهل يعقل قادر لا يقوم به القدرة او حي لا يقوم به الحياة وقد قال صلى الله عليه وسلم « اعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر » فهل يقول عاقل انه صلى الله عليه وسلم عاذ بمخلوق بل هذا كقوله « اعوذ برضاك من سخطك واعوذ بمعافاتك من عقوبتك » وكقوله « اعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما اجد واحاذر » وكقوله « واعوذ بعظمتك ان نفتال من تحتنا » كل هذه من صفات الله تعالى وهذه المعاني مبسوسة في مواضعها وانما اشير اليها هنا اشارة وكثير من متأخري الحنفية على انه معنى واحد والتعدد والتكثير والتجزئ والتبعض في الحاصل في الدلالات لافي المدلول وهذه العبارات مخلوقة وسميت كلام الله لدالاتها عليه وتأديه بها فان عبر بالعربية فهو قرآن وان عبر بالعبرانية فهو توراة فاختلفت العبارات لا الكلام قالوا : وتسمى هذه العبارات كلام الله مجازا وهذا الكلام فسد فان لازمه ان معنى قوله ﴿ ولا تقربوا الزنى ﴾ هو معنى قوله ﴿ واقيموا الصلاة ﴾ ومعنى آية الكرسي هو معنى آية الدين ومعنى سورة الاخلاص هو معنى تبت يدا ابي لهب وكلما تأمل الانسان هذا القول تبين له فساده وعلم

انه مخالف لكلام السلف والحق ان التوراة والانجيل والزبور والقرآن من
كلام الله حقيقة وكلام الله تعالى لا يتناهى فانه لم يزل يتكلم بما شاء اذا شاء
كيف شاء ولا يزال كذلك قال تعالى ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد
البحر قبل ان تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو ان ما
في الأرض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات
الله ان الله عزيز حكيم ﴾ ولو كان ما في المصحف عبارة عن كلام الله وليس
هو كلام الله لما حرم على الجنب والمحدث مسه ولو كان ما يقرأ القاريء ليس
كلام الله لما حرم على الجنب والمحدث مسه بل كلام الله محفوظ في الصدور ،
مقروء بالألسن ، مكتوب في المصاحف كما قاله ابو حنيفة في الفقه الأكبر وهو
في هذه المواضع كلها حقيقة واذ قيل المكتوب في المصحف كلام الله فهم منه
معنى صحيح حقيقي واذ قيل فيه خط فلان وكتابته فهم منه معنى صحيح حقيقي
واذا قيل فيه مداد قد كتب به فهم منه معنى صحيح حقيقي واذ قيل المداد في
المصحف كانت الظرفية فيه غير الظرفية المفهومة من قول القائل فيه السموات
والأرض وفيه محمد وعيسى ونحو ذلك وهذان المعنيان مغايران لمعنى قول
القائل فيه خط فلان الكاتب وهذه المعاني الثلاثة مغايرة لمعنى قول القائل فيه
كلام الله ومن لم يتنبه للفروق بين هذه المعاني ضل ولم يهتد للصواب وكذلك
الفرق بين القراءة التي هي فعل القاريء والمقروء الذي هو قول الباري من لم
يهتد له فهو ضال ايضا ولو ان انسانا وجد في ورقة مكتوبا ألا كل شيء ما
خلا الله باطل من خط كان معروفا لقال : هذا من كلام لييد حقيقة وهذا
خط فلان حقيقة وهذا كل شيء حقيقة وهذا خبر حقيقة ولا تشبهه هذه الحقيقة

بالأخرى والقرآن في الأصل مصدر فتارة يذكر ويراد به القراءة قال تعالى ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾ وقال ﷺ «زينوا القرآن بأصواتكم» وتارة يذكر ويراد به المقروء قال تعالى ﴿فاذا قرأت القرآن فاستمعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ وقال تعالى ﴿وإذا قرء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون﴾ وقال ﷺ «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف» إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على كل من المعنيين المذكورين فالحقائق لها وجود عيني وذهني ولفظي ورسمي ولكن الأعيان تعلم ثم تذكر ثم تكتب فكتابتها في المصحف هي المرتبة الرابعة وأما الكلام فإنه ليس بينه وبين المصحف واسطة بل هو الذي يكتب بلا واسطة ذهن ولا لسان والفرق بين كونه في زبر الأولين وبين كونه في رق منشور أو لوح محفوظ أو في كتاب مكنون واضح فقوله عن القرآن وأنه لفي زبر الأولين أي ذكره ووصفه والأخبار عنه كما أن محمدا مكتوب عندهم إذ القرآن أنزله الله على محمد لم ينزله على غيره أصلا ولهذا قال في الزبور ولم يقل في المصحف ولا في الرق لأن الزبور جمع زبور والزبور هو الكتابة والجمع فقوله وأنه لفي زبر الأولين أي مزبور الأولين ففي نفس اللفظ واشتقاقه ما يبين المعنى المراد ويبين كمال بيان القرآن وخلوصه من اللبس وهذا مثل قوله الذي يجدونه مكتوبا عندهم أي ذكره بخلاف قوله في رق منشور ولوح محفوظ وكتاب مكنون لأن العامل في الظرف إما أن يكون من الأفعال العامة مثل الكون والاستقرار والحصول ونحو ذلك أو يقدر مكتوب في كتاب أو في رق والكتاب تارة يذكر ويراد به محل الكتابة وتارة يذكر ويراد به الكلام المكتوب ويجب التفريق بين كتابة الكلام في الكتاب وكتابة الأعيان

الموجود في الخارج فيه فان تلك انما يكتب ذكرها وكلما تدبر الانسان
هذا المعنى وضع له الفرق وحقيقة كلام الله تعالى الخارجية هي ما يسمع منه
او من المبلغ عنه فاذا سمعه السامع علمه وحفظه فكلام الله مسموع له معلوم
محفوظ فاذا قاله السامع فهو مقروء له متلو فان كتبه فهو مكتوب له مرسوم
وهو حقيقة في هذه الوجوه لا يصح نفيه والمجاز يصح نفيه فلا يجوز ان
يقال ليس في المصحف كلام الله ولا ماقرأ القاريء كلام الله وقد قال تعالى
﴿ وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ﴾ وهو لا
يسمع كلام الله من الله وانما يسمعه من مبلغه عن الله والآية تدل على فساد
قول من قال : ان المسموع عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله فانه تعالى
قال ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ ولم يقل حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام
الله والاصل الحقيقة ومن قال ان المكتوب في المصاحف عبارة عن كلام الله
او حكاية كلام الله وليس فيها كلام الله فقد خالف الكتاب والسنة وسلف
الامة وكفى بذلك ضلالا وكلام الطحاوي يرد قول من قال انه معنى واحد
لا يتصور سماعه منه وان المسموع المنزل المقدر والمكتوب ليس كلام الله
وانما هو عبارة عنه قال الطحاوي رحمه الله يقول كلام الله منه بدا وكذلك
قال غيره من السلف ويقولون منه بدا واليه يعود وانما قالوا منه بدا لان
الجهمية من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون انه خلق الكلام في محل فبدا الكلام
من ذلك المحل فقال السلف منه بدا اي هو التكلم به فنه بدا لا من بعض
المخلوقات كما قال تعالى ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم - ولكن
حق القول مني - قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ ومعنى قولهم واليه

يعود يرفع من الصدور والمصاحف فلا يبق في الصدور منه آية ولا في المصاحف
كما جاء ذلك في عدة آثار وقوله بلا كيفية اي لا تعرف كيفية تكلمه به قولا
ليس بالمجاز وانزله على رسوله وحيا اي انزله اليه على لسان الملك فسمعه الملك
جبرائيل من الله وسمعه الرسول محمد ﷺ من الملك وقرأ على الناس قال تعالى
﴿ وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾ وقال تعالى
﴿ نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾
وفي ذلك اثبات صفة العلو لله تعالى وقد اورد على ذلك ان انزال القرآن نظير
انزال المطر او انزاله الحديد وانزال ثمانية ازواج من الانعام . والجواب ان
انزال القرآن فيه مذكور انه انزال من الله قال تعالى ﴿ حم تنزيل الكتاب من
الله العزيز العليم ﴾ وقال تعالى ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾
وقال تعالى ﴿ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ وقال تعالى ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾
وقال تعالى ﴿ انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل امر حكيم
امراً من عندنا انا كنا مرسلين ﴾ وقال تعالى ﴿ فأتوا بكتاب من عند الله هو
اهدى منهما اتبعه ان كنتم صادقين ﴾ وقال تعالى ﴿ والذين آتيناكم الكتاب يعلمون
انه منزل من ربك بالحق ﴾ وقال تعالى ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾
وانزال المطر مقيد بانه منزل من السماء قال تعالى ﴿ انزل من السماء ماء والسماء العلو
وقد جاء في مكان آخر انه منزل من المزن والمزن السحاب . وفي مكان آخر انه منزل
من المعصرات وانزال الحديد والانعام مطلق فكيف يشبه هذا الانزال بهذا
الانزال فالحديد انما يكون من المعادن التي في الجبال وهي عالية على الارض وقد قيل
انه كل ما كان معدنه اعلى كان حديد اجود والانعام تخلق بالتوالد المستلزم انزال

الذكور الماء من اصلاها الى ارحام الاناث ولهذا يقال انزل ولم ينزل ثم الاجنة
تنزل من بطون الامهات الى وجه الارض . ومن المعلوم ان الانعام تعلق
فخولها اناها عند الوطيء وينزل ماء الفحل من علو الرحم الانثى وتلقى ولدها
عند الولادة من علو الى اسفل وعلى هذا فيحتمل قوله ﴿ وانزل لكم من الانعام ﴾
وجبين (احدهما) ان يكون من لبيان الجنس . (الثاني) ان يكون من لابتداء
الغاية وهذان الوجهان محتملان في قوله ﴿ جعل لكم من انفسكم ازواجاً ومن
الانعام ازواجاً ﴾ وقوله وصدق المؤمنين على ذلك حقا الاشارة الى ما ذكره
من التكلم على الوجه المذكور وانزاله اي هذا قول الصعابة والتابعين لهم
باحسان وهم السلف الصالح وان هذا حق وصدق . وقوله وايقنوا انه كلام
الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية رد على المعتزلة وغيرهم بهذا
القول ظاهر ، وفي قوله بالحقيقة رد على من قال انه معنى واحد قام بذات الله
لم يسمع منه وانما هو الكلام النفساني لانه لا يقال لمن قام به الكلام النفساني
ولم يتكلم به ان هذا كلام حقيقة والا لازم ان يكون الاخرس متكلماً ولزم ان
لا يكون الذي في الصحف عند الاطلاق هو القرآن ولا كلام الله ولكن
عبارة عنه ليست هي كلام الله كما لو اشار اخرس الى شخص باشارة فهم بها
مقصوده فكتب ذلك الشخص عبارته عن المعنى الذي اوجاه اليه ذلك الاخرس
فالمكتوب هي عبارة ذلك الشخص عن ذلك المعنى وهذا المثل مطابق غاية
المطابقة لما يقولونه وان كان الله تعالى لا يسميه احد اخرس لكن عندهم ان
الملك فهم منه معنى قائماً بنفسه لم يسمع منه حرفاً ولا صوتاً بل فهم معنى مجرداً
ثم عبر عنه فهو الذي احدث نظم القرآن وتأليفه العربي وان الله خلق في بعض

الاجسام كالموسى الذي هو دون الملك هذه العبارة ويقال لمن قال انه معنى واحد هل سمع موسى عليه السلام جميع المعنى او بعضه فان قال سمعه كله فقد زعم انه سمع جميع كلام الله وفساد هذا ظاهر وان قال بعضه فقد قال يتبعض وكذلك كل من كلمه الله او انزل اليه شيئا من كلامه ، ولما قال تعالى للملائكة ﴿ اني جاعل في الارض خليفة ﴾ ولما قال لهم ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ وامثال ذلك هل هذا جميع كلامه او بعضه فان قال انه جميع فهذا مكابرة وان قال بعضه فقد اعترف بتعددده . والناس في مسمى الكلام والقول عند الاطلاق اربعة اقوال (احدها) انه يتناول اللفظ والمعنى جميعا كما يتناول لفظ الانسان للروح والبدن معا وهذا قول السلف (الثاني) اسم اللفظ فقط والمعنى ليس جزء مسماه بل هو مدلول مسماه وهذا قول جماعة من المعتزلة وغيرهم (الثالث) انه اسم للمعنى فقط واطلاقه على اللفظ مجاز لانه دال عليه وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه (الرابع) انه مشترك بين اللفظ والمعنى وهذا قول بعض المتأخرين من الكلائية . ولهم قول ثالث . يروى عن ابي الحسن انه مجاز في كلام الله حقيقة في كلام الآدميين لان حروف الآدميين تقوم بهم فلا يكون الكلام قائما بغير المتكلم بخلاف كلام الله فانه لا يقوم عنده بالله فيمتنع ان يكون كلامه وهذا مبسوط في موضعه واما من قال انه معنى واحد واستدل عليه بقول الاخطل ان الكلام لني الفؤاد وانما * جعل اللسان على الفؤاد دليلا فلستدل بالفساد. ولو استدلل مستدل بحديث في الصحيحين لقالوا هذا خبر واحد ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول والعمل به فكيف وهذا البيت قد قيل انه موضوع منسوب الى الاخطل وليس هو في ديوانه

وقيل انما قال ان البيان لني القواد وهذا اقرب الى الصحة وعلى تقدير صحته
عنه فلا يجوز الاستدلال به فان النصارى قد ضلوا في معنى الكلام وزعموا
ان عيسى عليه السلام نفس كلمة الله واتخذ اللاهوت بالناسوت اي شيء من الاله
بشيء من الناس افيستدل بقول نصراني قد ضل في معنى الكلام على معنى الكلام
ويترك ما يعلم من معنى الكلام في لغة العرب وايضا فعناه غير صحيح اذ لازمه ان
الاخرس يسمى متكلماً لقيام الكلام بقلبه وان لم ينطق به ولم يسمع منه والكلام
على ذلك مبسوط في موضعه وانما اشير اليه اشارة ، وهنا معنى عجيب وهو
ان هذا القول له شبه قوي بقول النصارى القائلين باللاهوت والناسوت
فانهم يقولون كلام الله هو المعنى القائم بذات الله الذي لا يمكن سماعه واما النظم
المسموع مخلوق فافهام المعنى القديم بالنظم المخلوق يشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت
الذي قالته النصارى في عيسى عليه السلام فانظر الى هذا الشبه ما اعجبه ويرد
قول من قال بأن الكلام هو المعنى القائم بالنفس قوله عليه السلام « ان صلاتنا هذه لا يصلح
فيها شيء من كلام الناس » وقال « ان الله يحدث من امره ما يشاء وانما يحدث
ان لا تكلموا في الصلاة » واتفق العلماء على ان المصلي اذا تكلم في الصلاة عامدا
لغير مصاحتها بطلت صلاته واتفقوا كلهم على ان ما يقوم بالقلب من تصديق
بأمور دينية وطلب لا يبطل الصلاة وانما يبطلها التكلم بذلك فعلم اتفاق المسلمين
على ان هذا ليس بكلام . وايضا ففي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ان الله
تجاوز لامتي عما حدثت به انفسها ما لم تتكلم به او تعمل به » فقد اخبر ان الله
عنى عن حديث النفس إلا ان تتكلم ففرق بين حديث النفس وبين
الكلام واخبر انه لا يؤخذ به حتى تتكلم به والمراد حتى ينطق به اللسان

باتفاق العلماء فعلم ان هذا هو الكلام في اللغة لان الشارع انما خاطبنا بلغة
العرب . وايضاً في السنن ان معاذاً رضي الله عنه قال يا رسول الله وانا
لمؤاخذون بما تتكلم به فقال « وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا
حصايد ألسنتهم » فيبين ان الكلام انما هو باللسان فلفظ القول والكلام
وما تصرف منها من فعل ماض ومضارع وأمر واسم فاعل وانما يعرف في القرآن
والسنة وسائر كلام العرب اذا كان لفظاً ومعنى ولم يكن في مسمى الكلام
نزاع بين الصحابة والتابعين لهم باحسان وانما حصل النزاع بين المتأخرين من
علماء اهل البدع ثم انتشر . ولا ريب ان مسمى الكلام والقول ونحوهما ليس
هو مما يحتاج فيه الى قول شاعر فان هذا مما تكلم به الاولون والآخرين من اهل
اللغة وعرفوا معناه كما عرفوا مسمى الرأس واليد والرجل ونحو ذلك . ولا شك
ان من قال ان كلام الله معنى واحداً ثم بنفسه تعالى وان المتلو المحفوظ المكتوب
المسموع من القارىء حكاية كلام الله وهو مخلوق فقد قال بخلق القرآن وهو
لا يشعر فان الله يقول ﴿ قل ائن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل
هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ اقتراه سبحانه وتعالى يشير الى ما في نفسه او الى
المتلو المسموع . ولا شك ان الاشارة انما هي الى هذا المتلو المسموع اذ ما في ذات
الله غير مشار اليه ولا منزل ولا متلو ولا مسموع وقوله لا يأتون بمثله اقتراه
سبحانه يقول لا يأتون بمثل ما في نفسي مما لم يسمعه ولم يعرفوه وما في نفس
الله عز وجل لا حيلة الى الوصول اليه ولا الى الوقوف عليه فان قالوا انما اشار
الى حكاية ما في نفسه وعبارته وهو المتلو المكتوب المسموع فاما ان يشير
الى ذاته فلا فهذا صريح القول بان القرآن مخلوق بل هم في ذلك ا كفر من

المعتزلة فان حكاية الشيء بمثله وشبيهه . وهذا تصریح بان صفات الله محكية ولو كانت هذه التلاوة حكاية لكان الناس قد اتوا بمثل كلام الله فأين عجزهم ويكون التالي في زعمهم قد حكي بصوت وحرف ما ليس بصوت وحرف وليس القرآن الاسور مسورة وآيات مسطرة في صحف مطهرة قال تعالى ﴿ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات - بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم وما يجحدبآياتنا إلا الظالمون - في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة ﴾ ويكتب لمن قرأ بكل حرف منه عشر حسنات . قال عليه السلام « اما اني لا اقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » وهو المحفوظ في صدور الحافظين المسموع من ألسن التالين . قال الشيخ حافظ الدين النسفي رحمه الله في المنار ان القرآن اسم للنظم والمعنى وكذا قال غيره من اهل الاصول وما ينسب الى ابي حنيفة رحمه الله ان من قرأ في الصلاة بالفارسية اجزاه فقد رجع عنه وقال لا يجوز القراءة مع القدرة بغير العربية وقالوا لو قرأ بغير العربية فاما ان يكون مجنوناً فيداوى أو زنديقا فيقتل لان الله تكلم به بهذه اللغة والاعجاز حصل بنظمه ومعناه وقوله ومن سمعه وقال انه كلام البشر فقد كفر لاشك في تكفير من انكر ان القرآن كلام الله بل قال انه كلام محمد أو غيره من غير الخلق ملكا كان أو بشرا وأما إذا اقر انه كلام الله ثم أول وحرف فقد وافق قول من قال : ان هذا إلا قول البشر في بعض ما به كفر وأولئك الذين استزهم الشيطان وسيأتى الكلام عليه عند قول الشيخ ولانكفر احدا من اهل القبلة بذنب ما لم يستحله ان شاء الله تعالى . وقوله ولا يشبهه قول البشر يعني انه اشرف وافصح واصدق قال تعالى ﴿ ومن اصدق من الله حديثا ﴾

وقال تعالى ﴿ قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ قل فأتوا بعشر سور مثله ﴾ وقال تعالى ﴿ قل فأتوا بسورة مثله ﴾ فلما عجزوا وعم فصحاء العرب مع شدة العداوة عن الاتيان بسورة مثله تبين صدق الرسول ﷺ انه من عند الله وإعجازه من جهة نظمه ومعناه لامن جهة احدهما فقط هذا مع انه قرآن عربي غير ذي عوج بلسان عربي مبين اى بلغة العربية فنفي المشابهة من حيث التكلم ومن حيث التكمم به ومن حيث النظم والمعنى لا من حيث الكلمات والحروف . والى هذا وقعت الاشارة بالحروف المقطعة في اوائل السور اى انه في اسلوب كلامهم وبلغتهم التي يخاطبون بها الا ترى انه يأتي بعد الحروف المقطعة بذكر القرآن كما في قوله تعالى ﴿ الم ذلك الكتاب لا ريب فيه - الم الله لا اله الا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق ﴾ الآية ﴿ المص كتاب انزل اليك ﴾ - الآية ﴿ الر تلك ايات الكتاب الحكيم ﴾ وكذلك الباقي ينبهم ان هذا الرسول الكريم لم يأتكم بما لا تعرفونه بل خاطبكم بلسانكم ولكن اهل المقالات الفاسدة يتذرعون بمثل هذا الى نفي تكلم الله به وسماع جبرائيل منه كما يتذرعون بقوله تعالى ﴿ ليس كمثل شيء ﴾ الى نفي الصفات وفي الآية ما يرد عليهم قولهم وهو قوله تعالى ﴿ وهو السميع البصير ﴾ كما في قوله تعالى ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾ ما يرد على من ينفي الحرف فانه قال فأتوا بسورة ولم يقل فأتوا بحرف او بكلمة واقصر سورة في القرآن ثلاث آيات ولهذا قال ابو يوسف ومحمد : ان ادنى ما يجزي في الصلاة ثلاث آيات قصار أو آية طويلة لانه لا يقطع الاعجاز بدون ذلك والله اعلم . قوله ﴿ ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد

كفر، من ابصر هذا اعتبر، وعن مثل قول الكفار انزجر، علم انه بصفاته ليس
كالبشر ❦ ش . لما ذكر فيما تقدم ان القرآن كلام الله حقيقة منه بدا به بعد
ذلك على انه تعالى بصفاته ليس كالبشر نفياً لتشبيهه عقيب الاثبات يعنى ان الله
تعالى وان وصف بانه متكلم لكن لا يوصف بمعنى من معاني البشر التي يكون
الانسان بها متكلماً فان الله ليس كمثل شيء وهو السميع البصير وما احسن
المثل المضروب للمثبت للصفات من غير تشبيه ولا تعطيل بالابن الخالص
السايف للشارين يخرج من بين فرث التعطيل ودم التشبيه والمعطى يعبد عما
والمشبه يعبد صنماً وسيأتي في كلام الشيخ ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم
يصب التنزيه وكذا قوله وهو بين التشبيه والتعطيل اي دين الاسلام ولا شك
ان التعطيل شر من التشبيه بما سأذكره ان شاء الله تعالى وليس ما وصف الله
به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيها بل صفات الخالق كما يليق به وصفات
المخلوق كما يليق به . وقوله فن ابصر هذا اعتبر اي من نظر بعين بصيرته فيما
قاله من اثبات الوصف ونفي التشبيه ووعيد المشبه اعتبر وانزجر عن مثل قول
الكفار . قوله ❦ والرؤية حق لأهل الجنة بغير احاطة ولا كيفية كما نطق
به كتاب ربنا ❦ وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ❦ وتفسيره على ما ازاد
الله تعالى وعلمه وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ
فهو كما قال ومعناه على ما اراد لاندخل في ذلك متأولين بارائنا ولا متوهمين
باهوائنا فانه ما سلم في دينه الا من سلم لله عز وجل ورسوله ﷺ ورد علم
ما شته عليه الى عالمه ❦ ش . المخالف في الرؤية الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من

الخوارج والامامية وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة وقد قال بثبوت
الرؤية الصحابة والتابعون وأئمة الاسلام المعروفون بالامامة في الدين واهل
الحديث وسائر طوائف اهل الكلام المنسوبون الى السنة والجماعة وهذه المسئلة
من اشرف مسائل اصول الدين واجلها وهي الغاية التي شمر اليها المشمرون
وتنافس فيها المتنافسون وحررها الذين هم عن ربهم محجوبون وعن بابه مردودون
وقد ذكر الشيخ رحمه الله من الادلة قوله تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناظرة الى
ربها ناظرة ﴾ وهي من اظهر الادلة واما من ابى الاتحريفها بما يسميه تأويل
فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والحساب اسهل من تأويلها على ارباب
التأويل ولا يشاء مبطل ان يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها الا وجد
الى ذلك من السبيل ما وجده متأول بهذه النصوص وهذا الذي افسد الدنيا
والدين وهكذا فعلت اليهود والنصارى في نصوص التوراة والانجيل وحذرنا
الله ان نفعل مثلهم وابى المبطلون الا سلوك سييلهم وكم جنى التأويل الفاسد على
الدين واهله من جناية فهل قتل عثمان رضي الله عنه الا بالتأويل الفاسد وكذا
ما جرى في يوم الجمل وصفين ومقتل الحسين والحرة وهل خرجت خوارج
واعترفت المعتزلة ورفضت الروافض وافترقت الامة على ثلاث وسبعين فرقة
الا بالتأويل الفاسد وازضافة النظر الى الوجه الذي هو محله في هذه الآية
وتعديته باداة الى الصريحة في نظر العين واخلاء الكلام من قرينة تدل على
خلاف حقيقة موضوعه في ان الله اراد بذلك نظر العين التي في الوجه الى الرب
جل جلاله فان النظر له عدة استعمال بحسب صلاته وتعديه بنفسه فان
عدى بنفسه فعناه التوقف والانتظار كقوله ﴿ انظرونا نقبس من نوركم ﴾ وان

عدى بني فعمناه التفكير والاعتبار كقوله ﴿ اولم ينظروا في ملكوت السموات
والارض ﴾ وان عدى بالى فعمناه المعاينة بالابصار كقوله تعالى ﴿ انظروا الى
ثمره اذا اثمر ﴾ فكيف اذا اضيف الى الوجه الذي هو محل البصر . وروى ابن
مردويه بسنده الى ابن عمر و قال قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى ﴿ وجوه
يومئذ ناضرة ﴾ قال من البهاء والحسن الى ربها ناظرة قال في وجه الله عز وجل
عن الحسن قال نظرت الى ربها فنظرت بنوره ، وقال ابو صالح عن ابن عباس
الى ربها ناظرة قال تنظر الى وجه ربها عز وجل وقال عكرمة وجوه يومئذ ناضرة
قال من النعيم الى ربها ناظرة قال تنظر الى ربها نظرا ، ثم حكى عن ابن عباس مثله
وهذا قول المفسرين من اهل السنة والحديث وقال تعالى ﴿ لهم ما يشاؤون فيها
ولدينا مزيد ﴾ وقال الطبري : قال علي بن ابي طالب وانس بن مالك هو النظر
الى وجه الله عز وجل وقال تعالى ﴿ للذين احسنوا الحسنى وزيادة ﴾ فالحسنى
الجنة والزيادة هي النظر الى وجهه الكريم فسرهما بذلك رسول الله ﷺ
والصحابه من بعده كما روى مسلم في صحيحه عن صهيب قال قرأ رسول الله
ﷺ ﴿ للذين احسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال « اذا دخل أهل الجنة الجنة
وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة ان لكم عند الله موعدا يريدان ينجزكموه
فيقولون : ما هو الم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويمجرنا
من النار فيكشف الحجاب فينظرون اليه فما اعطاهم شيئا احب اليهم من
النظر اليه وهي الزيادة » ورواه غيره باسانيد متعددة والفاظ آخر معناها ان
الزيادة النظر الى وجه الله عز وجل وكذلك فسرهما الصحابة رضي الله عنهم . روى

١. ٢٦/٢٦

٢. ٢٦/٢٦

x

ابن جرير عن جماعة منهم ابو بكر الصديق رضي الله عنه وخذيفة وابو موسى
الاشعري وابن عباس رضي الله عنهم . وقال تعالى ﴿ كَلَّا اِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ
لَمُحْجُوبُونَ ﴾ احتج الشافعي رحمه الله وغيره من الائمة بهذه الآية على الرؤية
لاهل الجنة ذكر ذلك الطبري وغيره عن المزني عن الشافعي . وقال الحاكم :
حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان قال : حضرت محمد بن ادريس الشافعي
وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها : ماتقول في قول الله عزوجل ﴿ كَلَّا اِنَّهُمْ
يَوْمَئِذٍ لَمُحْجُوبُونَ ﴾ فقال الشافعي : لما ان حجب هؤلاء في السخط كان في هذا
دليل على ان اولياءه يرونه في الرضاء . واما استدلال المعتزلة بقوله تعالى ﴿ لَنْ
تَرَانِي ﴾ وبقوله تعالى ﴿ لَنْ تَدْرِكَهُ الْاَبْصَارُ ﴾ ^{٧١.١٥٦} فالآيتان دليل عليهم اما الآية الاولى
فلاستدلال منها على ثبوت الرؤية من وجوه : (احدها) انه لا يظن بكليم الله
ورسوله الكريم واعلم الناس بربه في وقته ان يسأل ما لا يجوز عليه بل هو
عندم من اعظم المحال . (الثاني) ان الله لم ينكر عليه سؤاله ولما سأل نوح
ربه بنجاة ابنه انكر سؤاله وقال ﴿ اِنِّي اعْظُكَ اَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الثالث)
انه تعالى قال : لَنْ تَرَانِي وَلَمْ يَقُلْ : اِنِّي لَا اَرَى اَوْ لَا يَجُوزُ رُؤْيِي اَوْ لَسْتُ بِمَرْتَبِي
والفرق بين الجوايين ظاهر الا ترى ان من كان في كه حجر فظنه رجل طعاما
فقال اطعمنيه . فالجواب الصحيح انه لا يؤكل اما اذا كان طعاما صح ان
يقال انك لن تأكله وهذا يدل على انه سبحانه مرئي ولكن موسى لا يتمثل
قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى بوضعه :
(الوجه الرابع) وهو قوله ﴿ وَلَكِنْ اَنْظُرْ اِلَى الْجَبَلِ فَاِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ
تَرَانِي ﴾ فاعلمه ان الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار

فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف . (الخامس) ان الله سبحانه قادر على ان يجعل الجبل مستقرا وذلك ممكن وقد غلق به الرؤية ولو كانت محال لكان نظير ان يقول ان استقر الجبل فسوف اكل واشرب وانام والكل عندهم سواء . (السادس) قوله تعالى ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ﴾ فاذا جاز ان يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب فكيف يمتنع ان يتجلى لرسوله واوليائه في دار كرامته ولكن الله تعالى اعلم موسى ان الجبل اذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر اضعف . (السابع) ان الله كلم موسى وناداه وناجاه ومن جاز عليه التكلم والتكليم وان يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة فرؤيته اولى بالجواز . ولهذا لا يتم انكار رؤيته الا بانكار كلامه وان جمعوا بينهما . واما دعواهم تأييد النفي بلن وان ذلك يدل على نفي الرؤية في الآخرة ففسد فانها لو قيدت بالتأييد لا يدل على دوام النفي في الآخرة فكيف اذا اطلقت قال تعالى ﴿ ولن يتمنوه ابدا ﴾ مع قوله ﴿ ونادوا يا مالئكة ليقض علينا ربك ﴾ ولأنها لو كانت للتأييد المطلق لما جاز تحديد الفعل بمدى وقد جاء ذلك قال تعالى ﴿ فلن ابرح الأرض حتى ياذن لي ابي ﴾ فثبت ان لن لا تقتضي النفي المؤبد . قال الشيخ جمال الدين بن مالك رحمه الله

ومن رأى النفي بلن مؤبدا * فقوله اردد و سواه فاعضدا
واما الآية الثانية فلا استدلال بها على الرؤية من وجه حسن لطيف
وهو ان الله تعالى انما ذكرها في سياق التمدح . ومعلوم ان المدح انما يكون
بالصفات الثبوتية واما العدم المحض فليس بكال فلا بمدح به وانما بمدح
الرب تعالى بالنفي اذا تضمن امرا وجوديا كمدحه بنفي السنة والنوم المتضمن

كمال القيومية ونفي الموت المتضمن كمال الحياة ونفي الغيوب والاعياء المتضمن
كمال القدرة ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال الربوبية
والالوهية وقهره ونفي الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه ونفي النسيان
وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه واحاطته ونفي المثل المتضمن لكمال
ذاته وصفاته . ولهذا لم يتمدح بعدم محض لم يتضمن امرا ثبوتيا فان المعدوم
يشارك الموصوف في ذلك العدم ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم
فيه فان المعنى انه يرى ولا يدرك ولا يحاط به فقوله لا تدركه الابصار يدل
على كمال عظمته وانه اكبر من كل شيء وانه لكمال عظمته لا يدرك بحيث
يحاط به فان الادراك هو الاحاطة بالشيء وهو قدر زائد على الرؤية كما قال
تعالى ﴿ فلما تراء الجمعان ﴾ قال اصحاب موسى : انا لم ندركون قال كلا فلم ينف
موسى الرؤية وانما نفي الادراك فالرؤية والادراك كل منهما يوجد مع الآخر
وبدونه فالرب تعالى يرى ولا يدرك كما يعلم ولا يحاط به علما وهذا هو الذي
فهمه الصحابة والائمة من الآية كما ذكرت اقوالهم في تفسير الآية بل هذه
الشمس الخلوقة لا يتمكن رئيها من ادراكها على ما هي عليه . واما الأحاديث
عن النبي ﷺ واصحابه الدالة على الرؤية فتواترة رواها اصحاب الصحاح والمسانيد
والسنن . فمنها حديث ابي هريرة ان ناسا قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا
يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ « هل تضارون في رؤية القمر ليلة
البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله قال : هل تضارون في الشمس ليس دونها
سحاب قالوا لا قال فانكم ترونه كذلك » الحديث اخرجاه في الصحيحين
بطوله ، وحديث ابي سعيد الخدري ايضا في الصحيحين نظيره ، وحديث

جرير بن عبد الله البجلي قال كنا جلوسا مع النبي ﷺ فنظر الى القمر ليلة
اربع عشرة فقال « انعم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا لاتضمامون في رؤيته »
الحديث اخرجاه في الصحيحين وحديث صهيب المتقدم رواه مسلم وغيره ،
وحديث ابي موسى عن النبي ﷺ قال « وجنتان من فضة آيتهما وما فيها
وجنتان من ذهب آيتهما وما فيها وما بين القوم وبين ان يروا ربهم تبارك
وتعالى الازداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » اخرجاه في الصحيحين
ومن حديث عدي بن حاتم « وليلقين الله احدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه
حجاب ولا ترجمان يترجم له فيقول الم ابعث اليك رسولا فيبلغك فيقول
بلى يا رب فيقول الم اعطك مالا وافضل عليك فيقول بلى يا رب » اخرجه
البخاري في صحيحه ، وقد روى احاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابيا ومن احاط
بها معرفة يقطع بان الرسول قالها ولولا اني التزمت الاختصار لسقت ما في
الباب من الاحاديث . ومن اراد انوقوف عليها فاليو اظب سماع الاحاديث
النبوية فان فيها مع اثبات الرؤية انه يكلم من شاء اذا شاء وانه يأتي لفصل
القضاء يوم القيامة وانه فوق العالم وانه يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه
من قرب وانه يتجلى لعباده وانه يضحك الى غير ذلك من الصفات التي سماعها
على الجهمية بمنزلة الصواعق وكيف تعلم اصول دين الاسلام من غير كتاب
الله وسنة رسوله وكيف يفسر كتاب الله بغير ما فسر به رسوله ﷺ واصحابه
رضوان الله عليهم الذين نزل القرآن بلغتهم . وقد قال ﷺ « من قال في القرآن
برأيه فليتبوأ مقعده من النار » وفي رواية « من قال في القرآن بغير علم
فليتبوأ مقعده من النار » وسئل ابوبكر رضي الله عنه عن قوله تعالى « وفاكحة

وابا ﴿ ما الأب فقال أي سماء تظاني وأي ارض تقاني اذا قلت في كتاب الله
ما لا اعلم وليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيها لله بل
هو تشبيه الرؤية بالرؤية لا تشبيه المرئي بالمرئي ولكن فيه دليل على علو الله على
خلقه والا فهل تعقل رؤية بلا مقابلة ومن قال يرى لا في جهة فليراجع عقله
فاما ان يكون مكابرا لعقلها وفي عقله شيء والا فاذا قال يرى لا امام الرائي
ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته رد عليه كل من سمعه
بفطرته السليمة . ولهذا الزم المعتزلة من في العلو بالذات بنفي الرؤية وقالوا
كيف تعقل رؤية بغير جهة وانما لم نره في الدنيا لعجز ابصارنا لا لامتناع
الرؤية فهذه الشمس اذا حذق الرائي البصر في شعاعها ضعف عن رؤيتها لا
لامتناع في ذات المرئي بل لعجز الرائي فاذا كان في الدار الآخرة اكمل الله
قوى الآدميين حتى اطافوا رؤيته ولهذا لما تجلى الله للجبل خر موسى صعقا
فلما افاق قال سبحانك تبت اليك وانا اول المؤمنين بانه لا يراك حي الامات
ولا يابس الا تدهده ولهذا كان البشر يعجزون عن رؤية الملك في صورته
الا من ايده الله كما ايد نبينا قال تعالى ﴿ وقالوا لولا انزل عليه ملك ولو انزلنا
ملكا لقضي الامر ﴿ قال غير واحد من السلف لا يطيقون ان يروا الملك في
صورته فلو انزلنا عليهم ملكا لجعلناه في صورة بشر وحيثئذ يشتهه عليهم
هل هو بشر او ملك ومن تمام نعمة الله علينا ان بعث فينا رسولا منا وما
الزهم المعتزلة هذا الالتزام الا لما واقفون على انه لا داخل العالم ولا خارجه
لكن قول من اثبت موجودا يرى لا في جهة اقرب الى العقل في قول من
اثبت موجودا قائما بنفسه لا يرى ولا في جهة ويقال لمن قال بنفي الرؤية

لا تتفاء لازمها وهو الجهة اتريد بالجهة امرا وجوديا او امرا عدميا فان ارادتها
امرا وجوديا كان التقرير كما ليس في شيء موجود لا يرى وهذه المقدمة ممنوعة
ولا دليل على اثباتها بل هي باطلة فان سطح العالم يمكن ان يرى وليس العالم في عالم
آخر وان اردت بالجهة امرا عدميا المقدمة الثانية ممنوعة فلا نسلم انه ليس في
جهة بهذا الاعتبار وكيف يتكلم في اصول الدين من لا يتلقاه من الكتاب
والسنة وانما يتلقاه من قول فلان واذا زعم انه يأخذه من كتاب الله لا يتلقى
تفسير كتاب الله من احاديث الرسول ولا ينظر فيها ولا فيما قاله الصحابة والتابعون
لهم باحسان المنقول اليناعن الثقات النقلة الذين تخيرهم النقاد فانهم لم ينقلوا نظم
القرآن وحده بل نقلوا نظمه ومعناه ولا كانوا يتعلمون القرآن كما يتعلم الصبيان
بل يتعلمونه بمعانيه ومن لا يسلك سبيلهم فانما يتكلم برأيه ومن يتكلم برأيه
وما يظنه دين الله ولم يتلق ذلك من الكتاب فهو مأثوم وان اصاب ومن
أخذ من الكتاب والسنة فهو ماجور وان اخطأ لكن ان اصاب يضاعف
أجره . وقوله الرؤية حق لاهل الجنة تخصيص اهل الجنة بالذكر يفهم منه
نفي الرؤية عن غيرهم ولا شك في رؤية اهل الجنة لربهم في الجنة وكذلك يروونه
في المحشر قبل دخولهم الجنة كما ثبت ذلك في الصحيحين عن رسول الله ﷺ
ويدل عليه قوله تعالى ﴿ تحييتهم يوم يلقونه سلام ﴾ واختلف في رؤية اهل
المحشر على ثلاثة اقوال (احدها) انه لا يراه إلا المؤمنون (الثاني) يراه اهل
الموقف مؤمنهم وكافرهم ثم يحتجب عن الكفار ولا يروونه بعد ذلك (الثالث)
يراه مع المؤمنين المنافقون دون بقية الكفار وكذلك اختلف في تكليمه
لاهل الموقف . واتفقت الامة على انه لا يراه احد في الدنيا بعينه ولم يتنازعا

في ذلك الا في نبينا ﷺ خاصة منهم من نفي رؤيته بالعين ومنهم من أثبتها له
ﷺ . وحكى القاضي عياض في كتابه الشفا اختلاف الصحابة ومن بعدهم في
رؤيته ﷺ وانكار عائشة رضي الله عنها ان يكون ﷺ رأى ربه بعين رأسه
وأنها قالت لمسروق حين سأها هل رأى محمد ربه فقالت لقد قف شعري
مما قلت ثم قالت من حدثك ان محمدا رأى ربه فقد كذب. ثم قال وقالت جماعة بقول
عائشة رضي الله عنها وهو المشهور عن ابن مسعود وابي هريرة واختلف عنه
وقال بانكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين
وعن ابن عباس رضي الله عنهما انه ﷺ رأى ربه بعينه وروى عطاء عنه رآه بقلبه
ثم ذكر أقوالا وفوائد ثم قال وأما جوبه لنبينا ﷺ والقول بانه رآه بعينه
فليس فيه قاطع ولا نص والمعول فيه على آية النجم والتنازع فيها ماثور
والاحتمال لها ممكن وهذا القول الذي قاله القاضي عياض رحمه الله هو الحق فان
الرؤية في الدنيا ممكنة اذ لو لم تكن ممكنة لمساها موسى عليه السلام لكن
لم يرد نص بانه ﷺ رأى ربه بعين رأسه بل ورد ما يدل على نفي الرؤية وهو
مارواه مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه قال سألت رسول الله ﷺ
هل رأيت ربك فقال « نوراني أراه » وفي رواية رأيت نورا وقد روى مسلم
أيضا عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه انه قال قام فينا رسول الله ﷺ بخمس
كلمات فقال « ان الله لا ينام ولا ينبغي له ان ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع
اليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجاب النور » وفي رواية
« النار لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه » فيكون
والله اعلم معنى قوله لا بي ذر رأيت نورا انه رأى الحجاب ومعنى قوله نوراني

أراه النور الذي هو الحجاب يمنع من رؤيته فأنى أراه أي فكيف أراه والنور حجاب بيني وبينه بمعنى من رؤيته . فهذا صريح من نفي الرؤية والله اعلم . وحكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على ذلك ونحن^(١) إلى تقرير رؤيته لربه تعالى وإن كانت رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها البتة وقوله بغير احاطة ولا كيفية هذا لكمال عظمته وبهائه سبحانه وتعالى لا تدركه الابصار ولا تحيط به كما يعلم ولا يحاط به علماً قال تعالى ﴿ لا تدركه الابصار ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ وقوله وتفسيره على ما أراد الله وعلمه إلى ان قال لا ندخل في ذلك متأولين بأرائنا ولا متوهمين بأهوائنا أي كما فعلت المعتزلة بنصوص الكتاب والسنة في الرؤية وذلك تحريف لكلام الله وكلام رسوله عن مواضعه والتأويل الصحيح هو الذي يوافق ما جاءت به السنة والفاسد المخالف له فكل تأويل لم يدل عليه دليل من السياق ولا ممة قرينة تقتضيه فإن هذا لا يقصده المبين الهادي بكلامه اذ لو قصده لحف بالكلام قرآن تدل على المعنى المخالف لظاهره حتى لا يوقع السامع في اللبس والخطأ فإن الله انزل كلامه بيانا وهدى فاذا اراد به خلاف ظاهره ولم يحف به قرآن تدل على المعنى الذي يتبادر غيره إلى فهم كل احد لم يكن بيانا ولا هدى فالتأويل اخبار بمراد المتكلم لا انشاء . وفي هذا الموضوع يغلط كثير من الناس فإن المقصود فهم مراد المتكلم بكلامه فاذا قيل معنى اللفظ كذا وكذا كان اخبارا بالذي عنى المتكلم فان لم يكن الخبر مطابقا كان كذبا على المتكلم ويعرف مراد المتكلم بطرق متعددة : منها ان يصرح بإرادة ذلك المعنى . ومنها ان يستعمل اللفظ الذي

(١) كذا بالاصل ولعله نحا

له معنى ظاهر بالوضع ولا يبين بقرينة تصحب الكلام انه لم يرد ذلك المعنى فكيف اذا حُف بكلامه ما يدل على انه انما اراد حقيقته وما وضع له كقوله ﴿وَوَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ وانكم ترون ربكم عيانا كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحب فهذا مما يقطع به السامع له بمراد المتكلم فاذا اخبر عن مراده بما دل عليه حقيقة لفظه الذي وضع له مع القرائن المؤكدة كان صادقا في اخباره .
واما اذا تناول الكلام بما لا يدل عليه ولا اقترن به ما يدل عليه فخباره بأن هذا مراده كذب عليه وهو تأويل بالرأي وتوهم بالهوى . وحقيقة الأمر ان قول القائل نحمله على كذا او نتأوله بكذا انما هو من باب دفع دلالة اللفظ عن ما وضع له فان منازعه لما احتج عليه به ولم يمكنه دفع وروده دفع معناه وقال احمله على خلاف ظاهره فان قيل بل للحمل معنى آخر لم تذكره وهو ان اللفظ لما استحال ان يراد به حقيقته وظاهره ولا يمكن تعطيله استدلالنا بوروده وعدم ارادة ظاهره على ان مجازه هو المراد فحملناه عليه دلالة لا ابتداء . قيل فهذا المعنى هو الاخبار عن المتكلم انه اراده وهو اما صدق واما كذب كما تقدم ومن الممتنع ان يريد خلاف حقيقته وظاهره ولا يبين للسامع المعنى الذي اراده بل يعرف بكلامه ما يؤكد ارادة الحقيقة . ونحن لانمنع ان المتكلم قد يريد بكلامه خلاف ظاهره اذا قصد التعمية على السامع حيث يسوغ ذلك ولكن المنكر ان يريد بكلامه خلاف حقيقته وظاهره اذا قصد البيان والايضاح وافهام مراده كيف والمتكلم يؤكد كلامه بما ينفي المجاز ويكرره غير مرة ويضربه الأمثال . وقوله فانه ما سلم في دينه الامن سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ ورد علم ما اشتبه عليه الى عالمه اي سلم لنصوص الكتاب والسنة ولم يعترض

عليها بالشكوك والشبه والتأويلات الفاسدة او بقوله العقل يشهد بضد ما دل
عليه النقل والعقل اصل النقل فاذا عارضه قدمنا العقل وهذا لا يكون قط
لكن اذا جاء ما يوهم مثل ذلك فان كان النقل صحيحا فذلك الذي يدعى انه
معقول انما هو مجهول ولو حقق النظر لظهر ذلك وان كان النقل غير صحيح
فلا يصلح للمعارضة فلا يتصور ان يتعارض عقل صريح ونقل صحيح ابد او
تعارض كلام من يقول ذلك بنظره فيقال اذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم
النقل لأن الجمع بين المدلولين جمع بين التقيضين ورفعهما رفع التقيضين وتقديم
العقل ممتنع لان العقل قد دل على صحة السمع ووجوب قبول ما اخبر به الرسول
ﷺ فلو ابطالنا النقل لكنا قد ابطالنا دلالة العقل ولو ابطالنا دلالة العقل
لم يصلح ان يكون معارضا للنقل لان ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضة شيء
من الأشياء فكان تقديم العقل موجبا عدم تقديمه فلا يجوز تقديمه وهذا
بين واضح فان العقل هو الذي دل على صدق السمع ووضحة وان خبره مطابق
لخبره فان جاز ان تكون الدلالة باطلة لبطلان النقل لزم ان لا يكون النقل
دليلا صحيحا واذا لم يكن دليلا صحيحا لم يجز ان يتبع بحال فضلا عن ان يقدم فصار
تقديم العقل على النقل قدحا في العقل فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ والالتقياد
لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون ان نعارضه بخيال باطل نسميه
معقولا او نمحله بشبهة او شك او تقدم عليه آراء الرجال ووزالة اذهانهم فنوحده
بالتحكيم والتسليم والالتقياد والاذعان كما نوحده المرسل بالعبادة والخضوع
والذل والانابة والتوكل فهما توحيدان لا نجاه للعبد من عذاب الله الا بهما
توحيد المرسل وتوحيد متابعة الرسول فلا نحاكم الي غيره ولا نرضى بحكم

غيره ولا نوقف تنفيذ امره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وامامه
وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه فان اذنوا له نفذه وقبل خبره والا فان
طلب السلامة فوضه اليهم واعرض عن امره وخبره والا حرفه عن مواضعه
وسمى تحريفه تأويلا وحملا فقال نأوله ونحمله فلان يلقى العبد ربه بكل ذنب
ما خلا الا شرك بالله خير له من ان يلقاه بهذه الحال بل اذا بلغه الحديث
الصحيح يعد نفسه كانه سمعه من رسول الله ﷺ فهل يسوغ ان يؤخر قبوله
والعمل به حتى يعرضه على رأي فلان وكلامه ومذهبه بل كان الفرض المبادرة
الى امتثاله من غير التفات الى سواه ولا يستشكل قوله لمخالفته رأي فلان
بل يستشكل الآراء لقوله ولا يعارض نصه بقياس بل نهدر الأقيسة وتلقى
نصوصه ولا تحرف كلامه عن حقيقته خيال يسميه اصحابه معقولا نم هو
مجهول وعن الصواب معزول ولا يوقف قبول قوله على موافقة فلان دون فلان
كائنا من كان . قال الامام احمد حدثنا انس بن عياض حدثنا ابو حازم عن عمرو
ابن شعيب عن ابيه عن جده قال لقد جلست انا واخي مجلسا ما احب ان لي
به حمر النعم اقبلت انا واخي واذا مشيخة من اصحاب رسول الله ﷺ جلوس
عند باب من ابوابه فكرهنا ان نفرق بينهم فجلسنا حجرة اذ ذكروا آية من
القرآن فماروا فيها حتى ارتفعت اصواتهم فخرج رسول الله ﷺ مغضبا قد
احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول مهلا يا قوم بهذا اهلكت الامم من قبلكم
باختلافهم على انبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض ان القرآن لم ينزل
يكذب بعضه بعضا وانما نزل يصدق بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به
وما جهلتم منه فردوه الى عالمه ولا شك ان الله قد حرم القول عليه بغير علم

قال تعالى ﴿ قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي
بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا
تعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ فعلى العبد ان يجعل
ما بعث الله به رسله وانزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه فيصدق بانه حق
وصدق وما سواد من كلام سائر الناس يعرض عليه فان وافقه فهو حق وان
خالفه فهو باطل وان لم يعلم هل خالفه او وافقه يكون ذلك الكلام مجملا
لا يعرف مراد صاحبه او قد عرف مراده لكن لم يعرف هل جاء الرسول
بتصديقه او بتكذيبه فانه يمسك عنه ولا يتكلم الا بعلم والعلم ما قام عليه الدليل
والنافع منه ما جاء به الرسول وقد يكون علم من غير الرسول لكن في الامور
الدنيوية مثل الطب والحساب والفلاحة واما الامور الالهية والمعارف الدينية
فهذه العلم فيها ما اخذ عن الرسول لا غير قوله ﴿ ولا يثبت قدم الاسلام
الا على ظهر التسليم والاستسلام ﴾ ش . هذا من باب الاستعارة اذ تقدم
الحسي لا يثبت الا على ظهر شيء اي لا يثبت اسلام من لم يسلم لنصوص
الوحيين وينقاد اليها ولا يعترض عليها ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه ،
روى البخاري عن الامام محمد بن شهاب الزهري رحمه الله انه قال من الله
الرسالة ومن الرسول البلاغ وعلينا التسليم وهذا كلام جامع نافع ، وما احسن
المثل المضروب للنقل مع العقل وهو ان العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم
المجتهد بل هو دون ذلك بكثير فان العامي يمكنه ان يصير عالما ولا يمكن العالم ان
يصير نبيارسولا فاذا عرف العامي المقلد عالما فدل عليه عاميا آخر ثم اختلف المفتي
والدال فان المستفتي يجب عليه قبول قول المفتي دون الدال فلو قال الدال الصواب معي

دون المفتي لاني انا الاصل في علمك بانه مفت فاذا قدمت قوله على قولي قدحت
في الاصل الذي به عرفت انه مفت فلزم القدرح في فرعه فيقول له المستفتي
انت لما شهدت له بانه مفت ودلت عليه شهدت له بوجوب تقليده دونك
فوافقني لك في هذا العلم المعين لا يستلزم موافقتك في كل مسألة وخطأوك
فيما خالفت فيه المفتي الذي هو اعلم منك لا يستلزم خطأك في علمك بانه مفت
هذا مع علمه ان ذلك المفتي قد يخطي والعقل يعلم ان الرسول معصوم في
خبره عن الله تعالى لا يجوز عليه الخطأ فيجب عليه التسليم له والالتقياد لأمره
وقد علمنا بالاضطراد من دين الاسلام ان الرجل لو قال للرسول هذا القرآن
الذي تلقيه علينا والحكمة التي جئتنا بها قد تضمن كل منهما اشياء كثيرة
تناقض ما علمناه بعقولنا ونحن انما علمنا صدقك بعقولنا فلو قبلنا جميع ما يقوله
مع ان عقولنا تناقض ذلك لكان ذلك قدحا في ما علمناه صدقك فنحن
نعتقد موجب الأقوال الناقضة لما ظهر من كلامك ، وكلامك نعرض عنه
لان تلقي منه هديا ولا علما لم يكن مثل هذا الرجل مؤمنا بما جاء به الرسول
ولم يرض منه الرسول بهذا بل يعلم ان هذا لو ساغ لأمكن كل احد ان يؤمن
بشيء مما جاء به الرسول اذ العقول متفاوتة والشبهات كثيرة والشياطين لا
تزال تلقى الوسواس في النفوس فيمكن كل احد ان يقول مثل هذا في كل
ما اخبر به الرسول وما امر به . وقد قال تعالى ﴿ وما على الرسول الا البلاغ ﴾
وقال ﴿ فهل على الرسل الا البلاغ المبين ﴾ وقال تعالى ﴿ وما ارسلنا من رسول
الا بلسان قومه ليبين لهم فيفضل الله من يشاء ويهدي من يشاء قد جاءكم من
الله نور وكتاب مبين - حم والكتاب المبين تلك آيات الكتاب المبين -

ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء
وهدى ورحمة لقوم يؤمنون - ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى
ورحمة وبشرى للمسلمين ﴿ ونظائر ذلك كثيرة في القرآن فأمر الايمان بالله
واليوم الآخر اما ان يكون الرسول تكلم فيه بما يدل على الحق ام لا . الثاني
باطل وان كان قد تكلم على الحق بالفاظ مجملة محتملة فابلاغ البلاغ المبين وقد
شهد له خير القرون بالبلاغ واشهد الله عليهم في الموقف الأعظم فمن يدعي
انه في اصول الدين لم يبلغ البلاغ المبين فقد افترى عليه عليه السلام . قوله ﴿ فمن
رام علم ما حظر عنه علمه ولم يقنع بالتسليم ففهمه حجبه مرامه عن خالص

التوحيد وصافي المعرفة و صحيح الايمان ﴿ ش . هذا تقرير للكلام الأول
وزيادة تحذير ان يتكلم في اصول الدين بل وفي غيرها بغير علم وقال تعالى
﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه
مستولا ﴿ وقال تعالى ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان
مريد كتب عليه انه من تولاه فانه يضلله ويهديه الى عذاب السعير ﴿
وقال تعالى ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب
منير ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيمة عذاب
الحريق ﴿ وقال تعالى ﴿ ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله
لا يهدي القوم الظالمين ﴿ وقال تعالى ﴿ ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس
ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴿ الى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى .
وعن ابي امامة الباهلي رضي الله عنه قال قال رسول الله عليه السلام « ما ضل قوم بعد
هدى كانوا عليه الا وتوا الجدل » ثم تلا ﴿ ما ضرب بملك الاجدلا ﴾ رواه الترمذي

وقال حديث حسن . وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ « ان
ابغض الرجال الى الله الالذ الخضم » خرجاه في الصحيحين . ولا شك ان
من لم يسلم للرسول نقص توحيدده فانه يقول برأيه وهواه ويقلد ذا رأي
وهوى بغير هدى من الله فينقص من توحيدده بقدر خروجه عما جاء به الرسول
فانه قد اتخذ في ذلك إلهاً غير الله . قال تعالى ﴿ افرأيت من اتخذ آلهه هواء ﴾
اي عبد ما هواه نفسه وانما دخل الفساد في العالم من ثلاث فرق كما قال عبدالله
ابن المبارك رحمة الله عليه :

رأيت الذنوب تميمت القلوب * وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب * وخير لنفسك عصيانها
وهل افسد الدين الا الملوك * واحبار سوء ورهبانها
فالملوك الجائرة يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة ويعارضونها
بها ويقدمونها على حكم الله ورسوله . واحبار السوء وعم العلماء الخارجون عن
الشريعة بأرائهم وأقيستهم الفاسدة المتضمنة تحليل ما حرم الله ورسوله وتحريم
ما اباحه واعتبار ما القاه والغاء ما اعتبره واطلاق ما قيدته وتقييد ما اطلقه ونحو
ذلك . والرهبان وهم جهال المتصوفة المعترضون على حقائق الأيمان والشرع
بالاذواق والمواجيد والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية المتضمنة شرع
دين لم ياذن به الله وابطال دينه الذي شرعه على لسان نبيه ﷺ والتعويض عن
حقائق الايمان بخدع الشيطان وحطوظ النفس . فقال الاولون اذا تعارضت
السياسة والشرع قدمنا السياسة . وقال الآخرون اذا تعارض العقل والنقل
قدمنا العقل . وقال اصحاب الذوق اذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع

قدمنا الذوق والكشف . ومن كلام ابي حامد الغزالي رحمه الله في كتابه
الذي سماه احياء علوم الدين وهو من اجل كتبه او اجلها (فان قلت فعلم الجدل
والكلام مذموم كعلم النجوم او هو مباح او مندوب اليه . فاعلم ان للناس
في هذا غلوا واسرافا في اطراف فن قائل انه بدعة وحرام وان العبد ان يلقى
الله بكل ذنب سوى الشرك خير له من ان يلقاه بالكلام . ومن قائل انه فرض
اما على الكفاية واما على الاعيان وانه افضل الاعمال واعلى القربات فانه تحقيق
لعلم التوحيد ونضال عن دين الله) قال والى التحريم ذهب الشافعي ومالك
واحمد بن حنبل وسفيان وجميع ائمة الحديث من السلف وساق الالفاظ عن
هؤلاء قال وقد اتفق اهل الحديث من السلف على هذا ولا ينحصر ما نقل
عنهم من التشديدات فيه قالوا ما سكت عنه الصحابة مع انهم اعرف بالحقائق
وافصح بترتيب الالفاظ من غيرهم الا لما يتولد منه من الشر . وكذلك قال عليه السلام
« هلك المتنطعون » اي المتعمقون في البحث والاستقصاء واحتجوا ايضا بان
ذلك لو كان من الدين لكان اهم ما يأمر به رسول الله عليه السلام ويعلم طريقته ويثني
على اربابه . ثم ذكر بقية استدلالهم ثم ذكر استدلال الفريق الآخر الى ان
قال فان قلت فما المختار عندك . فاجاب بالتفصيل فقال فيه منفعة وفيه مضرة
فهو في وقت الانتفاع حلال او مندوب او واجب كما يقتضيه الحال وهو
باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحل حرام قال فاما مضرته فائارة الشبهات
وتحريك العقائد وازالتها عن الجزم والتصميم وذلك مما يحصل بالابتداء ورجوعها
بالدليل مشكوك فيه ويختلف فيه الاشخاص فهذا ضرره في اعتقاد الحق وله
ضرر في تأكيد اعتقاد البدعة وتثبيتها في صدورهم بحيث تنبث دواعيهم

ويشدد حرصهم على الاصرار عليه ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي
يشور من الجدل . قال : واما منفعته فقد يظن انه فائدة كشف الحقائق ومعرفتها
على ما هي عليه و هيئتها فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف و لعل
التخبيط والتضليل اكثر من الكشف والتعريف . قال وهذا اذا سمعته من
محدث او حشوى ربما خطر ببالك ان الناس اعدا ما جهلوا فاسمع هذا ممن
خبر الكلام ثم قل بعد حقيقة الخبرة وبعد التفلسف فيه الى منتهى درجة
المتكلمين وجاوز ذلك الى التعمق في علوم اخر سوى نوع الكلام وبحقق
ان الطريق الى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود ولعمري لا ينفك
الكلام عن كشف وتعريف وايضاح لبعض الأمور ولكن على الندور .
انتهى ما نقلته عن الغزالي رحمه الله . وكلام مثله في ذلك حجة بالغة والسلف
لم يكرهوه لمجرد كونه اصطلاحاً جديداً على معان صحيحة كاصطلاح على الفاظ
العلوم الصحيحة ولا كرهوا ايضاً الدلالة على الحق والمحااجة لأهل الباطل
بل كرهوه لاشتماله على امور كاذبة مخالفة للحق . ومن ذلك مخالفتها للكتاب
والسنة وما فيه من علوم صحيحة فقد وعروا الطريق الى تحصيلها واطالوا الكلام
في اثباتها مع قلة نفعها فهي لحم على رأس جبل وعرا لاسهل فيرتقى
ولاسمين فينتقل واحسن ما عندهم فهو في القرآن اصح تقريراً واحسن تفسيراً
فليس عندهم الا التكلف والتطويل والتعقيد . كما قيل

لولا التنافس في الدنيا لما وضعت * كتب التناظر لا المعنى ولا العمد

يحللون بزعم منهم عقدا * وبالذي وضعوه زادت العقد

فهم يزعمون انهم يدفعون بالذي وضعوه الشبه والشكوك والفاضل الذي

يعلم ان الشبه والشكوك زادت بذلك . ومن المحال ان لا يحصل الشفاء والهدى
والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين
بل الواجب ان يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل ويتدبر معناه
ويعقله ويعرف برهانه ودليله العقلي والخبري السمعي ويعرف دلالاته على هذا
وهذا ويجعل اقوال الناس التي توافقه وتخالفه متشابهة مجملة فيقال لأصحابها
هذه الالفاظ تحتمل كذا وكذا فان ارادوا بها ما يوافق خبر الرسول قبل
وان ارادوا بها ما يخالفه رد وهذا مثل لفظ المركب والجسم والتحيز والجوهر
والجهة والحيز والعرض ونحو ذلك فان هذه الالفاظ لم تأت في الكتاب والسنة
بالمعنى الذي يريد اهل هذا الاصطلاح بل ولا في اللغة بل هم يخصصون بالتعبير بها
عن معان لم يعبر غيرهم عنها بها فتفسر تلك المعاني بعبارات اخر وينظر ما دل
عليه القرآن من الأدلة العقلية والسمعية واذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين
الحق من الباطل . مثال ذلك في التركيب فقد صار له معاني : (احدها) التركيب
من متباينين فاكثر ويسمى تركيب مزج كتركيب الحيوان من الطبائع
الأربع والأعضاء ونحو ذلك وهذا المعنى منفي عن الله سبحانه وتعالى ولا يلزم
من وصف الله تعالى بالعلو ونحوه من صفات الكمال ان يكون مركبا بهذا المعنى
الذكر . (والثاني) تركيب الجوار كصراعي الباب ونحو ذلك ولا يلزم ايضا
من ثبوت صفاته تعالى اثبات هذا التركيب . (الثالث) التركيب من الأجزاء
التمائلة وتسمى الجواهر المفردة . (الرابع) التركيب من الهيولى والصورة
كالخاتم مثلا هيولى الفضة وصورته معروفة واهل الكلام قالوا : ان الجسم
يكون مركبا من الجواهر المفردة ولهم كلام في ذلك يطول ولا فائدة فيه وهو

انه هل يمكن التركيب من جزئين او من اربعة او ستة او ثمانية وستة عشر
وليس هذا التركيب لازماً لثبوت صفاته تعالى وعلوه على خلقه والحق ان
الجسم غير مركب من هذه الأشياء وانما قولهم مجرد دعوى وهذا مبسوط
في موضعه . (الخامس) التركيب من الذات والصفات هم سموه تركيباً لينفوا
به صفات الرب تعالى وهذا اصطلاح منهم لا يعرف في اللغة ولا في استعمال
الشارع فلسنا نوافقهم على هذه التسمية ولا كرامه . ولئن سموا اثبات الصفات
تركيباً فنقول لهم : العبرة للمعاني لا للألفاظ سموه ما شئتم ولا يترتب على
التسمية بدون المعنى حكم فلو اصطلاح على تسمية اللبن خمرأ لم يحرم بهذه
التسمية . (السادس) التركيب من الماهية ووجودها وهذا يفرضه الذهن
انها غيران واما في الخارج هل يمكن ذات مجردة عن وجودها ووجودها
مجرد عنها هذا محال فترى اهل الكلام يقولون : هل ذات الرب وجوده
ام غير وجوده وهم في ذلك خبط كثير . وأمثالهم طريقة رأي الوقف والشك
في ذلك وكم يزول بالاستفسار والتفصيل كثير من الاضاليل والأباطيل . وسبب
الاضلال الاعراض عن تدبر كلام الله وكلام رسوله والاشتغال بكلام اليونان
والاراء المختلفة وانما سمي هؤلاء اهل الكلام لأنهم لم يفيدوا علماً لم يكن
معروفاً وانما اتوا بزيادة كلام قد لا يفيد وهو ما يضر بونه من القياس لا يوضح
ما علم بالحس وان كان هذا القياس وامثاله ينتفع به في موضع آخر ومع من
ينكر الحس وكل من قال برأيه وذوقه وسياسته مع وجود النص او عارض
النص بالمعقول فقد ضاهى ابليس حيث لم يسلم لامر ربه بل قال : انا
خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . وقال تعالى ﴿ من يطع

الرسول فقد اطاع الله ومن تولى فما ارسلناك عليهم حفيظا * وقال تعالى
﴿ قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله
غفور رحيم ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر
بينهم ثم لا يجحدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ اقسام سبععانه
بنفسه انهم لا يؤمنون حتى يحكموا بنيه ويرضوا بحكمه ويسلموا تسليما قوله
﴿ فيتذبذب بين الكفر والايمان والتصديق والتكذيب والاقرار والانكار

موسوساتأها شا كا لا مؤمنا مصدقا ولا جاحدا مكذبا ﴾ يتذبذب يضطرب
ويتردد وهذه الحال التي وصفها الشيخ رحمه الله حال كل من عدل عن الكتاب
والسنة الى علم الكلام المذموم او اراد ان يجمع بينه وبين الكتاب والسنة
وعند التعارض يتأول النص ويرده الى الرأي والآراء المختلفة فيؤل امره الى
الحيرة والضلال والشك كما قال ابن رشد الحفيد وهو من اعلم الناس بمذهب
الفلاسفة ومقالاتهم في كتابه تهافت التهافت ومن الذي قال في الآلهيات شيئا
يعتد به وكذلك الآمدي افضل اهل زمانه واقف في المسائل الكبار حائر
وكذلك الغزالي رحمه الله انتهى آخر امره الى الوقف والحيرة في المسائل
الكلامية ثم اعرض عن تلك الطرق واقبل على احاديث الرسول ﷺ فبات
والبخاري على صدره وكذلك ابو عبد الله محمد بن عمر الرازي قال في كتابه
الذي صنغه الذات

نهاية اقدام العقول عقال * وغاية سعي العالمين ضلال
وارواحنا في وحشة من جسمنا * وحاصل دنيانا اذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا * سوى ان جمعنا فيه قيل وقال

فكم قد رأينا من رجال ودولة * فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها * رجال فزالوا والجبال جبال
لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا
ولا تروي غليلا ورأيت اقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الاثبات
* الرحمن على العرش استوى - اليه يصعد الكلم الطيب * واقرأ في النفي * ليس
كشئ شيء - ولا يحيطون به علما * ثم قال ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل
معرفتي وكذلك قال الشيخ ابو عبدالله محمد بن عبدالكريم الشهرستاني انه
لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين الا الحيرة والندم حيث قال :

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها * وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم ار الا واضعا كف حائر * على ذقن او قارعا سن نادم
وكذلك قال ابو المعالي الجويني يا اصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت
ان الكلام يبلغ بي الى ما بلغ ما اشتغلت به . وقال عند موته لقد خضت البحر
الخصم وخليت اهل الاسلام وعلومهم ودخلت في الذي نهوني عنه والآن
فان لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني وها انا اذا اموت على عقيدة
امي او قال على عقيدة مجازئ نيسابور وكذلك قال شمس الدين الخسر وشاهي
وكان من اجل تلامذة نخر الدين الرازي لبعض الفضلاء وقد دخل عليه يوما
فقال ما تعتقده قال ما يعتقده المسامون فقال وانت منشرح الصدر لذلك مستيقن
به او كما قال ، فقال نعم ، فقال اشكر الله على هذه النعمة لكني والله ما ادري
ما اعتقد والله ما ادري ما اعتقد والله ما ادري ما اعتقد وبكى حتى اخضل
لحيته . ولا بن ابى الحديد الفاضل المشهور بالعراق

فيك يا اغلوطة الفكر * حار امري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فإ * ربحت الا اذى السفر
فلحي الله الاولي زعموا * انك المعروف بالنظر
كذبوا ان الذي ذكروا * خارج عن قوة البشر
وقال الخوفجي عند موته ما عرفت مما حصلته شيئا سوى ان الممكن
يفتقر الى المرجح ثم قال الافتقار وصف سابي اموت وما عرفت شيئا . وقال
آخر اضطلع على فراشي واضع اللحفه على وجهي واقابل بين حجج هؤلاء
وهؤلاء حتى يطلع الفجر ولم يترجع عندي منها شيء . ومن يصل الى مثل
هذه الحال ان لم يتداركه الله برحمته والا تزندق كما قال ابو يوسف من
طلب الدين بالكلام تزندق ومن طلب المال بالكيميا افسس ومن طلب
غريب الحديث كذب . وقال الشافعي رحمه الله حكى في اهل الكلام ان
يضرىوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال هذا جزاء
من ترك الكتاب والسنة واقبل على الكلام . وقال لقد اطلمت من اهل
الكلام على شيء ما ظننت مسلما يقوله ولان يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه
ما خلا الشرك بالله خيره من ان يبتلى بالكلام انتهى . وتجد احد هؤلاء عند
الموت يرجع الى مذهب العجائز فيقر بما اقروا به ويعرض عن تلك الدقائق
الخالفة لذلك التي كان يقطع بها ثم تبين له فسادها اولم يتبين له صحتها فيكونون
في نهاياتهم اذا سلموا من العذاب بمنزلة اتباع اهل العلم من الصبيان والنساء
والاعراب . والدواء النافع لمثل هذا المرض ما كان طيب القلوب صلوات
الله وسلامه عليه يقوله اذا قام من الليل يفتتح الصلاة « اللهم رب جبرائيل

وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انت تحكم
بين عبادك فيما كانوا فيه مختلفون اهديني لما اختلف فيه من الحق باذنك
انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم » خرجه مسلم توجه ﷺ الى ربه
بربوية جبرائيل وميكائيل واسرافيل ان يهديه لما اختلف فيه من الحق
باذنه اذ حياة القلب بالهداية . وقد وكل الله سبحانه هؤلاء الثلاثة بالحياة
لجبرائيل موكل بالوحي الذي هو سبب حياة القلوب وميكائيل بالفطر الذي
هو سبب حياة الابدان وسائر الحيوان واسرافيل بالنفخ في الصور الذي
هو سبب حياة العالم وعود الارواح الى اجسادها فالتوسل الى الله سبحانه
بربوية هذه الارواح العظيمة الموكلة بالحياة له تاثير عظيم في حصول المطلوب
والله المستعان قوله « ولا يصح الايمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها
منهم بوعم او تأولها بفهم اذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف الى
الرؤية بترك التأويل ولزوم التسليم وعليه دين المسلمين ومن لم يتوق النبي
والتشبيه زل ولم يصب التنزيه » ش . يشير الشيخ رحمه الله الى الرد على المعتزلة
ومن يقول بقولهم في نفي الرؤية وعلى من يشبه الله بشيء من مخلوقاته فان النبي ﷺ
قال « انكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » الحديث ادخل كاف التشبيه
على ما المصدرية الموصولة بترون التي يتجلى الى المصدر الذي هو الرؤية فيكون
التشبيه في الرؤية لا في المرئي وهذا بين واضح في ان المراد اثبات الرؤية
وتحقيقها ودفع الاحتمالات عنها وما ذا بعد هذا البيان وهذا الايضاح فاذا
سلط التأويل على مثل هذا النص كيف يستدل بنص من النصوص وهل
يحمل هذا النص ان يكون معناه انكم تعلمون ربكم كما تعلمون القمر ليلة

البدر . ويستشهد لهذا التأويل الفاسد بقوله تعالى ﴿ ألم تر كيف فعل ربك
باصحاب الفيل ﴾ ونحو ذلك مما استعمل فيه رأى التي من افعال القلوب ولاشك
ان ترى تارة تكون بصرية وتارة تكون قلبية وتارة تكون من رؤيا الحلم
وغير ذلك ولاكن ما يخلو الكلام من قرينة تخلص اصل معانيه من الباقي
والا لو اخلى المتكلم كلامه من القرينة المخلصة لاحد المعاني لكان بجملا ملفزا
لا ميدنا موضحا واي بيان وقرينة فوق قوله « ترون ربكم كما ترون الشمس
في الظهيرة ليس دونها سحاب » فهل مثل هذا مما يتعلق برؤية البصر او برؤية
القلب وهل يخفى مثل هذا الا على من اعى الله قلبه فان قالوا الجأنا الى هذا
التأويل حكم العقل بأن رؤيته تعالى محال لا يتصور امكانها . فالجواب ان
هذه دعوى منكم خالفكم فيها اكثر العقلاء وليس في العقل ما يحيلها بل لو عرض
على العقل موجود قائم بنفسه لا يمكن رؤيته لحكم بأن هذا محال . وقوله
لمن اعتبرها منهم بوهم اي توهم ان الله تعالى يرى على صفة كذا فيتوهم تشبيها
ثم بعد هذا التوهم ان اثبت ما توهمه من الوصف فهو مشبه وان نفي الرؤية
من اصلها لاجل ذلك التوهم فهو جاحد معطل بل الواجب دفع ذلك الوهم
وحده ولا يعم بنفيه الحق والباطل فينفيها ردا على من اثبت الباطل بل
الواجب رد الباطل واثبات الحق والى هذا المعنى اشار الشيخ رحمه الله
بقوله ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه فان هؤلاء المعتزلة
يزعمون انهم ينزهون الله بهذا النفي وهل يكون التنزيه بنفي صفة الكمال فان
نفي الرؤية ليس بصفة كمال اذ المعلوم لا يرى وانما الكمال في اثبات الرؤية
ونفي ادراك الرائي له ادراك احاطة كما في العلم فان نفي العلم به ليس بكمال

وانما الكمال في اثبات العلم ونفي الاحاطة به علما فهو سبحانه لا يحاط به رؤية
كما لا يحاط به علما . وقوله او تأولها بفهم اي ادعى انه فهم لها تأويلا يخالف
ظاهرها وما يفهمه كل عربي من معناها فانه قد صار اصطلاح المتأخرين في
معنى التأويل انه صرف اللفظ عن ظاهره وبهذا تسلط المحرفون على النصوص
وقالوا نحن نتأول ما يخالف قولنا فسموا التحريف تأويلا تزينا له وزخرفة
ليقبل وقد ذم الله الذين زخرفوا الباطل قال تعالى ﴿ وكذلك جعلنا لكل
نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ﴾
والعبرة للمعاني لا للالفاظ فكم من باطل قد اقيم عليه دليل مزخرف عورض
به دليل الحق وكلامه هنا نظير قوله فيما تقدم لاندخل في ذلك متأولين بارائنا
ولامتوهمين بأهوائنا ثم اكد هذا المعنى بقوله اذ كان تأويل الرؤية وتأويل
كل معنى يضاف الى الربوبية ترك التأويل ولزوم التسليم وعليه دين المسلمين
ومراده ترك التأويل يسمونه تأويلا وهو تحريف ولكن الشيخ رحمه الله
تأدب وجادل بالتي هي احسن كما امر الله تعالى بقوله ﴿ وجاد لهم بالتي هي احسن ﴾
وليس مراده ترك كل ما يسمى تأويلا ولا ترك شيء من الظواهر لبعض
الناس لدليل راجع من الكتاب والسنة وانما مراده ترك التأويلات الفاسدة
المتدعة المخالفة لمذهب السلف التي يدل الكتاب والسنة على فسادها وترك
القول على الله بلا علم فمن التأويلات الفاسدة تأويل ادلة الرؤية وادلة العلو
وانه لم يكلم موسى تكليما ولم يتخذ ابراهيم خليلا ثم قد صار لفظ التأويل
مستملا في غير معناه الاصلى فالتأويل في كتاب الله وسنة رسوله هو الحقيقة
التي يأول اليها الكلام فتأويل الخبر هو عين الخبر به وتأويل الامر نفس الفعل

المأمور به كما قالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه
سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن وقال تعالى ﴿هل ينظرون
الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا
بالحق﴾ . ومنه تأويل الرؤيا وتأويل العمل كقوله ﴿هذا تأويل رؤياي من
قبل﴾ . وقوله ﴿ويعلمك من تأويل الاحاديث﴾ وقوله ﴿ذلك خير وأحسن
تأويلا﴾ وقوله ﴿سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا﴾ الى قوله ﴿ذلك
تأويل ما لم تستطع عليه صبرا﴾ فمن ينكر وقوع مثل هذا التأويل والعلم بما
تعلق بالأمر والنهي منه . واما ما كان خبرا كالاخبار عن الله واليوم الآخر
فهذا قد لا يعلم تأويله الذي هو حقيقته اذ كانت لا تعلم بمجرد الاخبار فان
المخبر ان لم يكن قد تصور المخبر به او ما يعرفه قبل ذلك لم يعرف حقيقته
التي هي تأويله بمجرد الاخبار وهذا هو التأويل الذي لا يعلمه الا الله لكن
لا يلزم من نفي العلم بالتأويل نفي العلم بالمعنى الذي قصد المخاطب افهام المخاطب
اياها فما في القرآن آية الا وقد امر الله بتدبرها وما انزل آية الا وهو يجب ان
يعلم ما عني بها وان كان من تأويله مالا يعلمه الا الله فهذا معنى التأويل في
الكتاب والسنة وكلام السلف ، وسواء كان هذا التأويل موافقا للظاهر
او مخالفا له . والتأويل في كلام كثير من المفسرين كابن جرير ونحوه يريدون
به تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق ظاهره او خالف وهذا اصطلاح
معروف وهذا التأويل كالتفسير بحمد حقه ويرد باطله . وقوله تعالى ﴿وما
يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم﴾ الآية فيها قراءة ثان قراءة من يقف
على قوله الا الله وقراءة من لا يقف عندها وكلتا القراءتين حق ويراد بالأولى

المتشابه في نفسه الذي استأثر الله بعلم تأويله . او يراد بالثانية المتشابه الاضافي
الذي يعرف الراسخون تفسيره وهو تأويله ولا يريد من وقف على قوله
الا الله ان يكون التأويل بمعنى التفسير للمعنى . فان لازم هذا ان يكون الله
انزل على رسوله كلاما لا يعلم معناه جميع الأمة ولا الرسول ويكون الراسخون
في العلم لاحظ لهم في معرفة معناه سوى قولهم ﴿ آمنا به كل من عند ربنا ﴾
وهذا القدر بقوله غير الراسخ في العلم من المؤمنين والراسخون في العلم يجب
امتيازهم عن عوام المؤمنين في ذلك . وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : انا
من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله . ولقد صدق رضي الله عنه فان النبي
ﷺ دعا له وقال « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » رواه البخاري وغيره
ودعاؤه ﷺ لا يرد . قال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من اوله الى
آخره أقفه عند كل آية وأسأله عنها وقد توارت النقول عنه انه تكلم في جميع
معاني القرآن ولم يقل عن آية منها من المتشابه الذي لا يعلم احد تأويله الا الله .
وقول الأصحاب رحمهم الله في الأصول المتشابهة الحروف المقطعة في أوائل
السور ، ويروى هذا عن ابن عباس مع ان هذه الحروف قد تكلم في معناها
اكثر الناس فان كان معناها معروفا فقد عرف معنى المتشابه وان لم يكن معروفا
وهي المتشابه كان ماسواها معلوم المعنى وهذا المطلوب . وايضا فان الله قال ﴿ منه
آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ وهذه الحروف ليست آيات
عند الجمهور العادين . والتأويل في كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين هو
صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح الى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك
وهذا هو التأويل الذي تنازع الناس فيه في كثير من الامور الخبرية والطلبية .

فالتأويل الصحيح منه الذي يوافق مادلت عليه نصوص الكتاب والسنة وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد وهذا مبسوط في موضعه . وذكروا في التبصرة أن نصير بن يحيى البلخي روى عن عمرو بن اسماعيل بن حماد بن أبي يحيى بن محمد ابن الحسن رحمهم الله انه سئل عن الآيات والأخبار التي فيها من صفات الله تعالى ما يؤدي ظاهره الى التشبيه فقال نمرها كما جاءت وتؤمن بها ولا نقول كيف وكيف ويجب ان يعلم ان المعنى الفاسد الكفري ليس هو ظاهر النص ولا مقتضاه وان من فهم ذلك منه فهو لقصور فهمه ونقص علمه واذا كان قد قيل في قول بعض الناس

وكم من عائب قولنا صحيحا * وآفته من الفهم السقيم (وقيل)

علي بحث^(١) القوافي من اما كنها * وما علي اذا لم تفهم البقر

فكيف يقال في قول الله الذي هو اصدق الكلام واحسن الحديث وهو الكتاب الذي احكمت آياته ثم فصلت من لذن حكيم خبير ان حقيقة قولهم ان ظاهر القرآن والحديث هو الضلال وانه ليس فيه بيان ما يصلح من الاعتقاد ولا فيه بيان التوحيد والتنزيه هذا حقيقة قول المتأولين والحق ان ما دل عليه القرآن فهو حق وما كان باطلا لم يدل عليه والمنازعون يدعون دلالة على الباطل الذي يتعين صرفه فيقال لهم : هذا الباب الذي فتحتموه وان كنتم تزعمون انكم تنتصرون به على اخوانكم المؤمنين في مواضع قليلة خفية فقد فتحتم عليكم بابا لانواع المشركين والمبتدعين لا تقدررون على سده فانكم اذا سوغتم صرف القرآن عن دلالة المفهومة بغير دليل شرعي فما الضابط فيما يسوغ تأويله

وما لا يسوغ فان قلتم ما دل القاطع العقلي على استحالته تأولناه والا أقررناه
قيل لكم وبأي عقل نزن القاطع العقلي فان القرمطي الباطني يزعم قيام القواطع
على بطلان ظواهر الشرع ويزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان حشر
الأجساد ويزعم المعتزلي قيام القواطع على امتناع رؤية الله تعالى وعلى امتناع
قيام علم او كلام او رحمة به تعالى . وباب التأويلات التي يدعي اصحابها وجوبها
بالمقولات اعظم من ان تنحصر في هذا المقام ويلزم حينئذ محذوران عظيمان :
(احدهما) ان لا تقر بشيء من معاني الكتاب والسنة حتى نبعث قبل ذلك بحوثنا
طويلة عريضة في امكان ذلك بالعقل وكل طائفة من المختلفين في الكتاب يدعون
ان العقل يدل على ما ذهبوا اليه فيؤول الأمر الى الحيرة المحذورة . (الثاني) ان
القلوب تتخلى عن الجزم بشيء من متقدمه مما اخبر به الرسول اذ لا يوثق بان الظاهر هو
المراد والتأويلات مضطربة فيلزم عزل الكتاب والسنة عن الدلالة والارشاد الى
ما انبأ الله به العباد وخاصة النبي هي الانبياء والقرآن هو النبا العظيم ولهذا
نجد اهل التأويل انما يذكرون نصوص الكتاب والسنة للاعتضاد للاعتقاد
ان وافقت ما ادعوا ان العقل دل عليه قبلوه وان خالفته اولوه وهذا فتح باب
الزندقة نسأل الله العافية . قوله ﴿ومن لم يتوق النفي زل ولم يصب التنزيه والاعتماد﴾

النفي والتشبيه مرضان من امراض القلوب فان امراض القلوب نوعان مرض
شبهة ومرض شهوة وكلاهما مذكور في القرآن قال تعالى ﴿فلا تخضعن بالقول
فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ فهذا مرض الشهوة وقال تعالى ﴿في قلوبهم مرض
فزادهم الله مرضا﴾ وقال تعالى ﴿واما الذين في قلوبهم مرض فزادهم رجسا
الى رجسهم﴾ فهذا مرض الشبهة وهو أوردى من مرض الشهوة اذ مرض الشهوة

يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة ومرض الشبهة لاشفاء له ان لم يتداركه الله برحمته
والشبهة التي في مسألة الصفات نفيها وتشبيها وشبه النفي أردى من شبه
التشبيه فان شبه النفي رد وتكذيب لما جاء به الرسول ﷺ وشبهة التشبيه
غلو ومجاوزة للحد فيما جاء به الرسول ﷺ وتشبيه الله بخلقه كفر فان الله تعالى
يقول ﴿ليس كمثل شيء﴾ ونفي الصفات كفر فان الله تعالى يقول ﴿وهو السميع
البصير﴾ وهذا اصل نوعي التشبيه فان التشبيه نوعان تشبيه الخالق بالخلق
وهذا الذي يتعب اهل الكلام في رده وابطاله واهله في الناس اقل من النوع
الثاني الذين هم اهل تشبيه الخلق بالخالق كعباد المشايخ وعزير والشمس
والقمر والاصنام والملائكة والنار والماء والعجل والقبور والجن وغير ذلك
وهؤلاء هم الذين ارسلت لهم الرسل يدعونهم الى عبادة الله وحده لا شريك
له قوله ﴿فان ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوجدانية منعوت بنعوت
الفردانية ليس في معناه احد من البرية﴾ يشير الشيخ رحمه الله الى تنزيه
الرب تعالى بالذي هو وصفه كما وصف نفسه نفيًا واثباتًا وكلام الشيخ مأخوذ
من معنى سورة الاخلاص فقوله موصوف بصفات الوجدانية مأخوذ من
قوله تعالى ﴿قل هو الله احد﴾ وقوله منعوت بنعوت الفردانية من قوله
تعالى ﴿الله الصمد لم يلد ولم يولد﴾ . وقوله ليس في معناه احد من البرية
من قوله تعالى ﴿ولم يكن له كفوا احد﴾ وهو ايضا مؤكد لما تقدم من
اثبات الصفات ونفي التشبيه والوصف والنعمة مترادفان وقيل متقاربان
فالوصف للذات والنعمة للفعل وكذلك الوجدانية والفردانية وقيل في الفرق
بينهما ان الوجدانية للذات والفردانية للصفات فهو تعالى موحد في ذاته منفرد

بصفاته وهذا المعنى حق ولم ينازع فيه احد ولكن في اللفظ نوع تكرير .
والشيخ نظير هذا التكرير في مواضع من العقيدة وهو بالخطب والادعية
اشبه منه بالمقائد والتشجيع بالخطب اليق وليس كمثلته شيء اكمل في التنزيه
من قوله ليس في معناه احد من البرية قوله ﴿ وتعالى عن الحدود والغايات
والاركان والاعضاء والادوات لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات ﴾

اذ كر بين يدي الكلام على عبارة الشيخ رحمه الله مقدمة وهي ان للناس في
اطلاق مثل هذه الالفاظ ثلاثة اقوال فطائفة تنفيها وطائفة تثبتها وطائفة
تفصل وهم المتبعون للسلف فلا يطلقون نفيها ولا اثباتها الا اذا تبين ما اثبت
بها فهو ثابت وما نفي بها فهو منفي لأن المتأخرين قد صارت هذه الالفاظ
في اصطلاحهم فيها اجمال وايهام كغيرها من الالفاظ الاصطلاحية فليس كلهم
يستعملها في نفس معناها اللغوي ولهذا كان النفاة يتفون بها حقا وباطلا ويذكرون
عن مثبتها ما لا يقولون به وبعض المثبتين لها يدخل لها معنى باطلا يخالف
لقول السلف ولما دل عليه الكتاب والميزان ولم يرد نص من الكتاب ولا
من السنة بنفيها ولا اثباتها وليس لنا ان نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه
ولا وصفه به رسوله نفيًا ولا اثباتًا وانما نحن متبعون لا مبتدعون فالواجب
ان ينظر في هذا الباب اعني باب الصفات فما اثبته الله ورسوله اثباته وما نفاه
الله ورسوله نفيته والالفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الاثبات والنفي
فثبت ما اثبته الله ورسوله من الالفاظ والمعاني ونفي ما نفته نصوصها من
الالفاظ والمعاني . واما الالفاظ التي لم يرد نفيها ولا اثباتها لانطلق حتى ينظر
في مقصود قائلها فان كان معنى صحيحا قبل لكن ينبغي التعبير عنه بالفاظ

النصوص دون الالفاظ المجملة الا عند الحاجة مع قرائن تبين المراد والحاجة
مثل ان يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه ان لم يخاطب بها ونحو ذلك.
والشيخ رحمه الله اراد الرد بهذا الكلام على المشبهة كداود الجوازي وامثاله
القائلين ان الله جسم وانه جثة واعضاء وغير ذلك ، تعالى الله عما يقولون علوا
كبيراً فالمنى الذي اراده الشيخ رحمه الله من النفي الذي ذكره هنا حق لكن
حدث بعمده من ادخل في عموم نفيه حقاً وباطلاً فيحتاج الى بيان ذلك . وهو
ان السلف متفقون على ان البشر لا يعلمون لله حدا وانهم لا يجدون شيئاً
من صفاته قال ابوداود الطيالسي كان سفيان وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة
وشريك وابو عوانة لا يجدون ولا يشبهون ولا يمثلون يروون الحديث
ولا يقولون كيف واذ اسئلوا قالوا بالاثر وسيأتي في كلام الشيخ وقد اعجز خلقه
عن الاحاطة به فعلم ان مراده ان الله يتعالى عن ان يحيط احد بجمده لا ان المعنى
انه متميز عن خلقه منفصل عنهم مباين لهم سئل عبد الله بن المبارك بم نعرف
ربنا ؟ قال : بأنه على العرش بائن من خلقه قيل بجمد قال : بجمد انتهى . ومن
المعلوم ان الحد يقال على ما ينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره والله تعالى
غير حال في خلقه ولا قائم بهم بل هو القيوم القائم بنفسه المقيم لما سواه فالحد
بهذا المعنى لا يجوز ان يكون فيه منازعة في نفس الأمر اطلاقاً فانه ليس وراء
نفيه الا نفي وجود الرب ونفي حقيقته واما الحد بمعنى العلم والقول وهو ان
يحد العباد فهذا منتف بلا منازعة بين اهل السنة . قال ابو القاسم القشيري
في رسالته : سمعت الشيخ ابا عبد الرحمن السلمي سمعت ابا منصور بن عبد الله
سمعت ابا الحسن العنبري سمعت سهل بن عبد الله التستري يقول . وقد سئل

عن ذات الله فقال : ذات الله موصوفة بالعلم غير مدركة بالاحاطة ولا مرئية
بالأبصار في دار الدنيا وهي موجودة بحقائق الايمان من غير حد ولا احاطة
ولا حلول و تراه العيون في العقبي ظاهرا في ملكه وقدرته قد حجب الخلق عن
معرفة كنه ذاته ودلهم عليه بآياته فالقلوب تعرفه والعيون لا تدركه ينظر اليه
المؤمن بالأبصار من غير احاطة ولا ادراك نهية . واما لفظ الأركان والأعضاء
والادوات فيستدل بها النفاة على نبي بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية
كاليد والوجه . قال ابو حنيفة رضي الله عنه في الفقه الأكبر : له يد ووجه
ونفس كما ذكر تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس فهو له صفة
بلا كيف ولا يقال أن يده قدرته ونعمته لأن فيه ابطال الصفة انتهى . وهذا
الذي قاله الامام رضي الله عنه ثابت بالأدلة القاطعة قال تعالى ﴿ ما منعك
ان تسجد لما خلقت بيدي - والأرض جميعا قبضته يوم القيمة والسماوات
مطويات يمينه ﴾ . وقال تعالى ﴿ كل شيء هالك الا وجهه - ويبقى وجه ربك
ذو الجلال والاكرام ﴾ . وقال تعالى ﴿ تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك ﴾
وقال تعالى ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ وقال تعالى ﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾
وقال تعالى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ . وقال ﷺ في حديث الشفاعة لما يأتي
الناس آدم فيقولون له : « خلقتك الله بيده واسجد لك ملائكته وعلمك اسماء
كل شيء » الحديث ولا يصح تأويل من قال : ان المراد باليد بالقدرة فان قوله
لما خلقت بيدي لا يصح ان يكون معناه بقدرتي مع ثنية اليد ولو صح ذلك
لقال ابليس : وانا ايضا خلقتني بقدرتك فلا فضل له علي بذلك فابليس مع
كفره كان اعرف بربه من الجهمية ولا دليل لهم في قوله تعالى ﴿ اولم يروا انا

خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاما فهم لها ما لكون ﴿ لانه تعالى جمع الايدي لما
اضافها الى ضمير الجمع ليتناسب الجمعان اللفظان للدلالة على الملك والعظمة ولم يقل
ايدي مضاف الى ضمير المفرد ولا يدينا بتثنية اليد مضاف الى ضمير الجمع فلم يكن
قوله ﴿ مما عملت ايدينا ﴿ نظير قوله ﴿ لما خلقت بيدي ﴿ وقال النبي ﷺ
عن ربه عز وجل « حجاب به النور ولو كشفه لاحرق سبحات وجهه ما انتهى
اليه بصره من خلقه » ولكن لا يقال لهذه الصفات انها اعضاء او جوارح
او ادوات او اركان لان الركن جزء الماهية والله تعالى هو الاحد الصمد لا يتجزأ
سبحانه وتعالى والاعضاء فيها معنى التفريق والتعضية تعالى الله عن ذلك ومن
هذا المعنى قوله تعالى ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴿ والجوارح فيها معنى
الاكتساب والانتفاع وكذلك الادوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب
المنفعة ودفع الضرر وكل هذه المعاني منتفية عن الله تعالى ولهذا لم يرد ذكرها
في صفات الله تعالى فالالفاظ الشرعية صحيحة المعاني سالمة من الاحتمالات
الفاسدة فكذلك يجب ان لا يعدل عن الالفاظ الشرعية نفيها ولا اثباتا لتلا يثبت
معنى فاسد او ينفي معنى صحيح وكل هذه الالفاظ المجملة عرضة للمحق والمبطل
واما لفظ الجهة فقد يراد به ما هو موجود وقد يراد به ما هو معدوم ومن
المعلوم انه لا موجود الا الخالق والمخلوق فاذا اريد بالجهة امر موجود غير الله
تعالى كان مخلوقا والله تعالى لا يحصره شيء ولا يحيط به شيء من المخلوقات
تعالى الله عن ذلك وان اريد بالجهة امر عديم وهو ما فوق العالم فليس هناك
الا الله وحده فاذا قيل انه في جهة بهذا الاعتبار فهو صحيح ومعناه انه فوق
العالم حيث انتهت المخلوقات فهو فوق الجميع عال عليه . ونفاة لفظ الجهة الذين

يريدون بذلك نفي العلو يذكرون من ادلتهم ان الجهات كلها مخلوقة وانه كان
قبل الجهات وان من قال انه في جهة يلزمه القول بقدم شيء من العالم وانه
كان مستغنيا عن الجهة ثم صار فيها وهذه الالفاظ ونحوها انما تدل على انه
ليس في شيء من المخلوقات سواء سمي جهة اولم يسم وهذا حق ولكن
الجهة ليست امرا وجوديا بل امرا اعتباريا ولا شك ان الجهات لانهاية لها
وما لا يوجد فيها لانهاية له فليس بموجود وقول الشيخ رحمه الله لا تحويه
الجهات الست كسائر المبتدعات هو حق باعتبار انه لا يحيط به شيء من مخلوقاته
بل هو محيط بكل شيء وفوقه وهذا المعنى هو الذي اراده الشيخ رحمه الله
لما يأتي في كلامه انه تعالى محيط بكل شيء وفوقه فاذا جمع بين كلامه وهو
قوله لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات وبين قوله محيط بكل شيء
وفوقه علم ان مراده ان الله تعالى لا يحويه شيء ولا يحيط به شيء كما يكون لغيره
من المخلوقات وانه تعالى هو المحيط بكل شيء العالی على كل شيء لكن بقي
من كلامه شيئا (احدهما) ان اطلاق مثل هذا اللفظ مع ما فيه من الاجمال
والاحتمال كان تركه اولى والا تسلط عليه والزم بالتناقض في اثبات الاحاطة
والفوقية ونفي جهة العلو وان اجيب عنه بما تقدم من انه انما نفي ان يحويه شيء
من مخلوقاته فلا اعتصام بالالفاظ الشرعية اولى (الثاني) ان قوله كسائر المبتدعات
يفهم منه انه ما من مبتدع الا وهو محوي وفي هذا نظر فانه ان اراد انه محوي
بامر وجودي فمنوع فان العالم ليس في عالم آخر والازم التسلسل وان اراد
امرا عدميا فليس كل مبتدع في العدم بل منها ما هو داخل في غيره
كالسموات والارض في الكرسي ونحو ذلك ومنها ما هو متعنى المخلوقات

كالعرش فسطح العالم ليس في غيره من المخلوقات قطعاً للتسلسل كما تقدم
ويمكن ان يجاب عن هذا الاشكال بان سائر بمعنى البقية لا بمعنى الجميع هذا اصل
معناها ومنه السور وهو ما يبقيه الشارب في الاناء فيكون مراده غالب
المخلوقات لاجمعها اذ السائر على الغالب ادل منه على الجميع فيكون المعنى ان الله
تعالى غير محوي كما يكون اكثر المخلوقات محوي بابل هو غير محوي بشيء تعالى
الله عن ذلك ولا يظن بالشيخ رحمه الله انه ممن يقول ان الله تعالى ليس داخل العالم
ولا خارجه بنفي التعيينين كما ظنه بعض الشارحين بل مراده ان الله تعالى منزّه
عن ان يحيط به شيء من مخلوقاته وان يكون مفتقراً الى شيء منها العرش
او غيره وفي ثبوت هذا الكلام عن الامام ابي حنيفة رضي الله عنه نظر فان
اضداده قد شنموا عليه بأشياء اهون منه فلو سمعوا مثل هذا الكلام لشاع
عنهم تشنيعهم عليه به وقد نقل ابو مطيع البخاري عنه اثبات العلو كما سيأتي
ذكره ان شاء الله تعالى . وظاهر هذا الكلام يقتضي نفيه ولم يرد بمثله كتاب
ولاسنة فلذلك قلت ان في ثبوته عن الامام نظر او ان الأولى التوقف في اطلاقه
فان الكلام بمثله خطر بخلاف الكلام بما ورد عن الشارع كالاستواء والنزول
ونحو ذلك ومن ظن من الجهال انه اذا نزل الى السماء الدنيا كما اخبر الصادق
عليه السلام يكون العرش فوقه ويكون محصوراً بين طبقتين من العالم فقوله مخالف
لاجماع السلف مخالف الكتاب والسنة . وقال شيخ الاسلام ابو عثمان اسماعيل
ابن عبد الرحمن الصابوني سمعت الاستاذ ابا منصور بن حماد بعد روايته حديث
النزول يقول : سئل ابو حنيفة عنه فقال . ينزل بلا كيف انتهى . وانما توقف من
توقف في نفي ذلك لضعف علمه بمعاني الكتاب والسنة واقوال السلف ولذلك

ينكر بعضهم ان يكون فوق العرش بل يقول لامباين ولا مجانب لا داخل العالم
ولا خارجه فيصفونه بصفة العدم والامتنع ولا يصفونه بما وصف به نفسه من العلو
والاستواء على العرش ويقول بعضهم بحلولة في كل موجود ويقول هو
وجود كل موجود ونحو ذلك تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا
كبيراً . وسيأتي لاثبات صفة العلو لله تعالى زيادة بيان عند الكلام على قول
الشيخ رحمه الله محيط بكل شيء وفوقه ان شاء الله تعالى . قوله المعراج
حق وقد اسرى بالنبي ﷺ وعرج بشخصه في اليقظة الى السماء ثم الى حيث
شاء الله من العلا واكرمه الله بما شاء واوحى اليه ما اوحى ما كذب الفؤاد
ما رأى فصلى الله عليه في الآخرة والاولى المعراج مفعال من العروج اي
الآلة التي يعرج فيها اي يصعد وهو بمنزلة السلم لكن لا يعلم كيف هو
وحكمه كحكم غيره من الغيبات تؤمن به ولا تستغل بكيفيته . وقوله وقد اسرى
بالنبي ﷺ بشخصه في اليقظة اختلف الناس في الاسرى فقيل كان الاسراء
بروحه ولم يفقد جسده . نقله ابن اسحاق عن عائشة رضي الله عنها ونقل عن
الحسن البصري نحوه لكن ينبغي ان يعرف الفرق بين ان يقال كان الاسراء
مناماً وبين ان يقال كان بروحه دون جسده وبينهما فرق عظيم فعائشة ومعاربة
رضي الله عنها لم تقولاً كان مناماً وانما قالوا اسرى بروحه ولم تفقد جسده
وفرقت ما بين الامرين اذ ما يراه النائم قديكون امثالاً مضروبة للمعلوم في
الصورة المحسوسة فيرى كأنه قد عرج الى السماء وذهب به الى مكة وروحه
لم تصعد ولم تذهب وانما ملك الرؤيا ضرب له المثل فيما اراد ان الاسراء كان
مناماً وانما اراد ان الروح ذاتها اسرى بها فقارقت الجسد ثم عادت اليه

ويجملان هذا من خصائصه فان غيره لاتنال ذات روحه الصعود الكامل الى
السماء الا بعد الموت وقيل كان الاسرى مرتين مرة يقظة ومرة مناما واصحاب
هذا القول كانهم ارادوا الجمع بين حديث شريك وقوله ثم استيقظت وبين
سائر الروايات وكذلك منهم من قال بل كان مرتين مرة قبل الوحي ومرة
بعده ومنهم من قال بل ثلاث مرات مرة قبل الوحي ومرتين بعده وكل ما
اشتبه عليهم لفظ زادوا مرة للتوفيق وهذا يفعله اهل الحديث والا
فلذني عليه ائمة النقل ان الاسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة قبل الهجرة
بسنة وقيل بسنة وشهرين ذكره ابن عبد البر قال: شمس الدين بن القيم يا عجباً
لهؤلاء الذين زعموا انه كان مرارا كيف ساخ لهم ان يظنوا انه في كل
مرة يفرض عليهم الصلوات خمسين ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى
تصير خمسا فيقول امضيت فريضتي وخففت عن عبادي ثم يعيدها
في المرة الثانية الى خمسين ثم يحطها الى خمس وقد غلط الحفاظ شريكا
في الفاظ من حديث الاسراء ومسلم اورد المسند منه . ثم قال فقدم واخر
وزاد ونقص واجاد رحمه الله انتهى كلام الشيخ شمس الدين رحمه الله وكان
من حديث الاسراء انه صلى الله عليه وسلم اسرى بحجده في اليقظة على الصحيح من
المسجد الحرام الى المسجد الاقصى راكبا على البراق صحبة جبرائيل عليه السلام
فنزل هناك وصلى بالانبياء اماما وربط البراق بحلقة باب المسجد . وقد قيل
انه نزل بيت لحم وصلى فيه ولا يصح عنه ذلك البتة ثم عرج به من بيت المقدس
تلك الليلة الى السماء الدنيا فاستفتح له جبرائيل ففتح لهما فرأى هناك آدم
ابا البشر فسلم عليه فرحب به ورد عليه السلام واقر بنبوته ثم عرج به الى

السماء الثانية فاستفتح له فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم فلقياهما
فسلم عليهما فردا عليه السلام ورحب به واقرا بنبوته ثم عرج به الى السماء الثالثة
فرأى فيها يوسف فسلم عليه ورحب به واقرا بنبوته ثم عرج به الى السماء الرابعة
فرأى فيها ادريس فسلم عليه ورحب به واقرا بنبوته ثم عرج به الى السماء الخامسة
فرأى فيها هارون بن عمران فسلم عليه ورحب به واقرا بنبوته ثم عرج به الى
السماء السادسة فلقى فيها موسى فسلم عليه ورحب به واقرا بنبوته فلما جاوزه
بكى موسى فقيل له ما يبكيك قال ابكى لان غلاما بعث بعدى يدخل الجنة
من امته اكثر مما يدخلها من امتي ثم عرج به الى السماء السابعة فلقى فيها
ابراهيم فسلم عليه ورحب به واقرا بنبوته ثم رفع الي سدرة المنتهى ثم رفع له
البيت المعمور ثم عرج به الى الجبار جل جلاله وتقدست اسماؤه فدنا منه
حتى كان قاب قوسين او ادنى فلوحي الى عبده ما اوحى وفرض له خمسين
صلاة فرجع حتى مر على موسى فقال بم امرت قال بخمسين صلاة فقال ان
امتك لا تطيق ذلك ارجع الى ربك فاسأله التخفيف لا امتك فالتفت الى
جبرائيل كانه يستشيره في ذلك فاشار ان نعم ان شئت فعلا به جبرائيل حتى
اتى به الى الجبار تبارك وتعالى وهو في مكانه . هذا لفظ البخاري في صحيحه
في بعض الطرق فوضع عنه عشرا ثم نزل حتى مر بموسى فاجبره فقال ارجع
الى ربك فاسأله التخفيف فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله تبارك وتعالى
حتى جعلها خمسا فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف فقال قد استحييت
من ربي ولكن ارضى واسلم فلما نفذ نادى مناد قد امضيت فريضتي وخففت
عن عبادي وقد تقدم ذكر اختلاف الصحابة في رؤيته عليه السلام ربه عز وجل

بمعين رأسه وان الصحيح انه رآه بقلبه ولم يره بعين رأسه وقوله ما كذب
الفؤاد ما رأى ولقد رآه نزلة اخرى. صح عن النبي ﷺ ان هذا المرئي جبرائيل
رآه مرتين على صورته التي خلق عليها واما قوله تعالى في سورة النجم ﴿ ثم
دنى فتدلى ﴾ فهو غير الدنو والتدلي المذكورين في قصة الاسراء فان الذي في
سورة النجم هو دنو جبرائيل وتدليه . كما قالت عائشة وابن مسعود رضي الله
عنهما فانه قال علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالا فاق الاعلى ثم دنا
فتدلى فالضائر كلها راجعة الى هذا المعلم الشديد القوي واما الدنو والتدلي
الذي في حديث الاسراء فذلك صريح في انه دنو الرب تعالى وتدليه . واما
الذي في سورة النجم انه رآه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى فهذا هو جبرائيل
رآه مرتين مرة في الارض ومرة عند سدرة المنتهى ومما يدل على ان الاسراء
يجسده في اليقظة قوله تعالى ﴿ سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد
الحرام الى المسجد الاقصى ﴾ والعبء عبارة عن مجموع الجسد والروح كما ان
الانسان اسم لمجموع الجسد والروح هذا هو المعروف عند الاطلاق وهو
الصحيح فيكون الاسراء بهذا المجموع ولا يمتنع ذلك عقلا ولو جاز استبعاد
صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة وذلك يؤدى الى انكار النبوة فهو
كفر فان قيل فما الحكمة في الاسراء الى بيت المقدس اولا . فالجواب والله اعلم
انه كان ذلك اظهاراً لصدق دعوى الرسول ﷺ المعراج حين سأته قريش عن
نمت بيت المقدس فنعمته لهم واخبرهم عن غيرهم التي مر عليها في طريقه ولو كان
عروجه الى السماء من مكة لما حصل ذلك اذ لا يمكن اطلاعهم على ما في السماء
لو اخبهم عنه وقد اطعموا على بيت المقدس فأخبرهم بنعمته وفي حديث المعراج

دليل على ثبوت صفة العلو لله تعالى من وجوه لمن تدبره وبالله التوفيق . قوله
﴿ والحوض الذي اكرمه الله تعالى به غيانا لا مته حق ﴾ ش . الاحاديث
الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابيا
ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير تغمده الله برحمته
في آخر تاريخه الكبير المسمى بالبداية والنهاية . فيها مارواه البخاري رحمه الله تعالى
عن انس بن مالك رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال « ان قدر حوضي كما
بين آيله الى صنعاء من اليمن وان فيه من الاباريق كعدد نجوم السماء » وعنه
ايضا عن النبي ﷺ قال « ليردن علي ناس من اصحابي حتى اذا عرفتهم اختلجوا
دونني فأقول : اصحابي فيقول : لا تدري ما حدثوا بعدك » رواه مسلم . وروى
الامام احمد عن انس بن مالك قال « اغفى رسول الله ﷺ اغفاءة فرفع رأسه
مبتسما إما قال لهم وإما قالوا له : لم ضحكت فقال رسول الله ﷺ : انه نزلت
علي آنفاسورة فقراً ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم - إنا أعطيناك الكوثر ﴾ حتى
ختمها ثم قال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله اعلم قال « هو
نهر اعطانيه ربي عز وجل في الجنة عليه خير كثير ترد عليه امتي يوم القيامة
آيته عدد الكواكب يختلج العبد منهم فأقول : يا رب انه من امتي فقال :
انك لا تدري ما حدثوا بعدك » ورواه مسلم ولفظه هونهر وعدنيه ربي عليه
خير كثير هو حوض ترد عليه امتي يوم القيمة والباقي مثله ومعنى ذلك انه
يشخب فيه ميزابان من ذلك الكوثر الى الحوض والحوض في العرصات
قبل الصراط لأنه يختلج عنه ويمنع منه اقوام قد ارتدوا على اعقابهم ومثل
هؤلاء لا يجاوزون الصراط . وروى البخاري ومسلم عن جندب بن عبد الله

البعلي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « انافرطكم على الحوض » والفرط الذي سبق الى الماء . وروى البخاري عن سهل بن سعد الانصاري قال قال رسول الله ﷺ « اني فرطكم على الحوض من مر علي شرب ومن شرب لم يظأ أبدا ليردن علي اقوام اعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم » قال ابو حازم : فسمعت النعمان بن ابي عياش فقال . هكذا سمعت من سهل فقلت نعم فقال : اشهد علي ابي سعيد الخدري سمعته وهو يزيد فيها . فأقول : انهم من امتي فقال : انك لا تدري ما احدثوا بعدك فأقول « سحقا سحقا لمن غير بعدي » سحقا اي بعدا والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض انه حوض عظيم ومورد كريم يمد من شراب الجنة من نهر الكوثر الذي هو اشد بياضا من اللبن وابرء من الثلج واحلى من العسل واطيب ريحا من المسك وهو في غاية الاتساع عرضه وطوله سواء ، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر . وفي بعض الأحاديث انه كل ما شرب منه وهو في زيادة واتساع وانه ينبت في خلاله من المسك والرزراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب ويشمر الوان الجواهر فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء ، وقد ورد في احاديث « ان لكل نبي حوضا » وان حوض نبينا ﷺ اعظمها واحلاها واكثرها واردا جعلنا الله منهم بفضله وكرمه . قال العلامة ابو عبد الله القرطبي رحمه الله في التذكرة . واختلف في الميزان والحوض ايها يكون قبل الآخر ؟ فقيل الميزان وقيل الحوض قال ابو الحسن القاسبي : والصحيح ان الحوض قبل قال القرطبي والمعنى يقتضيه فان الناس يخرجون عطاشا من قبورهم كما تقدم فيقدم قبل الميزان والصراط . قال ابو حامد الغزالي في كتاب كشف علم

الآخرة حكى بعض السلف من اهل التصنيف ان الحوض يورد بعد الصراط
 وهو غلط من قائله قال القرطبي هو كما قال ثم قال القرطبي ولا يخطر ببالك انه
 في هذه الارض بل في الارض المبدلة ارض بيضاء كالفضة لم يسفك فيها دم ولم يظلم
 على ظهرها احد قط تظهر لنزول الجبار جل جلاله لفصل القضاء انتهى . فقاتل الله
 المنكرين لوجود الحوض واخلق بهم ان يحال بينهم وبين وروده يوم العطش
 الا كبر قوله **والشفاعة التي ادخرها لهم حق كما روي في الاخبار** **والشفاعة** انواع
 منها ما هو متفق عليه بين الامة ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من اهل البدع .
 (النوع الأول) الشفاعة الاولى وهي العظمى الخاصة بنبينا **ﷺ** من بين سائر
 اخوانه من الانبياء والمرسلين صلوات الله عليهم اجمعين في الصحيحين وغيرهما
 عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم اجمعين احاديث الشفاعة . منها عن ابي
 هريرة رضي الله عنه قال اتي رسول الله **ﷺ** بلحم فدفع اليه منها الذراع
 وكانت تعجبه فنهس منها نهسة ثم قال **انا سيد الناس يوم القيمة** وهل
 تدرون مما ذلك يجمع الله الأولين والآخرين في **صعيد** فيقول بعض الناس
 لبعض : **ألا ترون ما انتم فيه ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع**
لكم الى ربكم فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم فيأتون آدم فيقولون :
يا آدم انت ابو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة
فسجدوا لك فاشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول
آدم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وانه
نهاني عن أكل الشجرة فعصيت نفسي نفسي نفسي اذهبوا الى غيري اذهبوا الى
نوح فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح انت اول الرسل الى اهل الأرض وسماك الله

عبداً شكوراً فاشفع لنا الى ربك الاترى ما نحن فيه الاترى ما قد بلغنا فيقول
نوح : ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله
وانه كانت لي دعوة دعوت بها على قومي نفسي نفسي نفسي اذهبوا الى غيري
اذهبوا الى ابراهيم فيأتون ابراهيم فيقولون : يا ابراهيم انت نبي الله وخليله
من اهل الأرض الاترى ما نحن فيه الاترى ما قد بلغنا فيقول : ان ربي قد غضب
اليوم غضباً لن يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وذكر كذباته نفسي
نفسى اذهبوا الى موسى فيأتون موسى فيقولون : يا موسى انت رسول الله
اصطفاك الله برسالاته وبتكليمه على الناس اشفع لنا الى ربك الاترى ما نحن فيه
الاترى ما قد بلغنا فيقول لهم موسى : ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله
مثله ولن يغضب بعده مثله واني قتلت نفساً لم اوامر بقتلها نفسى نفسى نفسى
اذهبوا الى غيري اذهبوا الى عيسى فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى انت
رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه قال هكذا هو وكلمت الناس في
المهد فاشفع لنا الى ربك الاترى ما نحن فيه الاترى ما قد بلغنا فيقول لهم
عيسى : ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده
مثله ولم يذكر ذنباً اذهبوا الى محمد ﷺ فيأتوني فيقولون : يا محمد انت رسول
الله وخاتم الانبياء غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فاشفع لنا الى ربك
الاترى ما نحن فيه الاترى ما قد بلغنا فاقوم فآتي تحت العرش فاقع ساجداً
لربي عز وجل ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه
على احد قبلي فيقال يا محمد ارفع رأسك سل تعطه اشفع تشفع فاقول : رب
امتي امتي يا رب امتي يا رب امتي فيقال ادخل من امتك من

لا حساب عليه من الباب الأيمن من ابواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سواه
من الأبواب ثم قال : والذي نفسي بيده لما بين مصراعين من مصاريع الجنة
كما بين مكة وهجر او كما بين مكة وبصرى « اخرجاه في الصحيحين بمعناه .
واللفظ للإمام أحمد . والعجب كل العجب من ايراد الأئمة لهذا الحديث
من اكثر طرقه لا يذكرون أمر الشفاعة الأولى في أن يأتي الرب سبحانه
وتعالى لفصل القضاء كما ورد هذا في حديث الصور فانه المقصود في هذا
المقام ومقتضى سياق اول الحديث فان الناس انما يستشفعون الى آدم فمن
بعده من الانبياء في أن يفصل بين الناس ويستريحوا من مقامهم كما دلت عليه
سياقته من سائر طرقه فاذا وصلوا الى الجزاء انما يذكرون الشفاعة في عصاة
الأمة واخراجهم من النار . وكان مقصود السلف في الاقتصار على هذا
المقدار من الحديث هو الرد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة الذين انكروا
خروج أحد من النار بعد دخولها فيذكرون هذا القدر من الحديث الذي
فيه النص الصريح في الرد عليهم فيما ذهبوا اليه من البدعة المخالفة للأحاديث
وقد جاء التصريح بذلك في حديث الصور ولولا خوف الاطالة لسقته بطوله
لكن من مضمونه انهم يأتون آدم ثم نوحا ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم
يأتون رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فيذهب فيسجد تحت العرش في مكان يقال له الفحص
فيقول الله : ماشأ نك وهو اعلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقول : يا رب وعدتني الشفاعة
فشغني في خلقك فاقض بينهم فيقول سبحانه وتعالى : شفعتك انا آتيكم
فأقض بينهم قال فارجع فاقف مع الناس ثم ذكر انشقاق السموات وتنزل
الملائكة في الغمام ثم يحيى الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء والكروبيون

والملائكة المقربون يسبحونه بانواع التسبيح قال فيضع الله كرسيه حيث شاء
من أرضه ثم يقول : اني انصت لكم منذ خلقتم الى يومكم هذا اسمع اقوالكم
واري اعمالكم فانصتوا لي فانما هي اعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم فمن وجد
خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلو من الانفسه الى ان قال فاذا افضى
اهل الجنة الى الجنة قالوا : من يشفع لنا الى ربنا فندخل الجنة فيقولون من
احق بذلك من ايكم انه خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وكلمه قبلا
فيأتون آدم فيطلبون ذلك اليه وذكر نوحا ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى
ثم محمدا عليه السلام الى ان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فأتى الجنة فأخذ بحلقة الباب ثم
استفتح فيفتح لي فاحيا ويرحب بي فاذا دخلت الجنة فنظرت الى ربي عز
وجل خررت له ساجدا فيأذن لي من حمده وتحميده بشيء ما اذن به لاحد
من خلقه ثم يقول الله لي ارفع يا محمد واشفع تشفع وسل تعطه فاذا رفعت
رأسي . قال الله وهو اعلم ما شانك فاقول يارب وعدتني الشفاعة فشفعني في
اهل الجنة يدخلون الجنة فيقول الله عز وجل قد شفعتك واذنت لهم في
دخول الجنة » الحديث رواه الائمة ابن جرير في تفسيره والطبراني وابو يعلى
الموصلى والبيهقي (النوع الثاني والثالث) من الشفاعة شفاعة عليه السلام في اقوام
قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة وفي اقوام آخرين
قد امر بهم الى النار لا يدخلونها (النوع الرابع) شفاعة عليه السلام في رفع درجات
من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب اعمالهم وقد وافقت المعتزلة
على هذه الشفاعة خاصة وخالفوا فيما عداها من المقامات مع تواتر الاحاديث
فيها (النوع الخامس) الشفاعة في اقوام ان يدخلوا الجنة بغير حساب ويحسن

ان يستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن محصن حين دعا له رسول الله ﷺ
ان يجعله من السبعين الفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب والحديث مخرج
في الصحيحين (النوع السادس) الشفاعة في تخفيف العذاب عن يستحقه
كشفاعته في عمه ابي طالب ان يخفف عنه عذابه ثم قال القرطبي في التذكرة
بعد ذكر هذا النوع . فان قيل فقد قال تعالى ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾
قيل له لا تنفعه في الخروج من النار كما تنفع عصاة الموحدين الذين يخرجون
منها ويدخلون الجنة (النوع السابع) شفاعته ان يؤذن لجميع المؤمنين في دخول
الجنة كما تقدم وفي صحيح مسلم عن انس رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال
« انا اول شفيع في الجنة » (النوع الثامن) شفاعته في اهل الكبائر من امته ممن
دخل النار فيخرجون منها وقد تواترت بهذا النوع الاحاديث وقد خفي علم ذلك
على الخوارج والمعتزلة فغالفوا في ذلك جهلامنهم بصحة الاحاديث وعناد امن علم
ذلك واستمر على بدعته وهذه الشفاعة تشارك فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون
ايضا وهذه الشفاعة تتكرر منه ﷺ اربع مرات . ومن احاديث هذا النوع حديث
انس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ شفاعة لاهل الكبائر من امتي رواه الامام
احمد . وروى البخاري رحمه الله في كتاب التوحيد ^(١) حدثنا سليمان بن حرب
حدثنا حماد بن زيد حدثنا سعد بن هلال العنزي . قال اجتمعنا ناس من اهل البصرة
فذهبنا الى انس بن مالك وذهبتنا معنا بئاب البناني يسأله لنا عن حديث الشفاعة فاذا
هو في قصره فوافيناه يصلي الصبح فاستأذنا فاذن لنا وهو قاعد على فراشه فقلنا
لثابت : لا تسأله عن شيء اول من حديث الشفاعة . فقال حدثنا محمد ﷺ قال « اذا

(١) في باب كلام الرب تعالى يوم القيامة الانبياء وغيرهم

كان يوم القيامة ما ج الناس بعضهم في بعض فيأتون آدم فيقولون : اشفع لنا الى ربك فيقول : لست لها ولكن عليكم براهيم فانه خليل الرحمن فيأتون ابراهيم فيقول : لست لها ولكن عليكم بموسى فانه كلّم الله فيأتون موسى فيقول : لست لها ولكن عليكم بعيسى فانه روح الله وكلّمه فيأتون عيسى فيقول : لست لها ولكن عليكم بمحمد فيأتوني فأقول : انا لها فأستأذن على ربي فيأذن لي ويلهمني محامد احمده بها لا تحضرنى الآن فاحمده بتلك المحامد وأخر له ساجدا فيقال يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك واشفع تشفع وسل تعط فاقول : يا رب امتي امتي فيقال انطلق فاخرج من كان في قلبه مثقال شعيرة من ايمان فانطلق فافعل ثم اعود فاحمد بتلك المحامد ثم اخر له ساجدا فيقال يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك واشفع تشفع واسأل تعط فأقول يا رب امتي امتي فيقال انطلق فاخرج من كان في قلبه مثقال ذرة او خردلة من ايمان فانطلق فافعل ثم اعود فاحمد بتلك المحامد ثم اخر له ساجدا فيقال يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع فاقول يا رب امتي امتي فيقول انطلق فاخرج من كان في قلبه ادنى ادنى مثقال حبة من خردل من ايمان فاخرجه من النار فانطلق فافعل « قال فلما خرجنا من عند انس قلت لو مررنا بالحسن وهو متوار في منزل ابي خليفة فحدثناه بما حدثنا به انس بن مالك فأتيناه فسلمنا عليه فاذن لنا فقلنا له يا ابا سعيد جئناك من عند اخيك انس بن مالك فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة فقال هيه فحدثنا بالحديث فأتينا الى هذا الموضع فقال هيه فقلنا لم ترددنا على هذا فقال لقد حدثني وهو جميع منذ عشرين سنة فما ادري انسى ام كره ان تتكلموا فقلنا يا ابا سعيد فحدثنا فضحك

وقال خلق الانسان عجولا ما ذكرته الا وانا اريد ان احدثكم حديثي كما
حدثكم قال ثم اعود الرابعة فاحمده بتلك المحامد ثم اخرله ساجدا فيقال يا محمد
ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع فاقول يا رب ائذن لي
فيمن قال لا اله الا الله فيقول سبحانه وتعالى وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي
لا اخرجن منها من قال لا اله الا الله « وهكذا رواه مسلم . وروى الحافظ ابو
يعلى عن عثمان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « يشفع يوم القيامة
ثلاثة الانبياء ثم العلماء ثم الشهداء » وفي الصحيح من حديث ابي سعيد رضي
الله عنه مرفوعا قال فيقول الله تعالى « شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع
المؤمنون ولم يبق الا ارحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها
قوما لم يعملوا خيرا قط » الحديث . ثم ان الناس في الشفاعة على ثلاثة اقوال .
فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الفلاة في المشايخ وغيرهم يجعلون شفاعة
من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا والمعتزلة والخوارج انكروا
شفاعة نبينا ﷺ وغيره في اهل الكبائر . واما اهل السنة والجماعة فيقرون
بشفاعة نبينا ﷺ في اهل الكبائر وشفاعة غيره لكن لا يشفع احد حتى يأذن
الله له ويحمله حدا كما في الحديث الصحيح حديث الشفاعة « انهم يأتون آدم ثم
نوحا ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى فيقول لهم عيسى عليه السلام اذهبوا الي
محمد فانه عبد غفرله ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتوني فاذهب فاذا رأيت
ربي خررت له ساجدا فاحمد ربي بمحامد يفتحها علي لا اجسنها الا ان فيقول
اي محمد ارفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع فاقول ربي امتي فيحدي حدا
فادخلهم الجنة ثم انطلق فاسجد فيحدي حدا ذكر هذا ثلاث مرات « واما

الاستشفاع بالنبي ﷺ وغيره في الدنيا الى الله تعالى في الدعاء ففيه تفصيل فان
الداعي تارة يقول بحق او بحق فلان يقسم على الله باحد من مخلوقاته فهذا
محدور من وجهين (احدهما) انه أقسم بغير الله (والثاني) اعتقاده ان لاحد
على الله حقا ولا يجوز الحلف بغير الله وليس لاحد على الله حق الا ما احقه
على نفسه كقوله تعالى ﴿ و كان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ وكذلك ما ثبت
في الصحيحين من قوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه وهو رديفه « يا معاذ اتدري
ما حق الله على عباده » قلت الله ورسوله اعلم قال « حقه عليهم ان يعبدوه
ولا يشركوا به شيئا . اتدري ما حق العباد على الله اذا فعلوا ذلك » قلت الله
ورسوله اعلم قال « حقهم عليه ان لا يعذبهم » فهذا حق وجب بكلماته التامة
ووعده الصادق لا ان العبد نفسه يستحق على الله شيئا كما يكون للمخلوق
على المخلوق فان الله هو المنعم على العباد بكل خير وحقهم الواجب بوعده هو
ان لا يعذبهم وترك تعذيبهم معنى لا يصلح ان يقسم به ولا ان يسأل بسببه
ويقوسل به لان السبب هو ما نصبه الله سببا وكذلك الحديث الذي في المسند
من حديث ابي سعيد عن النبي ﷺ في قول الماشي الى الصلاة « اسألك بحق
ممشاي هذا وبحق السائلين عليك » فهذا حق السائلين هو اوجبه على نفسه
فهو الذي احق للسائلين ان يجيبهم وللعابد ان يثيبهم ولقد احسن القائل :
ما للعباد عليه حق واجب * كلا ولا سعي لديه ضائع
ان عذبوا فبعده او نعموا * فيفضله وهو الكريم الواسع
فان قيل فاي فرق بين قول الداعي بحق السائلين عليك وبين قوله بحق
نبيك او نحو ذلك (فالجواب) ان معنى قوله بحق السائلين عليك انك وعدت

السائلين بالاجابة وانا من جملة السائلين فاجب دعائي بخلاف قوله بحق فلان
وان كان له حق على الله بوعده الصادق فلا مناسبة بين ذلك وبين اجابة دعاء
هذا السائل فكانه يقول لكون فلان من عبادك الصالحين اجب دعائي واي
مناسبة في هذا واي ملازمة وانما هذا من الاعتداء في الدعاء وقد قال تعالى
﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين ﴾ وهذا ونحوه من الادعية
الابتدعة ولم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن احد
من الائمة وانما يوجد مثل هذا في الحروز والهياكل التي يكتب بها الجهال
والطرقية والدعاء من افضل العبادات ، والعبادات مبناه على السنة والاتباع
لا على الهوى والابتداع . وان كان مراده الاقسام على الله بحق فلان فذلك
مذمور ايضا لان الاقسام بالمخلوق على المخلوق لا يجوز فكيف على الخالق
وقد قال ﷺ « من حلف بغير الله فقد اشرك » ولهذا قال ابو حنيفة وصاحبه
رضي الله عنهم يكره ان يقول الداعي « اسألك بحق فلان او بحق انبيائك
ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام » ونحو ذلك حتى كره ابو حنيفة
ومحمد ان يقول الرجل « اللهم اني اسألك بمعقد العز من عرشك » ولم يكرهه
ابو يوسف لما بلغه الاثر فيه وتارة يقول بجاه فلان عندك او يقول تتوسل
اليك بانبيائك ورسلك واوليائك ومراده لان فلانا عندك ذو وجهة وشرف
ومنزلة فاجب دعانا . وهذا ايضا مذمور فانه لو كان هذا هو التوسل الذي كان
الصحابة يفعلون في حياة النبي ﷺ لفعلوه بعد موته وانما كانوا يتوسلون
في حياته بدعائه يطلبون منه ان يدعوهم وهم يؤمنون على دعائه كما في الاستسقاء
وغيره فلما مات قال عمر رضي الله عنه لما خرجوا يستسقون « اللهم انا كنا اذا

اجد بنا تتوسل اليك بنينا فتسقيننا وانا نتوسل اليك بعم نبينا « معناه بدعائه
هو ربه وشفاعته وسؤاله ليس المراد انا تقسم عليك به او نسألك بمجاهه عندك
اذ لو كان ذلك مراداً لكان جاه النبي ﷺ اعظم واعظم من جاه العباس . وتارة
يقول باتباعي لرسولك ومحبي له وايماني به وسائر انبيائك ورسلك وتصديقي
لهم ونحو ذلك . فهذا من احسن ما يكون من الدعاء والتوسل والاستشفاع
فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به فيه اجمال غلط بسببه من لم يفهم معناه
فان اريد به التسبب به لكونه داعياً وشافعاً وهذا في حياته يكون او لكون
الداعي محباً له ، مطيعاً لأمره ، مقتدياً به وذلك اهل للمحبة والطاعة والافتداء
فيكون التوسل اما بدعاء الوسيطة وشفاعته واما بمحبة السائل واتباعه ويراد
به الاقسام به والتوسل بذاته ، فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه وكذلك
السؤال بالشيء قد يراد به التسبب به لكونه سبباً في حصول المطلوب وقد
يراد به الاقسام به . ومن الاول حديث الثلاثة الذين آووا الى الغار وهو حديث
مشهور في الصحيحين وغيرهما فان الصخرة انطبقت عليهم فتوسلوا الى
الله بذكر اعمالهم الصالحة الخالصة وكل واحد منهم يقول : فان كنت فعلت
ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفجرت الصخرة فخرجوا يمشون .
فهؤلاء دعوا الله بصالح الأعمال لأن الأعمال الصالحة هي اعظم ما يتوسل
به العبد الى الله ويتوجه اليه ويسأله به لانه وعد ان يستجيب للذين آمنوا وعملوا
الصالحات ويزيدهم من فضله . فالحاصل ان الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة
عند البشر فان الشفيع عند البشر كما انه شافع للطالب شفعه في الطلب بمعنى انه
صار به شفعا فيه بعد ان كان وتراً فهو ايضا قد شفيع المشفوع اليه وشفاعته

صار فاعلا للمطلوب فقد شفع الطالب والمطلوب منه . والله تعالى وتر لا يشفعه
احد فلا يشفع عنده احد الا باذنه فالأمر كله اليه فلا شريك له بوجه فسيد
الشفعاء يوم القيمة اذا سجد وحمد الله تعالى فقال له الله : ارفع رأسك وقل
يسمع واسأل تعطه واشفع تشفع فيحمله حدا فيدخلهم الجنة فالأمر كله لله .
كما قال تعالى ﴿ قل ان الأمر كله لله ﴾ وقال تعالى ﴿ ليس لك من الأمر
شيء ﴾ وقال تعالى ﴿ الا له الخلق والأمر ﴾ فاذا كان لا يشفع عنده احد
الا باذنه لمن يشاء ولكن يكرم الشفيح بقبول شفاعته كما قال ﷺ « اشفعوا
تؤجروا » ويقضى الله على لسان نبيه ما يشاء وفي الصحيح ان النبي ﷺ قال
« يا بني عبدمناف لا أملك لكم من الله شيئا يا صفية عمه رسول الله ﷺ لا
املك لك من الله شيئا يا عباس عم رسول الله لا املك لك من الله شيئا »
وفي الصحيح ايضا عن النبي ﷺ « لالافين احدكم يأتي يوم القيمة على رقبته
بعير له رغا اوشاة لها يعار اوقاع يخفق فيقول اغثني اغثني فاقول قد ابلغتك
لا املك لك من الله من شيء » فاذا كان سيد الخلق وافضل الشفعاء يقول
لاخص الناس به لا أملك لكم من الله من شيء فما لظن بغيره واذا دعاه الداعي
وشفع عنده الشفيح فسمع الدعاء وقبل الشفاعة لم يكن هذا هو المؤثر فيه كما
يؤثر المخلوق في المخلوق فانه سبحانه وتعالى هو الذي جعل هذا يدعو ويشفع
وهو الخالق لأفعال العباد فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها وهو الذي وفقه
للعمل ثم اثابه وهو الذي وفقه للدعاء ثم اجابه وهذا مستقيم على اصول اهل
السنة المؤمنين بالقدر وان الله خالق كل شيء . قوله ﴿ والميثاق الذي اخذه
الله تعالى من آدم وذريته حق ﴾ قال تعالى ﴿ واذا أخذ ربك من بني آدم من

ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا
يوم القيمة انا كنا عن هذا غافلين ﴿ يخبر سبحانه انه استخرج ذرية نبي
آدم من اصلاهم شاهدين على انفسهم ان الله ربهم ومليكم وانه لا اله الا هو
وقد وردت احاديث في اخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم الى
اصحاب اليمين والى اصحاب الشمال وفي بعضها الاشهاد عليهم بأن الله ربهم . فمنها
مارواه الامام احمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال « ان الله اخذ
الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فاخرج من صلبه كل ذرية ذراها
فثرها بين يديه ثم كلمهم قبلا قال : الست بربكم قالوا بلى شهدنا . الى قوله
المبطلون » ورواه النسائي ايضا وابن جرير وابن ابى حاتم والحاكم في المستدرک
وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه . وروي الامام احمد ايضا عن عمر بن الخطاب
رضي الله عنه انه سئل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها
فقال ان الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره يمينه فاستخرج منه ذرية
قال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل اهل الجنة يعملون : ثم مسح ظهره فاستخرج
منه ذرية قال خلقت هؤلاء للنار وبعمل اهل النار يعملون فقال رجل يا رسول
الله ففيم العمل قال ﷺ « اذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل اهل الجنة حتى
يموت على عمل من اعمال اهل الجنة فيدخل الجنة . واذا خلق العبد للنار استعمله
بعمل اهل النار حتى يموت على عمل من اعمال اهل النار فيدخل به النار » ورواه
ابوداود والترمذي والنسائي وابن ابى حاتم وابن جرير وابن حبان في صحيحه
وروي الترمذي عن ابى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله آدم
مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته الى يوم القيامة

وجعل بين عيني كل انسان منهم ويصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال اي
ربي من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم فاعجبه ويص ما بين
عينيه فقال اي رب من هذا قال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال
له داود وقال رب كم عمره قال ستون سنة قال اي رب زده من عمري اربعين
سنة فلما انقضى عمر آدم جاء ملك الموت قال اولم يبق من عمري اربعون سنة
قال اولم تعطها ابنك داود فجحد فجحدت ذريته ونسي آدم فذسيت ذريته
وخطي آدم فخطيت ذريته» ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح. ورواه
الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وروي الامام احمد ايضا عن
انس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ « قال يقال للرجل من اهل النار
يوم القيامة ارايت لو كان لك ما على الارض من شيء اكنت مفتديا قال
فيقول نعم قال فيقول قد اردت منك اهون من ذلك قد اخذت عليك في ظهر
آدم ان لا تشرك بي شيئا فايبت الا ان تشرك بي شيئا» واخرجاه في الصحيحين
ايضا وذكر احاديث اخر ايضا وكلها دالة على ان الله استخرج ذرية آدم من
صلبه وميز بين اهل النار واهل الجنة. ومن هنا قال من قال ان الارواح مخلوقة
قبل الأجساد وهذه الآثار لا تدل على سبق الارواح الأجساد سبقا مستقرا
ثابتا وغايتها ان تدل على ان بارئها وفاطرها سبحانه صور النسمة وقدر خلقها
واجلها وعملها واستخرج تلك الصور من مادتها ثم اعادها اليها وقدر خروج
كل فرد من افرادها في وقته المقدر له ولا يدل على انها خلقت خلقا مستقرا
واستمرت موجودة ناطقة كلها في موضع واحد ثم يرسل منها الى الابدان
جملة بعد جملة كما قاله ابن حزم فهذا لا تدل الآثار عليه. نعم الرب سبحانه يخلق

منها جملة بمد جملة كما قاله على الوجه الذي سبق به التقدير اولا فيجيء الخلق
الخارجي مطابقا للتقدير السابق كشأنه سبحانه في جميع مخلوقاته فانه قدر لها
اقدارا واجالا وصنعات وهيات ثم ابرزها الى الوجود مطابقة لذلك التقدير
السابق فالآثار المروية في ذلك انما تدل على القدر السابق بعضها يدل على انه
صبعانه استخرج امثالهم وصورهم وميز اهل السعادة من اهل الشقاوة واما
الاشهاد عليهم هناك فانما هو في حديثين موقوفين على ابن عباس وعمر رضي
الله عنهم . ومن ثم قال قائلون من السلف واختلف ان المراد بهذا الاشهاد
انما هو فطرتهم على التوحيد كما تقدم كلام المفسرين على هذه الآية الكريمة
في حديث ابي هريرة ومعنى قوله شهدنا اي قالوا بلى شهدنا انك ربنا . وهذا
قول ابن عباس وابي ابن كعب وقال ابن عباس ايضا اشهد بعضهم على
بعض وقيل شهدنا من قول الملائكة والوقف على قوله بلى وهذا قول مجاهد
والضحاك والسدي . وقال السدي ايضا هو خبر من الله تعالى عن نفسه
وملائكته انهم شهدوا على اقرار بني آدم والاول اظهر وما عداه احتمال
لا دليل عليه وانما يشهد ظاهر الآية للأول . واعلم ان من المفسرين من لم
يذكر سوى القول بأن الله استخرج ذرية آدم من ظهره واشهدهم على أنفسهم
ثم اعادهم كالتملي والبغوي وغيرهما ومنهم من لم يذكر بل ذكر انه نصب
لهم الادلة على ربوبيته ووحدايته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها
الله فيهم كالزخشي وغيره ومنهم من ذكر القولين كالواحد والرازي والقرطبي
وغيرهم لكن نسب الرازي القول الأول الى اهل السنة والثاني الى المعتزلة .
ولارب ان الآية لا تدل على القول الاول اعني ان الاخذ كان من ظهر آدم

وانما فيها ان الأخذ من ظهور بني آدم وانما ذكر الأخذ من ظهر آدم
والاشهاد عليهم هناك في بعض الأحاديث . وفي بعضها الأخذ والقضاء بأن
بعضهم الى الجنة وبعضهم الى النار كما في حديث عمر رضي الله عنه وفي بعضها
الأخذ وارااء آدم ايام من غير قضاء ولا اشهاد كما في حديث ابي هريرة والذي
فيه الاشهاد على الصفة التي قالها اهل القول الأول موقوف على ابن عباس
وعمر وتكلم فيه اهل الحديث ولم يخرج احد من اهل الصحيح غير الحاكم في
المستدرک على الصحيحين والحاكم معروف تساهله رحمه الله والذي فيه القضاء
بان بعضهم الى الجنة وبعضهم الى النار دليل على مسئلة القدر وذلك شواهد
كثيرة ولا نزاع فيه بين اهل السنة وانما يخالف فيه القدرية المبطلون المتدعون
واما الاول فالنزاع فيه بين اهل السنة من السلف والخلف ولولا ما التزمته
من الاختصار لبسطت الأحاديث الواردة في ذلك وما قيل من الكلام عليها
وما ذكر فيه من المعاني المعقولة ودلالة الفاظ الآية الكريمة . قال القرطبي :
وهذه الآية مشكلة . وقد تكلم العلماء في تأويلها فنذكر ما ذكره من ذلك
حسب ما وقفنا عليه . فقال قوم معنى الآية ان الله اخرج من ظهر بني آدم
بعضهم من بعض ومعنى اشهدم على انفسهم ألت بر بكم دهم على توحيد
لأن كل بالغ يعلم ضرورة ان له ربا واحدا سبحانه وتعالى . قال فقام ذلك مقام
الاشهاد عليهم كما قال تعالى في السموات والأرض ﴿ قَالَتَا اتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ ذهب
الى هذا القفال واطنب . وقيل انه سبحانه وتعالى اخرج الأرواح قبل خلق
الاجساد وانه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها ثم ذكر القرطبي
بعد ذلك الاحاديث الواردة في ذلك الى آخر كلامه واقوى ما يشهد لصحة

القول الاول حديث انس المخرج في الصحيحين الذي فيه قد اردت منك ماهو
اهون من ذلك قد اخذت عليك في ظهر آدم ان لا تشرك بي شيئا فايبت الا
ان تشرك بي ولكن قد روي من طريق اخرى قد سألتك اقل من ذلك
وايسر فلم تفعل فيرد الى النار وليس فيه في ظهر آدم وليس في الرواية الاولى
اخراجهم من ظهر آدم على الصفة التي ذكرها اصحاب القول الاول بل القول
الاول متضمن لامرين عييين (احدهما) كون الناس تكلموا حينئذ واقروا
بالايمان وانه بهذا تقوم الحجة عليهم يوم القيامة (والثاني) ان الآية دلت على
ذلك والآية لا تدل عليه بوجوه (احدها) انه قال من بني آدم ولم يقل من آدم
(الثاني) انه قال من ظهورم ولم يقل من ظهره وهذا بدل بعض او بدل اشتمال
وهو احسن (الثالث) انه قال ذرياتهم ولم يقل ذريته (الرابع) انه قال واشهدم
على انفسهم ولا بد ان يكون الشاهد ذا كرا لما شهد به وهو انما يذكر شهادته
بعد خروجه الى هذه الدار كما تأتي الإشارة الى ذلك لا يذكر شهادة قبله
(الخامس) انه سبحانه اخبر ان حكمته بهذا الاشهاد إقامة للحجة عليهم
لثلا يقولوا يوم القيامة ﴿ انا كنا عن هذا غافلين ﴾ والحجة انما قامت عليهم
بالرسل والفقرة التي فطروا عليها كما قال تعالى ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين
لثلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ (السادس) تذكيرهم بذلك ﴿ لثلا يقولوا
يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ﴾ ومعلوم انهم غافلون عن الاخراج لهم من
صلب آدم كلهم واشهادهم جميعا ذلك الوقت فهذا لا يذكره احد منهم (السابع) قوله
تعالى ﴿ او تقولوا انما اشرنا باؤنا من قبل وكناذرية من بعدهم ﴾ فذكر حكمتين
في هذا الاشهاد : لثلا يدعوا الغفلة او يدعوا التقليد الغافل لاشعور له والمقلد متبع

في تقليده لغيره ولا ترتب هاتان الحكمتان الاعلى ما قامت به الحجة من
الرسل والفطرة . (الثامن) قوله ﴿ افهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ اي توعدهم
بجحودهم وشرهم لما قالوا ذلك وهو سبحانه انما يهلكهم بمخالفة رسله وتكذيبهم
وقد اخبر سبحانه انه لم يكن يهلك القرى بظلم واهلها غافلون وانما يهلكهم بعد
الاعذار والانذار بارسال الرسل . (التاسع) انه سبحانه اشهد كل واحد على
نفسه انه ربه وخالقه واحتج عليه بهذا في غير موضع من كتابه كقوله ﴿ ولئن
سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ فهذه هي الحجة التي اشهدهم
على انفسهم بمضمونها وذكرتهم بها رسله بقولهم ﴿ أفى الله شك فاطر السموات
والأرض ﴾ (العاشر) انه جعل هذا آية وهي الدلالة الواضحة البينة المستلزمة
لدلوها وهذا شأن آيات الرب تعالى فقال تعالى ﴿ وكذلك نفصل الآيات
ولعلمهم يرجعون ﴾ وانما ذلك بالفطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل خلق الله
فما من مولود الا يولد على الفطرة . لا يولد مولود على غير هذه الفطرة . هذا
امر مفروغ منه لا تبديل ولا تغيير وقد تقدمت الاشارة الى هذا والله اعلم .
وقد تظن لهذا ابن عطية وغيره ولكن هابوا مخالفة ظاهر تلك الاحاديث
التي فيها التصريح بان الله اخرجهم واشهدهم على انفسهم ثم اعادهم . وكذلك حكى
القولين الشيخ ابو منصور الماتريدي في شرح التأويلات ورجح القول الثاني
وتكلم عليه ومال اليه . ولاشك ان الاقرار بالربوبية امر فطري والشرك
حادث طارىء والابناء تقلدوه عن الاباء فاذا احتجوا يوم القيامة بان الآباء اشر كوا
ومنح جرينا على عاداتهم كما يجرى الناس على عادة آباءهم في المطاعم والملابس والمساكن
يقال لهم : انتم كنتم معترفين بالصانع مقرين بان الله ربكم لا شريك له وقد شهدتم

بذلك على انفسكم فان شهادة المرء على نفسه هي اقراره بالشيء ليس الا . قال تعالى ﴿ يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم ﴾ وليس المراد ان يقول اشهد على نفسي بكذابل من اقر بشيء فقد شهد على نفسه به فلم عدلتم عن هذه المعرفة والاقرار الذي شهدتم به على انفسكم الى الشرك بل عدلتم عن المعلوم المتيقن الى ما لا يعلم له حقيقة تقليدا لمن لاحجة معه بخلاف اتباعهم في العادات الدنيوية فان تلك لم يكن عندكم ما يعلم به فسادها وفيه مصلحة لكم بخلاف الشرك فانه كان عندكم من المعرفة والشهادة على انفسكم ما يبين فساده وعدولكم فيه عن الصواب فان الذي يأخذه الصبي عن ابويه هو دين التريية والعادة وهو لاجل مصلحة الدنيا فان الطفل لا بد له من كافل ، واحق الناس به ابواه ولهذا جاءت الشريعة بأن الطفل مع ابويه على دينهما في احكام الدنيا الظاهرة وهذا الدين لا يعاقبه الله عليه على الصحيح حتى يبلغ ويعقل وتقوم عليه الحجة وحينئذ فعليه ان يتبع دين العلم والعقل وهو الذي يعلم بعقله هو انه دين صحيح فان كان اباؤه مهتدين كيوسف الصديق مع آبائه قال ﴿ واتبعتم ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب ﴾ وقال يعقوب بنوه ﴿ نعبد الهك وَاَلِهَ آبَائِكَ ابراهيم واسماعيل واسحق ﴾ وان كان الاباء مخالفين للرسل كان عليه ان يتبع الرسل كما قال تعالى ﴿ ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشركني ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ الآية فمن اتبع دين آبائه بغير بصيرة وعلم بل يعدل عن الحق المعلوم اليه فهذا اتبع هواه كما قال تعالى ﴿ واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ وهذه حال كثير من الناس من الذين ولدوا على الاسلام يتبع

احدهم اياه فيما كان عليه من اعتقاد ومذهب وان كان خطأ ليس هو فيه على بصيرة بل هو من مسلمة الدار لامسامة الاختيار وهذا اذا قيل له في قبره من ربك قال هاه هاه لا ادري سمعت الناس يقولون شيئا فقلته . فليتأمل اللبيب هذا المحل وينصح نفسه وليقم معه ولينظر من اي الفريقين هو والله الموفق . فان توحيد الربوبية لا يحتاج الى دليل فانه مركز في الفطر واقرب ما ينظر فيه المرء امر نفسه لما كان نطفة وقد خرج من بين الصلب والترائب عظام الصدر ثم صارت تلك النطفة في قرار مكين في ظلمات ثلاث وانقطع عنها تدبير الابوين وسائر الخلائق ولو كانت موضوعة على لوح او طبق واجتمع حكماء العالم على ان يصوروا منها شيئا لم يقدروا ومحال توهم عمل الطبائع فيها لانها موات عاجزة ولا توصف بحياة وان يتأني من الموات فعل وتدبير فاذا تفكر في ذلك وانتقال هذه النطفة من حال الى حال علم بذلك توحيد الربوبية فانتقل منه الى توحيد الالهية فاذا علم بالعقل ان له ربا اوجده كيف يليق به ان يعبد غيره وكلما تفكر وتدبر ازداد يقينا وتوحيدا والله الموفق لارب غيره ولا اله سواه . قوله ﴿ وقد علم الله تعالى فيما لم يزل ﴾ ^(١) عدد من يدخل الجنة وعدد من يدخل النار جملة واحدة فلا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص منه وكذلك افعالهم فيما علم منهم ان يفعلوه ﴿ قال الله تعالى ﴾ ان الله بكل شيء عليم . وكان الله بكل شيء عليما ﴿ فالله تعالى موصوف بأنه بكل شيء عليم ازلا وابدا لم يتقدم علمه بالاشياء جهالة وما كان ربك نسيا . وعن علي بن ابي طالب رضي الله عنه قال كنا في جنازة في بقيع العرق فانا نارسول الله ﷺ فقمعد وقمعدنا

حواله ومعه مخضرة فنكس رأسه ينكت بمخضرتة ثم قال « مامن نفس منقوسة
الا قد كتب الله مكانها من الجنة والنار والا قد كتبت شقية اوسعيدة » قال
فقال رجل : يارسول الله افلا تمكث على كتابنا وندع العمل فقال « من كان
من اهل السعادة فسيصير الى عمل اهل السعادة ومن كان من اهل الشقاوة
فسيصير الى عمل اهل الشقاوة . ثم قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له » اما
اهل السعادة فسييسرون لعمل اهل السعادة واما اهل الشقاوة فييسرون
لعمل اهل الشقاوة ثم قرأ ﴿ فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره
لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ خروجه
في الصحيحين . قوله ﴿ وكل ميسر لما خلق له والاعمال بالخواتيم السعيد من
سعد بقضاء الله والشقي من شقي بقضاء الله ﴾ ش . تقدم من حديث علي رضي الله

عنه قوله عليه السلام « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وعن زهير عن ابى الزبير عن
جابر بن عبد الله قال : جاء سراقه بن مالك بن جعشم فقال : يارسول الله بين
لنا ديننا كأننا خلقنا الآن ففيم العمل اليوم افما جفت به الاقلام وجرت به
المقادير ام فيما استقبل قال « لا بل فيما جفت به الاقلام وجرت به المقادير » قال
زهير : ثم تكلم ابو الزبير بشيء لم افهمه فسألت ما قال فقال « اعملوا فكل
ميسر » رواه مسلم . وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال « ان الرجل ليعمل بعمل اهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من اهل النار
وان الرجل ليعمل بعمل اهل النار فيما يبدو للناس وهو من اهل الجنة » خروجه
في الصحيحين وزاد البخارى « وانما الاعمال بالخواتيم » . وفي الصحيحين ايضا
عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق

المصدق « ان احدكم يجمع خلقه في بطن امه اربعين يوماً نطفة ثم يكون
علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل اليه الملك فينفخ فيه الروح
ويؤمر باربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقيماً ام سعيداً فوالذي لا اله
غيره ان احدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع
فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخلها وان احدكم ليعمل بعمل
اهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل
اهل الجنة فيدخلها » والاحاديث في هذا الباب كثيرة وكذلك الآثار عن
السلف قال ابو عمر بن عبد البر في التمهيد: قد اكثر الناس من تخرج
الآثار في هذا الباب واكثر المتكلمون من الكلام فيه . واهل السنة مجتمعون
على الايمان بهذه الآثار واعتقادها وترك المجادلة فيها وبالله العصمة والتوفيق
قوله ﴿ واصل القدر سر الله تعالى في خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا
نبي مرسل والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة
الطغيان فالخذر كل الخذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة فان الله تعالى طوى
علم القدر عن انامه ونهاهم عن مرامه كما قال تعالى في كتابه ﴿ لا يسئل عما يفعل
وعم يسألون ﴾ فمن سأل لم فعل فقد ردحتم الكتاب ومن ردحتم الكتاب
كان من الكافرين ﴿ ش . اصل القدر سر الله في خلقه وهو كونه اوجدوافنى
وافقر واغنى وأمات وأحيا وأضل وهدى . قال علي رضي الله عنه وكرم وجهه
القدر سر الله فلا نكشفه والنزاع بين الناس في مسألة القدر مشهور والذي
عليه أهل السنة والجماعة ان كل شيء بقضاء الله وقدره وان الله تعالى خالق
أفعال العباد قال تعالى ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ وقال تعالى ﴿ وخلق كل

شيء فقدره تقديراً ﴿ وأن الله تعالى يريد الكفر من الكافر ويشاؤه ولا
يرضاه ولا يحبه فيشاؤه كوناً ولا يرضاه ديناً وخالف في ذلك القدرية والمعتزلة
وزعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر ولكن الكافر شاء الكفر والى هذا
الآن لا يقولون شاء الكفر من الكافر وعذبه عليه ولكن صاروا كالستجير
من الرمضاء بالنار فانهم هربوا من شيء فوقعوا فيما هو شر منه فانه يلزم ان
مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى فان الله قد شاء الإيمان منه على قولهم
والكافر شاء الكفر فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى وهذا من
أقبح الاعتقاد وهو قول لا دليل عليه بل هو مخالف للدليل . روى اللالكائي
من حديث بقية عن الاوزاعي حدثنا العلاء بن الحجاج عن محمد بن عبد الملك
عن ابن عباس ان رجلاً قدم علينا يكذب بالقدر فقال دلوني عليه وهو يومئذ اعمى
فقالوا له ما تصنع به فقال والذي نفسي بيده لان استمكنتم منه لأعضن انفه
حتى اقطعه ولان وقعت رقبتة بيدي لادقنها فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول
« كأني بنساء بني فهم يظفن بالخروج تصطل إلياتهن مشركات وهذا أول
شرك في الاسلام والذي نفسي بيده لينتهي بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من
ان يقدر الخير كما اخرجوه من ان يقدر الشر » قوله وهذا أول شرك في الاسلام
الى اخره من كلام ابن عباس وهذا يوافق قوله القدر نظام التوحيد فمن وحد
الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيداً . وروى عمرو بن الهيثم قال
خرجنا في سفينة وصحبنا فيها قدرى ومجوسى فقال القدرى للمجوسى اسلم
قال المجوسى حتى يريد الله فقال القدرى ان الله يريد ولكن الشيطان لا يريد
قال المجوسى اراد الله واراد الشيطان فكان ما اراد الشيطان هذا شيطان

قوي : وفي رواية انه قال فانا مع اقواهما . ووقف اعرابي على حلقة فيها عمرو بن عبيد فقال ياهؤلاء ان ناقتي سرقت فادعوا الله ان يردها علي فقال عمرو بن عبيد اللهم انك لم ترد ان تسرق ناقته فسرقت فاردها عليه فقال الاعرابي لا حاجة لي في دعائك قال ولم ؟ قال اخاف كما اراد ان لا تسرق فسرقت ان يريد ردها فلا ترد . فقال رجل لابي عصام القسطلاني ارأيت ان منعي الهدى واوردني الضلال ثم عذبي ايكون منصفاً فقال له ابو عصام ان يكن الهدى شيئاً هوله فله ان يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء . واما الادلة من الكتاب والسنة فقد قال تعالى ﴿ ولو شئنا لآتيناك كل نفس هداها ولسكن حق القول مني لاملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ وما تشاؤون الا ان يشاء الله ان الله كان عليها حكيماً ﴾ وقال تعالى ﴿ من يشأ الله يضلله ومن يشأ يحمله على صراط مستقيم ﴾ وقال تعالى ﴿ فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد ان يضلله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ﴾ ومنشأ الضلال من التسوية بين المشيئة والارادة وبين المحبة والرضا فسوى بينهما الجبرية والقدرية ثم اختلفوا فقالت الجبرية الكون كله بقضائه وقدره فيكون محبوباً مرضياً وقالت القدرية النفاة : ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له فليست مقدرة ولا مقضية فهي خارجة عن مشيئته وخلقه وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة اما نصوص المشيئة والارادة من الكتاب فقد تقدم ذكر بعضها : واما نصوص المحبة والرضا فقال تعالى

« والله لا يحب الفساد » ولا يرضى لعباده الكفر وقال تعالى عقيب ما نهى عنه
من الشرك والظلم والفواحش والكبر « كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها »
وفي الصحيح عن النبي ﷺ « ان الله كره لكم ثلاثا قيل وقال وكثرة السؤال
واضاعة المال » وفي المسند « ان الله يحب ان يؤخذ برخصه كما يكره ان تؤتى
معصيته » وكان من دعائه ﷺ « اللهم اني اعوذ برضاك من سخطك واعوذ
بمعافاتك من عقوبتك واعوذ بك منك » فتأمل ذكر استعاذته بصفة الرضا
من صفة السخط وبفعل المعافاة من فعل العقوبة فالاول الصفة والثاني لا أثرها
المرتب عليها ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه وان ذلك كله راجع اليه وحده
لا الى غيره فما اعوذ منه واقع بمشيئتك وارادتك وما اعوذ به من رضاك
ومعافاتك هو بمشيئتك وارادتك ان شئت ان ترضى عن عبدك وتعاقبه وان
شئت ان تغضب عليه وتعاقبه فاعذني مما اكره وامتنع ان يحل بي هي بمشيئتك ايضا
فالمحبوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك فعياذي بك منك فعياذي بحولك
وقوتك ورحمتك مما يكون بحولك وقوتك وعدلك وحكمتك فلا بغيرك من غيرك
ولا استعيذ بك من شيء صادر عن غير مشيئتك بل هو منك فلا يعلم ما في
هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية الا الراسخون في العلم بالله
ومعرفته ومعرفة عبوديته . فان قيل كيف يريد الله امرا ولا يرضاه ولا يحبه
وكيف يشاؤه ويكونه وكيف تجتمع ارادته وبغضه وكرهته . قيل هذا
السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقا وتباينت طرقهم واقوالهم فاعلم ان
المراد نوعان : مراد لنفسه ومراد لغيره . فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته
وما فيه من الخير فهو مراد ارادة الغايات والمقاصد . والمراد لغيره قد لا يكون

مقصودا للالايريد^(١) ولا فيه مصلحة له بالنظر الى ذاته وان كان وسيلة الى مقصوده
ومراداه فهو مكرومه من حيث نفسه وذاته مرادله من حيث قضاؤه وايصاله
الى مراده فيجتمع فيه الامران بغضه وارادته ولا يتناقضان لاختلاف متعلقهما
وهذا كالدواء الكريه اذا علم المتناول له ان فيه شفاءه . وقطع العضو المتأكل
اذا علم ان في قطعه بقاء جسده . وكقطع المسافة الشاقة اذا علم انها توصل الى
مراده ومحبوبه . بل العاقل يكتبني في ايثار هذا المكرومه وارادته بالظن الغالب
وان خفيت عنه عاقبته فكيف ممن لا يخفى عليه خافية فهو سبحانه يكره
الشيء ولا ينافي ذلك ارادته لأجل غيره وكونه سببا الى امر هو احب اليه
من فوجه . من ذلك انه خلق ابليس الذي هو مادة لفساد الاديان والاعمال
والاعتقادات والارادات وهو سبب لشقاوة كثير من العباد وعملهم بما يغضب
الرب سبحانه تبارك وتعالى وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه
ومع هذا فهو وسيلة الى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه ووجودها
احب اليه من عدمها . منها انه يظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات
المتقابلات فخلق هذه الذات التي هي اخبث الذوات وشرها وهي سبب كل
شر في مقابلة ذات جبرائيل التي هي من اشرف الذوات واطهرها وازكاها وهي مادة
كل خير فتبارك خالق هذا وهذا كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار والدواء والداء
والحياة والموت والحسن والقيبح والخير والشر وذلك من ادل دليل على كمال
قدرته وعزته ومملكه وسلطانه فانه خلق هذه المتضادات وقابل بعضها ببعض
وجهها محال تصرفه وتديره فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال
تصرفه وتديره مملكته ومنها ظهور آثار اسمائه القهرية مثل القهار والمنتقم والعدل

(١) لعله باسقاط اللام الثانية

والضار والشديد العقاب والسريع العقاب وذو البطش الشديد والخافض والمذل
فان هذه الاسماء والافعال كمال لا بد من وجود متعلقها ولو كان الجن والانس على
طبيعة الملائكة لم يظهر اثر هذه الاسماء . ومنها ظهور آثار اسمائه المتضمنة
كله وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده فلو لا
خلق ما يكرهه من الاسباب المفضية الى ظهور آثار هذه الاسماء لتعطلت
هذه الحكم والفوائد . وقد اشار النبي ﷺ الى هذا بقوله « لو لم تذبوا لذهب
الله بكم و لجا بكم يقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم » ومنها ظهور آثار اسماء
الحكمة والخبرة فانه الحكيم الخبير الذي يضع الاشياء مواضعها وينزلها
منازلها اللائقة بها فلا يضع الشيء في غير موضعه ولا ينزله في غير منزلته التي
يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته فهو اعلم حيث يجعل رسالاته واعلم بمن
يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها اليه واعلم بمن لا يصلح لذلك فلو قدر عدم
الاسباب المكروهة لتعطلت حكم كثيرة ولفات مصالح عديدة ولو عطلت
تلك الاسباب لما فيها من الشر لتعطل الخير الذي هو اعظم من الشر الذي في
تلك الاسباب وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو
اضعاف اضعاف ما يحصل بها من الشر . ومنها حصول العبودية المتنوعة التي
لو لا خلق ابليس لما حصلت فان عبودية الجهاد من احب انواع العبودية اليه
سبحانه ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعا من
الموالاة لله سبحانه وتعالى والمعادات فيه وعبودية الامر بالمعروف والنهي
عن المنكر وعبودية الصبر ومخالفته الهوى وايتار محاب الله تعالى وعبودية
التوبة والاستغفار وعبودية الاستعاذة بالله ان يجيره من عدوه ويعصمه من

كيدته واذاه الى غير ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن ادراكها . فان قيل
فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الاسباب فهذا سؤال فاسد
وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه كفرض وجود الابن بدون الاب
والحركة بدون المتحرك والتوبة بدون التائب . فان قيل فاذا كانت هذه
الاسباب مرادة لما تفضى اليه من الحكم فهل تكون مرضية محبوبة من
هذا الوجه ام هي مسخوطة من جميع الوجوه . قيل هذا السؤال يرد على
وجهين . (احدهما) من جهة الرب تعالى وهل يكون محبا لها من جهة افضائها
الى محبوبه وان كان يبغضها لذاتها. (والثاني) من جهة العبد وهو انه هل يسوغ
له الرضا بها من تلك الجهة ايضا فهذا سؤال له شأن . فاعلم ان الشر كله يرجع
الى العدم اعني عدم الخير واسبابه المفضية اليه وهو من هذه الجهة شر واما
من جهة وجوده المحض فلا شر فيه . مثاله ان النفوس الشريرة وجودها خير
من حيث هي موجودة وانما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها فانها خلقت
في الاصل متحركة فان اعينت بالعلم والهيام الخير تحركت به وان تركت
تحركت بطبيعتها الى خلافه وحركتها من حيث هي حركة خير وانما تكون
شرا بالاضافة لا من حيث هي حركة والشر كله ظلم وهو وضع الشيء في غير
محلّه فلو وضع في موضعه لم يكن شرا فعلم ان جهة الشر فيه نسبية اضافة
ولهذا كانت العقوبات الموضوعة في محلها خيرا في نفسها وان كانت شرا بالنسبة
الى المحل الذي حلت به لما احدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة
لضده من اللذة مستعدة له فصارت ذلك الألم شرا بالنسبة اليها وهو خير بالنسبة
الى الفاعل حيث وضعه في موضعه فانه سبحانه لم يخلق شرا محضا من جميع

الوجوه والاعتبارات فان حكمته تأبى ذلك فلا يمكن في جناب الحق تعالى ان يريد شيئاً يكون فساداً من كل وجه لا مصلحة في خلقه بوجه ما هذا من ايّن المحال فانه سبحانه بيده الخير كله والشر ليس اليه بل كل ما اليه نخير والشر انما حصل لعدم هذه الاضافة والنسبة اليه فلو كان اليه لم يكن شراً فتأمل فانتقاع نسبتته اليه هو الذي صيره شراً فان قيل لم ينتقاع نسبتته اليه خلقاً ومشية قيل هو من هذه الجهة ليس بشر فان وجوده هو المنسوب اليه وهو من هذه الجهة ليس بشر والشر الذي فيه من عدم امداده بالخير واسبابه والعدم ليس بشي حتى ينسب الى من بيده الخير فان اردت مزبدايضاح لذلك فاعلم ان اسباب الخير ثلاثة الايجاد والاعداد والامداد فاجاد هذا خير وهو الى الله وكذلك اعداده وامداده فاذا لم يحدث فيه اعداد ولا امداد حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذي ليس الى الفاعل وانما اليه ضده . فان قيل : هلا امده اذا وجده قيل ما اقتضت الحكمة ايجاده وامداده وانما اقتضت ايجاده وترك امداده فاجاده خير والشر من عدم امداده . فان قيل : فهلا امد الموجودات كلها فهذا سؤال فاسد يظن مورده ان التسوية بين الموجودات ابلغ في الحكمة وهذا عين الجهل بل الحكمة في هذا التفاوت العظيم الذي بين الاشياء وليس في خلق كل نوع منها تفاوت فكل نوع منها ليس في خلقه تفاوت والتفاوت انما وقع لامور عدمية لم يتعلق بها الخلق والا فليس في الخلق من تفاوت فان اعتاص عليك هذا ولم تفهمه حق الفهم فراجع قول القائل
إذا لم تستطع شيئاً قدعه * وجاوزه الى ما تستطيع
فان قيل كيف يرضى لعبده شيئاً ولا يعينه عليه قيل لان اعانته عليه قد

تستلزم فوات محبوب له اعظم من حصول تلك الطاعة التي رضىها له وقد تكون
وقوع تلك الطاعة منه تتضمن مفسدة هي اكره اليه سبحانه من محبته لتلك
الطاعة. وقد أشار تعالى الى ذلك في قوله ﴿ولو ارادوا الخروج لاعدوا له عدة
ولكن كره الله ان يبعثهم فنبطهم﴾ - الآيتين . فأخبر سبحانه أنه كره ان يبعثهم
الى الغزو مع رسوله وهو طاعته فلما كرهه منهم نبطهم عنه ثم ذكر سبحانه
بعض المفاسد التي تترتب على خروجهم مع رسوله فقال ﴿لو خرجوا فيكم
ما زادوكم الا خبالا﴾ أي فسادا وشرأ ﴿ولا وضعوا خلالكم﴾ أي سعوا
بينكم بالفساد والشر ﴿يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم﴾ أي قائلون منهم
مستجيبون لهم فيتولد من سعي هؤلاء وقبول هؤلاء من الشر ما هو اعظم
من مصلحة خروجهم فاقضت الحكمة والرحمة ان أقدمهم عنه فاجمل هذا المثال
أصلا وقرس عليه. واما الوجه الثاني وهو الذي من جهة العبد فهو ايضا ممكن بل واقع
فان العبد سخط الفسوق والمعاصي ويكرهها من حيث هي فعل العبد واقعة بكسبه
وارادته واختياره ويرضى بعلم الله وكتابه ومشيتته وارادته وامره الكوني فيرضى
بما من الله ويسخط ما هر منه فهذا مسلك طائفة من اهل العرفان وطائفة اخرى
كرهنها مطلقا وقولهم يرجع الى هذا القول لان اطلاقهم الكراهة لا يريدون
به شموله لعلم الرب وكتابه ومشيتته . وسر المسئلة ان الذي الى الرب منها غير
مكروه والذي الى العبد مكروه فان قيل ليس الى العبد شيء منها قيل هذا
هو الجبر الباطل الذي لا يمكن صاحبه التخلص من هذا المقام الضيق والتدري
المنكر اقرب الى التخلص منه من الجبري وأهل السنة المتوسطون بين القدرية
والجبرية اسعد بالتخلص من الفريقين . فان قيل كيف يتأني الندم والتوبة

مع شهود الحكمة في التقدير ومع شهود القيومية والمشيئة النافذة قيل هذا هو
الذي اوقع من عميت بصيرته في شهود الامر على غير ما هو عليه فرأي تلك
الافعال طاعات لموافقته فيها المشيئة والقدر وقال : ان عصيت امره فقد اطعت
ارادته في ذلك قيل

اصبحت منفعلا لما يختاره * مني ففعلي كله طاعات
وهؤلاء اعمى الخلق بصائر واجهلهم بالله واحكامه الدينية والكونية فان
الطاعة هي موافقة الامر الديني الشرعي لاموافقة القدر والمشيئة ولو كان
موافقة القدر طاعة لكان ابليس من اعظم المطيعين له ولكان قوم نوح وهود
وصالح ولوط وشعيب وقوم فرعون كلهم مطيعون وهذا غاية الجهل لكن
اذا شهد العبد عجز نفسه ونفوذ الاقدار فيه وكمال فقره الى ربه وعدم استغنائه
عن عصمته وحفظه طرفه عين كان بالله في هذه الحال لا بنفسه فوقع الذنب
منه لا يتأتى في هذه الحال البتة فان عليه حصنا حصينا في يسمع وبني يبصر
وبني يبطش وبني يمشي فلا يتصور منه الذنب في هذه الحالة فاذا حجب عن
هذا المشهد وبقي بنفسه استولى عليه حكم النفس فهناك نصبت عليه الشباك
والاشراك وارسلت عليه الصيادون فاذا اتقى عنه ضباب ذلك الوجود الطبيعي
فهناك يحضره الندم والتوبة والانابة فانه كان في المعصية مجبوا بنفسه عن ربه
فلما فارق ذلك الوجود صار في وجود آخر فبقي بربه لا بنفسه . فان قيل اذا
كان الكفر بقضاء الله وقدره ونحن مأمورون ان نرضى بقضاء الله فكيف
ننكره ونكرهه (فالجواب) ان يقال او لان نحن غير مأمورين بالرضا بكل
ما يقضيه الله ويقدره ولم يرد بذلك كتاب ولا سنة بل من المقضى ما يرضى

به ومنه ما يسخط ويمقت كما لا يرضى به القاضى لأقضيته سبحانه بل من
القضاء ما يسخط كما ان من الاعيان القضية ما يغضب عليه ويمقت ويلعن
ويذم ويقال (ثانيا) هنا امران: قضاء الله وهو فعل قائم بذات الله تعالى. ومقضى
وهو المفعول المنفصل عنه. فالقضاء كله خير وعدل وحكمة نرضى به كله والمقضى
قسمان: منه ما يرضى به ومنه ما لا يرضى به. ويقال (الثالثا) القضاء له وجهان
(احدهما) تعلقه بالرب تعالى فمن هذا الوجه ونسبته اليه يرضى به (والوجه الثاني)
تعلقه بالعبد ونسبته اليه فمن هذا الوجه ينقسم الى ما يرضى به والى ما لا يرضى
به مثال ذلك قتل النفس له اعتباران فمن حيث قدره الله وقضاه وكتبه وشاءه
وجعله اجلا للمقتول ونهاية لعمره يرضى به ومن حيث صدر من القاتل وباشره
وكسبه واقدامه عليه باختياره وعصى الله بفعله نسخطه ولا نرضى به وقوله
والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان الى آخره. التعمق هو المبالغة في طلب
الشيء والمعنى ان المبالغة في طلب القدر والغوص في الكلام فيه ذريعة الخذلان.
الذريعة الوسيلة والذريعة والدرجة والسلم متقارب المعنى وكذلك الخذلان
والحرمان والظفر والظفران متقارب المعنى ايضا لكن الخذلان في مقابلة النصر
والحرمان في مقابلة الظفر والظفران في مقابلة الاستقامة. وقوله فالخذر كل
الخذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة. عن ابى هريرة رضي الله عنه قال
جاء ناس من اصحاب النبي ﷺ الى رسول الله ﷺ فسألوه انا نجد في انفسنا
ما يتعاطم احدنا ان يتكلم به قال وجدتموه قال ذلك صريح الايمان رواه مسلم
الاشارة بقوله ذلك صريح الايمان الى تعاطم ان يتكلموا به. ولمسلم ايضا
عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة

فقال تلك محض الايمان وهو بمعنى حديث ابي هريرة فان وسوسة النفس
او مدافعة وسواسها بمنزلة المحادثة الكائنة بين اثنين فدافعة الوسوسة الشيطانية
واستعظامها صريح الايمان ومحض الايمان هذه طريقة الصحابة رضي الله عنهم
والتابعين لهم باحسان ثم خلف من بعدهم خلف سودوا الاوراق بتلك الوسواس
التي هي شكوك وشبه بل وسودوا القلوب وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق
ولذلك اطنب الشيخ رحمه الله في ذم الخوض في الكلام في القدر والنقص
عنه . وعن عائشة رضي الله عنها انها قالت قال رسول الله ﷺ « ان ابغض
الرجال الى الله الالاد الخضم » وقال الامام احمد : حدثنا ابو معاوية حدثنا
داود بن ابي هند عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال : خرج رسول الله
ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر قال : فكأنما فقيء في وجهه حب
الرمان من الغضب قال فقال « مالكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض بهذا
هلك من كان قبلكم » قال فما غبظت نفسي بمجلس فيه رسول الله لم اشهده ما
غبظت نفسي بذلك المجلس اني لم اشهده . ورواه ابن ماجه ايضا وقال تعالى
﴿ فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي
خاضوا ﴾ اي كالخوض الذي خاضوه او كالفوج او الصنف او الجيل الذي خاضوا
وجمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض لان فساد الدين اما في العمل
او في الاعتقاد فالاول من جهة الشهوات والثاني من جهة الشبهات . وروى
البخارى عن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي ﷺ قال « لتأخذن امتي مأخذ القرون
قبلا شبرا بشبر وذراعا بذراع » قالوا فارس والروم قال « فمن الناس الا اولئك »
وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « ليأتين على امتي

ما اتى على بني اسرائيل حذو النعل بالنعل حتى ان كان منهم من اتى امه علانية كان
من امتي من يصنع ذلك وان بني اسرائيل تفرقوا على اثنتين وسبعين ملة وتفرق
امتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار الامة واحدة قالوا من هي يا رسول
الله قال « ما انا عليه واصحابي » رواه الترمذي . وعن ابي هريرة ان رسول الله ﷺ
قال « تفرقت اليهود على احدى وسبعين فرقة واثنيتين وسبعين فرقة والنصارى
مثل ذلك وتفرقت امتى على ثلاث وسبعين فرقة » رواه ابو داود وابن ماجه
والترمذي وقال حديث حسن صحيح . وعن معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه
قال قال رسول الله ﷺ « ان اهل السكتاين افرقوا في دينهم على اثنتين
وسبعين ملة وان هذه الامة ستفرق على ثلاث وسبعين ملة » يعني الاهواء
كلها في النار الا واحدة وهي الجماعة . واكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين
الامة مسألة القدر وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع . وقوله فمن سأل لم
فعل فقد رد حكم الكتاب ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين
اعلم ان مبني العبودية والايمان بالله وكتبه ورسوله على التسليم وعدم الاسؤولة
عن تفاصيل الحكمة في الاوامر والنواهي والشرائع . ولهذا لم يحك الله سبحانه
عن امة نبي صدقت بنبيها وآمنت بما جاء به انها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما
امرها به ونهاها عنه وبلغها عن ربها ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها بل
انقادت وسلمت واذعنت وما عرفت من الحكمة عرفته وما خفي عنها لم تتوقف
في اتقيادها وتسليمها على معرفته ولا جعلت ذلك من شأنها وكان رسولها
اعظم عندها من ان تسأله عن ذلك كما في الانجيل * يا بني اسرائيل لا تقولوا لم امر
ربنا ولكن قولوا بم امر ربنا * . ولهذا كان سلف هذه الامة التي هي اكمل

الأثم عقولا ومعارف وعلوما لا تسأل نبيها لم امر الله بكذا ولم نهى عن كذا
ولم قدر كذا ولم فعل كذا لعلمهم ان ذلك مضاد للايمان والاستسلام وان قدم
الاسلام لا يثبت الا على درجة التسليم . فاول مراتب تعظيم الامر التصديق
به ثم العزم الجازم على امتثاله ثم المسارعة اليه والمبادرة به والحذر عن القواطع
والموانع ثم بذل الجهد والنصح في الاتيان به على اكل الوجوه ثم فعله لكونه
مأمورا بحيث لا يتوقف الاتيان به على معرفة حكمته فان ظهرت له فعله والا
عطله فان هذا يتنافى الاتقياد ويقدم في الامتثال . قال القرطبي ناقلا عن
ابن عبد البر : فمن سأل مستفهما راغبيا في العلم ونفي الجهل عن نفسه باحثا عن
معنى يجب الوقوف في الديانة عليه فلا بأس به فشفاء العي السؤال ومن سأل
متعنتا غير متفقه ولا متعلم فهو الذي لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره . قال ابن
عربي : الذي ينبغي للعالم ان يشتغل به هو بسط الأدلة وايضاح سبل النظر
وتحصيل مقدمات الاجتهاد واعداد الآلة المعينة على الاستمداد قال : فاذا
عرضت لك مسألة اتيت من بابها ونشئت من مظانها والله يفتح وجه الصواب
فيها انتهى . وقال عليه السلام « من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه » رواه الترمذي
 وغيره ولا شك في تكفير من رد حكم الكتاب ولكن من تأول حكم الكتاب لشبهة
عرضت له بين له الصواب ليرجع اليه وهو سبحانه وتعالى لا يسأل عما يفعل له كمال
حكيمته ورحمته وعدله لا بمجرد قهره وقدرته كما يقوله جهم واتباعه . وسيأتي لذلك
زيادة بيان عند قول الشيخ ولا تكفر احدا من اهل القبلة بذنوب ما لم يستعمله . قوله
﴿ فهذا جملة ما يحتاج اليه من هو منور قلبه من اولياء الله تعالى وهي درجة الراسخين
في العلم لان العلم علمان : علم في الخلق موجود وعلم في الخلق مفقود فانكار

العلم الموجود كفر وادعاء العلم المفقود كفر ولا يثبت الايمان الا بقبول العلم
الموجود وترك طلب العلم المفقود ﴿ ش . الاشارة اليه بقوله فهذا الى ما تقدم
ذكرة مما يجب اعتقاده والعمل به مما جاءت به الشريعة وقوله وهي درجة الراسخين
في العلم اي علم ما جاء به الرسول جملة وتفصيلا نفيًا وإثباتًا ويعني بالعلم المفقود
علم القدر الذي طواه الله عن انامه ونهام عن مرامه وتعني بالعلم الموجود علم الشريعة
اصولها وفروعها فمن انكر شيئًا مما جاء به الرسول كان من الكافرين ومن ادعى
علم الغيب كان من الكافرين . قال تعالى ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا
الا من ارتضى من رسول ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ ان الله عنده علم الساعة وينزل
الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي
ارض تموت ان الله عليم خبير ﴾ ولا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها ولا من جهلنا
انتفاء حكمته الا ترى ان خفاء حكمة الله علينا في خلق الحيات والعقارب
والفأر والحشرات التي لا يعلم منها الا المصرة لم ينف ان يكون الله تعالى خالقها
لهاولا يلزم ان لا يكون فيها حكمة خفيت علينا لان عدم العلم لا يكون علما
بالمعدوم قوله ﴿ ونؤمن باللوحة والقلم وبجميع ما فيه قد رقم ﴾ ش . قال تعالى
﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ وروى الحافظ ابو القاسم الطبراني
بسندته الى النبي ﷺ انه قال « ان الله خلق لوحا محفوظا من درة بيضاء صفحاتها
من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور لله فيه كل يوم ستون وثلاثمائة
لحظة يخلق ويرزق ويميت ويحيي ويمزويدل ويفعل ما يشاء » اللوح المذكور
هو الذي كتب الله مقادير الخلائق فيه والقلم المذكور هو الذي خلقه الله
وكتب به في اللوح المذكور المقادير كما في سنن ابي داود . عن عبادة بن

الصامت قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « اول ما خلق الله القلم فقال له
اكتب قال يارب وما اكتب قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة »
واختلف العلماء هل القلم اول المخلوقات او العرش على قولين ذكرهما
الحافظ ابو العلاء الهمداني اصحهما ان العرش قبل القلم ، لما ثبت في الصحيح
من حديث عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ « قدر الله مقادير المخلوق
قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة وعرشه على الماء » فهذا
صريح ان التقدير وقع بعد خلق العرش والتقدير وقع عند اول خالق القلم
بحديث عبادة هذا . ولا يخلو قوله اول ما خلق الله القلم الخ . اما ان يكون
جملة او جملتين . فان كان جملة وهو الصحيح كان معناه انه عند اول خلقه قال له
اكتب كما في اللفظ اول ما خلق الله القلم قال له اكتب بنصب اول والقلم
وان كان جملتين وهو مروى برفع اول والقلم فيتعين جملة على انه اول المخلوقات
من هذا العالم فيتفق الحديثان اذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في ان العرش
سابق على التقدير ، والتقدير مقارن لخلق القلم . وفي اللفظ الاخر لما خلق الله
القلم قال له اكتب فهذا القلم اول الأقلام وافضلها واجلها . وقد قال غير واحد
من اهل التفسير انه القلم الذي اقسم الله به في قوله تعالى ﴿ ن والقلم وما
يسطرون ﴾ والقلم الثاني قلم الوحي وهو الذي يكتب به وحي الله الى انبيائه
ورسله واصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم . والأقلام كلها خدم لأقلامهم
وقد رفع النبي ﷺ ليلة اسرى به الى مستوى يسمع فيه صريف الاقلام فهذه
الاقلام هي التي تكتب ما يوحى الله تبارك وتعالى من الامور التي يدبرها امر العالم
العلوي والسفلي قوله ﴿ فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى انه

كأن ليجملوه غير كأن لم يقدروا عليه ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله

تعالى ليجملوه كأننا لم يقدروا عليه جف القلم بما هو كأن الى يوم القيامة ش.

تقدم حديث جابر عن رسول الله ﷺ قال جاء سراقه بن مالك بن جعشم فقال يا رسول الله بين لنا ديننا كانا خلقنا الآن فقيم العمل اليوم فيما جفت به الاقلام وجرت به المقادير ام فيما استقبل قال « لا بل فيما جفت به الاقلام وجرت به المقادير » وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال « يا غلام الا اعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله واعلم ان الامة لو اجتمعت على ان ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على ان يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الاقلام وجفت الصحف » رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وفي رواية غير الترمذي « احفظ الله تجده امامك تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة واعلم ان ما اخطاك لم يكن ليصيبك وما اصابك لم يكن ليخطئك واعلم ان النصر مع الصبر وان الفرج مع الكرب وان مع العسر يسرا » وقد جاءت الاقلام في هذه الاحاديث وغيرها بمجموعة فدل ذلك على ان للمقادير اقلاما غير القلم الاول الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ . والذي دلت عليه السنة ان الاقلام اربعة وهذا التقسيم غير التقسيم المقدم ذكره (القلم الاول) العام الشامل لجميع المخلوقات وهو الذي تقدم ذكره مع اللوح (القلم الثاني) خبر خلق آدم وهو قلم عام ايضا لكن لبني آدم ورد في هذا آيات تدل على ان الله قدر اعمال بني آدم وارزاقهم واجالهم وسعادتهم عقيب خلق ايهم (القلم الثالث) حين يرسل الملك الى الجنين في بطن امه

فينفخ فيه الروح ويؤمر بربع كلمات (رزقه واجله وعمله وشقي اوسعيد) كما ورد
ذلك في الاحاديث الصحيحة (القلم الرابع) الموضوع على العبد عند بلوغه
الذي بايدي الكرام السكاتبين الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم كما ورد ذلك
في الكتاب والسنة واذا علم العبد ان كلا من عند الله ، فالواجب افراده سبحانه
بأخشية والتقوى قال تعالى ﴿ فلا تخشوا الناس واخشوني وايبي فارهيون -
فايبي فاتقون - ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فاولئك هم الفائزون -
هو اهل التقوى واهل المغفرة ﴾ ونظائر هذا المعنى في القرآن كثيرة ولا بد
لكل عبد ان يتقي اشياء فانه لا يعيش وحده ولو كان ملكا مطاعا فلا بد ان
يتقي اشياء يراعي بها رعيته فحينئذ فلا بد لكل انسان ان يتقي فان لم يتق الله
اتقى المخلوق واخلاق لا يتفق حبهم كلهم وبغضهم بل الذي يريد هذا يبغضه
هذا فلا يمكن ارضاء كلهم . كما قال الشافعي رضي الله عنه رضا الناس غاية
لا تدرك فعليك بالامر الذي يصلحك فالزمه ودع ماسواه فلا تعانه فارضاء
اخلق لا مقدور ولا مأمور وارضاء الخالق مقدور ومأمور وايضا فالمخلوق
لا يغني عنه من الله شيئا فاذا اتقى العبد ربه كفاه مؤنة الناس . كما كتبت عائشة
الى معاوية روي مرفوعا وروي موقوفا عليها « من ارضى الله بسخط الناس
رضى الله عنه وارضى عنه الناس ومن ارضى الناس بسخط الله عاد حامده
من الناس له ذاما) فمن ارضى الله كفاه مؤنة الناس ورضى عنه ثم فيما بعد يرضون
اذ العاقبة للتقوى ويحبه الله فيحبه الناس كما في الصحيحين عن النبي ﷺ انه
قال « اذا احب الله العبد نادى يا جبرائيل اني احب فلانا فاحبه فيحبه جبرائيل
ثم ينادي جبرائيل في السماء ان الله يحب فلانا فاحبوه فيحبه اهل السماء ثم

يوضع له القبول في الارض ، وقال في البغض مثل ذلك فقد بين انه لا بد لكل مخلوق من ان يتقى اما المخلوق واما الخالق وتقوى المخلوق ضررها راجح على نفعها من وجوه كثيرة وتقوى الله هي التي يحصل بها سعادة الدنيا والاخرة فهو سبحانه اهل للتقوى وهو ايضا اهل المغفرة فانه هو الذي يغفر الذنوب لا يقدر مخلوق على ان يغفر الذنوب ويخير من عذابها غيره وهو الذي يخير ولا يجار عليه . قال بعض السلف ما احتاج تقى قط لقوله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ فقد ضمن الله للمتقين ان يجعل لهم مخرجا مما يضيق على الناس وان يرزقهم من حيث لا يحتسبون فاذا لم يحصل ذلك دل على ان في التقوى خلافا فليستغفر الله وليتب اليه ثم قال تعالى ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ اي فهو كافيه لا محوجه الى غيره وقد ظن بعض الناس ان التوكل ينافي الاكتساب وتعاطي الاسباب وان الامور اذا كانت مقدره فلا حاجة الى الاسباب وهذا فاسد فان الاكتساب منه فرض ، ومنه مستحب ، ومنه مباح ، ومنه مكروه ، ومنه حرام كما قد عرف في موضعه . وقد كان النبي ﷺ افضل المتوكلين يلبس لامة الحرب ويمشى في الاسواق للاكتساب حتى قال الكافرون ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الاسواق ﴾ ولهذا تجد كثيرا ممن يرى الاكتساب ينافي التوكل يرزقون على يد من يعطيهم اما صدقة واما هدية وقد يكون ذلك من مكاس او والي شرطة او نحو ذلك وهذا مبسوط في موضعه لا يسهه هذا المختصر وقد تقدمت الاشارة الى بعض الاقوال التي في تفسير قوله تعالى ﴿ وهو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب ﴾ واما قوله تعالى ﴿ كل يوم ﴾

هو في شأن ﴿ فقال البغوي قال مقاتل نزلت في اليهود حين قالوا ان الله لا يعطي يوم السبت . قال المفسرون من شأنه انه يحيي ويميت ويرزق ويعز قومًا وبذل آخرين ويشفي مريضا ويفك عانيا ويفرج مكروبا ويحيي داعيا ويعطي سائلا ويفغر ذنبا الى ما لا يحصى من افعاله واحداثه في خلقه ما يشاء قوله ﴿ وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه وما اصابه لم يكن ليخطئه ﴿ هذا بناء على ما تقدم من ان المقدور كائن لا محاله . ولقد احسن القائل حيث يقول :

ما قضى الله كائن لا محاله * والشقي الجهول من لام حاله
والقائل الآخر

اقنع بما ترزق ياذا الفتى * فليس ينسى ربنا نملة
ان اقبل الدهر فقم قائما * وان تولى مدبرا نم له
قوله ﴿ وعلى العبد ان يعلم ان الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه فقدر ذلك تقديرا حكما مبرما ليس فيه ناقص ولا معقب ولا مزيل ولا مغير ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وارضه ﴿ هذا بناء على ما تقدم من ان الله تعالى قد سبق علمه بالكائنات وانه قدر مقاديرها قبل خلقها كما قال ﷻ « قدر الله مقادير الخلق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة وعرشه على الماء » فيعلم ان الله قد علم ان الاشياء تصير موجودة لأوقاتها على ما اقتضته حكمته البالغة فكانت كما علم فان حصول الخلوقات على ما فيها من غرائب الحكم لا يتصور إيجادها الا من عالم قد سبق علمه على إيجادها قال تعالى ﴿ الا يعلم من خالق وهو اللطيف الخبير ﴿ وانكر غلاة المعتزلة ان الله كان عالما في الازل وقالوا ان الله تعالى لا يعلم افعال العباد حتى يفعلوا تعالى

الله عما يقولون علوا كبيرا . قال الامام الشافعي رحمه الله ناظروا القدرية بالعلم فان اقرؤا به خصموا وان انكروا كفروا فالله تعالى يعلم ان هذا مستطيع يفعل ما استطاعه فيثيبه وهذا مستطيع لا يفعل ما استطاعه فيعذبه فانما يعذبه لانه لا يفعل مع القدرة وقد علم الله ذلك منه ومن لا يستطيع لا يأمره ولا يعذبه على ما لم يستطعه واذا قيل فيلزم ان يكون العبد قادرا على تغير علم الله لأن الله علم انه لا يفعل فاذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله ، قيل هذه معضلة وذلك ان مجرد قدرته على انه لا يستلزم تغير العلم وانما يظن من يظن تغير العلم اذا وقع الفعل ولو وقع الفعل لكان المعلوم وقوعه لاعدم وقوعه فيمتنع ان يحصل وقوع الفعل مع علم الله بعدم وقوعه بل ان وقع كان الله قد علم انه يقع وان لم يقع كان الله قد علم انه لا يقع ونحن لا نعلم علم الله الا بما يظهر وعلم الله مطابق للواقع فيمتنع ان يقع شيء يستلزم تغير العلم بل اي شيء وقع كان هو المعلوم والعبد الذي لم يفعل لم يات بما يغير العلم بل هو قادر على فعل لم يقع ولو وقع لكان الله قد علم انه يقع لانه لا يقع واذا قيل منع عدم وقوعه يعلم الله انه لا يقع فلو قدر العبد على وقوعه قدر على تغير العلم قيل ليس الامر كذلك بل العبد يقدر على وقوعه وهو لم يوقعه ولو اوقعه لم يكن المعلوم الا وقوعه فتقدور العبد اذا وقع لم يكن المعلوم الا وقوعه وهؤلاء فرضوا وقوعه مع العلم بعدم وقوعه وهو فرض محال وذلك بمنزلة من يقول افرض وقوعه مع عدم وقوعه وهو جمع بين النقيضين فان قيل فاذا كان وقوعه مع علم الرب وقوعه محالا لم يكن مقدورا قيل لفظ المحال مجمل وهذا ليس محالا لعدم استطاعته له ولا لعجزه عنه ولا لامتناعه في نفسه بل هو ممكن

مقدور مستطاع ولكن اذا وقع كان الله عالما بأنه سيقع واذا لم يقع كان عالما
بانه لا يقع فاذا فرض وقوعه مع انتفاء لازم الوقوع صار محالاً من جهة اثبات
اللزوم بدون لازمه وكل الاشياء بهذا الاعتبار هي محال مما يلزم هؤلاء ان
لا يبقى احد قادرا على شيء لا الرب ولا الخلق فان الرب اذا علم من نفسه
انه سيفعل كذا لا يلزم من علمه ذلك انتفاء قدرته على تركه وكذلك اذا علم
من نفسه انه لا يفعل لا يلزم منه انتفاء قدرته على فعله فكذلك ما قدره من
افعال عبادته والله تعالى اعلم . قوله ﴿ وذلك من عقد الايمان واصول المعرفة
والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته كما قال تعالى في كتابه ﴾ وخلق كل
شيء فقدره تقديراً ﴿ وقال تعالى ﴿ وكان امر الله قدراً مقدوراً ﴾ الاشارة
الى ما تقدم من الايمان بالقدر وسبق علمه بالكائنات قبل خلقها قال ﷺ في
جواب السائل عن الايمان « ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم
الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » وقال ﷺ في آخر الحديث « يا عمر اندري
من السائل قال الله ورسوله اعلم قال فانه جبرائيل اتاكم يعلمكم دينكم » رواه مسلم
وقوله والاعتراف بتوحيد الله وربوبيته اي لا يتم التوحيد والاعتراف بالربوبية
الا بالايمان بصفاته تعالى فان من زعم خالفاً غير الله فقد اشرك فكيف بمن زعم
ان كل احد يخلق فعله ولهذا كانت القدرة مجوس هذه الامة واحاديثهم في
السنن . وروى ابو داود عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال « القدرة مجوس هذه
الامة ان مرضوا فلا تعودوم وان ماتوا فلا تشهدوم » . وروى ابو داود ايضا
عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « لكل امة مجوس ،
ومجوس هذه الامة الذين يقولون لا قدر ، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته

ومن مرض منهم فلا تعود وهم ، وهم شيعة الدجال وحق على الله ان ياحقهم بالدجال
وروى ابو داود ايضا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال
« لا تجالسوا اهل القدر ولا تفاحوم » . وروى الترمذي عن ابن عباس رضي
الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « صنفان من بني آدم ليس لهم في الاسلام
نصيب المرجئة والقدرية » لكن كل احاديث القدرية المرفوعة ضعيفة وانما
يصح الموقوف منها فمن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال : القدر نظام التوحيد
فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيديه وهذا لأن الايمان بالقدر
يتضمن الايمان بعلم الله القديم وما ظهر من علمه * الذي * لا يحاط به وكتابة مقادير
الخلائق . وقد ضل في هذا الموضوع خلائق من المشركين والصابئين والفلاسفة
وغيرهم ممن ينكر علمه بالجزئيات او بغير ذلك فان ذلك كله مما يدخل في التكذيب
بالقدر واما قدرة الله على كل شيء فهو الذي يكذب به القدرية جملة حيث
جعلوه لم يخلق افعال العباد فاخرجوها عن قدرته وخلقها والقدر الذي لا ريب
في دلالة الكتاب والسنة والاجماع عليه وان الذي جعلوه من القدرية المحضه
بلا نزاع هو ما قدره الله من مقادير العباد وعامة ما يوجد من كلام الصحابة
والائمة في ذم القدرية يعني به هؤلاء كقول ابن عمر لما قيل له يزعمون ان لا قدر
وان الامر انف اخبرهم اني منهم بري وانهم مني براء والقدر الذي هو التقدير
المطابق للعالم يتضمن اصولا عظيمة . (احدها) انه عالم بالامور المقدره قبل
كونها فيثبت علمه القديم وفي ذلك الرد على من ينكر علمه القديم . (الثاني)
ان التقدير يتضمن مقادير المخلوقات ومقاديرها هي صفاتها المعينة المختصة بها
فان الله قد جعل لكل شيء قدرا قال تعالى ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾

فالخلق يتضمن التقدير تقدير الشيء في نفسه بان يجعل له قدرا وتقديره قبل وجوده فاذا كان قد كتب لكل مخلوق قدره الذي يخصه في كينته وكيفية كان ذلك ابلغ في العلم بالامور الجزئية المعينة خلافا لمن انكر ذلك وقال انه يعلم الكليات دون الجزئيات فالقدر يتضمن العلم القديم والعلم بالجزئيات (الثالث) انه يتضمن انه اخبر بذلك واظهره قبل وجود الخفوقات اخبارا مفصلا فيقتضى انه يمكن ان يعلم العباد الامور قبل وجودها علما مفصلا فيدل ذلك بطريق التنبه على ان الخالق اولى بهذا العلم فانه اذا كان يعلم عباده بذلك فكيف لا يعلمه هو (الرابع) انه يتضمن انه مختار لما يفعله محدث له بمشيئته وارادته ليس لازما لذاته (الخامس) انه يدل على حدوث هذا المقدور وانه كان بعد ان لم يكن فانه يقدره ثم يخلقه قوله ﴿ فويل لمن ضاع له في القدر قلبا سقيما . وفي نسخة فويل لمن صار قلبه في القدر قلبا سقيما لقد التمس بوجهه في فخص الغيب سرا كتيما وعاد بما قال فيه افاكا اثيما ﴾ ش . اعلم ان القلب له حياة وموت ومرض وشفاء وذلك اعظم مما للبدن قال تعالى ﴿ او من كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نورا ﴾ يمشی به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ اي كان ميتا بالكفر فاحييناه بالايمان فالقلب الصحيح الحي اذا عرض عليه الباطل والقبائح نفر منها بطبعه وابقضها ولم يلتفت اليها بخلاف القلب الميت فانه لا يفرق بين الحسن والقيح . كما قال عبد الله بن مسعود (هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر) وكذلك القلب المريض بالشهوة فانه لضعفه يميل الى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه . ومرض القلب نوعان كما تقدم . مرض شهوة ومرض شبهة وارداها

مرض الشبهة وارداً الشبه ما كان من امر القدر وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولا يشعر به صاحبه لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته واسبابها بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته وعلامة ذلك انه لا تؤلمه جرحات القبائح ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة فان القلب اذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه وتألم بجهله بالحق بحسب حياته. وما لجرح بميت ايلام. وقد يشعر بمرضه ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها فيؤثر بقاء الله على مشقة الدواء فان دواءه في مخالفة الهوى وذلك اصعب شيء على النفس وليس له انفع منه وتارة يوطن نفسه على الصبر ثم ينفس عزمه ولا يستمر معه لضعف علمه وبصيرته وصبره كمن دخل في طريق مخوف مفض الى غاية الامن وهو يعلم انه ان صبر عليه اتقضى الخوف واعقبه الامن فهو محتاج الى قوة صبر وقوة يقين بما يصير اليه ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق ولم يتحمل مشقتها ولا سيما ان عدم الرفيق واستوحش من الوحدة وجعل يقول اين ذهب الناس فلي اسوة بهم وهذه حال اكثر الخلق وهي التي اهلكتهم فالصابر الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقدته اذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الاول الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا. وما احسن ما قال ابو محمد عبد الرحمن بن اسمعيل المعروف بابي شامه في كتاب الحوادث والبدع حيث جاء الامر بلزوم الجماعة فالمراد لزوم الحق واتباعه وان كان المتمسك به قليلا والمخالف له كثيرا لان الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الاولى من عهد النبي ﷺ واصحابه ولا ننظر الى كثرة اهل الباطل بعدهم. وعن الحسن البصري رحمه الله انه قال: السنة والذي لاله الا

هو بين الغالي والجافي فاصبروا عليها رحمكم الله فان اهل السنة كانوا اقل الناس
فيما مضى وعم اقل الناس فيما بقي الذين لم يذهبوا مع اهل الاثراف في اترافهم ولا مع
اهل البدع في بدعتهم وصبروا على سنتهم حتى لقواربهم فكذلك فكونوا واعلامه
مرض القلب عدوله عن الاغذية النافعة المواقفة الى الاغذية الضارة ، وعدوله عن
دوائه النافع الى دوائه الضار فهنا اربعة اشياء غذاء نافع ودواء شاف وغذاء
ضار ودواء مهلك . فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي
والقلب المريض بضد ذلك وانفع الاغذية غذاء الايمان وانفع الادوية دواء
القرآن وكل منهما فيه الغذاء والدواء فمن طلب الشفاء في غير الكتاب والسنة
فهو من اجهل الجاهلين واصل الضالين فان الله تعالى يقول ﴿ قل هو الذين
آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك
ينادون من مكان بعيد ﴾ وقال تعالى ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة
للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا ﴾ ومن في قوله من القرآن لبيان الجنس
لا للتبويض . وقال تعالى ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء
لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ فالقرآن هو الشفاء التام من جميع
الادواء القلبية والبدينية وادواء الدنيا والآخرة وما كل احديو هل الاستشفاء
به واذا احسن العليل التداوى به ووضع على دأه بصدق وايمان وقبول تام
واعتماد جازم واستيفاء شروطه لم يقاوم الداء ابدا وكيف تقاوم الادواء كلام
رب الارض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدعها او على الارض لقطعها
فا من مرض من امراض القلوب والابدان الا وفي القرآن سبيل الدلالة
على دوائه وسببه والحماية منه لمن رزقه الله فعما في كتابه . وقوله لقد التمس

بوجهه في فخص الغيب سراكتيماي طلب بوجهه في البحث عن الغيب سراكتوما اذ
القدر سر الله في خلقه فهو يروم بيحثة الاطلاع على الغيب وقد قال تعالى ﴿ عالم الغيب
فلا يظهر على غيبه احداً الا من ارتضى من رسول ﴾ الى آخر السورة وقوله وعاد
بما قال فيه اي في القدر افاكا كذا با اثما اي ماثوما قوله ﴿ والعرش والكرسي
حق ﴾ كما بين تعالى في كتابه قال تعالى ﴿ ذو العرش المجيد فعال لما يريد - رفيع
الدرجات ذو العرش - ثم استوى على العرش ﴾ في غير ما آية من القرآن ﴿ الرحمن
على العرش استوى - على العرش استوى - لا اله الا هو رب العرش الكريم -
الله لا اله هو رب العرش العظيم - الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون
بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا - ويحمل عرش ربك فوقهم
يومئذ ثمانية - وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ﴾
وفي دعاء الكرب المروي في الصحيح « لا اله الا الله العظيم الحليم لا اله هو
رب العرش العظيم لا اله الا الله رب السموات ورب الارض رب العرش
الكريم » وروى الامام احمد في حديث الاوعال عن العباس بن عبد المطلب
رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « هل تدرون كم بين السماء والارض »
قال قلنا الله ورسوله اعلم قال « بينهما مسيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء الى سماء
مسيرة خمسمائة سنة وكشف كل سماء مسيرة خمسمائة و فوق السماء السابعة بحر
بين أسفله واعلاه كما بين السماء والارض ثم فوق ذلك العرش بين أسفله
واعلاه كما بين السماء والارض والله فوق ذلك ليس يخفى عليه من اعمال نبي
آدم شيء » ورواه ابو داود والترمذي وابن ماجه وروى ابو داود وغيره
بسنده الى رسول الله ﷺ من حديث الاطيط انه ﷺ قال « ان عرشه على

سمواته كهكذا وقال باصابه مثل القبة « الحديث وفي صحيح البخارى عن رسول الله ﷺ انه قال « اذا سألتم الله الجنة فستلوه الفردوس فانه اعلى الجنة واوسط الجنة وفوقه عرش الرحمن » يروى وفوقه بالنصب على الظرفية وبالرفع على الابتداء اي وسقفه وذهب طائفة من اهل الكلام الى ان العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة وربما سموه الفلك الاطلس والفلك التاسع وهذا ليس بصحيح لانه قد ثبت في الشرع ان له قوائم تحمله الملائكة كما قال ﷺ « فان الناس يصعقون فاكون اول من يفيق فاذا انا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا ادري افاق قبلي ام جوزي بصعقة الطور » والعرش في اللغة عبارة عن السرير الذي للملك كما قال تعالى عن بلقيس ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ وليس هو فلكا ولا تفهم منه العرب ذلك والقرآن انما نزل بلغة العرب فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات فمن شعر امية بن ابي الصلت :

مجدوا الله فهو للمجد اهل * ربنا في السماء امسى كبيرا
بالبناء العالي الذي بهر النا * س وسوى فوق السماء سريرا
شرجما لا يناله بصر العين * ترى حوله الملائك صورا

الصور هنا جمع اصور وهو المائل العنق لناظره الى العلو والشرج هو العالي المنيف والسرير هو العرش في اللغة . ومن شعر عبدالله بن رواحة رضي الله عنه الذي عرض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجارته :

شهدت بان وعد الله حق * وان النار مثوى الكافرينا
وان العرش فوق الماء طاف * وفوق العرش رب العالمينا

وتحملة ملائكة شداد * ملائكة الآله مسومينا
ذكره ابن عبد البر وغيره من الأئمة . وروى ابو داود عن النبي ﷺ انه
قال « اذن لي ان احدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش
ان ما بين اذنيه الى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » ورواه ابن ابي حاتم ولفظه
تحقق الطير سبعمائة عام واما من حرف كلام الله وجعل العرش عبارة عن
الملك كيف يصنع بقوله تعالى ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾
وقوله ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ يقول ويحمل ملكه يومئذ ثمانية وكان ملكه
على الماء ويكون موسى عليه السلام آخذا بقائمة من قوائم الملك هل يقول
هذا عاقل يدري ما يقول ؟ واما الكرسي فقال تعالى ﴿ وسع كرسيه السموات
والارض ﴾ وقد قيل هو العرش والصحيح انه غيره نقل ذلك عن ابن عباس رضي الله
عنهما وغيره . روى ابن ابي شيبة في كتاب صفة العرش والحالكم في مستدرکه
وقال انه على شرط الشيخين ولم يخرجاه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى
﴿ وسع كرسيه السموات والارض ﴾ انه قال « الكرسي موضع القدمين والعرش
لا يقدر قدره الا الله تعالى » وقد روى مرفوعا والصواب انه موقوف على
ابن عباس . وقال السدي « السموات والارض في جوف الكرسي بين يدي
العرش » وقال ابن جرير قال ابو ذر سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما الكرسي
في العرش الا كحلقة من حديد التقيت بين ظهري فلاة من الارض » وقيل
كرسيه علمه وينسب الى ابن عباس والمحفوظ عنه مارواه ابن ابي شيبة كما تقدم
ومن قال غير ذلك فليس له دليل الا مجرد الظن والظاهر انه من جراب الكلام
المذموم كما قيل في العرش وانما هو كما قال غير واحد من السلف بين يدي العرش

كالمرقاة اليه . قوله ﴿ وهو مستغن عن العرش ومادونه منه محيط بكل شيء ﴾
وفوقه وقد اعجز عن الاحاطة خلقه ﴿ اما قوله وهو مستغن عن العرش ومادونه
فقال تعالى ﴿ ان الله غني عن العالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ وهو الغني الحميد ﴾ وانما
قال الشيخ رحمه الله هذا الكلام هنا لانه لما ذكر العرش والكرسي ذكر بمد
ذلك غناه سبحانه عن العرش ومادون العرش ليبين ان خلقه للعرش لاستوائه
عليه ليس لحاجته اليه بل له في ذلك حكمة اقتضته وكون العالي فوقا للسافل
لا يلزم ان يكون السافل حاويا للعالي ، محيطا به حائلاله ، لان يكون الاعلى
مفتقرا اليه فانظر الى السماء كيف هي فوق الارض وليست مفتقرة اليها فالرب
تعالى اعظم شأنًا وأجل من ان يلزم من علوه ذلك بل لوازم علوه من خصائصه
وهي جملة بقدرته للسافل وفقر السافل وغناه هو سبحانه عن السافل واحاطته
عز وجل به فهو فوق العرش مع جملة بقدرته للعرش وجملته وغناه عن العرش
وفقر العرش اليه واحاطته بالعرش وعدم احاطة العرش به وحصره للعرش وعدم
حصر العرش له وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق وتقاء العلو اهل التعتيل
لوفصلوا بهذا التفصيل لهدوا الى سواء السبيل وعلما مطابقة العقل للتنزيل
واسلكوا خلف الدليل ولكن فارقوا الدليل فضلوا عن سواء السبيل والامر
في ذلك كما قال الامام مالك رحمه الله لما سئل عن قوله تعالى ﴿ ثم استوى على
العرش ﴾ كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول . وروى
هذا الجواب عن ام سلمة رضي الله عنها موقوفا ومر فوعالى النبي ﷺ (واما
قوله محيط بكل شيء ، وفوقه وفي بعض النسخ محيط بكل شيء ، وفوقه من
قوله فوقه والنسخة بنسخة الاولى هي الصحيحة ومعناها انه تعالى محيط بكل

شيء وفوق كل شيء . ومعنى الثانية انه محيط بكل شيء فوق العرش وهذا والله اعلم إما ان يكون أسقطها بعض النساخ سهواً ثم استنسخ بعض الناس من تلك النسخة او ان بعض المحرفين الضالين اسقطها قصداً للفساد وانكاراً لصفة الفوقية) والا فقد قام الدليل على ان العرش فوق المخلوقات وليس فوقه شيء من المخلوقات فلا يبقى لقوله محيط - الا انه بكل شيء محيط - بكل شيء فوق العرش والحالة هذه معنى اذ ليس فوق العرش من المخلوقات ما يحاط به فتعين ثبوت الواو ويكون المعنى انه سبحانه محيط بكل شيء وفوق كل شيء اما كونه محيط بكل شيء فقال تعالى ﴿والله من وراءهم محيط - ألا انه بكل شيء محيط - والله ما في السموات وما في الارض وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ وليس المراد من احاطته بخلقه انه كالنفاك وان المخلوقات داخل ذاته المقدسة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وانما المراد احاطة عظمته وسعة علمه وقدرته وانها بالنسبة الى عظمته كخردلة كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال : ما السموات السبع والارضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن الا كخردلة في يد احدكم . ومن المعلوم والله المثل الاعلى ان الواحد منا اذا كان عنده خردلة ان شاء قبضها واحاط قبضته بها وان شاء جعلها تحتها وهو في الخالين مباين لها عال عليها فوقها من جميع الوجوه فكيف بالعظيم الذي لا يحيط بعظمته وصف واصف فلو شاء لقبض السموات والارض اليوم وفعل بها كما يفعل بها يوم القيمة فانه لا يتجدد به اذ ذلك قدرة ليس عليها الا ان فكيف يستبعد العقل مع ذلك انه يدنو سبحانه من بعض اجزاء العالم وهو على عرشه فوق سمانه او يدني اليه من يشاء من خلقه فمن نفى ذلك لم يقدره حق قدره . وفي حديث ابي رزين المشهور

الذي رواه عن النبي ﷺ في رؤية الرب تعالى فقال له ابو رزين كيف يسعنا
يا رسول الله وهو واحد ونحن جميع فقال سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله
هذا القمر آية من آيات الله كلكم يراه مخليا به والله اكبر من ذلك واذا
اقل تبين انه اعظم واكبر من كل شيء فهذا يزيل كل اشكال ويبطل كل
خيال . واما كونه فوق المخلوقات فقال تعالى وهو القاهر فوق عباده . يخافون
ربهم من فوقهم . وقال ﷺ في حديث الأوعال المتقدم ذكره « والعرش
فوق ذلك والله فوق ذلك كله » وقد انشد عبدالله بن رواحة شعره المذكور
بين يدي النبي ﷺ واقراءه على ما قال وضمك منه وكذا انشده حسان بن ثابت
رضي الله تعالى عنه قوله :

شهدت باذن الله ان محمدا * رسول الذي فوق السموات من عل
وان ابا يحيى ويحيى كلاهما * له عمل من ربه متقبل
وان الذي عادى اليهود ابن مريم * رسول اتى من عند ذي العرش مرسل
وان اخا الأحقاف اذ قام فيهم * يجاهد في ذات الآله ويمدل
فقال النبي ﷺ « وانا اشهد » وعن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي
ﷺ انه قال « لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش ان
رحمتي سبقت غضبي » وفي رواية تغلب غضبي رواه البخاري وغيره . وروى
ابن ماجه عن جابر يرفعه قال « بينما اهل الجنة في نعيمهم اذ سطع لهم نور
فرغموا اليه رءوسهم فاذا الجبار جل جلاله قد اشرف عليهم من فوقهم وقال
يا اهل الجنة سلام عليكم ثم قرأ قوله تعالى * سلام قولا من رب رحيم *
فينظر اليهم وينظرون اليه فلا يلتفتون الى شيء من النعيم ماداموا ينظرون »

وروي مسلم عن النبي ﷺ في تفسير قوله تعالى ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ ويقول انت الأول فليس قبلك شيء وانت الآخر فليس بعدك شيء وانت الظاهر فليس فوقك شيء وانت الباطن فليس دونك شيء والمراد بالظهور هنا العلو . ومنه قوله تعالى ﴿ فما استطاعوا ان يظهروه ﴾ اي يعلوه فهذه الاسماء الأربعة متقابلة (اسمان) منها لأزلية الرب سبحانه وتعالى وابديته (واسمان) لعلوه وقربه . وروي ابو داود عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن ابيه عن جده قال اتى رسول الله ﷺ اعرابي فقال يا رسول الله جهدت الانفس ونهكت الاموال او هلك فلستسقى لنا فانا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك فقال رسول الله ﷺ « ويحك اتدري ما الله ؟ وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه اصحابه ثم قال ويحك انه لا يستشفع بالله دلي احد من خلقه شأن الله اعظم من ذلك ويحك اتدري ما الله ان الله فوق عرشه وعرشه فوق سمواته وقال بأصابعه مثل القبة وانه ليئطبه اطيظ الرحل الجديد بالراكب » وفي قصة سعد بن معاذ يوم بنى قريظة لما حكم فيهم ان تقتل مقاتلتهم وتسبي ذراريهم . فقال النبي ﷺ « لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات » وهو حديث صحيح اخرجه الأموي في مغازيه واصله في الصحيحين . وروي البخاري عن زينب رضي الله عنها انها كانت تفخر على ازواج النبي ﷺ وتقول زوجكن اها ليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات . وعن عمر رضي الله عنه انه مر بمجوز فاستوقفته فوقف معها بحديثها فقال رجل يا أمير المؤمنين حبست الناس بسبب هذه المجوز فقال وبلك اتدري من هذه ؟ امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع

سماوات هذه خولة التي انزل الله فيها ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها
وتشتكى الى الله ﴾ اخرجہ الداري . وروي عكرمة عن ابن عباس في قوله
﴿ ثم لا تينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ﴾ قال ولم
يستطع ان يقول من فوقهم لانه قد علم ان الله سبحانه من فوقهم ومن سمع
احاديث الرسول ﷺ وكلام السلف وجد منه في اثبات الفوقية ما لا ينحصر
ولا ريب ان الله سبحانه لما خلق الخلق لم يخلقهم في ذاته المقدسة تعالى الله عن
ذلك فانه الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد فتعين انه خلقهم خارجا عن ذاته
ولو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات مع انه قائم بنفسه غير مخالط للعالم لكان
متصفاً بضد ذلك لان القابل للشيء لا يخلو منه او من ضده وضد الفوقية
السفول وهو مذموم على الاطلاق لانه مستقر ابليس واتباعه وجنوده (فان
قيل) لانسلم انه قابل للفوقية حتى يلزم من ثبوتها ثبوت ضدها (قيل) لو لم
يكن قابلاً للعالم والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها فتى اقرتم بانه ذات قائم
بنفسه غير مخالط للعالم وانه موجود في الخارج ليس وجوده ذهنياً فقط بل وجوده
خارج الاذهان قطعاً وقد علم العقلاء كلهم بالضرورة ان ما كان وجوده كذلك
فهو اما داخل العالم واما خارج عنه وانكار ذلك انكار ما هو اجل واظهر من
الامور البديهيات الضرورية بل ارب فلا يستدل على ذلك بدليل الا كان العلم
بالبينة اظهر منه ووضح واين واذا كان صفة العلو والفوقية صفة كمال لا تقص
فيه ولا يستلزم تقصاً ولا يوجب محذوراً ولا يخالف كتاباً ولا سنة ولا اجماعاً
ففي حقيقته يكون عين الباطل والمحال الذي لا تأتي به شريعة اصلاً فكيف اذا
كان لا يمكن الاقرار بوجوده وتصديق رسوله والابمان بكتابه وبما جاء به رسوله

إلا بذلك فكيف اذا انضم الى ذلك شهادة العقول السليمة والفطر المستقيمة
والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه وكونه فوق عباده
التي تقرب من عشرين نوعا: (احدها) التصريح بالفوقية مقرونا باداة من
المعينة للفوقية بالذات كقوله تعالى ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ . (الثاني)
ذكرها مجردة عن الاداة كقوله تعالى ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ (الثالث)
التصريح بالعروج نحو ﴿ تعرج الملائكة والروح اليه ﴾ وقوله ﷺ « يعرج
الذين يأتون فيكم فيسألهم » (الرابع) التصريح بالصمود اليه كقوله تعالى ﴿ اليه
يصعد الكلم الطيب ﴾ . (الخامس) التصريح برفعه بعض المخلوقات اليه كقوله
تعالى ﴿ بل رفعه الله اليه ﴾ وقوله ﴿ اني متوفيك ورافعك الي ﴾ (السادس)
التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو ذاتا وقدرًا وشرفًا كقوله
تعالى ﴿ وهو العلي العظيم - وهو العلي الكبير - انه علي كبير ﴾ (السابع)
التصريح بتنزيل الكتاب منه كقوله تعالى ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم -
تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم - تنزيل من الرحمن الرحيم - تنزيل من
حكيم حميد - قل نزله روح القدس من ربك بالحق - حم والكتاب المبين انا
انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل امر حكيم امر من عندنا
انا كنا مرسلين ﴾ (الثامن) التصريح باختصاص بعض المخلوقات بانها عنده وان
بعضها اقرب اليه من بعض كقوله ﴿ ان الذين عند ربك - وله من في السموات
والارض ومن عنده ﴾ ففرق بين من له عمومًا وبين من عنده من ملائكته وعبيده
خصوصًا وقول النبي ﷺ في الكتاب الذي كتبه الرب تعالى على نفسه انه عنده
فوق العرش (التاسع) التصريح بانه تعالى في السماء وهذا عند المفسرين من اهل

السنة على احد وجهين : اما ان يكون في بمعنى على واما ان يراد بالسماء العلو
لايختلفون في ذلك ولايجوز الحمل على غيره . (العاشر) التصريح بالاستواء
مقرونا باداة على مختص بالعرش الذي هو اعلى المخلوقات مصاحبا في الاكثر
لاداة ثم الدالة على الترتيب والمهلة . (الحادي عشر) التصريح برفع الأيدي
الى الله تعالى كقوله ﷺ « ان الله يستحي من عبده اذا رفع اليه يديه ان يردهما
صفرا » والقول بان العلو قبلة الدعاء فقط باطل بالضرورة والفترة وهذا يجده
من نفسه كل داع كما يأتي ان شاء الله تعالى . (الثاني عشر) التصريح بنزوله
كل ليلة الى سماء الدنيا والنزول المعقول عند جميع الامم انما يكون من علو الى
سفل . (الثالث عشر) الاشارة اليه حسا الى العلو كما اشار اليه من هو اعلم بربه
وبما يجب له ويمتنع عليه من جميع البشر لما كان بالجمع الاعظم الذي لم يجتمع لاحد
مثله في اليوم الاعظم في المكان الاعظم قال لهم « انتم مسئولون عني فاذا انتم
قائلون » قالوا نشهد انك قد بلغت واديت ونصحت فرفع اصبعه الكريمة الى
السماء رافعا لها الى من هو فوقها وفوق كل شيء قائلا « اللهم اشهد » فكانا
نشاهد تلك الاصبع الكريمة وهي مرفوعة الى الله وذلك اللسان الكريم
وهو يقول لمن رفع اصبعه اليه « اللهم اشهد » ونشهد انه بلغ البلاغ المبين
وادى رسالة ربه كما امر ونصح امته غاية النصيحة فلا يحتاج مع بيانه وتبليغه
وكشفه وايضاحه الى تنطع المنتظمين وحذقة المتحذلقين والحمد لله رب
العالمين (الرابع عشر) التصريح بلفظ الابن كقول اعلم اخلق به وانصحه
لامته وافصحهم بيانا عن المعنى الصحيح بلفظ لا يوم باطلا بوجه « ابن الله » في
غير موضع (الخامس عشر) شهادته ﷺ لمن قال ان ربه في السماء بالايمان

(السادس عشر) اخباره تعالى عن فرعون انه رام الصعود الى السماء ليطلع الى
اله موسى فيكذبه فيما خبره من انه سبحانه فوق السموات فقال ياها مان ابني
صرحا لعلي ابلغ الاسباب اسباب السموات فاطلع الى اله موسى واني لاظنه
كاذبا فمن نبي العلو من الجهمية فهو فرعوني ومن اثبته فهو موسوي محمدي (السابع
عشر) اخباره عليه السلام انه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب
تخفيف الصلاة فيصعد الى ربه ثم يعود الى موسى عدة مرار (الثامن عشر)
النصوص الدالة على رؤية اهل الجنة له تعالى من الكتاب والسنة واخبار النبي
عليه السلام انهم يرونه كرؤية الشمس والقمر ليلة البدر ليس دونه سحب فلا يرونه
الامن فوقهم كما قال عليه السلام « بيننا اهل الجنة في نعيمهم اذ سطع لهم نور فرفعوا
رؤسهم فاذا الجبار جل جلاله قد اشرف عليهم من فوقهم وقال يا اهل الجنة
سلام عليكم ثم قرأ قوله تعالى ﴿سلام قولا من رب رحيم﴾ ثم يتوارى عنهم وتبقى
رحمته وبركته عليهم في ديارهم » رواه الامام احمد في المسند وغيره من حديث
جابر رضي الله عنه ولا يتم انكار الفوقية الا بانكار الرؤية. ولهذا طرد الجهمية
اليقين وصدق اهل السنة بالامر من معا وارقوا بها وصار من اثبت الرؤية ونفى
العلو مذبذبا بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء وهذه الانواع من الأدلة
لو بسطت افرادها لبلغت نحو الف دليل فعلي المتأول ان يجيب عن ذلك كله
وهيات له بجواب صحيح عن بعض ذلك وكلام السالف في اثبات صفة العلو
كثير جدا فنه ماروى شيخ الاسلام ابو اسمعيل الانصاري في كتابه الفاروق
بسنده الى مطيع البخاري انه سأل ابا حنيفة عن قال لا اعرف ربي في السماء
ام في الارض فقال قد كفر لان الله يقول ﴿الرحمن على العرش استوى﴾

وعرشه فوق سبع سمواته قلت فان قال انه على العرش ولكن يقول لا ادري العرش
في السماء ام في الارض قال هو كافر لانه انكر انه في السماء فن انكر انه في السماء فقد
كفر وزاد غيره لان الله في اعلى عليين وهو يدعى من اعلى لا من اسفل انتهى ولا
يلتفت الى من انكر ذلك ممن ينسبه الى مذهب ابي حنيفة فقد انتسب اليه
طوائف معتزلة وغيرهم مخالفون له في كثير من اعتقاداته وقد ينتسب الى
مالك والشافعي واحمد من يخالفهم في بعض اعتقاداتهم وقصة ابي يوسف في
استتابة بشر المريسي لما انكر ان يكون الله عز وجل فوق العرش مشهورة
رواه عبدالرحمن بن ابي حاتم وغيره ومن تأول فوق بانه خير من عباده وافضل
منهم وانه خير من العرش وافضل منه كما يقال الامير فوق الوزير والدينار
فوق الدرهم فذلك مما تنفر عنه العقول السليمة وتشمئز منه القلوب الصحيحة
فان قول القائل ابتداء الله خير من عباده وخير من عرشه من جنس قوله الثلج
بارد والنار حارة والشمس اضواً من السراج والسماء اعلى من سقف الدار
والجبل اقل من الحصا ورسول الله افضل من اليهود والسماء فوق الارض
وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح بل هو من ارذل الكلام واسمجه
واهجه فكيف يليق بكلام الله الذي لو اجتمع الانس والجن على ان يأتوا
بمثله لما اتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا بل في ذلك تنقص . كما قيل
في المثل السائر :

الم تر ان السيف ينقص قدره * اذا قيل ان السيف امضى من العصي
ولو قال قائل الجوهر فوق قشر البصل وقشر السمك لضحك منه العقلاء
للتفاوت الذي بينهما فان التفاوت الذي بين الخالق والمخلوق اعظم واعظم بخلاف

ما اذا كان يقتضى ذلك بان كان احتجاجا على مبطل كما في قول يوسف
الصديق عليه السلام ﴿أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾ وقوله
تعالى ﴿الله خير اما يشركون - والله خير وأبقى﴾ وانما يثبت هذا المعنى
من الفوقية في ضمن ثبوت الفوقية المطلقة من كل وجه فله سبحانه وتعالى
فوقية القهر وفوقية القدر وفوقية الذات ومن اثبت البعض ونفى البعض
فقد تنقص وعلوه تعالى مطلق من كل الوجوه فان قالوا بل علو المكانة
لا المكان فالمكانة تانيث المكان والمنزلة تانيث المنزل فلفظ المكانة والمنزلة
تستعمل في المكانات النفسانية والروحانية كما يستعمل لفظ المكان والمنزل
في الامكنة الجسمانية فاذا قيل لك في قلوبنا منزلة ومنزلة فلان في قلوبنا وفي
نفوسنا اعظم من منزلة فلان كما جاء في الأثر « اذا احب احدكم ان يعرف
كيف منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله في قلبه فان الله ينزل العبد من
نفسه حيث انزله العبد من قلبه » فقوله منزلة الله في قلبه هو ما يكون في قلبه
من معرفة الله ومحبته وتعظيمه وغير ذلك فاذا عرف ان المكانة والمنزلة تانيث المكان
والمنزل والمؤنث فرع على المذكر في اللفظ والمعنى وتابع له فعلو المثل الذي يكون
في الذهن يتبع علو الحقيقة اذا كان مطابقا كان حقا والا كان باطلا . فان قيل المراد
علوه في القلوب وانه اعلى في القلوب من كل شيء . قيل وكذلك هو وهذا
العلو مطابق لعلوه في نفسه على كل شيء فان لم يكن عاليا بنفسه على كل شيء
كان علوه في القلوب غير مطابق كمن جعل ما ليس باعلى اعلى وعلوه سبحانه
وتعالى كما هو ثابت بالسمع ثابت بالعقل والفطرة اما ثبوته بالعقل فمن وجوه
(احدها) العلم البديهي القاطع بان كل موجودين . اما ان يكون احدهما ساريا

في الآخر قائما به كالصفات . واما ان يكون قائما بنفسه باثنا من الآخر .
(الثاني) انه لما خلق العالم . فاما ان يكون خلقه في ذاته او خارجا عن ذاته . والاول
باطل . اما اولا فبالاتفاق . واما ثانيا فلأنه يلزم ان يكون محلا للخسائس
والقاذورات . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . والثاني يقتضى كون العالم
واقعا خارج ذاته فيكون منفصلا فتعينت المباينة لأن القول بانه غير متصل
بالعالم وغير منفصل عنه غير معقول (الثالث) ان كونه تعالى لا داخل العالم
ولا خارجه يقتضى نفي وجوده بالكلية لانه غير معقول فيكون موجودا
اما داخله واما خارجه . والأول باطل فتمين الثاني فلزمت المباينة واما ثبوته
بالفطرة فان الخلق جميعا بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون ايديهم عند الدعاء
ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع الى الله تعالى . وذكر محمد بن طاهر
المقدسي ان الشيخ ابا جعفر الهمداني حضر مجلس الاستاذ ابي المعالي الجويني
المعروف بأمام الحرمين وهو يتكلم في نفي صفة العلو ويقول كان الله ولا عرش
وهو الآن على ما كان فقال الشيخ ابو جعفر اخبرنا يا استاذ عن هذه الضرورة
التي نجدها في قلوبنا فانه ما قال عارف قط يا الله الا وجد في قلبه ضرورة يطلب
العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة فكيف ندفع بهذه الضرورة عن انفسنا قال فلطم
ابو المعالي على رأسه ونزل وأظنه قال وبكى وقال حيرني الهمداني حيرني
اراد الشيخ ان هذا امر فطر الله عليه عباده من غير ان يتقوه من المرسلين
يجدون في قلوبهم طلبا ضروريا يتوجه الى الله ويطلبه في العلو وقد اعترض
على الدليل العقلي بانكار بداهته لانه انكره جمهور العقلاء فلو كان بديهيا
لما كان مختلفا فيه بين العقلاء بل هو قضية وهمية خيالية . والجواب عن هذا

الاعتراض مبسوط في موضعه ولكن اشير اليه هنا اشارة مختصرة وهو
ان يقال : ان العقل ان قبل قولكم فهو لقولنا اقبل وان رد العقل قولنا
فهو لقولكم اعظم رداً فان كان قولنا باطلا في العقل فقولكم ابطل وان كان
قولكم حقا مقبولا في العقل فقولنا اولى ان يكون مقبولا في العقل فان
دعوى الضرورة مشتركة فانا نقول نعم بالضرورة بطلان قولكم وانتم تقولون
كذلك فاذا قلتم تلك الضرورة التي تحكم ببطلان قولنا هي من حكم الوهم لا من
حكم العقل قابلناكم بنظير قولكم وعامة فطر الناس ليسوا منكم ولا منا موافقون
لنا على هذا فان كان حكم فطر بني آدم مقبولا ترجحنا عليكم وان كان مردودا
غير مقبول بطل قولكم بالكلية فانكم انما بنيتم قولكم على ما تدعون انه مقدمات
معلومة بالفطرة الادمية وبطلت عقلياتنا ايضا وكان السمع الذي جاءت به
الانبياء معنا لامعكم فنحن مختصون بالسمع دونكم والعقل مشترك بيننا وبينكم
فان قلتم : اكثر العقلاء يقولون بقولنا قيل : ليس الامر كذلك فان الذين يصرحون
بان صانع العالم ليس هو فوق العالم شيء موجود وانه لا ميا بين للعالم ولا حال
في العالم طائفة من النظار واول من عرف عنه ذلك في الاسلام جهم بن صفوان
واتباعه واعترض على الدليل الفطري ان ذلك انما كان لكون السماء قبلة للدعاء
كما ان الكعبة قبلة للصلاة ثم هو منقوض بوضع الجبهة على الارض مع انه
ليس في جهة الارض . واجيب عن هذا الاعتراض من وجوه : (احدها) ان
قولكم ان السماء قبلة الدعاء لم يقله احد من سلف الامة ولا انزل الله به من سلطان
وهذا من الامور الشرعية الدينية فلا يجوز ان يخفى على جميع سلف الامة وعلمائها
(الثاني) ان قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة فانه يستحب للداعي ان يستقبل القبلة

وكان النبي ﷺ يستقبل القبلة في دعائه في مواطن كثيرة فمن قال ان الدعاء
قبلة غير قبلة الصلاة او ان له قبلتين احدهما الكعبة والاخرى السماء فقد
ابتدع في الدين وخالف جماعة المسلمين (الثالث) ان القبلة هي ما يستقبله العابد
بوجهه كما تستقبل الكعبة في الصلاة والدعاء والذكر والذبح وكما يوجه المحتضر
والمدفون ولذلك سميت وجهة والاستقبال خلاف الاستدبار فلا استقبال بالوجه
والاستدبار بالدبر فاما ما احاذاه الانسان برأسه او يديه او جنبه فهذا لا يسمى
قبلة لاحقيقة ولا مجازا فلو كانت السماء قبلة الدعاء لكان المشروع ان يوجه
الداعي وجهه اليها وهذا لم يشرع والموضع الذي ترفع اليد اليه لا يسمى قبلة
لاحقيقة ولا مجازا ولأن القبلة في الدعاء امر شرعي تتبع فيه الشرائع ولم تأمر
الرسول ان الداعي يستقبل السماء بوجهه بل نهوا عن ذلك. ومعلوم ان التوحيد
بالقلب والالغاء والطاب الذي يجده الداعي من نفسه امر فطري يفعله المسلم
والكافر والعالم والجاهل واكثر ما يفعله المضطر والمستغيث بالله كما فطر على
انه اذا مسه الضر يدعو الله مع ان امر القبلة مما يقبل النسخ والتحويل كما
تحولت القبلة من الصخرة الى الكعبة. وامر التوحيد في الدعاء الى الجهة
المعلوية مركزوز في الفطر والمستقبل للكعبة يعلم ان الله تعالى ليس هناك بخلاف
الداعي فانه يتوجه الى ربه وخالقه ويرجو الرحمة ان تنزل من عنده واما
النقض بوضع الجهة فافسده من نقض فان واضع الجهة انما قصده الخضوع
لمن فوقه بالذلل له لا بأن يميل اليه اذ هو تحته هذا لا يخطر في قلب ساجد
لكن يحكى عن بشر المريسي انه سمع وهو يقول: في سجوده سبحان ربي
الاسفل تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا وان كان من افضى

به النفي الى هذه الحال حري ان يتزندق ان لم يتداركه الله برحمته وبعيد من
مثله الصلاح قال تعالى ﴿ وتقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة ﴾
وقال تعالى ﴿ فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم ﴾ فن لم يطلب الاهتداء من مظانه
يعاقب بالحرمان نسأل الله العفو والعافية وقوله وقد اعجز عن الاحاطة خلقه اي لا
يحيطون به علما ولا رؤية ولا غير ذلك من وجوه الاحاطة بل هو سبحانه محيط بكل
شيء ولا يحيط به شيء قوله ﴿ ونقول ان الله اتخذ ابراهيم خليلا وكلم الله موسى
تكليما ايمانا وتصديقا وتسليما ﴾ قال الله تعالى ﴿ واتخذ الله ابراهيم خليلا ﴾ وقال
تعالى ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ الخلة كمال المحبة وانكرت الجهمية حقيقة
المحبة من الجانبين زعمانهم ان المحبة لا تكون الا لمناسبة بين المحب والمحبوب وانه
لا مناسبة بين القديم والحديث توجب المحبة . وكذلك انكروا حقيقة التكليم
كما تقدم وكان اول من ابتدع هذا في الاسلام هو الجعد بن درهم في اوائل المائة الثانية
فضحى به خالد بن عبد الله القسري امير العراق والمشرق بواسط . خطب الناس
يوم الاضحى فقال : ايها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فاني مضح بالجد بن
درهم انه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما ثم نزل فذبحه .
وكان ذلك بفتوى اهل زمانه من علماء التابعين رضي الله عنهم فجزاه الله عن
الدين واهله خيرا . واخذ هذا المذهب عن الجعد الجهم بن صفوان فظهره
وناظر عليه واليه اضيف قول الجهمية فقتله مسلم بن احوز امير خراسان بها
ثم انتقل ذلك الى المعتزلة اتباع عمرو بن عبيد وظهر قولهم في اثناء خلافة
المأمون حتى امتحن ائمة الاسلام ودعوهم الى الموافقة لهم على ذلك واصل

هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة وهم ينكرون ان يكون ابراهيم خليلا
وموسى كليما لأن الخلة هي كمال المحبة المستغرقة للحب كما قيل :

قد تخلت مسلك الروح مني * ولذا سمي الخليل خليلا

ولكن محبته وخلته كما يليق به تعالى كسائر صفاته . ويشهد لما دلت عليه

الآية الكريمة ما ثبت في الصحيح عن ابي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال
« لو كنت متخذاً من اهل الارض خليلاً لاتخذت ابا بكر خليلاً ولكن

صاحبكم خليل الله » يعني نفسه وفي رواية « اني ابرأ الى كل خليل من خلته
ولو كنت متخذاً من اهل الارض خليلاً لاتخذت ابا بكر خليلاً » وفي رواية

« ان الله اتخذني خليلاً كما اتخذ ابراهيم خليلاً » فيين ﷺ انه لا يصلح له ان
يتخذ من المخلوقين خليلاً وانه لو امكن ذلك لكان احق الناس به ابو بكر

الصديق . مع انه ﷺ قد وصف نفسه بأنه يجب اشخاصا كقوله لماعذ والله
اني لأحبك وكذلك قوله للانصار . وكان زيد بن حارثة حب رسول الله ﷺ

وابنه اسامة حبه وامثال ذلك وقال له عمرو بن العاص اي الناس احب اليك
قال عائشة قال فمن الرجال قال ابوها فعلم ان الخلة اخص من مطلق المحبة

والمحبوب بها لكاملها يكن محبوباً لذاته لا لشيء آخر اذ المحبوب لغيره هو
مؤخر في الحب عن ذلك الغير ومن كمالها لا تقبل الشركة المزاحمة لتخلها

المحبة ففيها كمال التوحيد وكمال الحب . ولذلك لما اتخذ الله ابراهيم خليلاً
وكان ابراهيم قد سأل ربه ان يهب له ولدا صالحا فوهب له اسمعيل فاخذ هذا

الولد شعبة من قلبه فغار الخليل على قلب خليله ان يكون فيه مكان لغيره
فامتحنه بذبحه ليظهر سراخلة في تقديمه محبة خليله على محبة ولده فلما استسلم

لامر ربه وعزم على فعله وظهر سلطان اخلة في الاقدام على ذبح الولد ايثاراً
لحبة خليله على محبته نسخ الله ذلك عنه وفداه بالذبح العظيم لان المصلحة في الذبح
كانت ناشئة من العزم وتوطين النفس على ما أمر فلما حصلت هذه المصاحبة
عاد الذبح مفسدة فنسخ في حقه وصارت الذبائح والقرايين من الهدايا والضحايا
سنة في اتباعه الى يوم القيامة وكما ان منزلة اخلة الثابتة لابراهيم صلوات الله
عليه قد شاركه فيها نبينا ﷺ كما تقدم كذلك منزلة التكليم الثابتة لموسى
صلوات الله عليه قد شاركه فيها نبينا ﷺ كما ثبت ذلك في حديث الاسراء .
وهنا سؤال مشهور وهو ان النبي ﷺ افضل من ابراهيم ﷺ فكيف طلب
له من الصلاة مثل ما لابراهيم مع ان المشبه به أصله ان يكون فوق المشبه
وكيف الجمع بين هذين الامرين المتنافيين . وقد اجاب عنه العلماء بأجوبة
عديدة يضيق هذا المكان عن بسطها واحسنها ان آل ابراهيم فيهم الانبياء
الذين ليس في آل محمد مثلهم فاذا طلب للنبي ﷺ ولا له من الصلاة مثل ما
لابراهيم وآله وفيهم الانبياء حصل لآل محمد ما يليق بهم لا يبلغون مراتب
الانبياء وتبقى الزيادة التي للانبياء وفيهم ابراهيم لمحمد ﷺ فيحصل له من المزية ما لم
يحصل لغيره واحسن من هذا ان النبي ﷺ من آل ابراهيم بل هو افضل
آل ابراهيم فيكون قولنا كما صليت على آل ابراهيم متناو لا الصلاة عليه وعلى
سائر النبيين من ذرية ابراهيم . ولما كان بيت ابراهيم عليه السلام اشرف بيوت
العالم على الاطلاق خصهم الله بخصائص (منها) انه جعل فيه النبوة والكتاب فلم
يأت بعد ابراهيم نبي الا من اهل بيته (ومنها) انه سبحانه جعلهم ائمة يهدون
بأمره الى يوم القيمة فكل من دخل الجنة من اولياء الله بهدم فأتى من

طر يقم ويدعوتهم (ومنها) انه سبحانه اتخذ منهم الخليلين كما تقدم ذكره .
(ومنها) انه جعل صاحب هذا البيت اماما للناس . قال تعالى ﴿ اني جاعلك للناس
اماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ (ومنها) انه اجرى على يديه
بناء بيته الذي جعله قياما للناس ومثابة للناس وامنا وجعله قبلة لهم وحجا فكان
ظهور هذا البيت في الاكرمين . ومنها انه امر عباده ان يصلوا على اهل البيت
الى غير ذلك من الخصائص . قوله ﴿ وتؤمن بالملائكة والنبیین والكتب
المنزلة على المرسلين ونشهد انهم كانوا على الحق المبين ﴾ ش . هذه الامور
من اركان الايمان قال تعالى ﴿ آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون
كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ الايات وقال تعالى ﴿ ليس البر ان
تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر
والملائكة والكتب والنبیین ﴾ الآية فجعل الله سبحانه وتعالى الايمان هو
الايمان بهذه الجملة وسمى من آمن بهذه الجملة مؤمنين كما جعل الكافرين من
كفر بهذه الجملة بقوله ﴿ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم
الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾ . وقال عليه السلام في الحديث المتفق على صحته ،
حديث جبرائيل وسؤاله للنبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال « ان تؤمن بالله وملائكته
وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » فهذه الاصول التي
اتفقت عليها الانبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه ولم يؤمن بها حقيقة
الايمان الاتباع الرسل . واما اعداؤهم ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة
واهل البدع فهم متفاوتون في جحدها وانكارها واعظم الناس لها انكارا
الفلاسفة المسمون عندهم يعظمهم بالحكماء فان من علم حقيقة قولهم علم انهم

لم يؤمنوا بالله ولا رسله ولا كتبه ولا ملائكته ولا باليوم الآخر فان مذهبهم
ان الله سبحانه وجود موجود لا ماهية له ولا حقيقة فلا يعلم الجزئيات باعيانها
وكل موجود في الخارج فهو جزئي ولا يفعل عندهم بقدرته ومشيئته وانما
العالم عندهم لازم له ازلا وابدا وان سموه مفعولا له فصانعة ومصالحة للمسلمين
في اللفظ وليس عندهم بمفعول ولا مخلوق ولا مقدور عليه وينفون عنه سماعه
وبصره وسائر صفاته فهذا ايمانهم بالله . واما كتبه عندهم فأنهم لا يصفونه
بالكلام فلا يكلم ولا يتكلم ولا قال ولا يقول والقرآن عندهم فيض فاض
من العقل الفعال على قلب بشر زاك النفس طاهر متميز عن النوع الانساني
بثلاث خصائص قوة الادراك وسرعته لينال العلم اعظم مما يناله غيره وقوة
النفس ليؤثر بها في هيمولى العلم يقرب صورة الى صورة وقوة التخيل ليخيل
بها القوى العقلية في اشكال محسوسة وهي الملائكة عندهم وليس في الخارج
ذات منفصلة تصعد وتنزل وتذهب وتجيء وترى وتخطب الرسول وانما
ذلك عندهم امور ذهنية لا وجود لها في الاعيان واما اليوم الآخر فهم اشد
الناس تكديبا وانكارا له في الاعيان وعندهم ان هذا العالم لا يخرب ولا تنشق
السموات ولا تنفطر ولا تنكدر النجوم ولا تكور الشمس والقمر ولا يقوم
الناس من قبورهم ويبعثون الى جنة ونار كل هذا عندهم امثال مضرورة لتفهم
العوام لا حقيقة لها في الخارج كما يفهم منها اتباع الرسل . فهذا ايمان هذه
الطائفة الذليلة الحقيرة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهذه
هي اصول الدين الخمسة وقد ابدلتها المعتزلة باصولهم الخمسة التي هدموا بها
كثيرا من الدين فاتهم بنوا اصل دينهم على الجسم والعرض الذي هو الموصوف

والصفة عندهم واحتجوا بالصفات التي هي الاعراض على حدوث الموصوف
الذي هو الجسم وتكلموا في التوحيد على هذا الاصل فنفوا عن الله كل
صفة تشبها بالصفات الموجودة في الموصوفات التي هي الاجسام ثم تكلموا بعد
ذلك في افعاله التي هي القدر وسموا ذلك العدل ثم تكلموا في النبوة والشرائع
والامر والنهي والوعد والوعيد وهي مسائل الاسماء والاحكام التي هي المنزلة
بين المنزلتين ومسئلة انفاذ الوعيد ثم تكلموا في الزام الغير بذلك الذي
هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وضمنوه جواز الخروج على الائمة
بالتقال فهذه اصول الخمسة التي وضعوها بازاء اصول الدين الخمسة التي بعث
بها الرسول. والرافضة المتأخرون جعلوا الاصول اربعة. التوحيد والعدل والنبوة
والامامة. واصول اهل السنة والجماعة تابعة لما جاء به الرسول. واصل الدين
الايمان بما جاء به الرسول كما تقدم بيان ذلك ولهذا كانت الايتان من آخر
سورة البقرة لما تضمنتا هذا الاصل لهما شأن عظيم ليس لغيرهما ففي الصحيحين
عن ابي مسعود عقبة بن عمرو عن النبي ﷺ قال « من قرأ الايتين من آخر
سورة البقرة في ليلة كفتاه » وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال
« بينا جبرائيل قاعدا عند النبي ﷺ سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال
هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط الا اليوم فنزل منه ملك فقال هذا
ملك نزل الى الارض لم ينزل قط الا اليوم فسلم وقال « ابشر بنورين اوتيتهما
لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منها
الا اوتيته » وقال ابوطالب المكي اركان الايمان سبعة يعني هذه الخمسة والايمان
بالقدر والايمان بالجنة والنار وهذا حق والادلة عليه ثابتة محكمة قطعية وقد

تقدم الاشارة الى دليل التوحيد والرسالة . واما الملائكة فهم المرء كلون بالسموات
والارض فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة كما قال تعالى ﴿ فالمدبرات
امرا . فالق سمات امرا ﴾ وهم الملائكة عند اهل الايمان واتباع الرسل واما المكذبون
بالرسل المنكرون للصانع فيقولون هي النجوم . وقد دل الكتاب والسنة على اصناف
الملائكة وانها موكلة باصناف المخلوقات وانه سبحانه وكل بالجبال ملائكة ووكل
بالسحاب والمطر ملائكة ووكل بالرحم ملائكة تدبر امر النطفة حتى يتم خلقها
ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمله واحصائه وكتابتته ووكل بالموت ملائكة
ووكل بالسؤال في القبر ملائكة ووكل بالافلاك ملائكة يحركونها ووكل بالشمس
والقمر ملائكة ووكل بالنار وايقادها وتعذيب اهلها وعمارتها ملائكة ووكل
بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلائها ملائكة فاللائكة اعظم جنود الله ومنهم :
المرسلات عرفا والناشرات نشرها والفارقات فرقا والمليقات ذكرا ومنهم :
النازعات غرقا والناشطات نشطا والساجحات سبحا فالساقات سبعا ومنهم :
الصفات صفا فالزاجرات زجرا فالناليات ذكرا . ومعنى جمع التائيب في ذلك
كله الفرق والطوائف والجماعات التي مفردها فرقة وطائفة وجماعة ومنهم
ملائكة الرحمة وملائكة العذاب وملائكة قد وكلوا بحمل العرش وملائكة
قد وكلوا بعمارة السموات بالصلاة والتسبيح والتقديس الى غير ذلك من
اصناف الملائكة التي لا يحصيها الا الله ولفظ الملك يشعر بانه رسول منفذ
لامر مرسله فليس لهم من الامر شيء بل الامر كله لله الواحد القهار
وهم ينفذون امره ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بامرهم يعملون - يعلم ما بين ايديهم
وما خلفهم - ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون - يخافون

ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴿ فهم عباد مكرمون ، منهم الصافون
ومنهم المسبحون ليس منهم الاله مقام معلوم ولا يتخطاه وهو على عمل قد
امر به لا يقصر عنه ولا يتعداه واعلام الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته
ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ومنهم : الاملاك الثلاثة
جبرائيل وميكائيل واسرافيل الموكلون بالحياة فجبرائيل موكل بالوحي الذي
به حياة القلوب والارواح وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الارض والنبات
والحيوان واسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم
فهم رسل الله في خلقه وامره وسفراؤه بينه وبين عبادته ينزلون بالامر من
عنده في اقطار العالم ويصعدون اليه بالامر قد اظت السموات بهم وحق لها
ان تثط ما فيها موضع اربع اصابع الاوملك قائم اوراكن اوساجد الله ويدخل
اليبت المعمور منهم كل يوم سبعون الفا لا يعودون اليه آخر ما عليهم والقرآن
مملوء بذكر الملائكة واصنافهم ومراتبهم فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم
وصلاته بصلاتهم ويضيفهم اليه في مواضع التشریف وتارة يذكر حفيهم بالعرش
وحملهم له ومراتبهم من الدنو وتارة يصفهم بالاكرام والكرم والتقريب والعلو
والطهارة واثقوة والاخلاص . قال تعالى ﴿ كل آمن بالله وملائكته وكتبه
ورسله - شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم - هو الذي يصلي
عليكم وملائكته ليخرجنكم من الظلمات الى النور - الذين يحملون العرش
ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا - وترى
الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم - بل عباد مكرمون -
ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون -

فان استكبروا فلذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون -
كراما كاتبين - كرام بررة - يشهده المقربون - لا يسمعون الى الملائكة الا على
وكذلك الاحاديث طافحة بذكرهم . فلهذا كان الايمان بالملائكة احدا لاصول
الخمسة التي هي اركان الايمان وقد تكلم الناس في المفاضلة بين الملائكة وصالحى
البشر وتنسب الى اهل السنة تفضيل صالحى البشر والانبياء فقط على الملائكة
والى المعتزلة تفضيل الملائكة . واتباع الاشعري على قولين : منهم من يفضل
الانبياء والاولياء ومنهم من يقف ولا يقطع في ذلك قولاً . وحكى عن بعضهم ميلهم
الى تفضيل الملائكة . وحكى ذلك عن غيرهم من اهل السنة وبعض الصوفية
وقالت الشيعة : ان جميع الائمة افضل من جميع الملائكة . ومن الناس من فضل
تفضيلاً آخر ولم يقل احد ممن له قول يؤثر ان الملائكة افضل من بعض الانبياء
دون بعض . وكنت ترددت في الكلام على هذه المسئلة لقله ثمرتها وانها
قريب مما لا يعنى . « ومن حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه » والشيخ رحمه
الله لم يتعرض الى هذه المسئلة بنفى ولا اثبات ولعله يكون قد ترك الكلام فيها
قصداً فان الامام اباحنيفة رحمه الله وقف في الجواب عنها ما ذكره في (١) مال
الفتاوى فانه ذكر مسائل لم يقطع ابو حنيفة فيها بجواب وعد منها التفضيل بين
الملائكة والانبياء وهذا هو الحق فان الواجب علينا الايمان بالملائكة والنبين
وليس علينا ان نعتقد أي الفريقين أفضل فان هذا لو كان من الواجبات ليين
لنا نصاً . وقد قال تعالى ﴿ اليوم اكملت لكم دينكم - وما كان ربك نسياً ﴾
وفي الصحيح « ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدوداً فلا تعتدوها
وحرم اشياء فلا تنتهكوها وسكت عن اشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا

(١) لعله مسائل

عنها ، فالسكوت عن الكلام في هذه المسئلة نفيا واثباتا والحالة هذه اولى ولا يقال ان هذه المسئلة نظير غيرها من المسائل المستنبطة من الكتاب والسنة لان الادلة هنا متكافئة على ماشير اليه ان شاء الله تعالى وحملني على بسط الكلام هنا ان بعض الجاهلين يسيئون الادب بقولهم : كان الملك خادما للنبي ﷺ او ان بعض الملائكة خدام بني آدم يعنون الملائكة الموكلين بالبشر ونحو ذلك من الالفاظ المخالفة للشرع ، المجانبة للادب والتفضيل اذا كان على وجه التنقص او الحمية والعصية للجنس لاشك في رده وليس هذه المسئلة نظير المفاضلة بين الانبياء فان تلك قد وجد فيها نص وهو قوله ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ الآية وقوله تعالى ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ وقد تقدم الكلام في ذلك عند قول الشيخ - وسيد المرسلين - يعني النبي ﷺ والمعتبر رجحان الدليل ولا يهجر القول لان بعض اهل الاهواء وافق عليه بعد ان تكون المسئلة مختلفا فيها بين اهل السنة وقد كان ابو حنيفة يقول اولا بتفضيل الملائكة على البشر ثم قال بعكسه وانظروا ان القول بالتوقف احد اقواله والادلة في هذه المسئلة من الجانبين انما تدل على الفضل لا على الافضلية ولا نزاع في ذلك . والشيخ تاج الدين الفزاري رحمه الله مصنف سماه (الاشارة في البشارة) في تفضيل البشر على الملك وقال في آخره . اعلم ان هذه المسئلة من بدع علم الكلام التي لم يتكلم فيها الصدر الاول من الامة ولا من بعدهم من اعلام الامة ولا يتوقف عليها اصل من اصول العقائد ولا يتعلق بها من الامور الدينية كثير من المقاصد . ولهذا خلا عنها طائفة من مصنفات هذا الشأن وامتنع من الكلام فيها جماعة من الاعيان

وكل متكلم فيها من علماء الظاهر بعلمه لم يخجل كلامه عن ضعف واضطراب
انتهى والله الموفق للصواب . فما استدبل به على تفضيل الانبياء على الملائكة ان
الله امر الملائكة ان يسجدوا لآدم وذلك دليل على تفضيله عليهم . ولذلك امتنع
ابليس واستكبر وقال ﴿أرأيتك هذا الذي كرمت علي﴾ . قال الآخرون ان
سجود الملائكة كان امتثالا لامر ربهم وعبادة وانقيادا وطاعة له وتكريما لآدم
وتعظيما ولا يلزم من ذلك الافضلية كما لم يلزم من سجود يعقوب لابنه يوسف
عليهما السلام تفضيل ابنه عليه ولا تفضيل الكعبة على بنى آدم بسجودهم
اليها امتثالا لامر ربهم . واما امتناع ابليس فانه عارض النص برأيه وقياسه
الفاسد بأنه خير منه . وهذه المقدمة الصغرى والكبرى محذوفة تقديرها
والفاضل لا يسجد للمفضول وكلتا المقدمتين فاسدة . اما الاول فان التراب
يفوق النار في أكثر صفاته ولهذا خان ابليس عنصره فأبى واستكبر فان من
صفات النار طلب العلو والخفة والطيش والرعونة وافساد ما تصل اليه ومحقة
وإهلاكه واحراقه ونفع آدم عنصره في التوبة والاستكانة والانقياد والاستسلام
لامر الله والاعتراف وطلب المغفرة فان من صفات التراب الثبات والسكون
والرصانة والتواضع والخضوع والخشوع والتذلل وما دنامنه ينبت ويزكو
وينمي ويبارك فيه ضد النار . وأما المقدمة الثانية وهي ان الفاضل لا يسجد
للمفضول فباطلة فان السجود طاعة لله وامتثال لامره ولو أمر الله عباده ان
يسجدوا لحجر لوجب عليهم الامتثال والمبادرة ولا يدل ذلك على ان المسجود له
أفضل من الساجد وان كان فيه تكريمه وتعظيمه وانما يدل على فضله قالوا وقد
يكون قوله هذا الذي كرمت علي بعد طرده لامتناعه عن السجود له لاقبله

فبنتني الاستدلال به ومنه ان الملائكة لهم عقول وليست لهم شهوات والانبيا
لهم عقول وشهوات فلما نهوا أنفسهم عن الهوى ومنعوها عما تميل اليه الطباع
كانوا بذلك افضل . قال الآخرون يجوز أن تقع من الملائكة مداومة
الطاعة وتحمل العبادة وترك الونى والفتور فيها ما يني بتجنب الانبياء شهواتهم
مع طول مدة عبادة الملائكة . ومنه ان الله تعالى جعل رسلا الى الانبياء وسفراء
بينه وبينهم وهذا الكلام قد اعتل به من قال ان الملائكة افضل واستدلوا لهم
به أقوى فان الانبياء المرسلين ان ثبت تفضيلهم على المرسل اليهم بالرسالة
ثبت تفضيل الرسل من الملائكة اليهم عليهم فان الرسول الملكي يكون
رسولا الى الرسول البشري . ومنه قوله تعالى ﴿وعلم آدم الاسماء كلها﴾ الآيات
قال الآخرون هذا دليل على الفضل لا على التفضيل وآدم والملائكة لا يعلمون
الاماء لهم الله وليس الخضر افضل من موسى بكونه علم ما لم يعلمه موسى
وقد سافر موسى وفتاه في طلب العلم الى الخضر وتزود لذلك وطلب موسى
منه العلم صريحا وقال له الخضر انك على علم من علم الله الى آخر كلامه ولا
الهدهد افضل من سليمان بكونه أحاط بما لم يحط به سليمان علماً ومنه قوله
تعالى ﴿ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي﴾ قال الآخرون هذا دليل الفضل
لا الافضلية والا لزم تفضيله علي محمد عليه السلام فان قلتم هو من ذريته فن ذريته
البر والفاجر . بل يوم القيامة اذا قيل لا دم : ابعث من ذريتك بعضا الى النار
يبعث من كل الف تسمائة وتسعة وتسعين الى النار وواحد الى الجنة فبال هذا
التفضيل سرى الى هذا الواحد من الالف فقط ومنه قول عبد الله بن سلام رضي
الله عنه ما خلق الله خلقا اكرم عليه من محمد عليه السلام الحديث فالشأن في ثبوته وان

صح عنه فالشأن في ثبوته في نفسه فإنه محتمل ان يكون من الاسرائيليات
ومنه حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال « ان
الملائكة قالت يا ربنا اعطيت نبي آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون
ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا تأكل ولا نشرب ولا نلهوا فكما
جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة » قال « لا اجعل صالح ذرية من
خاقت بيدي ممن قلت له ككن فكان » اخرجه الطبراني . واخرجه
عبد الله بن احمد بن محمد بن حنبل عن عروة بن رويم انه قال اخبرني الانصاري
عن النبي ﷺ ان الملائكة قالوا الحديث وفيه « وينامون ويستريحون »
فقال الله تعالى « لا » فاعادوا القول ثلاث مرات كل ذلك يقول لا والشأن
في ثبوتها فان في سندها مقالا وفي متنها شيئا فكيف يظن بالملائكة
الاعتراض على الله مرات عديدة . وقد اخبر الله تعالى عنهم انهم لا يسبقونه
بالقول وهم بأمره يعملون وهل يظن بهم انهم متبرمون باحوالهم متشفون
الى ما سواها من شهوات نبي آدم والنوم اخو الموت فكيف يغبطونهم به
وكيف يظن بهم انهم يغبطونهم بالله وهو من الباطل . قالوا بل الامر بالعكس
فان ابليس انما سوس الى آدم ودلاه بغرور اذا اطعمه في ان يكون ملكا بقوله
ما نها كما ربكنا عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين
فدل ان افضلية الملك امر معلوم مستقر في الفطرة . يشهد لذلك قوله تعالى
حكاية عن النسوة اللاتي قطعن ايديهن عند رؤية يوسف ﴿وقلن حاشا لله ما هذا
بشرا ان هذا الا ملك كريم﴾ وقال تعالى ﴿قل لا اقول لكم عندى خزائن
الله ولا اعلم الغيب ولا اقول لكم انى ملك﴾ . قال الاولون ان هذا انما

كان لما هو مركزوز في النفس ان الملائكة خلق جميل عظيم مقتدر على الافعال
الهائلة خصوصا العرب فان الملائكة كانوا في نفوسهم من العظمة بحيث قالوا
ان الملائكة بنات الله . تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا . ومنه قوله تعالى ﴿ ان
الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ . قال الآخرون
قديذ كر العالمون ولا يقصد به العموم المطلق بل في كل مكان بحسبه كما في قوله تعالى
﴿ لتكون للعالمين نذيرا - اناتون الذكران من العالمين - ولقد اخترناهم على
علم على العالمين ﴾ ومنه قوله تعالى ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك
هم خير البرية ﴾ والبرية مشتقة من البرء بمعنى اخلق فثبت ان صالحى البشر
خير اخلق . قال الآخرون انما صاروا خير البرية لكونهم آمنوا وعملوا
الصالحات والملائكة في هذا الوصف اكمل فانهم لا يسأمون ولا يفترون
فلا يلزم ان يكونوا خيرا من الملائكة هذا على قراءة من قرأ البريئة بالهمز
وعلى قراءة من قرأ بالياء ان قلنا انها مخففة من الهمزة وان قلنا انها نسبة الى
البر وهو التراب كما قاله الفراء فيما نقله عنه الجوهري في الصحاح يكون المعنى
انهم خير من خلق من التراب فلا عموم فيها اذ الغير من خلق من التراب .
قال الاولون انما تكلمنا في تفضيل صالحى البشر اذا كملوا ووصلوا الى غايتهم
واقصى نهايتهم وذلك انما يكون اذا دخلوا الجنة ونالوا الزلى وسكنوا الدرجات
العلى وحباهم الرحمن بمزيد قربه وتبجلى لهم ليستمتعوا بالنظر الى وجهه الكريم .
قال الآخرون الشأن في انهم هل صاروا الى حالة يفوقون فيها الملائكة
او يساؤونهم فيها . فان كان قد ثبت انهم يصيرون الى حال يفوقون فيها الملائكة
سلم المدعى والا فلا . ومما استدل به على تفضيل الملائكة على البشر قوله تعالى

﴿ لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ﴾ وقد ثبت من طريق اللغة ان مثل هذا الكلام يدل على ان المعطوف افضل من المعطوف عليه لانه لا يجوز ان يقال لن يستنكف الوزير ان يكون خادما للملك ولا الشرطي او الحراس وانما يقال لن يستنكف الشرطي ان يكون خادما للملك ولا الوزير في مثل هذا التركيب يترقى من الأدنى الى الأعلى فاذا ثبت تفضيلهم على عيسى عليه السلام ثبت في حق غيره اذ لم يقل احد انهم افضل من بعض الانبياء دون بعض . اجاب الآخرون بأوجوبة احسنها او من احسنها انه لا نزاع في فضل قوة الملك وقدرته وشدته وعظم خلقه وفي العبودية خضوع وذل وافتقار وعيسى عليه السلام لا استنكف عنها ولا من هو اقدر منه واقوى واعظم خلقا ولا يلزم من مثل هذا التركيب الافضلية المطلقة من كل وجه ومنه قوله تعالى ﴿ قل لا اقول لكم عندي خزانة الله ولا اعلم الغيب ولا اقول لكم اني ملك ﴾ ومثل هذا يقال بمعنى اني لو قلت ذلك لادعيت فوق منزلي ولست بمن يدعي ذلك اجاب الآخرون بأن الكفار كانوا قد قالوا ﴿ ما لهذا الرسول يا كل الطعام ونسبي في الاسواق ﴾ فامر ان يقول لهم « اني بشر مثلكم احتاج الى ما يحتاج اليه البشر من الاكساب والاكل والشرب است من الملائكة الذين لم يجعل الله لهم حاجة الى الطعام والشراب » فلا يلزم حينئذ الافضلية المطلقة ومنه ما روي مسلم بسناده عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « المؤمن القوي خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير » . ومعلوم ان قوة البشر لاتداني قوة الملك ولاتقاربها . قال الآخرون : الظاهر ان المراد المؤمن من البشر

والله اعلم فلا تدخل الملائكة في هذا العموم . ومنه ما ثبت في الصحيح عن
ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه قال فيما يروي عن ربه عز وجل قال
« يقول الله تعالى انا عند ظن عبدي بي وانا معه اذا ذكر فان ذكرني في نفسه
ذكرته في نفسي وان ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم » الحديث وهذا
نص في الافضلية . قال الآخرون يحتمل ان يكون المراد خير منه للمذكور
لا الخيرة المطلقة . ومنه ما رواه امام الأئمة محمد بن خزيمة بسنده في كتاب
التوحيد . عن انس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « بينا انا جالس
اذ جاء جبرائيل فوكز بين كتفي فتمت الى شجرة مثل وكري الطير فقعمني
احدها وقعدت في الاخر فسمت وارتفعت حتى سددت الخافقين وانا اقلب
بصري ولو شئت ان أمس السماء مسست فنظرت الى جبرائيل كأنه جلس
لاطي فعرفت فضل علمه بالله على » الحديث قال الآخرون في سنده مقل
فلانسلم الاحتجاج به الا بعد ثبوته وحاصل الكلام ان هذه المسئلة من فضول
المسائل . ولهذا لم يتعرض لها كثير من اهل الاصول وتوقف ابو حنيفة رحمه
الله في الجواب عنها كما تقدم . والله اعلم بالصواب . واما الانبياء والمرسلون
فعلينا الايمان بمن سمي الله تعالى في كتابه من رسله والايمان بان الله تعالى
ارسل رسلا سواهم وانبياء لا يعلم اسماءهم وعددهم الا الله تعالى الذي ارسلهم
فعلينا الايمان بهم جملة لانه لم يأت في عددهم نص . وقد قال تعالى ﴿ ورسلا
قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ﴾ . وقال تعالى ﴿ ولقد
ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾
وعلينا الايمان بانهم بلغوا جميع ما ارسلوا به على ما أمرهم الله به وانهم بينوه

بيانا لا يسع احداً ممن ارسلوا اليه جهله ولا يحل خلافه قال تعالى ﴿ فهدنا على
الرسول الا البلاغ المبين - وان تولوا فاما عليك البلاغ المبين - وان تطيعوه
تهتدوا - وما على الرسول الا البلاغ المبين - واطيعوا الرسول فان توليتم فاما على
رسولنا البلاغ المبين ﴾ واما اولوا العزم من الرسل فقد قيل فيهم اقوال احسنها
ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة انهم نوح و ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد
صلوات الله وسلامه عليهم قال وعم المذكورون في قوله تعالى ﴿ واذا اخذنا من
النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح و ابراهيم وموسى وعيسى بن مريم ﴾ وفي قوله
تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا
به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ﴾
واما الايمان بمحمد ﷺ فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع اجمالا وتفصيلا
واما الايمان بالكتب المنزلة على المرسلين فنؤمن بما سمي الله تعالى منها في
كتابه من التوراة والانجيل والزبور ونؤمن بان الله تعالى سوى ذلك كتبنا
انزلها على انبيائه لا يعرف اسماءها وعددها الا الله تعالى. واما الايمان بالقرآن
فالاقرار به واتباع ما فيه وذلك امر زائد على الايمان بغيره من الكتب
فعلينا الايمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله اتتهم من عند الله وانها حق
وهدى ونور وبيان وشفاء قال تعالى ﴿ قولوا آمنا بالله وما انزل الينا - الى
قوله وما اوتي النبيون من ربهم - ألم الله لا اله الا هو الحي القيوم - الى
قوله وانزل الفرقان - آمن الرسول بما انزل اليه من ربه - افلا يتدبرون
القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ الى غير ذلك

من الآيات الدالة على ان الله تكلم بها وانها نزلت من عنده وفي ذلك اثبات
صفة الكلام والعلو . وقال تعالى ﴿ كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين
مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق - وانه لكتاب عزيز لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد - ويرى الذين
اوتوا العلم الذي انزل اليك من ربك هو الحق - يا أيها الناس قد جاءكم
موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين - قل هو للذين
آمنوا هدى وشفاء - فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي انزلنا ﴾ وامثال ذلك
في القرآن كثيرة قوله ﴿ ونسي اهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما داموا بما
جاء به النبي ﷺ معترفين وله بكل ما قاله واخبر مصدقين ﴾ قال رسول
الله ﷺ « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا واكل ذبيحتنا فهو المسلم له مالنا
وعليه ما علينا » ويشير الشيخ رحمه الله بهذا الكلام الى ان الاسلام والايمان
واحد وان المسلم لا يخرج من الاسلام بارتكاب الذنب ما لم يستحله والمراد
بقوله اهل قبلتنا من يدي الاسلام ويستقبل الكعبة وان كان من اهل
الاهواء او من اهل المعاصي ما لم يكذب بشيء مما جاء به الرسول ﷺ .
وسياتي الكلام على هذين المعنيين عند قول الشيخ ولانكفر احدا من اهل
القبلة بذنوب ما لم يستحله وعند قوله والاسلام والايمان واحد واهله في اصله
سواء قوله ﴿ ولا نخوض في الله ولا نماري في دين الله ﴾ يشير الشيخ رحمه
الله الى الكف عن كلام المتكلمين الباطل وذم علمهم فانهم يتكلمون في الآله
بغير علم وغير سلطان اتاع ﴿ ان يتبعون الا الظن ومانهوى الانفس ولقد جاءهم
من ربهم الهدى ﴾ وعن ابي حنيفة رحمه الله انه قال لا ينبغي لاحد ان ينطق

في ذات الله بشيء بل يصفه بما وصف به نفسه وقال بعضهم الحق سبحانه
يقول من الزمته القيام مع اسمائي وصفاتي الزمته الادب ومن كشفت له حقيقة
ذاتي الزمته العطب فاختر الادب او العطب . ويشهد لهذا انه سبحانه لما كشف
للجبل عن ذاته ساخ الجبل وتد كدك ولم يثبت على عظمة الذات . وقال
السبكي الانبساط بالقول مع الحق ترك الادب وقوله ولا تناري في دين الله
معناه لا نخاصم اهل الحق بالقاء شبهات اهل الاهواء عليهم التماساً لا متراهم
وميلهم لانه في معنى الدعاء الى الباطل وتليبس الحق وافساد دين الاسلام
قوله ﴿ ولا تجادل في القرآن ونشهد انه كلام رب العالمين نزل به الروح الامين
فعله سيد المرسلين محمداً ﷺ وهو كلام الله تعالى لا يساويه شيء من كلام
المخلوقين ولا تقول بخلقه ولا تخالف جماعة المسلمين ﴾ . فقوله ولا تجادل في
القرآن يحتمل انه اراد اننا نقول فيه كما قال اهل الزيغ واختلفوا وجادلوا بالباطل
ليدحضوا به الحق بل نقول انه كلام رب العالمين نزل به الروح الامين الى
آخر كلامه وبمحتمل انه اراد اننا لا نجادل في القراءة الثابتة بل نقرأه بكل ما
ثبت وصح وكل من المعنيين حق . يشهد بصحة المعنى الثاني ما روي عن عبد الله
ابن مسعود رضي الله عنه انه قال سمعت رجلاً قرأ آية سمعت رسول الله ﷺ
يقراً خلفها فأخذت بيده فانطلقت به الى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له
فعرفت في وجهه الكراهة وقال « كلا كما يحسن ولا تختلفوا فان من كان قبلكم
اختلفوا فهلكوا » رواه مسلم نهي رسول الله ﷺ عن الاختلاف الذي فيه
جحد كل واحد من المختلفين ما مع صاحبه من الحق لان كلا القارين كان
محسناً فيما قرأه وعلل ذلك بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا . ولهذا قال

حذيفة رضي الله عنه لعثمان رضي الله عنه ادرك هذه الأمة لا تختلف كما
اختلف الامم قبلهم فجمع الناس على حرف واحد اجتماعاً سائفاً وهم معصومون
أن يجتمعوا على ضلالة ولم يكن في ذلك ترك لواجب ولا فعل لمحذور اذ كان قراءة
القرآن على سبعة احرف جائزة لا واجبة رخصة من الله تعالى وقد جعل الاختيار
اليهم في اي حرف اختاروه كما ان ترتيب السور لم يكن واجباً عليهم منصوصاً
ولهذا كان ترتيب مصحف عبدالله على غير ترتيب المصحف العثماني وكذلك
مصحف غيره. وأما ترتيب آيات السور فهو ترتيب منصوص عليه فلم يكن لهم
ان يقدموا آية على آية بخلاف السور فلما رأى الصحابة ان الأمة تفرق وتختلف
وتتقاتل ان لم يجتمع على حرف واحد جمعهم الصحابة عليه هذا قول جمهور
السلف من العلماء والقراء. قال ابن جرير وغيره منهم من يقول: ان الترخص
في الأحراف السبعة كان في اول الاسلام لما في المحافظة على حرف واحد من
المشقة عليهم اولا فلما تذاقت سنتهم بالقراءة وكان اتفاقهم على حرف واحد
يسيراً عليهم وهو اوفق لهم أجمعوا على الحرف الذي كان في العرصة الاخيرة
وذهب طوائف من الفقهاء واهل الكلام الى ان المصحف مشتمل على الاحرف
السبعة. وقد اتفقوا على نقل المصحف العثماني وترك ما سواه وقد تقدمت
الاشارة الى الجواب وهو ان ذلك كان جائزاً لا واجباً اوانه صار منسوخاً واما
من قال عن ابن مسعود انه كان يجوز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه وانما قال:
قد نظرت الى القراء فرأيت قراءتهم متقاربة. وانما هو كقول احدكم هلم واقبل
وتعال فاقروا كما علمتم او كما قال. والله تعالى قد امرنا ان لا نجادل اهل الكتاب
الاباثي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم فكيف بمنظرة اهل القبلة فان اهل القبلة

من حيث الجملة خير من اهل الكتاب فلا يجوز ان يناظر من لم يظلم منهم الا
بالتي هي احسن وليس اذا أخطأ يقال انه كافر قبل ان تقام عليه الحجة التي
حكم الرسول بكفر من تركها والله تعالى قد عفا لهذه الامة عن الخطأ والنسيان .
ولهذا ذم السلف اهل الاهواء وذكروا ان آخر امرهم السيف . وسيأتي
لهذا المعنى زيادة بيان ان شاء الله تعالى عند قول الشيخ : ونرى الجماعة حقا وصوابا
والفرقة زيفا وعذابا . وقوله : ونشهد انه كلام رب العالمين قد تقدم الكلام
على هذا المعنى عند قوله : وان القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولاً .
وقوله ﴿ نزل به الروح الامين ﴾ هو جبرائيل عليه السلام سمي روحا لانه حامل
الوحي الذي به حياة القلوب الى الرسل من البشر صلوات الله عليهم اجمعين
وهو امين حق امين صلوات الله عليه قال تعالى ﴿ نزل به الروح الامين على
قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾ وقال تعالى ﴿ انه لقول رسول
كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم امين ﴾ وهذا وصف جبرائيل
بخلاف قوله تعالى ﴿ انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر ﴾ الايات
فان الرسول هنا هو محمد ﷺ . وقوله فعلمه سيد المرسلين تصريح بتعليم
جبرائيل اياه ابطلا لتوهم القرامطة وغيرهم انه تصوره في نفسه الها ما .
وقوله : ولا نقول بخلقه ولا نخالف جماعة المسلمين تنبيه على ان من قال بخلق
القرآن فقد خالف جماعة المسلمين فان سلف الامة كلهم متفقون على ان كلام
الله بالحقيقة غير مخلوق بل قوله ولا نخالف جماعة المسلمين مجرى على اطلاقه
انا لانخالف جماعة المسلمين في جميع ما اتفقوا عليه فان خلافتهم زيغ وضلال

وبدعة . قوله ﴿﴾ ولا تكفر احدا من اهل القبلة بذنوب ما لم يستحلها ولا تقول
لا يضر مع الايمان ذنب لمن عمله ﴿﴾ اراد باهل القبلة الذين تقدم ذكرهم في
قوله ونسبى اهل قبلتنا مساهمين مؤمنين ماداموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين
وله بكل ما قال واخبر مصدقين يشير الشيخ رحمه الله بهذا الكلام الى الرد
على الخوارج القائلين بالكفر بكل ذنب . واعلم رحمك الله وايانا ان باب التكفير
وعدم التكفير باب عظمت الفتنة والحنة فيه وكثر فيه الافتراق وتشتت فيه
الاهواء والآراء وتعارضت فيه دلائلهم فالناس فيه في جنس تكفير اهل
المقاتلات والمقائد الفاسدة المخالفة للحق الذي بعث الله به رسوله في نفس الامر
والمخالفة لذلك في اعتقادهم على طرفين ووسط من جنس الاختلاف في تكفير
اهل الكبائر العملية فطائفة تقول : لا تكفر من اهل القبلة احدا فتنتي
التكفير نفيًا عاما مع العلم بان في اهل القبلة المنافقين الذين فيهم من هو كفر
من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة والاجماع وفيهم من قد يظهر بعض ذلك
حيث يمكنهم وهم يتظاهرون بالشهادتين . وايضاً فلا خلاف بين المسلمين ان
الرجل لو اظهر انكار الواجبات الظاهرة المتواترة والمحرمات الظاهرة المتواترة
ونحو ذلك فانه يستتاب فان تاب والاقبل كافرًا مرتدًا والنفاق والردة
مظنتها البدع والفجور كما ذكره الخلال في كتاب السنة بسنده الى محمد
ابن سيرين انه قال ان اسرع الناس ردة اهل الاهواء وكان يرى هذه
الآية نزلت فيهم ﴿﴾ واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى
يخوضوا في حديث غيره ﴿﴾ ولهذا امتنع كثير من الائمة عن اطلاق القول
باننا لا تكفر احدا بذنوب بل يقال لا تكفرهم بكل ذنب كما تفعله الخوارج وفرق

بين النفي العام ونفي العموم والواجب انما هو نفي العموم مناقضة لقول الخوارج
الذين يكفرون بكل ذنب . ولهذا والله اعلم قيده الشيخ رحمه الله بقوله ما لم
يستحله وفي قوله ما لم يستحله اشارة الى ان مراده من هذا النفي العام لكل
ذنب من الذنوب العملية لا العلمية وفيه اشكال فان الشارع لم يكتف من
المكلف في العمليات بمجرد العمل دون العلم ولا في العلميات بمجرد العلم دون
العمل وليس العمل مقصورا على عمل الجوارح بل اعمال القلوب اصل لعمل
الجوارح واعمال الجوارح تبع الا ان يضمن قوله يستحله بمعنى يعقده او
نحو ذلك . وقوله ولا تقول لا يضر مع الايمان ذنب لمن عمل الخ . كلامه رد على
المرجئه فانهم يقولون لا يضر مع الايمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة
فهؤلاء في طرف والخوارج في طرف فانهم يقولون يكفر المسلم بكل ذنب
او بكل ذنب كبير وكذلك المعتزلة الذين يقولون يحبط ايمانه كله بالكبيرة فلا
يبقى معه شيء من الايمان لكن الخوارج يقولون يخرج من الايمان ويدخل
في الكفر . والمعتزلة يقولون يخرج من الايمان ولا يدخل في الكفر وهذه
المنزلة بين المنزلتين ويقولهم بخروجه من الايمان اوجبوا له الخلود في النار .
وطوائف من اهل الكلام والفقهاء والحديث لا يقولون ذلك في الاعمال لكن
في الاعتقادات البدعية وان كان صاحبها متأولا فيقولون يكفر كل من قال
هذا القول لا يفرقون بين المجتهد المخطيء وغيره او يقولون يكفر كل مبتدع
وهؤلاء يدخل عليهم في هذا الاثبات العام امور عظيمة فان النصوص المتواترة
قد دلت على انه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من ايمان ونصوص
انواع التي يحتاج بها هؤلاء تعارض نصوص الوعيد التي يحتاج بها اولئك والكلام

في الوعيد مبسوط في موضعه . وسيأتي بعضه عند الكلام على قول الشيخ
واهل الكباثر في النار لا يخلدون اذا ماتوا وعم موحدون . والمقصود هنا
ان البدع هي من هذا الجنس فان الرجل يكون مؤمنا باطنا وظاهرا لكن
تأول تأويلا أخطأ فيه اما مجتهدا واما مفرطا مذنباً فلا يقال ان ايمانه حبط
لمجرد ذلك الا ان يدل على ذلك دليل شرعي بل هذا من جنس قول الخوارج
والمعتزلة ولا نقول لا يكفر بل بالعدل هو الوسط وهو ان الاقوال الباطلة
المتدعة المحرمة المتضمنة نفي ما اثبتته الرسول أو اثبات ما نفاه أو الامر بما نهى
عنه أو النهي عما امر به يقال فيها الحق ويثبت لها الوعيد الذي دلت عليه النصوص
ويبين انها كفر ويقال من قالها فهو كافر ونحو ذلك كما يذكر من الوعيد في
الظلم في النفس والاموال وكما قد قال كثير من اهل السنة المشاهير بتكفير من
قال بخلق القرآن وان الله لا يرى في الآخرة ولا يعلم الاشياء قبل وقوعها
وعن ابي يوسف رحمه الله انه قال ناظرت ابا حنيفة رحمه الله مدة حتى اتفق
رأى ورأيه ان من قال بخلق القرآن فهو كافر واما الشخص المعين اذا قيل
هل تشهدون انه من اهل الوعيد وانه كافر فهذا لا نشهد عليه الا بأمر تجوز
معه الشهادة فانه من اعظم البغي ان يشهد على معين ان الله لا يغفر له ولا يرحمه
بل يخلده في النار فان هذا حكم الكافر بعد الموت . ولهذا ذكر ابو داود في
سننه في كتاب الادب باب النهي عن البغي وذكر فيه عن ابي هريرة رضي الله
عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « كان رجلا في بني اسرائيل متواخين
فكان احدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر
على الذنب فيقول اقصر فوجده يوما على ذنب فقال له اقصر فقال خلني وربني

ابعت علي رقيباً فقال والله لا يغفر الله لك اولا يدخلك الجنة فقبض ارواحهما فاجتمعا
عند رب العالمين فقال لهذا المجتهدا كنت بي عالما او كنت على ما في يدي قادرا
وقال للمذنب اذهب فادخل الجنة برحمتي وقال للآخر اذهبوا به الى النار وقال
ابو هريرة والذي نفسي بيدي لتكلم بكلمة او بقت دنياه و آخرته وهو حديث
حسن ولان الشخص المعين يمكن ان يكون مجتهدا مخطئاً مغفوراً له او يمكن ان
يكون ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص ويمكن ان يكون له
ايمان عظيم وحسنات او جبت له رحمة الله كما غفر للذي قال اذا مت
فاسعقوني ثم ذروني ثم غفر الله له لخشيته وكان يظن ان الله لا يقدر على جمعه
واعادته او شك في ذلك لكن هذا التوقف في امر الآخرة لا يمنعنا ان نعاقبه
في الدنيا لمنع بدعته وان نستتبيه فان تاب والافتلتناه ثم اذا كان القول في نفسه
كفراً قيل انه كفر والقائل له يكفر بشروط وانتفاء موانع ولا يكون ذلك
الا اذا صار منافقاً زنديقاً فلا يتصور ان يكفر احد من اهل القبلة المظهرين
الاسلام الا من يكون منافقاً زنديقاً وكتاب الله يبين ذلك فان الله صنف
اخلق فيه ثلاثة اصناف : كفار من المشركين ومن اهل الكتاب وهم الذين
لا يقرون بالشهادة . وصنف المؤمنون باطنا وظاهرا . وصنف اقربا به ظاهرا
لا باطنا وهذه الاقسام الثلاثة مذكورة في اول سورة البقرة وكل من ثبت انه
كافر في نفس الامر وكان مقراً بالشهادتين فانه لا يكون الا زنديقاً والزنديق
هو المنافق . وهنا يظهر غلط الطرفين فانه من كفر كل من قال القول المبتدع
في الباطن يلزمه ان يكفر اقواما ليسوا في الباطن منافقين بل هم في الباطن
يحبون الله ورسوله ويؤمنون بالله ورسوله وان كانوا مذنبين كما ثبت في صحيح

البخاري عن اسلم مولى عمر رضي الله عنه عن عمر ان رجلا كان على عهد النبي
ﷺ كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارا وكان يضحك رسول الله ﷺ وكان
رسول الله ﷺ قد جلده من الشراب فأتى به يوما فأمر به فجلد فقال رجل
من القوم : اللهم عنه ما اكثر ما يؤتى به فقال رسول الله ﷺ « لا تلعنه
فانه يحب الله ورسوله » وهذا امر متيقن به في طوائف كثيرة وأئمة في العلم
والدين وفيهم بعض مقالات الجهمية والمرجئة او القدرية او الشيعة او الخوارج
ولكن الأئمة في العلم والدين لا يكونون قائلين بجملته تلك البدعة بل بفرع
منها . ولهذا اتحل اهل هذه الاهواء لطوائف من السلف المشاهير فن عيوب
أهل البدع تكفير بعضهم بعضاً ومن ممدوح اهل العلم انهم يخطئون ولا
يكفرون . ولكن بقي هنا اشكال يرد على كلام الشيخ رحمه الله وهو ان
الشارع قد سمي بعض الذنوب كفرا قال الله ﷻ « ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك
هم الكافرون » . وقال ﷺ « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » متفق عليه من
حديث ابن مسعود رضي الله عنه . وقال ﷺ « لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب
بعضكم رقاب بعض واذا قال الرجل لاخيه يا كافر فقد باء بها احدهما » متفق
عليهما من حديث ابن عمرو رضي الله عنه . وقال ﷺ « اربع من كن فيه
كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق وحتى
يدعها : اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر »
متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه . وقال ﷺ « لا يزني
الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن
ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن والتوبة معروضة بعد » وقال ﷺ

« بين المسلم وبين الكفر ترك الصلاة » رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه .
وقال عليه السلام « من أتى كاهنا فصدقه أو أتى امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل
على محمد » وقال عليه السلام « من حلف بغير الله فقد كفر » رواه الحاكم بهذا اللفظ
وقال عليه السلام « ثنتان في أمي هما بهم كفر : الطعن في الانساب والنياحة على
البيت » ونظائر ذلك كثيرة . والجواب ان اهل السنة متفقون كلهم على ان
مرتكب الكبيرة لا يكفر كفراً ينقل عن الملة بالكلية كما قالت الخوارج
إذ لو كفر كفراً ينقل عن الملة لكان مرتداً على كل حال ولا يقبل عفو ولي
القصاص ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر وهذا القول معلوم
بطلانه وفساده بالضرورة من دين الاسلام ومتفقون على انه لا يخرج من
الايمان والاسلام ولا يدخل في الكفر ولا يستحق الخلود مع الكافرين كما
قالت المعتزلة فان قولهم باطل ايضاً اذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من
المؤمنين قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾
الى أن قال ﴿ فمن عني له من اخيه شيء فاتباع بالمعروف ﴾ فلم يخرج القاتل
من الدين آمنوا وجعله أخا لولي القصاص . والمراد اخوة الدين بلا ريب .
وقال تعالى ﴿ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصحوا بينهما ﴾ الى ان قال
﴿ انما المؤمنون اخوة فاصحوا بين اخويكم ﴾ ونصوص الكتاب والسنة
والاجماع تدل على ان الزاني والسارق والقاذف لا يقتل بل يقام عليه الحد
فدل على انه ليس بمرتد . وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « من كانت
عنده لآخيه اليوم مظلمة من عرض او شيء فليتحلله منه اليوم قبل ان لا
يكون درهم ولا دينار ان كان له عمل صالح اخذ منه بقدر مظلمته وان لم يكن

له حسنات اخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ثم التي في النار « اخرجاه
في الصحيحين فثبت ان الظالم يكون له حسنات يستوفي المظلوم منها حقه
وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال « ما تعدون المفلس فيكم
قالوا المفلس فينا من لا له درهم ولا دينار قال المفلس من يأتي يوم القيامة وله
حسنات امثال الجبال فيأتي وقد شتم هذا واخذ مال هذا وسفك دم هذا
وقذف هذا وضرب هذا فيقتص هذا من حسناته وهذا من حسناته فاذا
فנית حسناته قبل ان يقضى ما عليه اخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح
في النار » رواه مسلم وقد قال تعالى ﴿ ان الحسنات يذهبن السيئات ﴾ فدل ذلك
على انه في حال اساءته يعمل حسنات تمحو سيئاته وهذا مبسوط في
موضعه والمعتزلة موافقون للخوارج هنا في حكم الآخرة فانهم وافقوا على
ان مرتكب الكبيرة مخلد في النار قالت الخوارج نسيه كافرا وقالت المعتزلة
نسيه فاسقا فالخلاف بينهم لفظي فقط واهل السنة ايضا متفق على انه يستحق
الوعيد المرتب على ذلك الذنب كما وردت به النصوص لا كما يقوله المرجئة من
انه لا يضر مع الايمان ذنب ولا ينفع مع الكفر طاعة واذا اجتمعت نصوص
الوعد التي استدلت بها المرجئة ونصوص الوعيد التي استدلت بها الخوارج
والمعتزلة تبين لك فساد القولين ولا فائدة في كلام هؤلاء سوى انك تستفيد
من كلام كل طائفة فساد مذهب الطائفة الاخرى . ثم بعد هذا الاتفاق تبين
ان اهل السنة اختلفوا خلافا لفظيا لا يترتب عليه فساد وهو انه هل يكون
الكفر على مراتب كفرا دون كفر كما اختلفوا هل يكون الايمان على
مراتب ايمانا دون ايمان . وهذا الاختلاف نشأ من اختلافهم في معنى الايمان

هل هو قول وعمل يزيد وينقص ام لا بعد اتفاهم على ان من سماه الله تعالى
ورسوله كافرا نسميه كافرا اذ من الممتنع ان يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما
انزل الله كافرا ويسمي رسوله من تقدم ذكره كافرا ولا نطلق عليهما اسم
الكفر ولكن من قال ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص قال هو كفر
عملي لا اعتقادي والكفر عنده على مراتب كفر دون كفر كالايان عنده .
ومن قال ان الايمان هو التصديق ولا يدخل العمل في مسمى الايمان والكفر
هو الجحود ولا يزيدان ولا ينقصان قال هو كفر مجازي غير حقيقي اذ الكفر
الحقيقي هو الذي ينقل عن الملة وكذلك يقول في تسمية بعض الاعمال بالايمان
كقوله تعالى ﴿ وما كان الله ليضيع ايمانكم ﴾ اي صلاتكم الى بيت المقدس
انها سميت ايمانا مجازا لتوقف صحتها على الايمان او لدالتها على الايمان اذ هي
دالة على كون مؤديها مؤمنا . ولهذا يحكم باسلام الكافر اذا صلى كصلاتنا
فليس بين فقهاء الملة نزاع في اصحاب الذنوب اذا كانوا مقرين باطنا وظاهرا
بما جاء به الرسول وما تواتر عنه انهم من اهل الوعيد ولكن الاقوال المنحرفة
قول من يقول بتخليدهم في النار كالخوارج والمعتزلة ولكن اردا ما في ذلك
التمصّب على من بضدّه والزامه لمن يخالف قوله بما لا يلزمه والتشنيع عليه . واذا
كنا ما مورين بالعدل في مجادلة الكافرين وان يجادلوا بالتي هي احسن فكيف
لا يعدل بعضنا على بعض في مثل هذا الخلاف قال تعالى ﴿ يا ايها الذين آمنوا
كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعملوا
اعدلوا هو اقرب للتقوى ﴾ الآية وهنا امر يجب ان يتفطن له وهو ان الحكم
بغير ما انزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملة وقد يكون معصية كبيرة او

صغيرة ويكون كفرا أما مجازيا وأما كفرا اصغر على القولين المذكورين وذلك
بحسب حال الحاكم فإنه ان عتقد ان الحكم بما انزل الله غير واجب وأنه مخير
فيه أو استهان به مع تيقنه انه حكم فهذا كفرا كبيرا وان اعتقد وجوب الحكم
بما انزل الله وعلمه في هذه الواقعة وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة
فهذا عاص ويسى كافرا كفرا مجازيا أو كفرا اصغر وان جهل حكم الله
فيها مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم واخطأ فهذا مخطيء
له اجر على اجتهاده وخطأه مغفور . و اراد الشيخ رحمه الله بقوله ولا
نقول لا يضر مع الايمان ذنب لمن عمله مخالفة للمرجئة وشبهتهم كانت
قد وقعت لبعض الاولين فاتفق الصحابة على قتلهم ان لم يتوبوا من ذلك
فان قدامة بن عبد الله شرب الخمر بعد تحريمها هو وطائفة وتأولوا قوله تعالى
﴿ ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا و آمنوا
و عملوا الصالحات ﴾ الآية فلما ذكروا ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه
اتفق هو وعلي بن ابي طالب وسائر الصحابة على انهم ان اعترفوا بالتحريم
جلدوا وان اصرروا على استحلالها قتلوا . وقال عمر لقدامة اخطأت استك
الحفرة اما انك لو اتقيت و آمنت و عملت الصالحات لم تشرب الخمر وذلك
ان هذه الآية نزلت بسبب ان الله سبحانه لما حرم الخمر وكان تحريمها بعد
وقعة احد قال بعض الصحابة فكيف باصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر
فانزل الله هذه الآية بين فيها ان من طعم الشيء في الحال التي لم يحرم فيها فلا
جناح عليه اذا كان من المؤمنين المتقين المصلحين كما كان من امر استقبال
بيت المقدس ثم ان أولئك الذين فعلوا ذلك يذمون على انهم اخطأوا وايسوا

من التوبة فكتب عمر الى قدامة يقول له ﴿حم﴾ تنزيل الكتاب من الله
العزير العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴿ما ادرى اي ذنبك اعظم
استحللك المحرم اولا ام بأسك من رحمة الله ثانيا وهذا الذي اتفق عليه
الصعابة هو متفق عليه بين ائمة الاسلام قوله ﴿ورجوا للمحسنين من
المؤمنين ان يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته ولانا من عليهم ولا نشهد لهم
بالجنة ونستغفر لمسيئتهم ونخاف عليهم ولا نقنطهم﴾ وعلى المؤمن ان يعتقد
هذا الذي قاله الشيخ رحمه الله في حق نفسه وفي حق غيره قال تعالى ﴿اولئك
الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ايهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون
عذابه ان عذاب ربك كان محذورا﴾ وقال تعالى ﴿فلا تخافوهم وخافون ان
كنتم مؤمنين﴾ وقال تعالى ﴿واياي فاتقون - واياي فارهبون - فلا تخشوهم
واخشوني﴾ ومدح اهل الخوف فقال تعالى ﴿ان الذين هم من خشية ربهم
مشفقون والذين هم بايات ربهم يؤمنون﴾ الى قوله ﴿اولئك يسارعون في
الخيرات وهم لها سابقون﴾ وفي المسند والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت
قلت يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يزني ويشرب الخمر
ويسرق قال «لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف
ان لا يقبل منه» قال الحسن رضي الله عنه عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها
وخافوا ان ترد عليهم ان المؤمن جمع احسانا وخشية والمنافق جمع اساءة وامنا
انتهى وقال تعالى ﴿ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله
اولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾ فتأمل كيف جعل رجاءهم مع
ايمانهم بهذه الطاعات فالرجاء انما يكون مع الايمان بالاسباب التي اقتضتها

حكمة الله تعالى شرعه وقدرته وثوابه وكرامته ولو ان رجلا له ارض يؤمل
ان يعود عليه من مغلها ما ينفعه فاهملها ولم يحرقها ولم يبذرها ورجا انه يأتي
من مغلها مثل ما يأتي من حرث وزرع وتعاهد الارض لعدو الناس من اسفه
السفهاء وكذا لو رجا وحسن ظنه ان يجيئه ولد من غير جماع او بصير اعلم اهل
زمانه من غير طلب العلم وحرص تام وامثال ذلك فكذلك من حسن ظنه
وقوي رجاؤه في الفوز بالدرجات العلى والنعيم المقيم من غير طاعة ولا تقرب
الى الله تعالى بامثال او امره واجتناب نواهيه . ومما ينبغي ان يعلم ان من رجا
شيئا استلزم رجاؤه امورا احدها محبة ما يرجوه . الثاني خوفه من فواته . الثالث
سعيه في تحصيله بحسب الامكان . واما رجاؤه لا يقارنه شيء من ذلك فهو من
باب الاماني والرجاء شيء والاماني شيء آخر فكل راج خائف والسائر على
الطريق اذا خاف اسرع السير مخافة الفوات . وقال تعالى ﴿ ان الله لا يغفر
ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فالشرك لا ترحى له المغفرة لان
الله نفي عنه المغفرة وما سواه من الذنوب في مشيئة الله ان شاء الله غفر له
وان شاء عذبه . وفي معجم الطبراني الدواوين عند الله يوم القيامة ثلاثة دواوين
ديوان لا يغفر الله منه شيئا وهو الشرك بالله ثم قرأ ﴿ ان الله لا يغفر ان يشرك
به ﴾ وديوان لا يترك الله منه شيئا وهو مظالم العباد بعضهم بعضا وديوان
لا يعبأ الله به وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه وقد اختلفت عبارات العلماء
في الفرق بين الكبائر والصغائر وستأتي الاشارة الى ذلك عند قول الشيخ
رحمه الله وأهل الكبائر من أمة محمد في النار لا يخلدون . ولكن ثم أمر
ينبغي التنظير له وهو أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف

والاستمظام لها ما يلحقها بالصغائر وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء
وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر وهذا أمر
صرجه الى ما يقوم بالقلب وهو قدر زائد على مجرد الفعل والانسان يعرف
ذلك من نفسه وغيره وايضا فانه قديعني لصاحب الاحسان العظيم ما لا يعنى
لغيره فان فاعل السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة اسباب عرفت
بالاستمراء من الكتاب والسنة . (السبب الاول) التوبة قال تعالى ﴿ الا
من تاب - الا الذين تابوا ﴾ والتوبة النصوح وهي الخالصة لا يختص بها
ذنب دون ذنب لكن هل يتوقف صحتها على ان تكون عامة حتى لو تاب
من ذنب وأصر على آخر لا تقبل والصحيح انها تقبل وهل يجب الاسلام ما
قبله من الشرك وغيره من الذنوب وان لم يتب منها ام لا بد مع الاسلام من
التوبة من غير الشرك حتى لو اسلم وهو مصر على الزنا وشرب الخمر مثلا هل
يؤاخذ بما كان منه في كفره من الزنا وشرب الخمر ام لا بد ان يتوب من ذلك
الذنب مع اسلامه او يتوب توبة عامة من كل ذنب وهذا هو الاصح انه
لا بد من التوبة مع الاسلام وكون التوبة سببا لغفران الذنوب وعدم المواخذة
بها مما لا خلاف فيه بين الامة وليس شيء يكون سببا لغفران جميع الذنوب
الا التوبة قال تعالى ﴿ قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة
الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم ﴾ وهذا لمن تاب ولهذا
قال لا تقنطوا . وقال بعدها ﴿ وانيبوا الى ربكم ﴾ الآية (السبب الثاني)
الاستغفار قال تعالى ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ لكن الاستغفار
تارة يذكر وحده وتارة يقترن بالتوبة فان ذكر وحده دخلت معه التوبة كما

اذا ذكرت التوبة وحدها شملت الاستغفار فالتوبة تتضمن الاستغفار
والاستغفار يتضمن التوبة وكل واحد منهما يدخل في مسمى الآخر عند
الاطلاق واما عند اقتران احدي اللفظتين بالآخرى فالاستغفار طلب وقاية
شر ماضى والتوبة الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات
اعماله ونظير هذا الفقير والمسكين اذا ذكر احد اللفظين شمل الآخر واذا
ذكر معا كان لكل منهما معنى قال تعالى ﴿ فاطعام عشرة مساكين - فاطعام
ستين مسكينا - وان تحفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ لا خلاف ان
كل واحد من الاسمين في هذه الآيات لما افرد شمل المقل والمعدم ولما قرن
احدهما بالآخر في قوله تعالى ﴿ انما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ الآية
كان المراد باحدهما المقل والآخر المدمم على خلاف فيه وكذلك الاثم والعدوان
والبر والتقوى والفسوق والعصيان ويقرب من هذا المعنى الكفر والنفاق
فان الكفر أعم فاذا ذكر الكفر شمل النفاق وان ذكر معا كان لكل منهما
معنى وكذلك الايمان والأسلام على ما يأتي الكلام فيه ان شاء الله تعالى
(السبب الثالث) الحسنات فان الحسنة بعشر امثالها والسيئة بمثلها فالويل
لمن غلبت آحاده عشراته . وقال تعالى ﴿ ان الحسنات يذهبن السيئات ﴾ وقال
ﷺ « واتبع السيئة الحسنة تمحها » . (السبب الرابع) المصائب الدينوية قال
ﷺ « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا غم ولا هم ولا حزن حتى
الشوكة يشاكها الا كفر بها من خطاياها » وفي المسند انه لما نزلت قوله تعالى
﴿ من يعمل سوءا يجز به ﴾ قال ابو بكر يارسول الله نزلت قاصمة الظهر
وأينا لم يعمل سوءا فقال « يا ابا بكر الست تنصب الست تمحزن الست

يصيبك اللأوى فذلك ما تجزون به « فالصائب نفسها مكفرة وبالصبر عليها
يثاب العبد وبالسخط ياتم والصبر والسخط امر آخر غير المصيبة فالمصيبة من
فعل الله لا من فعل العبد وهي جزاء من الله للعبد على ذنبه ويكفر ذنبه بها
وانما يثاب المرء ويأثم على فعله والصبر والسخط من فعله وان كان الاجر قد
يحصل بغير عمل من العبد بل هدية من الغير او فضل من الله من غير سبب
قال تعالى ﴿ ويؤت من لدنه اجرا عظيما ﴾ فنفس المرض جزاء وكفارة لما
تقدم وكثيرا ما يفهم من الاجر غفران الذنوب وليس ذاك مدلوله وانما يكون
من لازمه (السبب الخامس) عذاب القبر . وسيأتي الكلام عليه ان شاء الله
تعالى (السبب السادس) دعاء المؤمنين واستغفارهم في الحياة وبعد الممات
(السبب السابع) ما يهدى اليه بعد الموت من ثواب صدقة او قراءة او حج
ونحو ذلك وسيأتي الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى (السبب الثامن) احوال
يوم القيامة وشدائده (السبب التاسع) ما ثبت في الصحيحين ان المؤمنين
اذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض
فاذا هذبوا وتقوا اذن لهم في دخول الجنة . (السبب العاشر) شفاعة الشافعين
كما تقدم عند ذكر الشفاعة واقسامها . (السبب الحادي عشر) عفو ارحم الراحمين
من غير شفاعة كما قال تعالى ﴿ ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ فان كان ممن لم يشأ
الله ان يغفر له لعظم جرمه فلا بد من دخوله الى الكبر لتخلص طيب ايمانه من
خبث معاصيه فلا يبقى في النار من في قلبه ادنى ادنى مثقال ذرة من ايمان بل من
قال : لا اله الا الله كما تقدم من حديث انس رضي الله عنه واذا كان الامر كذلك
امتنع القطع لاحد معين من الامة غير من شهد له الرسول ﷺ بالجنة ولكن نرجو

للمصنين ونخاف عليهم . قوله ﴿ والامن والياس سبيلان عن ملة الاسلام
وسبيل الحق بينهما لاهل القبلة ﴾ يجب ان يكون العبد خائفا ، راجيا فان
الخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله فاذا تجاوز ذلك
خيف منه اليأس والقنوط . والرجاء المحمود رجاء رجل عمل لطاعة الله على نور
من الله فهو راج لثوابه او رجل اذنب ذنبا ثم تاب منه الى الله فهو راج لغفرته
قال الله تعالى ﴿ ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك
يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾ اما اذا كان الرجل متاديا في التفريط
واخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب قال
ابو علي الروذبادي رحمه الله الخوف والرجاء كجناحي الطائر اذا استويا استوى
الطير وتم طيرانه واذا نقص احدهما وقع فيه النقص واذا ذهب اصر الطائر في
حد الموت وقدمح الله اهل الخوف والرجاء بقوله ﴿ امن هو قانت آناه الليل
ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ الآية وقال ﴿ تتجافى جنوبهم
عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعاً ﴾ الآية فالرجاء يستلزم الخوف
ولو لا ذلك لكان امنا والخوف يستلزم الرجاء ولو لا ذلك لكان قنوطا
وياسا وكل احد اذا خفته هربت منه إلا الله تعالى فانك اذا خفته هربت اليه
فانخائف هارب من ربه الى ربه . وقال صاحب منازل السائرين رحمه الله الرجاء
اضعف منازل المرید وفي كلامه نظر بل الرجاء والخوف على الوجه المذكور
من اشرف منازل المرید وفي الصحيح عن النبي ﷺ يقول الله عز وجل
« أتأعدن عبيدي بي فليظن بي ما شاء » وفي صحيح مسلم عن جابر رضي
الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث « لا يموتن

أحدكم الا وهو بحسن الظن بربه ، ولهذا قيل : ان العبد ينبغي ان يكون رجاؤه
في مرضه ارجح من خوفه بخلاف زمن الصحة فانه يكون خوفه ارجح من
رجائه وقال بعضهم من عبد الله بالحُب وحده فهو زنديق ومن عبده بالخوف
وحده فهو مرجي وروي ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجي ومن عبده
بالحُب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد ولقد احسن محمود الوراق في قوله
لو قد رأيت الصغير * من عمل الخير ثوابا عجبت من كبره
أو قد رأيت الحقير من عمل الشر * جزءا أشفقت من حذره
قوله ﴿ ولا يخرج العبد من الايمان الا بحدود ما ادخله فيه ﴾ يشير الشيخ
الى الرد على الخوارج والمعتزلة في قولهم بخروجه من الايمان بارتكاب
الكبيرة وفيه تقدير لما قال اولالا نكفر احدا من اهل القبلة بذنب ما لم
يستعله وتقدم الكلام على هذا المعنى قوله ﴿ والايمان هو الاقرار باللسان
والتصديق بالجنان وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله
حق والايمان واحد واهله في أصله سواء والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة
الهوى وملازمة الاولى ﴾ اختلف الناس فيما يقع عليه اسم الايمان اختلافا
كثيرا فذهب مالك والشافعي واحمد والاوزاعي واسحاق بن راهويه وسائر
أهل الحديث وأهل المدينة وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين الى انه تصديق
بالجنان واقرار باللسان وعمل بالاركان وذهب كثير من اصحابنا الى ما ذكره
الطحاوي انه الاقرار باللسان والتصديق بالجنان ومنهم من يقول ان الاقرار
باللسان ركن زائد ليس باصلي والى هذا ذهب ابو منصور الماتريدي رحمه الله
ويروى عن ابى حنيفة رضي الله عنه وذهب الكرامية الى ان الايمان هو الاقرار

باللسان فقط فالمتناقضون عنده مؤمنون كاملو الايمان لكن يقولون بأنهم
يستحقون الوعيد الذي أوعدهم الله به وقولهم ظاهر الفساد وذهب الجهم بن
صفوان وأبو الحسين الصالحى احد رؤساء القدرية الى ان الايمان هو
المعرفة بالقلب وهذا القول اظهر فسادا مما قبله فان لازمه ان فرعون
وقومه كانوا مؤمنين فانهم عرفوا صدق موسى وهارون ولم يؤمنوا
بهما ولهذا قال موسى لفرعون ﴿ لقد علمت ما انزل هؤلاء الارب السموات
والارض بصائر ﴾ وقال تعالى ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا
فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ واهل الكتاب كانوا يعرفون النبي ﷺ
كما يعرفون ابناءهم ولم يكونوا مؤمنين به بل كافرين به معادين له وكذلك
ابو طالب عنده يكون مؤمنا فانه قال :

ولقد علمت بأن دين محمد * من خير اديان البرية ديننا
لولا الملامة او حذار مسبة * لوجدتني سمحا بذلك مينا
بل ابليس يكون عند الجهم مؤمنا كامل الايمان فانه لم يجهل ربه بل
هو عارف به ﴿ قال رب فانظرني الى يوم يبعثون - قال رب بما اغويتنى - قال
فبعزتك لا اغوينهم اجمعين ﴾ والكفر عند الجهم هو الجهل بالرب تعالى ولا احد
أجهل منه بربه فانه جعله الوجود المطلق وسلب عنه جميع صفاته ولا جهل
اكبر من هذا فيكون كافرا بشهادته على نفسه وبين هذه المذاهب مذاهب
آخر بتفاصيل وقيود اعرضت عن ذكرها اختصارا ذكر هذه المذاهب ابو
المعين النسفي في تبصرة الادلة وغيره . وحاصل الكل يرجع الى ان الايمان
اما ان يكون ما يقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح كما ذهب اليه جمهور

السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم كما تقدم أو بالقلب واللسان دون الجوارح
كما ذكره الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله أو باللسان وحده كما تقدم
ذكره عن الكرامية أو بالقلب وحده وهو ما المعرفة كما قاله الجهم والتصديق
كما قاله أبو منصور الماتريدي وفساد قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهر
والاختلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقيين من أهل السنة اختلاف صوري
فإن كون أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب أو جزءا من الإيمان مع الاتفاق
على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان بل هو في مشيئة الله أن شاء
عذبه وأن شاء عفى عنه نزاع لفظي لا يترتب عليه فساد اعتقاد والقائلون
بتكفير تارك الصلاة ضموا إلى هذا الأصل أدلة أخرى . والافتقار نفي النبي
ﷺ الإيمان عن الزاني والسارق وشارب الخمر والمنتهب ولم يوجب ذلك زوال
اسم الإيمان عنهم بالكلية اتفاقا ولاخلاف بين أهل السنة إن الله تعالى أراد من
العباد القول والعمل وأعني بالقول التصديق بالقلب والاقرار باللسان وهذا
الذي يعني به عند إطلاق قولهم الإيمان قول وعمل لكن هذا المطلوب من
العباد هل يشمله اسم الإيمان أم الإيمان أحدهما وهو القول وحده والعمل
مغاير له لا يشمله اسم الإيمان عند أفراده بالذکر وإن أطلق عليهما كان مجازا
هذا محل النزاع . وقد اجتمعوا على أنه لو صدق بقلبه وأقر بلسانه وامتنع عن
العمل بجوارحه أنه عاص الله ورسوله مستحق الوعيد لكن فيمن يقول إن
الأعمال غير داخلية في مسمى الإيمان من قال لما كان الإيمان شيئا واحدا فإيمان^(١)
كإيمان أبي بكر الصديق وعمر بل قال كإيمان الأنبياء والمرسلين وجبرائيل

وميكائيل وهذا غلو منه فان الكفر مع الايمان كالعمى مع البصر ولا شك ان
البصراء يختلفون في قوة البصر وضعفه فمنهم الاخفش والاعشى ويرى الخط
الشخين دون الدقيق الازجاجة ونحوها ولا يرى عن قرب زائد على العادة واخر
بضده ولهذا والله اعلم . قال الشيخ رحمه الله واهله في اصله سواء يشير الى
ان التساوي انما هو في اصله ولا يلزم منه التساوي من كل وجه بل تفاوت
نور لا إله الا الله في قلوب اهلها لا بحصيتها الا الله تعالى . فمن الناس من نور
لا إله الا الله في قلبه كالشمس ومنهم من نورها في قلبه كالسكوكب الدرري
وأخر كالشعل العظيم وآخر كالسراج المضيء وآخر كالسراج الضعيف . ولهذا
تظهر الانوار يوم القيامة بايمانهم ويبن ايديهم على هذا المقدار بحسب ما في
قلوبهم من نور الايمان والتوحيد علما وعملا وكلما اشتد نور هذه الكلمة
وعظم احرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته بحيث انه ربما وصل الى
حال لا يصادف شهوة ولا شبهة ولا ذنبا الا احرقه وهذه حال الصادق في
توحيد فسماء ايمانه قد حرس بالرجوم من كل سارق ومن عرف هذا عرف ان
قول النبي ﷺ « ان الله حرم على النار من قال لا إله الا الله يبتغي بذلك
وجه الله » وقوله « لا يدخل النار من قال لا إله الا الله » وما جاء من هذا النوع من
الاحاديث التي اشكلت على كثير من الناس حتى ظنوا بعضهم منسوخة وظنوا
بعضهم قبل ورود الاوامر والنواهي وحملوا بعضهم على نار المشركين والكفار
واول بعضهم الدخول بالخلود ونحو ذلك والشارع صلوات الله وسلامه عليه
لم يجعل ذلك حاصلًا بمجرد قول اللسان فقط فان هذا من المعلوم بالاضطرار
من دين الاسلام فان المنافقين يقولونها بالسنتهم وهم تحت الجاحدين في الدرك

الاسفل من التار فان الاعمال لا تتفاضل بصورها وعددها وانما تتفاضل بتفاضل
مافي القلوب وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون
سجلا كل سجل منها مد البصر فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يعذب
صاحبها . ومعلوم ان كل موحد له مثل هذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار .
وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الايمان التي لم تشغله عند السياق عن السير
الى القرية وحملته وهو في تلك الحال ان جعل ينوء بصدرة وهو يعالج سكرات
الموت . وتأمل ما قام بقلب النبي من الايمان حيث نزعت موقها وسقت
الكلب من الركية فغفر لها وهكذا العقل ايضا فانه يقبل التفاضل واهله
في اصله سواء مستوون في انهم عقلاء غير مجانين وبعضهم اعقل من بعض
وكذلك الأيحاب والتحرير فيكون ايحاب دون ايحاب وتحرير دون تحرير
هذا هو الصحيح وان كان بعضهم قد طرد ذلك في العقل والوجوب . واما
زيادة الايمان من جهة الاجمال والتفصيل فمعلوم انه لا يجب في اول الأمر
ما وجب بعد نزول القرآن كله . ولا يجب على كل احد من الايمان المفصل
مما اخبر به الرسول ما يجب على من بلغه خبره كما في حق التجاشي وامثاله .
واما الزيادة بالعمل والتصديق المستلزم لعمل القلب والجوارح فهو اكمل
من التصديق الذي لا يستلزمه فالعلم الذي يعمل به صاحبه اكمل من العلم الذي
لا يعمل به فاذا لم يحصل اللازم دل على ضعف اللزوم . ولهذا قال النبي ﷺ
« ليس الخبير كالمعين » وموسى عليه السلام لما اخبر ان قومه عبدوا العجل
لم يلق الاالواح فلما رآهم قد عبدوه القاها وليس ذلك لشك موسى في خبر
الله لكن الخبير وان جزم بصدق الخبير فقد لا يتصور الخبير به في نفسه كما

يتصوره اذا عاينه ، كما قال ابراهيم الخليل صلوات الله على نبينا محمد وعليه
﴿ رب ارني كيف نمحي الموتى قال اولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾
وايضا فمن وجب عليه الحج والزكاة مثلا يجب عليه من الايمان ان يعلم ما
امر به ويؤمن بأن الله اوجب عليه مالا يجب على غيره الا بجملها وهذا يجب
عليه فيه الايمان المفصل . وكذلك الرجل اول ما يسلم انما يجب عليه الاقرار
المجمل ثم اذا جاء وقت الصلاة كان عليه ان يؤمن بوجوبها ويؤديها فلم يتساو
الناس فيما امروا به من الايمان . ولا شك ان من قام بقلبه التصديق الجازم
الذي لا يقوى على معارضته شهوة ولا شهية لاتقع معه معصية ولو لا ما حصل
له من الشهوة والشبهة او احدهما لما عصى بل يشتغل قلبه ذلك الوقت بما
يواقفه من المعصية فيغيب عنه التصديق والوعيد فيعصي . ولهذا والله اعلم
قال عليه السلام « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » الحديث فهو حين يزني
يغيب عنه تصديقه بجرمة الزنا وان بقي اصل التصديق في قلبه ثم يعاوده
فان المتقين كما وصفهم الله بقوله ﴿ ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان
تذكروا فاذا هم مبصرون ﴾ قال ليث عن مجاهد هو الرجل يهيم بالذنب فيذكر
الله فيدعه . والشهوة والغضب مبدأ السيئات فاذا ابصر رجع . ثم قال تعالى
﴿ واخوانهم يمدونهم في النفي ثم لا يقصرون ﴾ اي واخوان الشياطين تمدم
الشياطين في النفي ثم لا يقصرون . قال ابن عباس لا الا نس تقصر عن السيئات
ولا الشياطين تمسك عنهم فاذا لم يبصر يبقي قلبه في عمى والشيطان يمدده في
غيه وان كان التصديق في قلبه لم يكذب فذلك النور والابصار وتلك الخشية
والخوف تخرج من قلبه وهذا كما ان الانسان يغمض عينه فلا يرى وان لم

يكن اعنى فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لا يبصر الحق وان لم
يكن اعنى كعنى الكافر وجاء هذا المعنى مرفوعا الى النبي ﷺ انه قال « اذا
زنا العبد نزع منه الايمان فاذا تاب اعيد اليه » واذا كان النزاع في هذه المسئلة
بين اهل السنة نزاعا لفظيا فلا محذور فيه سوى ما يحصل من عدوان احدى
الطائفتين على الاخرى والافتراق بسبب ذلك وان يصير ذلك ذريعة الى بدع اهل
الكلام المذموم من اهل الارجاء ونحوهم والى ظهور الفسق والمعاصي بأن يقول
انا مؤمن مسلم حقا كامل الايمان والاسلام ولي من اولياء الله فلا يبالي بما يكون
منه من المعاصي وبهذا المعنى قالت المرجئة: لا يضر مع الايمان ذنب لمن عمله وهذا
باطل قطعا . فالامام ابو حنيفة رضي الله عنه نظر الى حقيقة الايمان لغة مع ادلة
من كلام الشارع . وبقية الائمة رحمهم الله نظروا الى حقيقته في عرف الشارع فان
الشارع ضم الى التصديق اوصافا وشرايط كما في الصلاة والصوم والحج ونحو ذلك
فمن ادلة الاصحاب لأبي حنيفة رحمه الله أن الايمان في اللغة عبارة عن التصديق
قال تعالى خبرا عن اخوة يوسف ﴿ وما انت بمؤمن لنا ﴾ اي بمصدق لنا
ومنهم من ادعى اجماع اهل اللغة على ذلك ثم هذا المعنى اللغوي وهو التصديق
بالقلب هو الواجب على العبد حقا لله وهو ان يصدق الرسول ﷺ فيما جاء
به من عند الله فن صدق الرسول بما جاء به من عند الله فهو مؤمن فيما بينه
وبين الله تعالى والافرار بشرط اجراء احكام الاسلام في الدنيا هذا على احد
القولين كما تقدم ولانه ضد الكفر وهو التكذيب والجحود وهما يكونان
بالقلب فكذا ما يصادها وقوله (الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان) يدل
على ان القلب هو موضع الايمان لا اللسان ولانه لو كان مركبا من قول وعمل

لزال كله بزوال جزئه ولان العمل قد عطف على الايمان والعطف يقتضي
الغايرة قال تعالى ﴿ آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ في مواضع من القرآن . وقد
اعترض على استدلالهم بأن الايمان في اللغة عبارة عن التصديق يمنع الترادف
بين التصديق والايمان فهب ان الامر يصح في موضع فلم قلتم انه يوجب
الترادف مطلقا وكذلك اعترض على دعوى الترادف بين الاسلام والايمان .
ومما يدل على عدم الترادف انه يقال للمخبر اذا صدق صدقه ومنه لا يقال :
آمنه ولا آمن به بل يقال آمن له كما قال تعالى ﴿ فآمن له لوطا فما آمن لموسى
الا ذرية من قومه ﴾ . وقال تعالى ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ ففرق بين
المعدي بالباء والمعدي باللام فالاول يقال للمخبر به والثاني للمخبر ولا يرد كونه
يجوز ان يقال : ما انت بمصدق لنا لان دخول اللام لتقوية العامل كما اذا
تقدم المعمول او كان العامل اسم فاعل او مصدرا على ما عرف في موضعه
فالخاص انه لا يقال : قد آمنتته ولا صدقت له . انما يقال : آمنت له كما يقال
اقررت له فكان تفسيره بأقررت اقرب من تفسيره بصدقت مع الفرق
بينهما ولان الفرق بينهما ثابت في المعنى فان كل مخبر عن شاهد او غيب يقال
له في النعمة صدقت كما يقال له كذبت فمن قال : السماء فوقنا قيل له صدقت .
واما لفظ الايمان فلا يستعمل الا في الخبر عن الغائب فيقال لمن قال : طلعت
عليه الشمس صدقناه ولا يقال امنا له فان فيه اصل معنى الامن والايمان انما
يكون في الخبر عن الغائب فالامر الغائب هو الذي يؤتمن ^(١) عليه المخبر .
ولهذا لم يأت في القرآن وغيره لفظ آمن له الا في هذا النوع ولانه لم يقابل

(١) كذا بالاصل ولعله يؤمن عليه إلخ

لفظ الايمان قط بالتكذيب كما يقابل لفظ التصديق وانما يقابل بالكفر
والكفر لا يختص بالتكذيب بل لو قال انا علم انك صادق ولكن لا اتبعك
بل اعاديك وابقضك واخالفك لكان كفر اعظم فعلم ان الايمان ليس التصديق
فقط ولا الكفر التكذيب فقط بل اذا كان الكفر يكون تكذيبا ويكون
مخالفة ومعاداة بلا تكذيب فكذلك الايمان يكون تصديقا وموافقة
وموالة واتقيادا ولا يكفي مجرد التصديق فيكون الاسلام جزء مسمى الايمان
ولو سلم الترادف فالتصديق يكون بالافعال ايضا كما ثبت في الصحيح عن النبي
ﷺ انه قال « العيمان تزنيان وزناهما النظر والاذن تزني وزناهما السمع » الى
ان قال « والفرج يصدق ذلك ويكذبه » وقال الحسن البصري رحمه الله :
ليس الايمان بالتحلي ولا بالتمني ولكنه ما وقر في الصدور وصدقته الاعمال .
ولو كان تصديقا فهو تصديق مخصوص كما في الصلاة ونحوها كما تقدم وليس
هذا نقلا للفظ ولا تغيرا له فان الله لم يأمر بايمان مطلق بل بايمان خاص وصفه
ويبينه فالتصديق الذي هو الايمان ادنى احواله ان يكون نوعا من التصديق العام
فلا يكون مطابقا له في العموم والخصوص من غير تغير اللسان ولا قلبه بل يكون
الايمان في كلام الشارع مؤلفا من العام والخاص كالانسان الموصوف بانه حيوان
ناطق . ولان التصديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من اعمال القلب
والجوارح . فان هذه لوازم الايمان التام وانتفاء اللازم دليل على انتفاء
الملزوم ونقول ان هذه لوازم تدخل في مسمى اللفظ تارة وتخرج عنه اخرى او ان
اللفظ باق على معناه في اللغة ولكن الشارع زاد فيه احكاما وان يكون الشارع
استعمله في معناه المجازي فهو حقيقة شرعية مجاز لغوي او ان يكون قد نقله

الشارع . وهذه الاقوال لمن سلك هذا الطريق وقالوا ان الرسول قد وافقنا على معاني الايمان وعلمنا من مراده علما ضروريا ان من قال انه صدق ولم يتكلم بلسانه بالايمان مع قدرته على ذلك ولاصلي ولاصام ولا احب الله ورسوله ولاخاف الله بل كان مبغضا للرسول معاديا له يقائله ان هذا ليس بمؤمن كما علمنا انه رتب الفوز والفلاح على التكلم بالشهادتين مع الاخلاص والعمل بمقتضاها . فقد قال عليه السلام « الايمان بضع وسبعون شعبة اعلاها قول لا اله الا الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق » وقال ايضا عليه السلام « الحياء شعبة من الايمان » وقال ايضا عليه السلام « اكل المؤمنين ايماننا احسنهم خلقا » وقال ايضا عليه السلام « البذاذة من الايمان » فاذا كان الايمان اصلا له شب متعددة وكل شعبة منها تسمى ايماناً فالصلاة من الايمان . وكذلك الزكاة والصوم والحج والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل والخشية من الله والانابة اليه حتى تنتهي هذه الشعب الى اماطة الاذى عن الطريق فانه من شعب الايمان وهذه الشعب منها ما يزول الايمان بزوالها اجماعا كشعبة الشهادتين ومنها ما لا يزول بزوالها اجماعا كترك اماطة الاذى عن الطريق وبينهما شعب متفاوتة تفاوتاً عظيماً منها ما يقرب من شعبة الشهادة ومنها ما يقرب من شعبة اماطة الاذى وكما ان شعب الايمان ايمان فكذا شعب الكفر كفر فالحكم بما انزل الله مثلاً من شعب الايمان والحكم بغير ما انزل الله كفر . وقد قال عليه السلام « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه » وذلك اضعف الايمان « رواه مسلم وفي لفظ ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل . وروى الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال « من احب لله

وابغض لله واعطى الله ومنع لله فقد استكمل الايمان . ومعناه والله اعلم ان الحب
والبغض اصل حركة القلب وبذل المال ومنعه هو كمال ذلك فان المال آخر المتعلقات
بالنفس والبدن متوسط بين القلب والمال فمن كان اول امره وآخره كله لله كان
الله الهه في كل شيء فلم يكن فيه شيء من الشرك وهو ارادة غير الله وقصده
ورجاؤه فيكون مستكملا الايمان الى غير ذلك من الأحاديث الدالة على قوة
الايمان وضعفه بحسب العمل . وسيأتي في كلام الشيخ رحمه الله في شأن الصحابة
وحبهم دين وايمان واحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان فسمى حب الصحابة
ايمانا وبغضهم كفر او ما اعجب ما اجاب به ابو المعين النسفي وغيره عن استدلالهم
بحديث شعب الايمان المذكور وهو ان الراوي قال بضع وستون او بضع وسبعون
فقد شهد الراوي بقلعه نفسه حيث شك فقال بضع وستون او بضع وسبعون
ولا يظن برسول الله ﷺ الشك في ذلك وان هذا الحديث مخالف للكتاب فظن
فيه بغفلة الراوي ومخالفته الكتاب فانظر الى هذا الطعن ما اعجبه فان تردد الراوي
بين الستين والسبعين لا يلزم منه عدم ضبطه مع ان البخاري رحمه الله انما رواه
بضع وستون من غير شك . واما الطعن بمخالفته الكتاب فابن في الكتاب
ما يدل على خلافه وانما فيه ما يدل على وفاقه وانما هذا الطعن من ثمرة شؤم
التقليد والتعصب . وقالوا ايضا وهنا اصل آخر وهو ان القول قسمان قول
القلب وهو الاعتقاد وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الاسلام والعمل قسمان
عمل القلب وهو نيته واخلاصه وعمل الجوارح فاذا زالت هذه الاربعة زال
الايمان بكاله واذا زال تصديق القلب لم ينفع بقية الآخر فان تصديق القلب
شرط في اعتبارها وكونها نافعة واذا بقي تصديق القلب وزال الباقي فهذا

موضع المعركة ولا شك انه يلزم من عدم طاعة الجوارح عدم طاعة القلب
اذ لو اطاع القلب وانقاد لاطاعت الجوارح وانقادت ويلزم من عدم طاعة القلب
واقتياده عدم التصديق المستلزم للطاعة قال عليه السلام « ان في الجسد مضغة اذا
صلحت صلح لها سائر الجسد واذا فسدت فسدت لها سائر الجسد الا وهي القلب »
فن صلح قلبه صلح جسده قطعا بخلاف العكس واما كونه يلزم من زوال جزئه
زوال كله فان اريد ان الهيئة الاجتماعية لم تبقى مجتمعة كما كانت فسلم ولكن
لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الاجزاء فيزول عنه الكمال فقط والادلة
على زيادة الايمان وتقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية
كثيرة جدا منها قوله تعالى ﴿ واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا
ويزيد الله الذين اهتدوا هدى - ويزداد الذين آمنوا ايمانا - هو الذي انزل
السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم - الذين قال لهم الناس
ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا احسبنا الله ونعم الوكيل ﴾
وكيف يقال في هذه الآية والتي قبلها ان الزيادة باعتبار زيادة المؤمن به فهل في قول
الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم زيادة مشروع وهل في انزال السكينة في قلوب
المؤمنين زيادة مشروع وانما انزل الله السكينة في قلوب المؤمنين مرجعهم
من الحديدية ليزدادوا طمانينة و يقينا ويزيد ذلك قوله تعالى ﴿ هم ناكفرون
يومئذ اقرب منهم للايمان ﴾ وقال تعالى ﴿ واذا ما انزلت سورة فنفثوا من يقول
ايكم زادته هذه ايمانا فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون
واما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾
واما ما رواه الفقيه ابو الليث السمرقندي في تفسيره عند هذه الآية فقال

حدثنا محمد بن الفضل وابو القاسم الساباذي قالا حدثنا فارس بن مردويه
قال حدثنا محمد بن الفضل بن العابد قال حدثنا يحيى بن عيسى قال حدثنا
ابو مطيع عن حماد بن سلمة عن ابي المهزم عن ابي هريرة قال جاء وقد ثقيف
إلى رسول الله ﷺ فقالوا يارسول الله الايمان يزيد وينقص فقال لا « الايمان
مكمل في القلب زيادته ونقصانه كفر » فقد سئل شيخنا الشيخ عماد الدين
ابن كثير رحمه الله عن هذا الحديث فاجاب بأن الاسناد من ابي الليث الى
ابي مطيع مجهولون لا يعرفون في شيء من كتب التواريخ المشهورة واما
ابو مطيع فهو الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخي ضعفه احمد بن حنبل ويحيى
ابن معين وعمرو بن علي الفلاس والبخاري وابو داود والنسائي وابو حاتم
الرازي وابو حاتم محمد بن حبان البستي والعقيلي وابن عدي والدارقطني وغيرهم
واما ابو المهزم الراوي عن ابي هريرة فقد تصحف على الكاتب واسمه يزيد
ابن سفيان فقد ضعفه ايضا غير واحد وتركه شعبة بن الحجاج وقال النسائي
متروك وقد اتهمه شعبة بالوضع حيث قال لو اعطوه فلسطين لحشهم سبعين
حديثا وقد وصف النبي ﷺ النساء بنقصان العقل والدين . وقال ﷺ « لا يؤمن
احدكم حتى اكون احب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين » والمراد نفي
الكمال ونظائره كثيرة وحديث شعب الايمان وحديث الشفاعة وانه يخرج
من النار من في قلبه ادنى ادنى مثقال ذرة من ايمان فكيف يقال بعد هذا
ان ايمان اهل السموات والارض سواء وانما التفاضل بينهم بيمان اخر غير
الايمان وكلام الصحابة رضي الله عنهم في هذا المعنى كثير ايضا . منه قول ابي
الدرداء رضي الله عنه من فقه العبد ان يتعاهد ايمانه وما نقص منه ومن فقه

العبد ان يعلم ايزداد هوام ينقص وكان عمر رضي الله عنه يقول لاصحابه :
هلوا نزداد إيماناً فيذكرون الله تعالى عز وجل . وكان أبو مسعود رضي الله
عنه يقول في دعائه اللهم زدنا إيماناً و يقيناً وفقهاً . وكان معاذ بن جبل رضي الله
عنه يقول لرجل اجلس بنا تؤمن ساعة ومثله عن عبد الله بن رواحة . وصح
عن عمار بن ياسر رضي الله عنه انه قال : ثلاث من كن فيه فقد استكمل الايمان
انصاف من نفسه والانفاق من اقتار وبذل السلام العالم . ذكره البخاري رحمه
الله في صحيحه وفي هذا القدر كفاية وبالله التوفيق . وأما كون عطف العمل
على الايمان يقتضي المغايرة فلا يكون العمل داخل في معنى الايمان فلاشك
ان الايمان تارة يذكّر مطلقاً عن العمل وعن الاسلام وتارة يقرن بالعمل
الصالح وتارة يقرن بالاسلام المطلق مستلزم للاعمال . قال تعالى ﴿ انما المؤمنون
الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ الآية ﴿ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله
ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ الآية ﴿ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما انزل اليه
ما اتخذوهم اولياء ﴾ وقال عليه السلام « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن - الحديث
لا تؤمنوا حتى تحابوا - من غشنا فليس منا - من حمل علينا السلاح فليس
منا » وما ابعد قول من قال ان معنى قوله فليس منا اي فليس مثلنا فليت
شعري فمن لم يغش يكون مثل النبي عليه السلام واصحابه . وأما اذا عطف عليه العمل
الصالح فاعلم ان عطف الشيء على الشيء يقتضي المغايرة بين المعطوف
والمعطوف عليه مع الاشتراك في الحكم الذي ذكر لهما والمغايرة على مراتب
أعلاها أن يكونا متباينين ليس احدهما هو الآخر ولا جزءا منه ولا بينها
تلازم لقوله تعالى ﴿ خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور - وانزل

التوراة والانجيل * وهذا هو الغالب وبليه ان يكون بينهما لازم كقوله تعالى
* ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون - واطيعوا الله
واطيعوا الرسول * (الثالث) عطف بعض الشيء عليه كقوله تعالى * حافظوا
على الصلوات والصلوة الوسطى - من كان عدوا لله وملائكته وكتبه ورسله
وجبريل وميكال - واذا اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك * وفي مثل هذا
وجهان (احدهما) ان يكون داخلا في الاول فيكون مذكورا مرتين
(والثاني) ان عطفه عليه يقتضي انه ليس داخلا فيه هنا وان كان داخلا فيه
منفردا كما قيل مثل ذلك في لفظ الفقراء والمساكين ونحوهما تتنوع دلالاته
بالافراد والاقتران (الرابع) عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين كقوله
تعالى * غافر الذنب وقابل التوب * وقد جاء في الشعر المطف لاختلاف اللفظ
فقط كقوله : * فآلني قولها كذبا وميننا *

ومن الناس من زعم ان في القرآن من ذلك قوله تعالى * لكل جعلنا
منكم شرعة ومنهاجا * والكلام على ذلك معروف في موضعه فاذا كان المطف
في الكلام يكون على هذه الوجوه . نظرنا في كلام الشارع كيف ورد فيه
الايمان فوجدناه اذا اطلق يراد به ما يراد بلفظ البر والتقوى والدين ودين
الاسلام ذكر في اسباب النزول انهم سألوا عن الايمان فانزل الله هذه الآية
* ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب * الآيات . قال محمد
ابن نصر حدثنا اسحق بن ابراهيم حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ والملائق
قالا حدثنا السعودي عن القاسم . قال جاء رجل الى ابي ذر فسأله عن الايمان
فقرا * ليس البر ان تولوا وجوهكم * الى آخر الآية فقال الرجل ليس عن

هذا سألتك فقال جاء رجل الى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني عنه فقرأ عليه
الذي قرأت عليك فقال له الذي قلت لي فلما ابى ان يرضى قال ان المؤمن الذي
اذا عمل الحسنة سرته ورجا ثوابها واذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها وكذلك
اجاب جماعة من السلف بهذا الجواب. وفي الصحيح قوله لو فدع عبد القيس امرمكم
بالايمان بالله وحده اندرون ما الايمان بالله شهادة ان لا اله الا الله وحده لا شريك
له وايقام الصلاة وايتاء الزكاة وان تؤدوا الخس من المغنم. ومعلوم انه لم يرد
ان هذه الاعمال تكون ايمانا بالله بدون ايمان القلب لما قد اخبر في مواضع
انه لا بد من ايمان القلب فعلم ان هذه مع ايمان القلب هو الايمان وأي دليل
على ان الاعمال داخلة في مسمى الايمان فوق هذا الدليل فانه فسر الايمان
بالاعمال ولم يذكر التصديق للعلم بأن هذه الاعمال لا تقيد مع الجحود. وفي
المسند عن أنس عن النبي ﷺ انه قال الاسلام علانية والايمان في القلب. وفي
هذا الحديث دليل على المغايرة بين الاسلام والايمان ويؤيده قوله وقد قال فيه
النبي ﷺ « هذا جبرائيل اتاكم يعلمكم دينكم » فجعل الدين هو الاسلام والايمان
والاحسان فتبين ان ديننا يجمع الثلاثة لكن هو درجات ثلاثة مسلم ثم مؤمن ثم
محسن والمراد بالايمان ما ذكر مع الاسلام قطعاً كما أنه أريد بالاحسان ما ذكر مع
الايمان والاسلام لان الاحسان يكون مجردا عن الايمان هذا محال. وهذا
كما قال تعالى ﴿ ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه
ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ﴾. والمقتصد والسابق كلاهما
يدخل الجنة بلا عقوبة بخلاف الظالم لنفسه فانه معرض للوعيد وهكذا من
اتي بالاسلام الظاهر مع التصديق بالقلب لكن لم يقم بما يجب عليه من الايمان

الباطن فانه معرض للوعيد فأما الاحسان فهو اعم من جهة نفسه وأخص من
جهة اهله والايان أم من جهة نفسه واخص من جهة اهله من الاسلام فالاحسان
يدخل فيه الايمان والايان يدخل فيه الاسلام والمحسنون أخص من المؤمنين
والمؤمنون أخص من المسلمين وهذا كالرسالة والنبوة فالنبوة داخلة في الرسالة
والرسالة اعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها فكل رسول نبي ولا ينعكس .
وقد صار الناس في مسمى الاسلام على ثلاثة اقوال فطائفة جعلت الاسلام هو الكلمة
وطائفة اجابوا بما اجاب به النبي ﷺ حين سئل عن الاسلام والايان حيث فسر
الاسلام بالاعمال الظاهرة والايان بالايان بالاصول الخمسة . وطائفة جعلوا
الاسلام مرادف للايمان وجعلوا معنى قول الرسول ﷺ ان الاسلام شهادة ان لا اله
الا الله واقام الصلاة « الحديث شعائر الاسلام والاصل عدم التقدير مع انهم
قالوا : ان الايمان هو التصديق بالقلب ثم قالوا : الاسلام والايان شي واحد
فيكون الاسلام هو التصديق وهذا لم يقله احد من اهل اللغة وانما هو الاتقياد
والطاعة وقد قال النبي ﷺ « اللهم لك اسلمت وبك آمنت » وفسر الاسلام
بالاعمال الظاهرة والايان بالايان بالاصول الخمسة . فليس لنا اذا جمعنا بينهما
ان نجيب بغير ما اجاب النبي ﷺ . واما اذا افرد اسم الايمان فانه يتضمن
الاسلام واذا افرد الاسلام فقد يكون مع الاسلام مؤمنا بلا نزاع وهذا
هو الواجب وهل يكون مسلما ولا يقال له مؤمن وقد تقدم الكلام فيه .
وكذلك هل يلتزم الاسلام الايمان فيه النزاع المذكور وانما وعد الله بالجنة
في القرآن وبالنجاة من النار باسم الايمان كما قال تعالى ﴿ اَلَا اِنَّ اَوْلِيَاءَ اللّٰهِ لَا
خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ سَابِقُوا

الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض اعدت للذين آمنوا
بالله ورسوله ﴿ . وأما اسم الاسلام مجردا فاعلق به في القرآن دخول الجنة
لكنه فرضه واخبر انه دينه الذي لا يقبل من احد سواه وبه بعث النبيين
﴿ ومن يبتغ غير الاسلام دينافن يقبل منه ﴾ فالخصل ان حالة اقتران الاسلام
بالايمان غير حالة افراد احدهما عن الآخر فقتل الاسلام من الايمان كاشهادتين
احدهما من الاخرى فشهادة الرساله غير شهادة الوجدانية فهما شيثان في
الاعيان واحدهما مرتبطة بالاخرى في المعنى والحكم كشيء واحد . كذلك
الاسلام والايمان لا ايمان لمن لا اسلام له ولا اسلام لمن لا ايمان اذ لا يخلو
المؤمن من اسلام به يتحقق ايمانه ولا يخلو المسلم من ايمان به يصح اسلامه .
ونظائر ذلك في كلام الله ورسوله وفي كلام الناس كثيرة اعني في الافراد والاقتران
منها لفظ الكفر والنافق فالكفر اذا ذكر مفردا في وعيد الآخرة دخل
فيه المنافقون كقوله تعالى ﴿ ومن يكفر بالايمان فقط حبط عمله وهو في
الآخرة من الخاسرين ﴾ ونظائره كثيرة . واذا قرن بينهما كان الكافر من
اظهر كفره والنافق من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه وكذلك لفظ البر
والتقوى . ولفظ الاثم والعدوان . ولفظ التوبة والاستغفار ولفظ الفقير
والمسكين . وامثال ذلك ويشهد للفرق بين الاسلام والايمان قوله تعالى
﴿ قالت الاعراب آمننا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ﴾ الخ السورة وقد
اعترض على هذا بان معنى الآية ﴿ قولوا اسلمنا ﴾ اتقدنا بظواهرنا فهم منافقون
في الحقيقة وهذا احد قول المفسرين في هذه الآية الكريمة . وأجيب بالقول
الآخر ورجح وهو انهم ليسوا بمؤمنين كاملي الايمان لانهم منافقون كما نفي

الايمان عن القاتل والزاني والسارق ومن لا ايمان له ويؤيد هذا سياق الآية
فان السورة من اولها الى هنا في النهي عن المعاصي . واحكام بعض العصيات
ونحو ذلك وليس فيها ذكر المنافقين . ثم قال بعد ذلك ﴿ وان تطيعوا الله
ورسوله لا يلتكم من اعمالكم شيئا ﴾ ولو كانوا منافقين ما نفعتهم الطاعة ثم
قال ﴿ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ الآية يعني والله
اعلم ان المؤمنين الكاملي الايمان هم هؤلاء لانهم بل انتم منتف عنكم الايمان
الكامل . يؤيد هذا انه امرهم او اذن لهم ان يقولوا اسلمنا والمنافق لا يقال له
ذلك ولو كانوا منافقين لنفي عنهم الاسلام كما نفي عنهم الايمان ونهاهم ان يمتنوا
باسلامهم فثبت لهم اسلاما ونهاهم ان يمتنوا به على رسوله ولو لم يكن اسلاما
صحيحا لقال : لم تسلموا بل انتم كاذبون كما كذبهم في قوله ^(١) "شهد انك لرسول
الله والله اعلم بالصواب وينتفي بعد هذا التقدير والتفصيل دعوى الترادف
وتشنيع من الزم بان الاسلام لو كان هو الامور الظاهرة لكان ينبغي ان لا
يقابل بذلك ولا يقبل ايمان المخلص وهذا ظاهر الفساد فانه قد تقدم تفسير الايمان
والاسلام بالشهادتين وغيرهما وان حالة الاقتران غير حالة الانفراد فانظر الى كلمة
الشهادة فان النبي ﷺ قال « امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله »
الحديث فلو قالوا : لا اله الا الله وانكروا الرسالة ما كانوا يستحقون العصمة
بل لا بد ان يقولوا لا اله الا الله قائمين بحقها ولا يكون قائما بلا اله الا الله
حق القيام الا من صدق بالرسالة وكذا من شهد ان محمداً رسول الله لا يكون
قائماً بهذه الشهادة حق القيام الا من صدق هذا الرسول في كل ما جاء به

(١) كذا بالاصل ولعله قولهم

فتضمنت التوحيد واذا ضمنت شهادة ان لا اله الا الله الى شهادة ان محمدا
رسول الله كان المراد من شهادة ان لا اله الا الله اثبات التوحيد ومن شهادة
ان محمد رسول الله اثبات الرسالة كذلك الاسلام والايمان اذا قرن احدهما
بالآخر كما في قوله تعالى ﴿ ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾
وقوله ﷺ « اللهم لك اسلمت وبك آمنت » كان المراد من احدهما غير المراد
من الآخر . وكما قال ﷺ « الاسلام علانية والايمان في القلب واذا انفرد
احدهما شمل معنى الآخر وحكمه وكما في الفقير والمسكين ونظائره فان لفظي
الفقير والمسكين اذا اجتمعا افترقا واذا افترقا اجتمعا فهل يقال في قوله تعالى
﴿ فاطعام عشرة مساكين ﴾ انه يعطى المقل دون المعدم او بالعكس . وكذا في
قوله تعالى ﴿ وان تحفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ ويندفع ايضا تشنيع
من قال ما حكم من آمن ولم يسلم او اسلم ولم يؤمن في الدنيا والآخرة فمن اثبت
لاحدهما حكما ليس بثابت للآخر ظهر بطلان قوله ويقال له في مقابلة تشنيعه
انت تقول المسلم هو المؤمن والله تعالى يقول ﴿ ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين
والمؤمنات ﴾ فجعلها غيرين وقد قيل لرسول الله ﷺ « مالك عن فلان والله
اني لاراه مؤمنا قال او مسلما » قالها ثلاثا فاثبت له الاسلام وتوقف في
اسم الايمان فن قال هما سواء كان مخالفا والواجب رد موارد النزاع الى الله
ورسوله وقد يترأى في بعض النصوص معارضة ولا معارضة بحمد الله تعالى
ولكن الشأن في التوفيق وبالله التوفيق . واما الاحتجاج بقوله تعالى ﴿ فاخرجنا
من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ على ترادف
الاسلام والايمان فلا حجة فيه لان البيت المحرج كانوا مؤمنين بالاسلام

والايمان ولا يلزم من الاتصاف بهما ترادفهما والظاهر ان هذه المعارضات لم تثبت عن ابي حنيفة رحمه الله وانما هي من الاصحاب فان غالبها ساقط لا يرتضيه ابو حنيفة وقد حكى الطحاوي حكاية ابي حنيفة مع حماد بن زيد وان حماد بن زيد لما روى له حديث اي الاسلام افضل الى آخره قال له الاتراء يقول اي الاسلام افضل قال الايمان ثم جمل الهجرة والجهاد من الايمان فسكت ابو حنيفة فقال بعض اصحابه الا يجيبه يا ابا حنيفة قال بما اجيبه وهو يحدثني بهذا عن رسول الله ﷺ . ومن ثمرات هذا الاختلاف مسألة الاستثناء في الايمان وهو ان يقول اي الرجل انا مؤمن ان شاء الله والناس فيه على ثلاثة اقوال طرفان ووسط منهم من يوجهه ومنهم من يحرمه ومنهم من يجيزه باعتبار ويمتنعه باعتبار وهذا اصح الاقوال اما من يوجهه فلهم ماخذان (احدهما) ان الايمان هو مامات الانسان عليه والانسان انما يكون عند الله مؤمنا او كافرا باعتبار الموافاة وما سبق في علمه انه يكون عليه وما قبل ذلك لا عبرة به قالوا والايمان الذي يعقبه الكفر فيموت صاحبه كافرا اي ليس بايمان كالصلاة التي افسدها صاحبها قبل الكمال والصيام الذي يفطر صاحبه قبل الغروب وهذا مأخذ كثير من السكالية وغيرهم وعند هؤلاء ان الله يحب في الازل من كان كافرا اذا علم منه انه يموت مؤمنا فالصحابة مازالوا محبوسين قبل اسلامهم وابلوس ومن ارتد عن دينه مازال الله يبغضه وان كان لم يكفر بعد وليس هذا قول السلف ولا كان يقول بهذا من يستثنى من السلف في ايمانه وهو فاسد فان الله تعالى قال ﴿ قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ فأخبر انه يحبهم ان اتبعوا الرسول فاتباع الرسول شرط المحبة والمشروط يتأخر عن الشرط وغير

ذلك من الادلة . ثم صار الى هذا القول طائفة غلوا فيه حتى صار الرجل منهم يستثنى في الاعمال الصالحة يقول صليت ان شاء الله ونحو ذلك يعني القبول . ثم صار كثير منهم يستثنون في كل شيء فيقول احدم هذا ثوب ان شاء الله هذا حبل ان شاء الله فاذا قيل لهم هذا لا شك فيه يقولون لكن اذا شاء الله ان يغيره غيره (المأخذ الثاني) ان الايمان المطلق يتضمن فعل ما امر الله به عبده كله وترك ما نهى عنه كله فاذا قال الرجل انا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه انه من الابرار المتقين القائمين بجميع ما امروا به وترك كل ما نهوا عنه فيكون من اولياء الله المقربين وهذا من تزكية الانسان لنفسه ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لكان ينبغي ان يشهد لنفسه بالجنة ان مات على هذه الحال وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون وان جوزوا ترك الاستثناء بمعنى آخر كما سنذكره ان شاء الله تعالى . ويحتجون ايضا بجواز الاستثناء فيما لا شك فيه كما قال تعالى ﴿ لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين ﴾ وقال عليه السلام حين وقف على المقابر « وانا ان شاء الله بكم لاحقون » وقال ايضا « اني لارجو ان اكون اخشاكم لله » ونظائر هذا واما من يحرمه فكل من جعل الايمان شيئا واحدا فيقول انا اعلم اني مؤمن كما اعلم اني تكلمت بالشهادتين فقولي انا مؤمن كقولي انا مسلم . فمن استثنى في ايمانه فهو شاك فيه وسموا الذين يستثنون في ايمانهم الشكاكة . واجابوا عن الاستثناء الذي في قوله تعالى ﴿ لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين ﴾ بانه يعود الى الامن والخوف فاما الدخول فلا شك فيه وقيل لتدخلن جميعكم او بعضكم لانه علم ان بعضهم يموت وفي كلا الجوابين نظر فاتهم وقعوا فيما فروا منه فاما الامن والخوف

فقد اخبرناهم يدخلون آمنين مع علمه بذلك فلا شك في الدخول ولا في
الامن ولا في دخول الجميع أو البعض فان الله قد علم من يدخل فلا شك فيه
ايضا فكان قول ان شاء الله هنا تحقيقا للدخول كما يقول الرجل فيما عزم على
ان يفعله ولا محالة والله لا يفعلن كذا ان شاء الله لا يقو لها لشك في ارادته وعزمه
ولكن انما لا يحنث الحالف في مثل هذا اليمين لانه لا يجزم بمحصل مراده .
واجيب بجواب آخر لا بأس به وهو انه قال ذلك تعليما لنا كيف نستثنى اذا
اخبرنا عن مستقبل وفي كون هذا المعنى مرادا من النص ففيه نظر فانه ماسيق
الكلام له الا ان يكون مرادا من اشارة النص . واجاب الزمخشري بجوابين
آخرين باطلين وهما ان يكون الملك قد قاله فثبت قرآنا او ان الرسول قاله
فعند هذا المسكين يكون من القرآن ما هو غير كلام الله فيدخل في وعيد
من قال ان هذا الا قول البشر نسأل الله العاقبة . واما من يجوز الاستثناء
وتركه فهم اسعد بالدليل من الفريقين وخير الامور اوسطها فان اراد المستثنى
الشك في اصل ايمانه منع من الاستثناء وهذا مما لا خلاف فيه وان اراد انه
مؤمن من المؤمنين الذين وصفهم الله في قوله ﴿ انما المؤمنون الذين اذا ذكر
الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون
الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون - اولئك هم المؤمنون حقا لهم
درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ انما المؤمنون
الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل
الله اولئك هم الصادقون ﴾ فالاستثناء حينئذ جائز . وكذلك من استثنى واراد
عدم علمه بالعاقبة وكذلك من استثنى تعليقا للأمر بمشيئة الله لا شك في

إيمانه وهذا القول في القوة كما ترى . قوله وجميع ما صرح عن رسول الله ﷺ
من الشرع والبيان كله حق . يشير الشيخ رحمه الله بذلك الى الرد على الجهمية
والمعتلة والمعتزلة والرافضة القائلين بان الاخبار قسمان متواتر واحاد فالتواتر
وان كان قطعي السند لكنه غير قطعي الدلالة فان الادلة اللفظية لا تفيد
اليقين . ولهذا قدسوا في دلالة القرآن على الصفات قلوبا والاحاد لا تفيد العلم
ولا يحتاج بها من جهة طريقها ولا من جهة متنها فسدوا على القلوب معرفة
الرب تعالى واسمائه وصفاته واقواله من جهة الرسول واحالوا الناس على قضايا
وهيئة ومقدمات خيالية سموها قواطع عقلية وبراهين يقينية وهي في التحقيق
كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عند
فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لحي يغشاه موج من
فوقه موج من فوقه سحب ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد
يراها ومن لم يجعل الله نورا قاله من نور . ومن العجب انهم قدموها
على نصوص الوحي وعزلوا لأجلها النصوص فاقتربت قلوبهم من الاهتداء
بالنصوص ولم يظفروا بالعقول الصحيحة المؤيدة بالفطرة السليمة والنصوص
النبوية ولو حكموا نصوص الوحي لفازوا بالمعقول الصحيح الموافق للفطرة
السليمة بل كل فريق من ارباب البدع يعرض النصوص على بدعته وما ظنه معقولا
فاوافقها قال انه محكم وقبله واحتج به وما خالفه قال انه متشابه ثم رده وسمى رده
تمويضا او حرفه وسمى تحريفه تأويلا . فلذلك اشتد انكار اهل السنة عليهم
وطريق اهل السنة ان لا يعدلوا عن النص الصحيح ولا يمارضوه بمعقوله ولا
قول فلان كما اشار اليه الشيخ رحمه الله . وكما قال البخاري رحمه الله سمعت الحميدي

يقول كنا عند الشافعي رحمه الله فأتاه رجل فسأله عن مسألة فقال قضى فيها رسول الله ﷺ كذا وكذا فقال رجل للشافعي ما تقول انت فقال سبحان الله تراني في كنيسة ، تراني في بيعة ، تراني على وسطي زنارا ، اقول لك قضى رسول الله ﷺ وأنت تقول ما تقول أنت ونظائر ذلك في كلام السلف كثير وقال تعالى ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم﴾ . وخبر الواحد اذا تلقتة الامة بالقبول عملا به وتصديقا له يفيد العلم اليقيني عند جماهير الامة وهو احد قسمي المتواتر ولم يكن بين سلف الامة في ذلك نزاع كخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه « انما الاعمال بالنيات » وخبر ابن عمر « نهى عن بيع الولاء وهبته » وخبر ابي هريرة « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها » وكقوله « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » وامثال ذلك وهو نظير خبر الذي اتى مسجد قباء وأخبر أن القبلة تحولت الى الكعبة فلست داروا اليها . وكان رسول الله ﷺ يرسل رسله احادا ويرسل كتبه مع الاحاد ولم يكن المرسل اليهم يقولون لا تقبله لانه خبر واحد وقد قال تعالى ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾ فلا بد ان يحفظ الله حججه ويدنائه على خلقه لثلا يبطل حججه وبيانه ولهذا فضح الله من كذب على رسوله في حياته وبعد وفاته وبين حاله للناس . قال سفيان ابن عيينة : ما ستر الله احدا يكذب في الحديث . وقال عبد الله ابن المبارك : لو هم رجل في البحر ان يكذب في الحديث لاصبح والناس يقولون فلان كذاب . وخبر الواحد وان كان يحتمل الصدق والكذب ولكن التفريق بين صحيح الاخبار وسقيمها لا يناله احد الا بعد ان يكون معظم اوقاته مشتغلا

بالحديث والبحث عن سيرة الرواة ليقف على احوالهم واقوالهم وشدة حذرهم
من الطغيان والزلل وكانوا بحيث لو قتلوا لم يسامحوا احدا في كلمة يتقولها على
رسول الله ﷺ ولا فعلوا هم بانفسهم ذلك . وقد نقلوا هذا الدين الينا كما نقل
اليهم فهم برك الاسلام وعصابة الايمان ومع تقاد الاخبار وصيارفة الاحاديث
فاذا وقف المرء على هذا من شأنهم وعرف حالهم وخبر صدقهم وورعهم وامانتهم
ظهر له العلم فيما نقلوه ورووه ومن له عقل ومعرفة يعلم ان اهل الحديث لهم العلم
باحوال نبيهم وسيرته واخباره ما ليس لغيرهم به شعور فضلا ان يكون معلوما
لهم او مظنونا كما ان النجاة عندهم من اخبار سيبويه والخليل واقوالهما ما ليس عند
غيرهم وعند اطباء من كلام بقراط وجالينوس ما ليس عند غيرهم وكل ذي صنعة
هو اخبر بها من غيره فلوسألت البقال عن امر العطر او العطار عن البر ونحو ذلك
لعد ذلك جهلا كثيرا ولكن النفاة قد جعلوا قوله تعالى ﴿ ليس كمثل شيء ﴾
مستند لهم في رد الاحاديث الصحيحة فكل ما جاءهم حديث يخالف قواعدهم
وآراءهم وما وضعته خواطرهم وافكارهم ردوه بليس كمثل شيء تلبسا منهم
وتليسا على من هو اعلم قلبا منهم وتحريفا ليعني الآي عن مواضع ففهموا
من اخبار العفات ما لم يرده الله ولا رسوله ولا فهمه احد من أئمة الاسلام
انه يقتضي اثباتها التمثيل بالمخلوقين ثم استدلوا على بطلان ذلك بليس كمثل
شيء تحريفا للنصين ويصنفون الكتب ويقولون هذا اصول دين الاسلام
الذي امر الله به وجاء من عنده ويقرأون كثيرا من القرآن ويفوضون معناه
الى الله تعالى من غير تدبر لمعناه الذي بينه الرسول واخبر انه معناه الذي اراده
الله . وقد ذم الله تعالى اهل الكتاب الاول على هذه الصفات الثلاث وقص

علينا ذلك من خبرهم لنعبر ونزجر عن مثل طريقهم . فقال تعالى ﴿ أفطمعون
ان يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما
عقلوه وهم يعلمون ﴾ الى ان قال ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا
أمانى وان هم الا يظنون ﴾ والاماني التلاوة المجردة ثم قال تعالى ﴿ فويل
للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به
ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما تكسبون ﴾ فذمهم على نسبة
ما كتبوه الى الله وعلى اكتسابهم بذلك فكلا الوصفين ذمهم ان ينسب الى
الله ما ليس عن عنده وان يأخذ بذلك عوضا من الدنيا مالا ورياسة . نسأل
الله تعالى ان يعصمنا من الزلل في القول والعمل بمنه وكرمه . ويشير الشيخ
رحمه الله بقوله من الشرع والبيان الى ان ماصح عن النبي ﷺ نوعان : شرع
ابتدائي وبيان لما شرعه الله في كتابه العزيز وجميع ذلك حق واجب الاتباع
وقوله واهله في اصله سواء والتفاضل بينهم بالحقيقة ومخالفة الهوى وملازمة
الاولى . وفي بعض النسخ بالخشية والتقى بدل قوله بالحقيقة في العبارة
الاولى يشير الى ان الكل مشتركون في اصل التصديق ولكن التصديق يكون
بعضه اقوى من بعض واثبت كما تقدم نظيره بقوة البصر وضعفه في العبارة
الاخري يشير الى ان التفاوت بين المؤمنين باعمال القلوب واما التصديق فلا
تفاوت فيه والمعنى الأول اظهر قوة والله اعلم بالصواب قوله ﴿ والمؤمنون
كلهم اولياء الرحمن ﴾ قال تعالى ﴿ الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم
يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ الآية الولي من الولاية بفتح الواو
التي هي ضد العداوة وقد قرأ حمزة مالكم من ولايتهم من شيء بكسر الواو

والباقون بفتحها وقيل هما لغتان وقيل بالفتح للنصرة وبالكسر الامارة قال
الزجاج وجاز الكسر لأن في تولي بعض القوم بعضا جنسا من الصناعة
والعمل وكل ما كان كذلك مكسور مثل الخياطة ونحوها فالمؤمنون اولياء
الله والله تعالى وليهم قال الله تعالى ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات
الى النور والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات﴾
الآية وقال تعالى ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى
لهم - والمؤمنون بعضهم اولياء بعض﴾ الآية وقال تعالى ﴿ان الذين آمنوا
وهاجروا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا
اولئك بعضهم اولياء بعض﴾ الى آخر السورة وقال تعالى ﴿انما وليكم الله
ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون
ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون﴾ فهذه
النصوص كلها ثبت فيها موالاتة المؤمنين بعضهم لبعض وانهم اولياء الله وان
الله وليهم ومولاهم فالله يتولى عبادة المؤمنين فيحبهم ويحبونه ويرضى عنهم
ويرضون عنه ومن عادى له وليا فقد بارزه بالمحاربة وهذه الولاية من رحمته
واحسانه ليست كولاية المخلوق المخلوق لحاجته اليه قال تعالى ﴿وقل الحمد
لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدنل
وكبره تكبيراً﴾ فالله تعالى ليس له ولي من الدنل بل لله العزة جميعا خلاف
الملوك وغيرهم ممن يتولاه لذلته وحاجته الى ولي ينصره والولاية ايضا نظير
الايمان فيكون مراد الشيخ ان اهلها في اصلها سواء وتكون كاملة وناقصة
فالكاملة تكون للمؤمنين المتقين كما قال تعالى ﴿الا ان اولياء الله لاخوف

عليهم ولا هم يحزنون - الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴿ فالذين آمنوا وكانوا يتقون منصورون على انه صفة اولياء الله او بدل منه او بأضمار مدح او صرفوع بأضمارهم او خبر ثان لان واجيز فيه الجر بدلا من ضمير عليهم وعلى هذه الوجوه كلها فالولاية لمن كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون وهم اهل الوعد المذكور في الآيات الثلاث وهي عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا تملق ولا رياضة وقيل الذين آمنوا مبتدأ واخبر لهم البشرى وهو بعيد قطع الجملة مما قبلها وانتشار نظم الآية وتجتمع في المؤمن ولاية من وجه وعداوة من وجه كما قد يكون فيه كفر وإيمان وشرك وتوحيد وتقوى وجور ونفاق وإيمان وان كان في هذا الاصل نزاع لفظي بين اهل السنة ونزاع معنوي بينهم وبين اهل البدع كما تقدم في الايمان ولكن موافقة الشارع في اللفظ والمعنى اولى من موافقة في المعنى وحده قال تعالى ﴿ وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون ﴾ وقال تعالى ﴿ قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ﴾ الآية . وقد تقدم الكلام على هذه الآية وانهم ليسوا منافقين على اصح القولين وقال عليه السلام « اربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا خاصم فجر » وفي رواية « واذا ائتمن خان » بدل « واذا وعد أخلف » اخرجاه في الصحيحين . وحديث « شعب الايمان » تقدم . وقوله عليه السلام « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان » فعلم ان من كان معه من الايمان أقل القليل لم يخلد في النار وان كان معه كثير من النفاق فهو يعذب في النار

على قدر مامعه من ذلك ثم يخرج من النار . فالطاعات من شعب الايمان والمعاصي
من شعب الكفر وان كان رأس شعب الكفر الجحود ورأس شعب الايمان
التصديق . واما ما يروى مرفوعا الى النبي ﷺ انه قال « ما من جماعة اجتمعت الا
وفيهم ولي لله لا هم يدرون به ولا هو يدري بنفسه » فلا أصل له وهو كلام باطل فان
الجماعة قد يكونون كفارا وقد يكونون فساقا يموتون على الفسق وأما اولياء الله
الكاملون فهم الموصوفون في قوله تعالى ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾
الآية والتقوى هي المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ الى قوله ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَأُولَئِكَ همُ التَّقِيُّونَ ﴾ وهم قسمان مقتصدون ومقربون فالتقتصدون الذين يتقربون
الى الله بالفرائض من اعمال القلوب والجوارح والسابقون الذين يتقربون الى
الله بالنوافل بعد الفرائض . كما في صحيح البخاري عن ابى هريرة رضي الله عنه
قال قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى « من عادى لي وليا فقد اذى نفسي بالمحاربة
وما تقرب الي عبدي بمثل اداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب الي
بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصره
ويده التي يبسط بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لاعطينه ولئن استعاذني
لاعيذنه وما ترددت في شيء انا فاعله ترددني عن قبض نفس عبدي المؤمن
يكره الموت واكره مساءته » والولي خلاف العدو وهو مشتق من الولاة وهو
الدنو والتقرب^(١) فولي الله هو من والى الله بموافقته في محبوباته والتقرب اليه

(١) كذا بالاصل ولعله القرب

بمرضاته وهو لاء كما قال الله تعالى فيهم ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه
من حيث لا يحتسب ﴾ قال ابو ذر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية قال النبي
ﷺ يا ابا ذر لو عمل الناس بهذه الآية لكففتهم فالتقون يجعل الله لهم مخرجا
مما ضاق على الناس ويرزقهم من حيث لا يحتسبون فيدفع الله عنهم المضار
ويجلب لهم المنافع ويعظمهم الله اشياء يطول شرحها من المكاشفات والتأثيرات
قوله ﴿ واكرمهم عند الله اطوعهم واتبعم للقرآن ﴾ اراد اكرم المؤمنين
هو الاطوع لله والاتباع للقرآن وهو الاتقي والاتقي هو الاكرم قال تعالى ﴿ ان
اكرمكم عند الله اتقاكم ﴾ وفي السنن عن النبي ﷺ انه قال « لافضل لعربي
على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لايبض على اسود ولا لاسود على ابيض
الا بالتقوى الناس من آدم وادم من تراب » وبهذا الدليل يظهر ضعف
تنازعهم في مسألة الفقير الصابر والغني الشاكر وترجيح احدهما على الآخر
وان التحقيق ان التفضيل لا يرجع الى ذات الفقر والغنى وانما يرجع الى الاعمال
والاحوال والحقائق فالسئلة فاسدة في نفسها . فان التفضيل عند الله بالتقوى
وحقائق الايمان لا بفقر ولا غنى . ولهذا والله اعلم قال عمر رضي الله عنه الغنى
والفقر مطيتان لا ابالي ايها ركبت والفقر والغنى ابتلاء من الله تعالى لعبده
كما قال تعالى ﴿ فاما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فاكرمه ونعمه فيقول ربني
اكرم من ﴾ الآية فان استويا الفقير الصابر والغني الشاكر في التقوى استويا
في الدرجة وان فضل احدهما فيها فهو الافضل عند الله فان الفقر والغنى
لا يوزنان وانما يوزن الصبر والشكر ومنهم من احال المسئلة من وجه آخر
وهو ان الايمان نصف صبر ونصف شكر فكل منهما لا بد له من صبر

وشكر وانما اخذ الناس فرعا من الصبر وفرعا من الشكر واخذوا في الترجيح
بفردوا غنيا منفقاً متصدقا باذلا ماله في وجوه القرب شاكر الله عليه وفقيرا
متفرغا لطاعة الله ولا ذاء العبادات صابرا على فقره . وحينئذ يقال ان اكملها
اطوعهما واتبعهما فان تساوىتا ساوت درجاتهما والله اعلم . ولو صح التجريد لصح
ان يقال ايما افضل معاني شاكر أو مريض صابرا ومطاع شاكر أو مهان صابر
وآمن شاكر أو خائف صابر ونحو ذلك قوله ﴿ والايمن هو الايمان بالله
وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وحلوه ومره

من الله تعالى ﴾ تقدم ان هذه الخصال هي اصول الدين وبها اجاب النبي ﷺ
في حديث جبرائيل المشهور المتفق على صحته حين جاء الى النبي ﷺ على صورة
رجل اعرابي وسأله عن الاسلام فقال ان تشهد ان لا اله الا الله وان محمدا
رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت
اليه سبيلا . وسأله عن الايمان فقال ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله
واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . وسأله عن الاحسان فقال ان تعبد
الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك . وقد ثبت ذلك في الصحيح عنه
ﷺ انه كان يقرأ في ركعتي الفجر تارة بصورتي الاخلاص ﴿ قل يا أيها
الكافرون - وقل هو الله احد ﴾ وتارة بآيتي الايمان والاسلام التي في سورة
البقرة ﴿ قولوا آمنا بالله وما انزل الينا ﴾ الآية وانتي في آل عمران ﴿ قل يا اهل
الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ الآية فسر ﷺ الايمان في حديث
وقد عبد القيس المتفق على صحته حيث قال لهم ﴿ أمركم بالايمان بالله وحده اندرون
ملايمن بالله وحده شهادة ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وإقام الصلاة

وإيتاء الزكاة وأن تؤدوا خمس ماغنمكم . ومعلوم انه لم يرد ان هذه الاعمال تكون
ايمانا بالله بدون ايمان القلب لما قد اخبر في غير موضع انه لا بد من ايمان القلب
فعلم ان هذه مع ايمان القلب هو الايمان وقد تقدم الكلام على هذا والكتاب
والسنة مملوءان بما يدل على ان الرجل لا يثبت له حكم الايمان الا بالعمل مع
التصديق وهذا اكثر من معنى الصلاة والزكاة فان تلك انما فسرتها السنة
والايمان بين معناه الكتاب والسنة . فمن الكتاب قوله تعالى ﴿ انما المؤمنون
الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ الآية . وقوله تعالى ﴿ انما المؤمنون
الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ الآية . وقوله تعالى ﴿ فلا وربك
لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت
ويسلموا تسليما ﴾ فنفي الايمان حتى توجد هذه الغاية دل على ان هذه الغاية
فرض على الناس فمن تركها كان من اهل الوعيد لم يكن قدا تى بالايمان الواجب
الذي وعد اهله بدخول الجنة بلا عذاب ولا يقال ان بين تفسير النبي ﷺ
الايمان في حديث جبرائيل وتفسيره اياه في حديث وفد عبد القيس معارضة
لانه فسر الايمان في حديث جبرائيل بعد تفسير الاسلام فكان المعنى انه
الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر مع الاعمال التي ذكرها
في تفسير الاسلام كما ان الاحسان متضمن للايمان الذي قدم تفسيره قبل
ذكره بخلاف حديث وفد عبد القيس لانه فسره ابتداء لم يتقدم قبله تفسير
الاسلام . ولكن هذا الجواب لا يتأتى على ما ذكره الشيخ رحمه الله من
تفسير الايمان حديث وفد عبد القيس مشكل عليه وبما يسأل عنه انه اذا كان
ما اوجبه الله من الاعمال الظاهرة اكثر من الخصال الخمس التي اجاب بها النبي

ﷺ في حديث جبرائيل المذكور فلم قال ان الاسلام هذه انحصار الخمس .
وقد اُجاب بعض الناس بان هذه اظهر شعائر الاسلام وأعظمها وبقيامه بها
يتم استسلامه وتركها لها يشعر بالخلل انقياده . والتحقيق ان النبي ﷺ ذكر
الدين الذي هو استسلام العبد لربه مطلقاً الذي يجب لله على عباده محضه على
الاعيان فيجب على كل من كان قادراً عليه ليعبد الله مخلصاً له الدين وهذه هي
الخمسة وما سوى ذلك فاما يجب بأسباب مصالح فلايم وجوبها جميع الناس
بل امان يكون فرضاً على الكفاية كالجهاد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر
وما يتبع ذلك من امارة وحكم وفتيا واقراء وتحديث وغير ذلك . وأما ما يجب
بسبب حق الآدميين يختص به من وجب له وعليه وقد يسقط بأسقاطه من
قضاء الديون ورد الامانات والغصوب والانصاف من المظالم من الدماء
والاموال والاعراض وحقوق الزوجة والاولاد وصلة الارحام ونحو ذلك فان
الواجب من ذلك على زيد غير الواجب على عمرو بخلاف صوم رمضان وحج
البيت والصلوات الخمس والزكاة فان الزكاة وان كانت مالياً فانها واجبة لله والاصناف
الثمانية مصارفها . ولهذا وجبت فيها النية ولم يجوز ان يفعلها الغير عنه بلا اذنه
ولم تطلب من الكفار وحقوق العباد لا يشترطها النية ولو اداها غيره عنه بغير
اذنه برئت ذمته وبطال بها الكفار وما يجب حقاً لله تعالى كالكفارات
هو سبب من العبد وفيها معنى العقوبة ولهذا كان التكليف شرطاً في الزكاة
فلا يجب على الصغير والمجنون عند ابي حنيفة واصحابه رحمهم الله تعالى لما عرف
في موضعه . وقوله والقدر خيره وشره حلوه ومره من الله تعالى تقدم قوله
ﷺ في حديث جبرائيل « وتؤمن بالقدر خيره وشره » وقال تعالى ﴿ قل لن

يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴿ وقال تعالى ﴿ ان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله
وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فالهؤلاء القوم لا يكادون
يفقهون حديثا - ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴿
الآية فان قيل كيف وجه الجمع بين قوله كل من عند الله وبين قوله فمن نفسك
قيل قوله كل من عند الله الخصب والجذب والنصر والهزيمة كلها من عند الله وقوله
فمن نفسك أي ما أصابك من سيئة من الله فيذب نفسك عقوبة لك كما قال تعالى
﴿ وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ﴾ يدل على ذلك ما روي عن ابن عباس
رضي الله عنه انه قرأ ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ وانا كتبتها عليك
والمراد بالحسنة هنا النعمة وبالسيئة البلية في اصح الاقوال . وقد قيل الحسنة
الطاعة والسيئة المعصية قيل الحسنة ما أصابه يوم بدر والسيئة ما أصابه يوم احد
والقول الاول شامل لمعنى القول الثالث والمعنى الثاني ليس مراد ادون الاول قطعا
ولكن لا منافاة بين ان يكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه مع ان
الجميع مقدر فان المعصية الثانية قد تكون عقوبة الاولى فتكون من سيئات
الجزاء مع انها من سيئات العمل والحسنة الثانية قد تكون من ثواب الاولى
كما دل على ذلك الكتاب والسنة وليس للتقديرية ان يحتجوا بقوله تعالى
﴿ فمن نفسك ﴾ فانهم يقولون ان فعل العبد حسنة كان او سيئة فهو منه
لا من الله والقرآن قد فرق بينهما وهم لا يفرقون ولانه قال تعالى ﴿ كل من
عند الله ﴾ فجعل الحسنات من عند الله كما جعل السيئات من عند الله وهم لا
يقولون بذلك في الاعمال بل في الجزاء وقوله بعد هذا ما أصابك من حسنة
ومن سيئة مثل قوله وان تصبهم حسنة وان تصبهم سيئة وفرق سبحانه وتعالى

بين الحسنات التي هي النعم وبين السيئات التي هي المصائب فجعل هذه من الله
وهذه من نفس الانسان لان الحسنه مضافة الى الله اذ هو احسن بها من كل
وجه فوجه من اوجها الا وهو يقتضي الأضافة اليه واما السيئة فهو انما
يخلقها لحكمة وهي باعتبار تلك الحكمة من احسانه فان الرب لا يفعل سيئة قط بل
فعله كله حسن وخير . ولهذا كان النبي ﷺ يقول في الاستفتاح « والخير
كله بيديك والشرا ليس اليك » اي فانك لا تخلق شرا محض بل كل ما يخلق فيه
حكمة هو باعتبارها خير ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس فهذا شر
جزئي اضافي فاما شر كلي او شر مطلق فالرب سبحانه وتعالى منزه عنه وهذا
هو الشر الذي ليس اليه ولهذا لا يضاف الشر اليه مفردا قط بل اما ان يدخل
في عموم المخلوقات كقوله تعالى ﴿ الله خالق كل شيء - كل من عند الله ﴾ واما
ان يضاف الى السبب . كقوله من شر ما خلق واما ان يحذف فاعله كقول
الجن وانا لا ندري اشر اريد بمن في الارض ام اراد بهم ربهم رشدا وليس اذا
خلق ما يتأذى به بعض الحيوان لا يكون فيه حكمة بل لله من الرحمة والحكمة
ما لا يقدر قدره الا الله تعالى وليس اذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي
بالاضافة يكون شرا كلياً عاماً بل الامور العامة الكلية لا تكون الا خيراً او
مصلحة للمباد كالمطر العام وارساله رسولا عاماً وهذا مما يقتضي انه لا يجوز
ان يؤيد كذاباً عليه بالمعجزات التي أيدها الصادقين فان هذا شر عام للناس
يضلهم فيفسد عليهم دينهم وديانهم وأخراهم وليس هذا كالمملك الظالم والعدو
فان المملك الظالم لا بد أن يدفع الله به من الشرا اكثر من ظلمه وقد قيل ستون سنة
بأمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا امام واذا قدر كثرة ظلمه فذاك خير في الدين

كالمصائب تكون كفارة لذنوبهم ويثابون على الصبر عليه ويرجعون فيه الى الله
ويستغفرونه ويتوبون اليه وكذلك ما يسلط عليهم من العدوان . ولهذا قد
يمكن الله كثيرا من الملوك الظالمين مدة واما المتنبون الكذابون فلا يطيل
تمكينهم بل لا بد ان يهلكهم لان فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة قال
تعالى ﴿ ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾
وفي قوله فن نفسك من الفوائد ان العبد لا يطمئن الى نفسه ولا يسكن اليها
فان الشر كامن فيها لا يجيء الا منها ولا يشتغل بعلام الناس ولا ذمهم اذا أساؤا
اليه فان ذلك من السيئات التي اصابته وهي انما اصابته بذنوبه فيرجع الى
الذنوب ويستعيز بالله من شر نفسه وسيئات عمله ويسأل الله ان يعينه على طاعته
فبذلك يحصل له كل خير ويندفع عنه كل شر ولهذا كان انفع الدعاء واعظمه واحكمه
دعاء الفاتحة ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب
عليهم ولا الضالين ﴾ فانه اذا هداه هذا الصراط اعانه على طاعته وترك معصيته فلم
يصبه شر لافي الدنيا ولا في الآخرة لكن الذنوب هي لوازم نفس الانسان وهو
محتاج الى الهدى كل لحظة وهو الى الهدى احوج منه الى الطعام والشراب ليس
كما يقوله بعض المفسرين انه قد هداه فلما ذا يسأل الهدى وان المراد التثبيت
او مزيد الهداية بل العبد يحتاج الى ان يعلمه الله ما يفعله من تفاصيل احواله والى
ما يتركه من تفاصيل الامور في كل يوم والى ان يلهمه ان يعمل ذلك فانه لا
يكفي مجرد علمه ان لم يجعله مريدا للعمل بما يعلمه والا كان العلم حجة عليه ولم
يكن مهتديا ومحتاج الى ان يجعله قادرا على العمل بتلك الارادة الصالحة فان
المجهول لنا من الحق اضعاف المعلوم وما لا نريد فعله تهاونا وكسلا مثل ما نريده

او اكثر منه او دونه وما لا تقدر عليه مما نريده كذلك وما نعرف جملة ولا
نهتدي لتفاصيله فأمر بفوت الحصر ونحن محتاجون الى الهداية التامة فن كملت
له هذه الامور كان سؤاله سؤال تثيت وهي آخر الرتب وبعد ذلك كله
هداية اخرى وهي الهداية الى طريق الجنة في الآخرة ولهذا كان الناس
مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة لفرط حاجتهم اليه فليسوا الى شيء اجوح
منهم الى هذا الدعاء فيجب ان يعلم ان الله بفضل رحمته جعل هذا الدعاء من
اعظم الاسباب المقتضية للخير المانعة من الشر فقد بين القرآن ان السيئات
من النفس وان كانت بقدر الله وان الحسنات كلها من الله تعالى واذا كان
الامر كذلك وجب ان يشكر سبحانه وان يستغفره العبد من ذنوبه وان لا
يتوكل الا عليه وحده فلا يأتي بالحسنات الا هو فوجب ذلك توحيدوه والتوكل
عليه وحده والشكر له وحده والاستغفار من الذنوب وهذه الامور كان النبي
ﷺ يجمعها في الصلاة كما ثبت عنه في الصحيح انه كان اذا رفع رأسه من
الركوع يقول «ربنا لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ملء السموات وملء
الأرض وملء ما شئت من شيء بعد اهل الثناء والمجد احق ما قال العبد
وكلنا لك عبد» فهذا حمد وهو شكر لله تعالى ويبان ان حمده احق ما قاله العبد
ثم يقول بعد ذلك «لا مانع لما اعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد
منك الجد» وهذا تحقيق لوحدانيته لتوحيد الربوبية خلقا وقدرا وبداية ونهاية
هو المعطي المانع لا مانع لما اعطى ولا معطي لما منع وتوحيد الآلهية شرعا وامرا
ونهايا وان العباد وان كانوا يعطون جدا ملكا وعظمة وبختا ورياسة في الظاهر
او في الباطن كاصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة فلا ينفع ذا الجد منك

الجد اي لا ينجيه ولا يخلصه ولهذا قال لا ينفعه منك ولم يقل ولا ينفعه عندك
لانه لو قيل ذلك او عم انه لا يتقرب به اليك لكن قد لا يضره فتضمن هذا الكلام
تحقيق التوحيد او تحقيق قوله عز اياك نعبد و اياك نستعين عز فانه لو قدر
ان شيئا من الاسباب يكون مستقلا بالمطلوب وانما يكون بمشيئة الله
وتيسيره لكان الواجب أن لا يرجى الا الله ولا يتوكل الا عليه ولا يسأل الا
هو ولا يستغاث الا به ولا يستعان الا هو فله الحمد واليه المشتكى وهو المستعان
وبه المستغاث ولا حول ولا قوة الا بالله فكيف وليس شيء من الاسباب
مستقلا بمطلوب بل لا بد من انضمام اسباب آخر اليه ولا بد ايضا من صرف
الموانع والمعارضات عنه حتى يحصل المقصود فكل سبب فله شريك وله ضد
فاذا لم يعاونه شريكه ولم ينصرف عنه ضده لم تحصل مشيئة فالطر وحده لا ينبت
النبات الا بما ينضم اليه من الهواء والتراب وغير ذلك ثم الزرع لا يتم حتى
تصرف عنه الآفات المفسدة له والطعام والشراب لا يغذي الا بما جعل في
البدن من الاعضاء والقوى ومجموع ذلك لا يفيد ان لم تصرف عنه المفسدات
والمخلوق الذي يعطيك او ينصرك فهو مع ان الله يجعل فيه الارادة والقوة
والفعل فلا يتم ما يفعله الا باسباب كثيرة خارجة عن قدرة تعاونه على مطلوبه
ولو كان ملكا مطاعا ولا بد ان يصرف عنه الاسباب المتعاونة الى ما يعارضها
ويمانعها فلا يتم المطلوب الا بوجود المقتضى وعدم المانع وكل سبب معين فانما
هو جزء من المقتضى فليس في الوجود شيء واحد هو مقتضى تام وان سمي
مقتضيا وسمي سائر ما يعينه شروطا فهذا نزاع لفظي واما ان يكون في
المخلوقات علة تامة تستلزم معلولها فهذا باطل ومن عرف هذا حق المعرفة

افتتح له باب توحيد الله وعلم انه لا يستحق ان يسأل غيره فضلا عن ان يعبد
غيره ولا يتوكل على غيره ولا يرجى غيره قوله ﴿ونحن مؤمنون بذلك كله لا نفرق
بين احد من رسله ونصدقهم كلهم على ما جاؤا به﴾ الاشارة بذلك الى ما تقدم مما
يجب الايمان به تفصيلا وقوله ﴿لا نفرق بين احد من رسله﴾ الى آخر كلامه اي لا
نفرق بينهم بأن تؤمن ببعض ونكفر ببعض بل تؤمن بهم ونصدقهم كلهم فان من
آمن ببعض وكفر ببعض كافر بالكل قال تعالى ﴿ويقولون تؤمن ببعض
ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا اولئك هم الكافرون
حقا﴾ فان المعنى الذي لأجله آمن بمن آمن منهم موجود في الذي لم يؤمنوا
به وذلك الرسول الذي آمن به قد جاء بتصديق بقية المرسلين فاذا لم يؤمن
ببعض المرسلين كان كافرا بمن في زعمه انه يؤمن به لان ذلك الرسول قد جاء
بتصديق المرسلين كلهم فكان كافرا حقا وهو يظن انه مؤمن فكان من الاخسرين
اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا .
قوله ﴿وأهل الكباثر من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون اذا ماتوا وهم
موحدون وان لم يكونوا تائبين بعد ان لقوا الله عارفين وهم في مشيئته وحكمه
ان شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله كما ذكر عز وجل في كتابه ﴿ويغفر مادون
ذلك لمن يشاء﴾ وان شاء عذبهم في النار بعدله ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة
الشافعين من اهل طاعته ثم يبعثهم الى جنته ذلك بان الله تعالى مولى اهل معرفته
ولم يجعلهم في الدارين كاهل نكرته الذين خابوا من هدايته ولم ينالوا من ولايته
اللهم يا ولي الاسلام واهله ثبتنا على الاسلام حتى نلقاك به ﴿ فقوله واهل
الكباثر من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون اذا ماتوا وهم موحدون رد لقول

الخوارج والمعتزلة القائلين بتخليد اهل الكبائر في النار لكن الخوارج يقولون يتكفرون والمعتزلة بخروجهم من الايمان لا بدخولهم في الكفر بل لهم منزلة بين منزلتين كما تقدم عند الكلام على قول الشيخ رحمه الله ولا تكفر احدا من اهل القبلة بذنوب ما لم يستحلها . وقوله واهل الكبائر من امة محمد تخصيصه امة محمد يفهم منه ان اهل الكبائر من امة غير محمد عليه السلام قبل نسخ تلك الشرائع حكمهم مخالف لاهل الكبائر من امة محمد وفي ذلك نظر فان النبي عليه السلام اخبر انه يخرج من النار من كان في قلبه ذرة من ايمان ولم يخص امته بذلك بل ذكر الايمان مطلقا فتأمله وليس في بعض النسخ ذكر الامة وقوله في النار معمول لقوله لا يخلدون وانما قدمه لاجل السجعة لان يكون في النار خبر لقوله واهل الكبائر كما ظنه بعض الشارحين واختلف العلماء في الكبائر على اقوال ف قيل سبعة وقيل سبعة عشر وقيل ما اتفقت الشرائع على تحريمه وقيل ما يسد باب المعرفة بالله وقيل ذهاب الاموال والابدان وقيل سميت كبائر بالنسبة والاضافة الى ما دونها وقيل لان تعلم اصلا او انها اخفيت كليلة القدر وقيل انها الى السبعين اقرب وقيل كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وقيل انها ما يترتب عليها حد او توعدها بالنار او اللعنة او الغضب وهذا امثل الاقوال . واختلفت عبارات السلف في تعريف الصغائر منهم من قال : الصغير مادون الحدين : حد الدنيا وحد الآخرة . ومنهم من قال : كل ذنب حتم بلعنة او غضب او نار . ومنهم من قال : الصغيرة ما ليس فيها حد في الدنيا ولا وعيد في الآخرة والمراد بالوعيد الوعيد الخاص بالنار او اللعنة او الغضب فان الوعيد الخاص في الآخرة كالعقوبة الخاصة في الدنيا اعني المقدرة فالتعزير في الدنيا

نظير الوعيد بغير النار او العنة او الغضب وهذا الضابط يسلم من القوادح
الواردة على غيره فانه يدخل فيه كل ما ثبت بالنص انه كبيرة كالشرك والقتل
والزنا والسحر وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ونحو ذلك كالفرار من
الزحف وأكل مال اليتيم واكل الربا وعقوق الوالدين واليمين الغموس وشهادة
الزور وامثال ذلك وترجيح هذا القول من وجوه . (احدها) انه هو المأثور
عن السلف كابن عباس وابن عيينة وابن حنبل وغيرهم . (الثاني) ان الله تعالى
قال ﴿ ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا
كراما ﴾ فلا يستحق هذا الوعد الكريم من اوعد بغضب الله ولعنته وناره وكذلك
من استحق ان يقام عليه الحد لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر .
(الثالث) ان هذا الضابط مرجعه الى ما ذكره الله ورسوله من الذنوب فهو حد
متلقى من خطاب الشارع . (الرابع) ان هذا الضابط يمكن الفرق به بين الكبائر
والصغائر بخلاف تلك الاقوال فان من قال سبع أو سبعة عشر او الى السبعين اقرب
مجرد دعوى . ومن قال ما تنقمت الشرائع على تحريمه دون ما اختلفت فيه يقتضي
ان شرب الخمر والفرار من الزحف والتزوج ببعض المحارم والمحرم بالرضاعة
والصهرية ونحو ذلك ليس من الكبائر وان الحبة من مال اليتيم والسرقة لها
والكذبة الواحدة الخفيفة ونحو ذلك من الكبائر وهذا فاسد ومن قال ما
سد باب المعرفة بالله او ذهاب الاموال والابد ان يقتضي ان شرب الخمر
واكل الخنزير والميتة والدم وقذف المحصنات ليس من الكبائر وهذا فاسد
ومن قال انها سميت كبائر بالنسبة الى ما دونها او كل ما نهى الله عنه فهو
كبيرة تقتضي ان الذنوب في نفسها لا تنقسم الى صغائر وكبائر وهذا فاسد

لأنه خلاف النصوص الدالة على تقسيم الذنوب الى صغائر وكبائر ومن قال
انها لا تعلم اصلا او انها مبهمة فانما اخبر عن نفسه انه لا يعلمها فلا يمنع ان
يكون قد علمها غيره والله اعلم . وقوله وان لم يكونوا تائبين لأن التوبة
لا خلاف انها تمحو الذنوب وانما الخلاف في غير التائب . وقوله بعد ان
لقوا الله تعالى عارفين لو قال مؤمنين بدل قوله عارفين كان اولي لأن من
عرف الله ولم يؤمن به فهو كافر وانما اكتفى بالمعرفة وحدها الجهم وقوله
مردود باطل كما تقدم فان ابليس عارف بربه قال رب فانظرني الى يوم يبعثون
قال فبعزتك لا غوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين . وكذلك فرعون
واكثر الكافرين قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والارض
ليقولن الله - قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله ﴾
الى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى . وكان الشيخ رحمه الله اراد
المعرفة الكاملة المستلزمة للاهتداء التي يشير اليها اهل الطريقة وحاشا أولئك
ان يكونوا من اهل الكبائر بل هم سادات الناس وخاصتهم . وقوله وعم في
مشيئة الله وحكمه ان شاء غفر لهم وعفاهم بفضله الى آخر كلامه فصل الله
تعالى بين الشرك وغيره لأن الشرك اكبر الكبائر كما قال ﷺ واخبر الله
تعالى ان الشرك غير مغفور وعلق غفران ما دونه بالمشيئة والجائز يعلق
بالمشيئة دون الممتنع ولو كان الكل سواء لما كان للتفصيل معنى ولانه علق
هذا الغفران بالمشيئة وغفران الكبائر والصغائر بعد التوبة مقطوع به غير
معلق بالمشيئة كما قال تعالى ﴿ قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا
من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم ﴾ فوجب ان

يكون الغفران المعلق بالمشيئة هو غفران الذنوب سوى الشرك بالله قبل
التوبة . وقوله ذلك بأن الله مولى اهل معرفته فيه مواخذة لطيفة كما تقدم
وقوله اللهم يا ولي الاسلام واهله مسكنا بالاسلام وفي نسخة ثبتنا على الاسلام
حتى نلقاك به . روي شيخ الاسلام ابو اسمعيل الانصاري في كتابه الفاروق
بسنده عن انس رضي الله عنه قال كان من دعاء رسول الله ﷺ يقول « يا ولي
الاسلام واهله مسكني بالاسلام حتى القاك عليه » ومناسبة ختم الكلام المتقدم
بهذا الدعاء ظاهرة . ويمثل هذا الدعاء دعاء يوسف الصديق صلوات الله عليه
حيث قال رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السموات
والارض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما والحقني بالصالحين وبه
دعاء السحرة الذين كانوا اول مؤمن بموسى صلوات الله على نبينا وعليه حيث
قالوا ربنا افرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين . ومن استدل بهاتين الآيتين
على جواز تمنى الموت فلا دليل له فيه فان الدعاء انما هو بالموت على الاسلام
لا بمطلق الموت ولا بالموت الآن والفرق ظاهر قوله ﴿ ونرى الصلاة خلف
كل بر وفاجر من اهل القبلة وعلى من مات منهم ﴾ قال ﷺ « صلوا خلف
كل بر وفاجر » رواه مكحول عن ابي هريرة رضي الله عنه واخرجه الدارقطني
وقال مكحول لم يلق ابا هريرة وفي اسناده معاوية بن صالح متكلم فيه وقد
احتج به مسلم في صحيحه . وخرج له الدارقطني ايضا وابو داود عن مكحول
عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « الصلاة واجبة عليكم
مع كل مسلم بر وان هو عمل بالكبائر والجهاد واجب مع كل امير بر او فاجر
عمل بالكبائر . وفي صحيح البخاري ان عبد الله بن عمر رضي الله عنه كان

يصلي خلف الحجاج بن يوسف الثقفي وكذا انس بن مالك وكان الحجاج فاسقا ظالما
وفي صحيحه ايضا ان النبي ﷺ قال « يصلون لكم فان اصابوا فلكم ولهم وان اخطأوا
فلكم وعليهم » وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال « صلوا
خلف من قال لا اله الا الله وصلوا على من مات من اهل لا اله الا الله » اخرج به الدار
قطني من طرق وضعفها . اعلم رحمك الله وايانا انه يجوز للرجل ان يصلي خلف من
لم يعلم منه بدعة ولا فسقا باتفاق الائمة وليس من شرط الائتمام ان يعلم المأموم
اعتقاد امامه ولا ان يمتحنه فيقول ما اذا تعقد بل يصلي خلف المستور الحال
ولو صلى خلف مبتدع يدعو الى بدعته او فاسق ظاهر الفسق وهو الامام
الراتب الذي لا يمكنه الصلاة الا خلفه كامام الجمعة والعيدين والامام في صلاة
الحج بعرفة ونحو ذلك فان المأموم يصلي خلفه عند عامة السلف والخلف ومن
ترك الجمعة والجماعة خلف الامام الفاجر فهو مبتدع عندا كثر العلماء والصحيح
انه يصلها ولا يعيدها فان الصحابة رضي الله عنهم كانوا يصلون الجمعة والجماعة
خلف الائمة الفجار ولا يعيدون كما كان عبدالله بن عمر يصلي خلف الحجاج
ابن يوسف . وكذلك انس رضي الله عنه كما تقدم وكذلك عبدالله بن مسعود
رضي الله عنه وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة بن ابي معيط وكان يشرب
الخمر حتى انه صلى بهم الصبح مرة اربعا ثم قال ازيدكم فقال له ابن مسعود مازلنا
معك منذ اليوم في زيادة وفي الصحيح ان عثمان بن عفان رضي الله عنه لما
حضر صلى بالناس شخص فسأل سائل عثمان انك امام عامة وهذا الذي صلى
بالناس امام فتنة فقال يا ابن اخي ان الصلاة من احسن ما يعمل الناس فاذا احسنوا
فاحسن معهم واذا اساؤا فاجتنب اساءتهم والفاسق والمبتدع صلواته في نفسها

صحيحة فاذا صلى المأموم خلفه لم تبطل صلاته لكن انما كره من كره الصلاة
خلفه لان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب . ومن ذلك ان من اظهر
بدعة وجفورا لا يرتب اماماً للمسلمين فانه يستحق التعزير حتى يتوب فاذا
امكن هجره حتى يتوب كان حسنا واذا كان بعض الناس اذا ترك الصلاة
خلفه وصلى خلف غيره اثر ذلك في انكار المنكر حتى يتوب او يعزل او ينتهي
الناس عن مثل ذنبه فمثل هذا اذا ترك الصلاة خلفه كان في ذلك مصلحة
شرعية ولم يفوت المأموم الجمعة ولا جماعة وأما اذا كان ترك الصلاة خلفه
يفوت المأموم الجمعة والجماعة فهنا لا يترك الصلاة خلفه الا مبتدع مخالف
للمصاحبة رضي الله عنهم وكذلك اذا كان الامام قدرته ولاة الامور ليس
في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية فهنا لا يترك الصلاة خلفه بل الصلاة
خلف الافضل أفضل فاذا امكن الانسان ان لا يقدم مظهرا للمنكر في
الامامة وجب عليه ذلك لكن اذا ولاه غيره ولم يمكنه صرفه عن الامامة
او كان لا يتمكن من صرفه عن الامامة الا بشر اعظم ضررا من ضرر ما اظهر
من المنكر فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير ولا دفع اخف الضررين
بمحصل اعظمهما فان الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد
وتقليلها بحسب الامكان فتفويت الجمع والجماعات اعظم فسادا من الاقتداء
فيهما بالامام الفاجر لاسيما اذا كان التخلف عنها لا يدفع فجورا فيبقى تعطيل
المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة . واما اذا امكن فعل الجمعة والجماعة
خلف البر فهذا اولى من فعلها خلف الفاجر . وحينئذ فاذا صلى خلف الفاجر
من غير عذر فهو موضع اجتهاد للعلماء منهم من قال يعيد ومنهم من قال لا يعيد

وموضع بسط ذلك في كتب الفروع . واما الامام اذا نسي او اخطأ ولم يعلم
المأموم بحاله فلا اعادة على المأموم للحديث المتقدم . وقد صلى عمر رضي الله
عنه وغيره وهو جنب ناسيا للجنابة فاعاد الصلاة ولم يأمر المأمومين بالاعادة
ولو علم ان امامه بمدفراغه كان على غير طهارة اعاد عند ابي حنيفة خلافا للمالك
والشافعي واحمد في المشهور عنه وكذلك لو فعل الامام ما لا يسوغ عند المأموم
وفيه تفاصيل موضعها كتب الفروع . ولو علم ان امامه يصلي على غير وضوء
فليس له ان يصلي خلفه لانه لاعب وليس بمصل وقد دلت نصوص الكتاب
والسنة واجماع سلف الامة ان ولي الامر وامام الصلاة والحاكم وامير الحرب
وعامل الصدقة يطاع في مواضع الاجتهاد وليس عليه ان يطيع اتباعه في موارد
الاجتهاد بل عليهم طاعته في ذلك وترك رأيهم لرأيه فان مصلحة الجماعة
والائتلاف ومفسدة الفرقة والاختلاف اعظم من امر المسائل الجزئية . ولهذا
لم يجز الحكام ان ينقض بعضهم حكم بعض والصواب المقطوع به صحة صلاة
بعض هؤلاء خلف بعض . ويروى عن ابي يوسف انه لما حج مع هرون الرشيد
فاحتجم الخليفة وافتاه مالك بانه لا يتوضأ وصلى بالناس فقيل لابي يوسف
أصليت خلفه قال : سبحان الله امير المؤمنين يريد بذلك ان ترك الصلاة خلف
ولاة الامور من فعل اهل البدع . وحديث ابي هريرة الذي رواه البخاري
ان رسول الله ﷺ قال « يصلون لكم فان اصابوا فلكم ولهم وان اخطاؤا
فلكم وعليهم » نص صحيح صريح في ان الامام اذا اخطأ نخطأ عليه لاعلى المأموم
والمجتهد غاية انه اخطأ بترك واجب اعتقد انه ليس واجبا او فعل محظورا
اعتقد انه ليس محظورا ولا يحمل لمن يؤمن بالله واليوم الآخر ان يخالف هذا الحديث

الصريح الصحيح بعد ان يبلغه وهو حجة على من يطلق من الحنفية والشافعية
والحنبلية ان الامام اذا ترك ما يعتقد المأموم وجوبه لم يصح اقتداؤه به فان
الاجتماع والائتلاف مما يجب رعايته وترك الخلاف المفضي الى الفساد . وقوله
وعلى من مات منهم اي ونرى الصلاة على من مات من الابرار والفجار وان
كان يستتني من هذا العموم البقاء وقطاع الطريق وكذا قاتل نفسه خلافا لابي
يوسف لا الشهيد خلافا للملك والشافعي رحمهما الله على ما عرف في موضعه
لكن الشيخ انما ساق هذا لبيان انا لا ترك الصلاة على من مات من اهل
البدع والفجور لا للعموم الكلي ولكن انكلام لاهل الاسلام قسمان :
امام مؤمن واما منافق فن علم نفاقه لم تجز الصلاة عليه والاستغفار له ومن لم
يعلم ذلك منه صلى عليه فاذا علم شخص نفاق شخص لم يصل هو عليه وصلى
عليه من لم يعلم نفاقه وكان عمر رضي الله عنه لا يصلي على من لم يصل عليه حذيفة
لانه كان في غزوة تبوك قد عرف المنافقين وقد نهى الله سبحانه وتعالى رسوله
ﷺ عن الصلاة على المنافقين وأخبر انه لا يغفر لهم باستغفاره وعلل ذلك
بكفرهم بالله ورسوله فن كان مؤمنا بالله ورسوله لم ينه عن الصلاة عليه ولو
كان له من الذنوب الاعتقادية البدعية او العملية الفجورية ماله بل قد امره
الله تعالى بالاستغفار للمؤمنين فقال تعالى ﴿ فاعلم انه لا إله الا الله واستغفر
لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ فالتوحيد اصل الدين والاستغفار له وللمؤمنين
كإله فالدعاء لهم بالمغفرة والرحمة وسائر الخيرات اما واجب واما مستحب وهو
على نوعين عام وخاص اما العام فظاهر كما في هذه الآية واما الدعاء الخاص
فالصلاة على الميت فما من مؤمن يموت الا وقد امر المؤمنون ان يصلوا عليه

صلاة الجنائز و عم مأمورون في صلاتهم عليه ان يدعوا له . كما روى ابو داود
وابن ماجه عن ابي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول
« اذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء » . قوله ولا تنزل احدا منهم الجنة
ولا ناراً يريد انا لا نقول عن احد معين من اهل القبلة انه من اهل الجنة
او من اهل النار الا من اخبر الصادق ﷺ انه من اهل الجنة كالعشرة رضي
الله عنهم وان كنا نقول انه لا بد ان يدخل النار من اهل الكبار من يشاء الله
ادخاله النار ثم يخرج منها بشفاعاة الشافعين ولسكننا تقف في الشخص المعين
فلا نشهد له بجنة ولا نار الا عن علم لان الحقيقة باطنة ومأمات عليه لانحيط به
لكن نرجو للمحسنين ونخاف على المسيء والسلف في الشهادة بالجنة ثلاثة
اقوال (احدها) ان لا يشهد لاحد الا للأنبياء وهذا ينقل عن محمد بن الحنفية
والاوزاعي (والثاني) انه يشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النص وهذا قول
كثير من العلماء واهل الحديث (والثالث) انه شهد بالجنة لهؤلاء ولمن شهد له
المؤمنون كما في الصحيحين « انه مر بجنازة فائتوا عليها بخير فقال النبي ﷺ
وجبت ومصر بأخرى فائتني عليها بشر فقال وجبت » وفي رواية كرر وجبت
ثلاث مرات فقال عمر يارسول الله ما وجبت فقال رسول الله ﷺ « هذا اثنتيم عليه
خيرا وجبت له الجنة وهذا اثنتيم عليه شرا وجبت له النار انتم شهداء الله في
الأرض » وقال ﷺ « توشكوا ان تعلموا اهل الجنة من اهل النار » قالوا بيم يارسول
الله قال « بالثناء الحسن والثناء السيء » فاخبر ان ذلك مما يعلم به اهل الجنة واهل النار
قوله ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق ما لم يظهر منهم شيء من ذلك
ونذر سرائرهم الى الله تعالى لانا قد امرنا بالحكم بالظاهر ونهينا عن الظن

واتباع ما ليس لنا به علم قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ﴾
 الآية وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ
 إِثْمٌ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ
 أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ قوله ﴿ وَلَا نَرَى ﴾ (١) على أحد من أمة محمد ﷺ الآمن
 وجب عليه السيف ﴿ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ « لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ
 مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ الْبَاحِدِيُّ ثَلَاثَ ثِيَبٍ الزَّانِي
 وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمَفَارِقُ الْجَمَاعَةَ » قوله ﴿ وَلَا نَرَى الْخُرُوجَ عَلَى
 أُمَّتِنَا وَوَلَاةَ أُمُورِنَا وَإِنْ جَارُوا وَلَا نَدْعُوا عَلَيْهِمْ وَلَا نَنْزِعُ يَدَنَا مِنْ طَاعَتِهِمْ
 وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرِيضَةٌ مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةٍ وَنَدْعُوا لَهُمْ
 بِالصَّلَاحِ وَالْمَعَاوَةِ ﴾ ش . قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا
 الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ « مَنْ اطَاعَنِي
 فَقَدْ اطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَا اللَّهَ وَمَنْ يَطْعُ الْأَمِيرَ فَقَدْ اطَاعَنِي وَمَنْ
 عَصَى الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي » وَعَنْ أَبِي ذَرِّزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ « أَنْ خَلِيلِي أَوْ صَاحِبِي أَنْ
 أَسْمَعَ وَأَطِيعُ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا مَجْدَعِ الْأَطْرَافِ » وَعِنْدَ الْبُخَارِيِّ وَلَوْ الْحَبَشِيُّ
 كَانَ رَأْسَهُ زَيْبِيَّةً . وَفِي الصَّحِيحِينَ أَيْضًا « عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا
 أَحَبَّ وَكَرِهَ إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ فَانْأَمَرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ » وَعَنْ حَذِيفَةَ
 ابْنِ الْيَمَانَ قَالَ كَانَ النَّاسُ يَسْتَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُ عَنِ الشَّرِّ
 مَخَافَةَ أَنْ يَدْرِكَنِي فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٌّ جَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ
 فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ فَقَالَ نَعَمْ فَقُلْتُ هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ قَالَ نَعَمْ

(١) كذا بالأصل ولعله القتل على أحد الخ

وفيه دخن قال قلت وما دخنه قال « قوم يستنون بغير سنتي ويهتدون بغير هديي يعرف منهم وينكر » فقلت هل بعد ذلك الخير من شر قال « نعم دعاة على ابواب جهنم من اجابهم قذفوه فيها » فقلت يا رسول الله صفهم لنا قال نعم « قوم من جلد تنابتكم لومون بالسنتنا » قلت يا رسول الله فاترى ان ادركني ذلك قال « تلزم جماعة المسلمين وامامهم » قلت فان لم يكن جماعة ولا امام قال « فاعتزل تلك الفرق كلها ولو ان تعض على شجرة حتى يدركك الموت وانت على ذلك » وعن ابن عباس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « من رأى من اميره شيئا يكرهه فليصبر فانه من فارق الجماعة شبر افاض فينته جاهلية » وفي رواية « فقد خلع ربة الاسلام من عنقه » وعن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « اذا بويع خليفتين فاقتلوا الآخر منهما » وعن عوف بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « خيار ائمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار ائمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم » فقلنا يا رسول الله اقلنا تنازحنا بالسيف عند ذلك قال « لا ما اقاموا فيكم الصلاة الا من ولي عليه وال فراه يأتي شيئا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا يزرع يدامن طاعة » فقد دل الكتاب والسنة على وجوب طاعة اولى الامر ما لم يأمروا بمعصية فتأمل قوله تعالى ﴿ اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم ﴾ كيف قال واطيعوا الرسول ولم يقل واطيعوا اولى الامر منكم لان اولى الامر لا يفردون بالطاعة بل يطاعون فيما هو طاعة لله ورسوله وأعاد الفعل مع

الرسول^(١) فقد اطاع الله فان الرسول لا يأمر بغير طاعة الله بل هو معصوم في ذلك وأما أولي الامر فقد يأمر بغير طاعة الله فلا يطاع الا فيما هو طاعة لله ورسوله وأما لزوم طاعتهم وان جاروا فلانه يترتب على الخروج عن طاعتهم من الفساد أضعاف ما يحصل من جورهم بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الاجور فان الله تعالى ما سلطهم علينا الا لفساد اعمالنا والجزاء من جنس العمل فعلينا الاجتهاد بالاستغفار والتوبة واصلاح العمل قال تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير ﴾ وقال تعالى ﴿ او لما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم انى هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾ وقال تعالى ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴿ فاذا أراد الرعية ان يتخلصوا من ظلم الامير الظالم فليتركوا الظلم وعن مالك بن دينار انه جاء في بعض كتب الله « انا لله مالك الملك قلوب الملوك بيدي فمن اطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا انفسكم بسبب الملوك لكن توبوا اعظهم عليكم » قوله ﴿ وتتبع السنة والجماعة ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة ﴾ السنة طريقة الرسول ﷺ والجماعة المسلمون وعم الصحابة والتابعون لهم بأحسن الى يوم الدين فاتبعهم هدى وخلافهم ضلال قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ وقال ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين

(١) كذا بالاصل ولعل فيه سقطا وهو قوله تنبيه على أن من أطاع الرسول فقد أطاع الله الخ

نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴿ وقال تعالى ﴿ قل اطيعوا الله
واطيعوا الرسول فان تولوا فاما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وان تطيعوه
تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين ﴿ وقال تعالى ﴿ وان هذا صراطي
مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم
تتقون ﴿ وقال تعالى ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم
اليينات واولئك لهم عذاب عظيم ﴿ وقال تعالى ﴿ ان الذين فرقوا دينهم وكانوا
شيعاً لست منهم في شيء انما امرهم الى الله ثم يفتنهم بما كانوا يفعلون ﴿ .
وثبت في السنن الحديث الذي صححه الترمذي عن العرياض بن سارية قال
وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب
فقال قائل يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فاذا تمهد الينا فقال « اوصيكم
بالسمع والطاعة فانه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم
بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها
بالتواجدوا ياكم ومحدثات الامور فان كل بدعة ضلالة » وقال ﷺ « ان اهل
الكتابين افرقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة وان هذه الامة ستفترق
على ثلاثة وسبعين ملة يعني الا هو اكلها في النار الا واحدة وهي الجماعة .
وفي رواية قالوا من هي يا رسول الله قال ما انا عليه واصحابي فينبى ﷺ ان
عامه المختلفين هالكون من الجانبين الا اهل السنة والجماعة . وما احسن
قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال من كان منكم مستنفاً فليستن
بمن قد مات فان الحى لا تؤمن عليه الفتنة اولئك اصحاب محمد ﷺ كانوا افضل
هذه الامة ابرها قلوباً واعمقها علماً واقبلها تكلفاً قوم اختارهم الله لصحبة

نبيه واقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم وتمسكوا بما استطعتم
من اخلاقهم ودينهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم وسيأتي لهذا المعنى بيان
انشاء الله تعالى عند قول الشيخ ونرى الجماعة حقا وصوابا والفرقة زيفاً وعذاباً
قوله ﴿ ونحب اهل العدل والامانة ونبغض اهل الجور والخيانة ﴾ وهذا من
كمال الايمان وتمام العبودية فان العبادة تتضمن كمال المحبة ونهايتها وكمال الذل
ونهايته فحبة رسول الله وانبيائه وعباده المؤمنين من محبة الله وان كانت المحبة
التي لا يستحقها غيره فغير الله يحب في الله لامع الله فان المحب يحب ما يحب
محبوبه ويبغض ما يبغض ويوالي من يواليه ويعادي من يعاديه ويرضى لرضائه
ويغضب لغضبه ويأمر بما يأمر به وينهى عما ينهى عنه فهو موافق لمحبوبه في كل
حال والله تعالى يحب المحسنين ويحب المتقين ويحب التوايين ويحب المتطهرين
ونحن نحب من يحبه الله والله لا يحب الخائنين ولا يحب المفسدين ولا يحب
المستكبرين ونحن لا نحبهم ايضاً ونبغضهم موافقة له سبحانه وتعالى . وفي
الصحيحين عن النبي ﷺ « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : من كان الله
ورسوله أحب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الله ومن كان يكره
أن يرجع في الكفر بعد ان انقذه الله منه كما يكره ان يلقى في النار » فالمحبة
التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه وولايته وعداوته . ومن
المعلوم ان من أحب الله المحبة الواجبة فلا بد ان يبغض اعداؤه ولا بد ان يحب
ما يحبه من جهادهم كما قال تعالى ﴿ ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً
كانهم بنيان مرصوص ﴾ والحب والبغض بحسب ما فيهم من خصال الخير
والشر فان العبد يجتمع فيه سبب الولاية وسبب العداوة والحب والبغض

فيكون محبوباً من وجهه ومبغوضاً من وجهه والحكم الغالب وكذلك حكم العبد
عند الله فان الله قد يحب الشيء من وجهه ويكرهه من وجه آخر كما قال عليه السلام فيما يروي
عن ربه عز وجل «وما ترددت في شيء انا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي
المؤمن يكره الموت وانا اكره مساءته ولا بد له منه» فيبين انه يتردد لان التردد
تعارض ارادتين وهو سبحانه يحب ما يحب عبده المؤمن ويكره ما يكرهه وهو
يكره الموت فهو يكرهه كما قال «وانا اكره مساءته» وهو سبحانه قضى بالموت
فهو يريد كونه فسمى ذلك تردداً ثم بين انه لا بد من وقوع ذلك اذ هو مفض
الى ما هو احب منه . قوله ﴿ وتقول الله اعلم فيما اشتبه علينا علمه ﴾ تقدم في
كلام الشيخ رحمه الله انه ما سلم في دينه الا من سلم لله عز وجل ولرسوله عليه السلام ورد
علم ما اشتبه عليه الى عالمه ومن تكلم بغير علم فانما يتبع هواه وقد قال تعالى ﴿ ومن
اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن الناس من يجادل في
الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه انه من تولاه فانه يضل به ويهديه
الى عذاب السعير ﴾ وقال تعالى ﴿ الذين يجادلون في ايات الله بغير سلطان اتاعم
كبير مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾
وقال تعالى ﴿ قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير
الحق وان تشركو ابا الله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ . وقد
امر الله نبيه عليه السلام ان يرد علم ما لم يعلم اليه فقال تعالى ﴿ قل الله اعلم بما لبثوا
له غيب السموات والارض - قل ربي اعلم بعدتهم ﴾ . وقد قال عليه السلام لما سئل عن
اطفال المشركين « الله اعلم بما كانوا عاملين » وقال عمر رضي الله عنه : اتهموا
الرأي في الدين فلورأيتي يوم ابي جندل فلقد رأيتني واني لاراد امر رسول

الله ﷺ برأى فاجتهد ولا آلو^(١) وذلك يوم ابي جندل والكتاب يكتب .
وقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ✽ قال : اكتب باسمك اللهم فرضي
رسول الله ﷺ وكتب وايت فقال « يا عمر تراني قد رضيت وتأني » وقال
ايضا رضي الله عنه « السنة ما سنه الله ورسوله ﷺ لا تجعلوا خطأ الرأي سنة
للامة » . وقال ابو بكر الصديق رضي الله عنه : أي ارض تقاني وأي سماء
تظلني ان قلت في آية من كتاب الله برأى او بما لا علم . وذكر الحسن بن علي
الخلواني حدثنا عارم حدثنا حماد بن زيد عن سعيد بن ابي صدقة عن ابن سيرين
قال : لم يكن احد اهيب لما لا يعلم من ابي بكر ولم يكن بعد ابي بكر اهيب لما
لا يعلم من عمر رضي الله عنه وان ابا بكر نزلت به قضية فلم يجد في كتاب الله
منها اصلا ولا في السنة اثرأ فاجتهد برأيه ثم قال : هذا رأبي فان يكن صوابا فمن
الله وان يكن خطأ فني واستغفر الله . قوله ✽ ونرى المسح على الخفين في السفر
والحضر كما جاء في الاثر ✽ تواترت السنة عن رسول الله ﷺ بالمسح على الخفين
وبفصل الرجلين والرافضة تخالف هذه السنة المتواترة فيقال لهم الذين نقلوا
عن النبي ﷺ الوضوء قولا وفعلا والذين تعلموا الوضوء منه وتوضأوا على عهده
وهو يراهم ويقرهم ونقلوه الى من بعدهم اكثر عددا من الذين نقلوا لفظ هذه
الآية . فان جميع المسلمين كانوا يتوضأون على عهده ولم يتعلموا الوضوء الا منه
فان هذا العمل لم يكن معهودا عندهم في الجاهلية وهم قد رأوه يتوضأ ما لا يحصى
عده الا الله تعالى ونقلوا عنه غسل الرجلين في ماشاء الله من الحديث حتى
نقلوا عنه من غير وجه في كتب الصحيح وغيرهما انه قال « ويل للاعقاب وبطون

(١) كذا بالاصل ولعله رأيتني ولو أستطيع ان أرد الخ

الاقدام من النار ، مع ان الفرض اذا كان مسح ظاهر القدم كان غسل الجميع كلفة
لا تدعو اليها الطيباع كما تدعو الطيباع الى طلب الرياسة والمال فلو جاز الطعن في تواتر
صفة الوضوء لكان في نقل لفظ آية اقرب الى الجواز واذا قالوا : لفظ الآية ثبت
بالتواتر الذي لا يمكن فيه الكذب ولا الخطأ فثبوت التواتر في نقل الوضوء
عنه اولى واكمل ولفظ الآية لا يخالف ما تواتر من السنة فان المسح كما يطلق
ويراد به الاصابة كذلك يطلق ويراد به الاسالة كما تقول العرب تمسحت
للصلاة وفي الآية ما يدل على انه لم يرد بمسح الرجلين المسح الذي هو قسم
الغسل بل المسح الذي الغسل قسم منه فانه قال ﴿ الى الكعبيين ﴾ ولم يقل
الى الكعاب كما قال ﴿ الى المرافق ﴾ فدل على انه ليس في كل رجل كعب واحد
كما في كل يد مرفق واحد بل في كل رجل كعبان فيكون تعالى قد امر بالمسح الى
العظمين الناتئين وهذا هو الغسل فان من مسح المسح الخاص يجعل المسح لظهور
القدمين وجعل الكعبيين في الآية غاية برد قولهم فدعوا ثم ان الفرض مسح الرجلين
الى الكعبيين الذين هما مجتمع الساق والقدم عند معقد الشراك مردود بالكتاب
والسنة وفي الآية قراءة ثان مشهورتان النصب والخفض وتوجيه اعرابها مبسوط
في موضعه وقراءة النصب نص في وجوب الغسل لان العطف على المحل انما يكون
اذا كان المعنى واحدا كقوله : * فلسنا بالجبال ولا الحديد *

وليس معنى مسحت برأسي ورجلي هو معنى مسحت رأسي ورجلي
بل ذكر الباء مفيد معنى زائدا على مجرد المسح وهو الصاق شيء من الماء
بالرأس فتعين العطف على قوله وايديك فالسنة المتواترة تقضي على ما يفهمه
بعض الناس من ظاهر القرآن فان الرسول بين للناس لفظ القرآن ومعناه .

كما قال ابو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرؤونا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهم انهم كانوا اذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا معناها وفي ذكر المسح في الرجلين تنبيه على قلة الصب في الرجلين فان السرف يعتاد فيها كثيرا والمسئلة معروفة والكلام عليها في كتب الفروع قوله « والحج والجهاد ماضيان مع اولي الامر من المسلمين برهم وفاجرهم الى قيام الساعة لا يبطلها شيء ولا ينقضها » يشير الشيخ رحمه الله الى الرد على الرافضة حيث قالوا لاجهاد في سبيل الله حتى يخرج الرضى من آل محمد وينادي مناد من السماء اتبعوه وبطلان هذا القول اظهر من ان يستدل عليه بدليل وهم شرطوا في الامام ان يكون معصوما اشتراطا بغير دليل بل في صحيح مسلم عن عوف بن مالك الاشجعي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « خيار ائمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار ائمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم » قال قلنا يا رسول الله افلا تنابذهم عند ذلك قال « لاما افاموا فيكم الصلاة الا من ولي عليه وال فراه ياتي شيئا من معصية الله فليكره ما ياتي من معصية الله ولا ينزعن يدا من طاعته » وقد تقدم بعض نظائر هذا الحديث في الامامة ولم يقل ان الامام يجب ان يكون معصوما والرافضة اخسر الناس صفقة في هذه المسئلة لانهم جعلوا الامام المعصوم هو الامام المدوم الذي لم ينفعهم في دين ولا دنيا فانهم يدعون انه الامام المنتظر محمد بن الحسن العسكري الذي دخل السرداب في زعمهم سنة ستين ومائتين او قريبا من ذلك بسامرا وقد يقيمون هناك دابة اما بغلة واما فرسا ليركبها اذا خرج

ويقيمون هناك في اوقات عينوا فيها من ينادي عليه بالخروج يامولانا اخرج
يامولانا اخرج ويشهرون السلاح ولا احد هناك يقاتلهم الى غير ذلك من الامور
التي يضحك عليهم فيها العقلاء . وقوله مع اولي الامر برغم وفاجرهم لأن الحج
والجهاد فرضان يتملقان بالسفر فلا بد من سائس يسوس فيها ويقاوم فيها العدو
وهذا المعنى كما يحصل بالامام البري يحصل بالامام الفاجر قوله ﴿ ونؤمن بالسكرام
الكاتبين فان الله قد جعلهم علينا حافظين ﴾ قال تعالى ﴿ وان عليكم لحافظين
كراما كاتبين يعلمون ما تعملون ﴾ وقال تعالى ﴿ اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين
وعن الشمال قميد ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد ﴾ وقال تعالى ﴿ له
معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله ﴾ وقال تعالى ﴿ ام يحسبون
انا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ وقال تعالى ﴿ هذا
كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ وقال تعالى ﴿ ان
رسلنا يكتبون ما تكفرون ﴾ وفي الصحيح عن النبي ﷺ انه قال « يتعاقبون
فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر
فيصعد اليه الذين كانوا فيكم فيسألهم والله اعلم بهم كيف تركتم عبادي فيقولون
اتيناهم وهم يصلون وفارقتهم وهم يصلون » وفي الحديث الآخر « ان معكم من لا
يفارقكم الا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم واكرمواهم » جاء في التفسير اثنان عن
اليمين وعن الشمال يكتبان الاعمال صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال
يكتب السيئات وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه وواحد من ورأه وواحد امامه
فهو بين اربعة املاك بالنهار واربعة آخرين بالليل بدلا حافظان وكاتبان وقال عكرمة
عن ابن عباس يحفظونه من امر الله قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه

فإذا جاء قدر الله خلوا عنه . وروى مسلم والامام احمد عن عبد الله قال قال رسول الله
ﷺ « ما منكم من احد الا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا
واياك يا رسول الله قال وايي ولكن اعانني الله عليه فاسلم فلا يأمرني الا بخير الرواية
بفتح الميم من فاسلم ومن رواه فاسلم يرفع الميم فقد حرف لفظه ومعنى فاسلم
أي فاستسلم واتقاد لي في اصح القولين . ولهذا قال فلا يأمرني الا بخير ومن
قال ان الشيطان صار مؤمناً فقد حرف معناه فان الشيطان لا يكون مؤمناً
ومعنى يحفظونه من امر الله قيل حفظهم له من امر الله اي الله أمرهم بذلك يشهد لذلك
قراءة من قرأ يحفظونه بأمر الله ثم قد ثبت بالنصوص المذكورة ان الملائكة
تكتب القول والفعل وكذلك النية لأنها فعل القلب فدخلت في عموم يعلمون ما
تفعلون ويشهد لذلك قوله ﷺ قال الله عز وجل « اذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها
عليه فان عملها فكتبوها عليه سيئة واذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها فكتبوها
له حسنة فان عملها فكتبوها عشرا » وقال رسول الله ﷺ « قالت الملائكة
ذاك عبد يريد ان يعمل سيئة وهو ابصر به فقال ارقبوه فان عملها فكتبوها بمثلها
وان تركها فكتبوها له حسنة انما تركها من جرائي » خرجها في الصحيحين
واللفظ لمسلم قوله ﴿ وتؤمن بملك الموت الموكل بقبض ارواح العالمين ﴾ قال تعالى
﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم الي ربكم ترجعون ﴾ ولان تعارض
هذه الآية قوله ﴿ حتى اذا جاء احدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾
وقوله تعالى ﴿ الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك
التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى ﴾ لان ملك الموت
يتولى قبضها واستخراجها ثم تأخذها منه ملائكة الرحمة او ملائكة العذاب

ويتولونها بعده كل ذلك باذن الله وقضائه وقدره وحكمه وأمره فصحت اضافة
التوفي الى كل بحسبه . وقد اختلف في حقيقة النفس ماهي وهل هي جزء من اجزاء
البدن او عرض من اعراضه او جسم مساكن له مودع فيه او جوهر مجرد
وهل هي الروح او غيرها وهل الامارة وهل اللوامة والمطمئنة نفس واحدة ام هي
ثلاثة انفس وهل تموت الروح او الموت للبدن وحده . وهذه المسئلة تحتمل
مجدا ولكن اشير الى الكلام عليها مختصرا ان شاء الله تعالى . فقيل الروح
قديمة وقد اجعت الرسل على انها محدثة مخلوقة مصنوعة مربية مبدرة . وهذا
معلوم بالضرورة من دينهم ان العالم محدث ومضى على هذا الصحابة والتابعون
حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه في الكتاب والسنة فزعم انها قديمة واحتج
باتها من امر الله وامره غير مخلوق وبان الله اضافها اليه بقوله ﴿ قل الروح من
امر ربي ﴾ وبقوله ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ كما اضاف اليه علمه وقدرته
وسمعه وبصره ويده وتوقف آخرون واتفق اهل السنة والجماعة على انها مخلوقة .
وممن نقل الاجماع على ذلك محمد بن نصر المروزي وابن قتيبة وغيرهما ومن الادلة
على ان الروح مخلوقة قوله تعالى ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ فهذا عام لا تخصيص
فيه بوجه ما ولا يدخل في ذلك صفات الله تعالى فانها داخلة في مسمى اسمه .
فالله تعالى هو الاله الموصوف بصفات الكمال فعلمه وقدرته وحياته وسمعه
وبصره وجميع صفاته داخلة في مسمى اسمه فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق
وماسواه مخلوق . ومعلوم قطعا ان الروح ليست هي الله ولا صفة من صفاته
وانما هي من مصنوعاته ومنها قوله تعالى ﴿ هل اتى على الانسان حين من الدهر
لم يكن شيئا مذكورا ﴾ وقوله تعالى ﴿ لقد خلقتك من قبل ولم تنك

شيئا ﴿ والانسان اسم لروحه وجسده والخطاب لذكرها لروحه وبدنه والروح
توصف بالوفاة والقبض والامساك والارسال وهذا شأن المخلوق المحدث .
واما احتجاجهم بقوله ﴿ من امر ربي ﴾ فليس المراد هنا بالامر الطلب بل
المراد به المأمور والمصدر يذكروا ويراد به اسم المفعول وهذا معلوم مشهور .
واما استدلالهم باضافتها اليه بقوله ﴿ من روحي ﴾ فينبغي ان يعلم ان المضاف
الى الله تعالى نوعان صفات لا تقوم بانفسها كالعلم والقدرة والكلام والسمع
والبصر فهذه اضافة صفة الى الموصوف بها فعله وكلامه وقدرته وحياته صفات له
وكذا وجهه ويده سبحانه والثاني اضافة اعيان منفصلة عنه كالبيت والنافذة
والعبد والرسول والروح فهذه اضافة مخلوق الى خالقه لكن اضافة تقتضي
تخصيصاً وتشريعاً يتميز بها المضاف عن غيره . واختلف في الروح هل هي
مخلوقة قبل الجسد أم بعده وقد تقدم عند ذكر الميثاق الاشارة الى ذلك واختلف
في الروح ما هي ف قيل هي جسم وقيل عرض وقيل لاندرى ما للروح أجوهر
أم عرض وقيل ليس الروح شيئاً أكثر من اعتدال الطبائع الاربع وقيل هي
الدم الصافي الخالص من الكدرة والعفونات وقيل هي الحرارة الغريزية وهي
الحياة وقيل هو جوهر بسيط منبعث في العالم كله من الحيوان على جهة الاعمال له
والتدبير وهي على ما وصفت من الانبساط في العالم غير منقسمة الذات والبنية
وانها في كل حيوان العالم بمعنى واحد لا غير وقيل النفس هي النسيم الداخل
والخارج بالتنفس وقيل غير ذلك . وللتناس في مسمى الانسان هل هو الروح
فقط او البدن فقط أو مجموعهما او كل منهما وهذه الاقوال الاربعة لهم في كلامه
هل هو اللفظ أو المعنى فقط او هما او كل منهما فالخلاف بينهم في الناطق ونطقه

والحق ان الانسان اسم لها وقد يطلق على احدهما بقريظة وكذلك الكلام
والذي يدل عليه الكتاب والسنة واجماع الصحابة وادلة العقل ان النفس جسم
مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نوراني علوي خفيف حي
متحرك ينتقل في جوهر الاعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد وسريان
الدهن في الزيتون والنار في الفحم فما دامت هذه الاعضاء سالحة لقبول الآتار
الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي ذلك الجسم اللطيف ساريا في هذه
الاعضاء وافادتها هذه الآتار من الحس والحركة الارادية واذا فسدت هذه
بسبب استيلاء الاخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآتار فارق
الروح البدن وانفصل الى عالم الارواح والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿ الله
يتوفى الانفس حين موتها ﴾ الآية ففيها الاخبار بتوفيتها وامساكها وارسالها
وقوله تعالى ﴿ ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا
ايديهم اخرجوا انفسكم ﴾ ففيها بسط الملائكة ايديهم لتناولها ووصفها بالاخراج
والخروج والاخبار بعذابها ذلك اليوم والاخبار عن مجيئها الى ربها وقوله تعالى
﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ﴾ الآية ففيها
الاخبار بتوفي النفس بالليل وبمها الى اجسادها بالنهار وتوفي الملائكة لها
عند الموت وقوله تعالى ﴿ يا ايها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية
فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ ففيها وصفها بالرجوع والدخول والرضى .
وقال عليه السلام « ان الروح اذا قبض تبعه البصر ففيه وصفه بالقبض وان البصر
يراه » وقال عليه السلام في حديث بلال « قبض ارواحكم وردها عليكم » وقال عليه السلام
« نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة » وسيأتي في الكلام على عذاب

القبر أدلة كثيرة من خطاب ملك الموت لها وانها تخرج نسيلاً كما تسيل القطرة
من في السقاء وانها تصعد ويوجد منها كأطيب ريح ومن الكافر كأن تن ريح
الى غير ذلك من الصفات وعلى ذلك اجمع السلف ودل العقل وليس مع من خالف
سوى الظنون الكاذبة والشبه الفاسدة التي لا يمارض بها ما دل عليه نصوص
الوحي والادلة العقلية . واما اختلاف الناس في مسمى النفس والروح هل
هما متغيران أو مساهما واحد فالتحقيق ان النفس تطلق على امور وكذلك
الروح فيتعد مدلولها تارة ويختلف تارة فالنفس تطلق على الروح ولكن
غالب ما تسمى نفساً اذا كانت متصلة بالبدن وأما اذا أخذت مجردة فتسمية
الروح اغلب عليها وتطلق على الدم في الحديث « ما لا نفس له سائلة لا ينجس
الماء اذا مات فيه » والنفس العين يقال اصابته فلانا نفس أي عين والنفس الذات
فسلموا على انفسكم - لا تقتلوا انفسكم ونحو ذلك . واما الروح فلا تطلق على البدن
لا بانفراده ولا مع النفس وتطلق الروح على القرآن وعلى جبرائيل ﴿ وكذلك
أوحينا اليك روحاً من امرنا - نزل به الروح الامين ﴾ وتطلق الروح على
الهواء المتردد في بدن الانسان ايضاً . وأما ما يؤيد الله به اوليائه فهي روح
أخرى كما قال تعالى ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدم بروح منه ﴾
وكذلك القوى التي في البدن فانها ايضاً تسمى أرواحاً فيقال الروح الباصر
والروح السامع والروح الشام وتطلق الروح على اخص من هذا كله وهو
قوة المعرفة بالله والانابة اليه ومحبهه وانبعث الهمة الى طلبه وارادته ونسبة
هذه الروح الى الروح كنسبة الروح الى البدن فالعلم روح والاحسان روح
والحبة روح والتوكل روح والصدق روح والناس متفاوتون في هذه الروح

فمن الناس من تغلب عليه هذه الارواح فتصير روجا ومنهم من يفقدها واكثرها
فتصير ارضياً بهيمياً . وقد وقع في كلام كثير من الناس ان لابن آدم ثلاثة
انفس : مطمئنة ، ولوامة ، وامارة ، قالوا وان منهم من تغلب عليه هذه ومنهم
من تغلب عليه هذه كما قال تعالى ﴿ يا ايها النفس المطمئنة - ولا اقسم بالنفس اللوامة -
ان النفس لا مارة بالسوء ﴾ والتحقيق انها نفس واحدة لها صفات فهي اماراة
بالسوء فاذا عارضها الايمان صارت لوامة تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها وتلوم
بين الفعل والترك فاذا قوي الايمان صارت مطمئنة . ولهذا قال النبي ﷺ
« من سرته حسنة وساءته سيئته فهو مؤمن » وقوله لا يزني الزاني حين يزني
وهو مؤمن الحديث واختلف الناس هل تموت الروح ام لا فقالت طائفة
تموت لانها نفس وكل نفس ذائقة الموت وقد قال تعالى ﴿ كل من عليها فان
ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾ وقال تعالى ﴿ كل شيء هالك الا
وجه ﴾ قالوا واذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية اولى بالموت وقال
آخرون لا تموت الارواح فانها خلقت للبقاء وانما تموت الابدان . قالوا وقد
دل على ذلك الاحاديث الدالة على نعيم الارواح وعذابها بعد المفارقة الى ان
يرجعها الله في اجسادها والصواب ان يقال موت النفوس هو مفارقتها
لاجسادها وخروجها منها فان اريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت وان
اريد انها تعدم وتنفى بالكلية فهي لا تموت بهذا الاعتبار بل هي باقية بعد
خلقها في نعيم او في عذاب . كما سيأتي ان شاء الله تعالى وقد اخبر سبحانه
ان اهل الجنة لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى وتلك الموتة هي مفارقة
الارواح للجسد . واما قول اهل النار ربنا امتنا اثنتين وقوله تعالى ﴿ كيف

تكفرون بالله وكنتم امواتا فاحياكم ثم بميتكم ثم يحييكم ﴿ فليراد انهم كانوا امواتا وهم نطف في اصلاب آباؤهم وفي ارحام امهاتهم ثم احياهم بعد ذلك ثم اماتهم ثم يحييهم يوم النشور وليس في ذلك اماتة ارواحهم قبل يوم القيامة ولا كانت ثلاث موتات وصعق الارواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها فان الناس يصعقون يوم القيامة اذا جاء الله لفصل القضاء واشرقت الارض بنوره وليس ذلك بموت . وسيأتي ذكر ذلك ان شاء الله تعالى . وكذلك صعق موسى عليه السلام لم يكن موتا والذي يدل عليه ان نفخة الصعق والله اعلم موت كل من لم يذق الموت قبلها من الخلائق وامامن ذاق الموت اولم يكتب عليه الموت من الحور والولدان وغيرهم فلا تدل الآية على انه يموت مودة ثانية والله اعلم قوله ﴿ وبعذاب القبر لمن كان له اهل وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه على ما جاءت به الاخبار عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة رضوان الله عليهم والقبر روضة من رياض الجنة او حفرة من حفر النيران ﴾ قال تعالى ﴿ وحق باآل فرعون سوء العذاب النار يمرضون عليها غدواً وعشيا ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ وقال تعالى ﴿ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون - يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون - وان للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن اكثرهم لا يعلمون ﴾ وهذا يحتمل ان يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا وان يراد به عذابهم في البرزخ وهو اظهر لأن كثيرا منهم مات ولم يعذب في الدنيا او المراد اعم من ذلك وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال كنا في جنازة في بقيع الفرقد فاتانا النبي ﷺ فقمعد وقعدنا حوله كأن على

رؤسنا الطير وهو يلحده فقال اعوذ بالله من عذاب القبر ثلاث مرات ثم قال ان العبد المؤمن اذا كان في اقبال من الآخرة وانقطع من الدنيا نزلت اليه الملائكة كأن علي وجوههم الشمس معهم كفن من اكراف الجنة وحنوط من حنوط الجنة جلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول ايها النفس الطيبة اخرجي الى مغفرة من الله ورضوان قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فياخذها فاذا اخذها لم يدعوها في يده طرفه عين حتى ياخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط وتخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الارض قال فيصعدون بها فلا يمرون بها يعني على ملاء من الملائكة الا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان بأحسن اسمائه التي كانوا يسمونه به في الدنيا حتى ينتهوا بها الى السماء فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها الى السماء التي تليها حتى ينتهي بها الى السماء التي فيها الله فيقول الله عز وجل اكتبوا كتاب عبدي في عليين واعيدوه الى الارض فاني منها خلقتهم وفيها اعيدهم ومنها اخرجهم تارة اخرى قال فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول ربي الله فيقولان له ما دينك فيقول ديني الاسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هو رسول الله فيقولان له : ما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت فينادي مناد من السماء ان صدق عبدي فاقرشوه من الجنة وافتحوا له بابا الى الجنة قال فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مدبصره قال ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح فيقول : ابشر بالذي يسرك هذا يومك

الذي كنت توعد فيقول له: من انت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير فيقول
انا عمك الصالح فيقول: يارب اقم الساعة حتى ارجع الى اهلي ومالي. قال وان العبد
الكافر اذا كان في انقطاع من الدنيا واقبال من الآخرة نزل اليه من السماء
ملائكة سود الوجود معهم السوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت
حتى يجلس عند رأسه فيقول: ايها النفس الخبيثة اخرجي الى سخط من
الله وغضب قال فتتفرق في جسده فينزعا كما ينزع السوف من الصوف المبلول
فياخذها فاذا اخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يجملها في تلك السوح
ويخرج منها كائن ربح خبيثة وجدت على وجه الارض فيصعدون بها فلا يبرون
بها على ملا من الملائكة الا قالوا ما هذا فيقولون فلان ابن فلان باقبح اسمائه التي
كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي بها الى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له ثم
قرأ رسول الله ﷺ لا تفتح لهم ابواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى
يلج الجمل في سم الخياط ﴿ فيقول الله عز وجل ﴾ اكتبوا كتابه في سجل
في الارض السفلى فتطرح روحه طرحا ﴿ ثم قرأ ﴾ ومن يشرك بالله فكأنما
خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴿ فتعاد
روحه في جسده ويأتيه ملكان فيقولان له من ربك فيقول هاهاه لا أدري
فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاهاه لا أدري فينادي مناد
من السماء ان كذب فافرشوه من النار وافتحوا له بابا الى النار فيأتيه من
حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف اضلاعه ويأتيه رجل قبيح
الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول ابشر بالذي يسؤك هذا يومك الذي
كنت توعد فيقول من انت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر فيقول انا

عملك الحديث فيقول رب لا تقم الساعة » رواه الامام احمد وابو داود وروى
النسائي وابن ماجه اوله ورواه الحاكم وابو عوانة الاسفرائيني في صحيحيهما
وابن حبان وذهب الى موجب هذا الحديث جميع اهل السنة والحديث وله
شواهد من الصحيح . فذكر البخاري رحمه الله عن سعيد عن قتادة عن أنس
ان رسول الله ﷺ قال « ان العبد اذا وضع في قبره وتولى عنه اصحابه انه
ليسمع قرع نعالهم فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا
الرجل محمد ﷺ فاما المؤمن فيقول اشهد انه عبد الله ورسوله فيقول له انظر
الى مقعدك من النار ابد لك الله به مقعدا من الجنة فيراها جميعا » قال
قتادة وروي لنا انه يفسح له في قبره وذكر الحديث . وفي الصحيحين عن
ابن عباس رضي الله عنهما ان النبي ﷺ مر بقبرين فقال « انهما يعذبان وما
يعذبان في كبير اما احدهما فكان لا يستبري من البول وأما الآخر فكان
يمشي بالنخلة فدعا بجريدة رطبة فشقها نصفين وقال لعله يخفف عنهما ما لم
يببسا » وفي صحيح ابى حاتم عن ابى هريرة قال قال النبي ﷺ « اذا قبر احدكم
او الانسان اتاه ملكان اسودان ازرقان يقال لاحدهما المنكر وللآخر النكير »
وذكر الحديث الخ . وقد تواترت الاخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت
عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك اهلا وسؤال الملكين فيجب اعتقاد ثبوت
ذلك والايان به ولا يتكلم في كيفيته اذ ليس للعقل وقوف على كيفيته لكونه
لا عهد له به في هذه الدار والشرع لا يأتي بما تخيله العقول ولكنه قد يأتي
بما تحار فيه العقول فان عود الروح الى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا
بل تعاد الروح اليه اعادة غير الاعادة المألوفة في الدنيا فالروح لها بالبدن خمسة

أنواع من التعلق متغايرة الاحكام (أحدها) تعلقها به في بطن الام جنينا
(الثاني) تعلقها به بعد خروجه الى وجه الارض (الثالث) تعلقها به في حال
النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه (الرابع) تعلقها به في البرزخ
فانها وان فارقته وتجردت عنه فانها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها اليه
التفات ألبتة فانه ورد ردها اليه وقت سلام المسلم وورد انه يسمع خفق ناعلم
حين يولون عنه وهذا الرد اعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة
(الخامس) تعلقها به يوم بعث الاجساد وهوا كمل انواع تعلقها بالبدن ولانسبة
لما قبله من انواع التعلق اليه اذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتا ولا نوماً ولا فساداً
فالنوم اخو الموت . فتأمل هذا يزيح عنك اشكالات كثيرة وليس السؤال
في القبر للروح وحدها كما قال ابن حزم وغيره وافسد منه قول من قال انه لا بدن
بالروح . والاحاديث الصحيحة ترد القولين وكذلك عذاب القبر يكون
لنفس والبدن جميعاً باتفاق اهل السنة والجماعة تنعم النفس وتعذب مفردة عن
البدن ومتصلة به . واعلم ان عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات
وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر او لم يقبر أكلته السباع او احترق حتى
صار رماداً ونسف في الهواء او صلب او غرق في البحر وصل الى روحه وبدنه
من العذاب ما يصل الى المقبور وماورد من اجلاسه واختلاف اضلاعه ونحو
ذلك فيجب ان يفهم عن الرسول ﷺ مراده عن غير غلو ولا تقصير فلا يحمل
كلامه ما لا يحتمله ولا يقصر به عن مراد ما قصده من الهدى والبيان فكم حصل
باهمال ذلك والمدول عنه من الضلال والمدول عن الصواب ما لا يعلمه الا الله
بل سوء الفهم عن الله ورسوله اصل كل بدعة وضلالة نشأت في الاسلام وهو

اصل كل خطأ في الفروع والاصول ولا سيما ان اضيف اليه سوء القصد والله
المستعان . فالخاصل ان الدور ثلاث دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار . وقد
جعل الله لكل دار احكاما تخصها وركب هذا الانسان من بدن ونفس
وجعل احكام الدنيا على الابدان والارواح تبعاً لها وجعل احكام البرزخ على
الارواح والابدان تبعاً لها فاذا جاء يوم حشر الاجساد وقيام الناس من قبورهم
صار الحكم والنعيم والعذاب على الارواح والاجساد جميعا . فاذا تأملت هذا
المعنى حق التأمل ظهر لك ان كون القبر روضة من رياض الجنة او حفرة من
حفر النار مطابق للعقل وانه حق لامرية فيه وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب
من غيرهم . ويجب ان يعلم ان النار التي في القبر والنعيم ليس من جنس نار الدنيا
ولانعيمها وان كان الله تعالى يحمي عليه التراب والحجارة التي فوقه وتحمته حتى
يكون اعظم حراً من جمر الدنيا ولو مسها اهل الدنيا لم يحسوا بها بل اعجب من
هذا ان الرجلين يدفن احدهما الى جنب صاحبه وهذا في حفرة من النار وهذا
في روضة من رياض الجنة لا يصل من هذا الى جاره شيء من حر ناره ولا من
هذا الى جاره شيء من نعيمه وقدرة الله اوسع من ذلك واعجب ولكن النفوس
مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علما . وقد ارانا الله في هذه الدار من عجائب قدرته
ما هو ابلغ من هذا بكثير واذا شاء الله ان يطلع على ذلك بعض عباده اطلعه
وغيبه عن غيره ولو اطلع الله على ذلك العباد كلهم لزال حكمة التكليف والايمان
بالغيب ولما تدافن الناس كما في الصحيح عنه ﷺ « لولا ان لا تدافنوا لدعوت
الله ان يسمعكم من عذاب القبر ما يسمع » . ولما كانت هذه الحكمة منتفية في حق
البهائم سمعت وادركت . وللناس في سؤال منكر ونكير هل هو خاص بهذه

الامة ام لا ثلاثة اقوال الثالث التوقف وهو قول جماعة منهم ابو عمر بن عبد
البر فقال وفي حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ انه قال « ان هذه الامة تبثلي في
قبورها » منهم من يرويه تسأل وعلى هذا اللفظ يحتمل ان تكون هذه الامة
خصت بذلك وهذا امر لا يقطع به ويظهر عدم الاختصاص والله اعلم . وكذلك
اختلف في سؤال الاطفال ايضاً وهل يدوم عذاب القبر او ينقطع جوابه انه
نوعان منه ما هو دائم كما قال تعالى ﴿ النار يمرضون عليها غدواً وعشيا ويوم تقوم
الساعة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب ﴾ وكذا في حديث البراء بن عازب في قصة
الكافر « ثم يفتح له باب الى النار فينظر الى مقعده فيها حتى تقوم الساعة » رواه
الامام احمد في بعض طرقه . والنوع الثاني انه مدة ثم ينقطع وهو عذاب بعض
اهل العصاة الذي خفت جرائمهم فيعذب بحسب جرمه ثم يخفف عنه كما تقدم
ذكره في المحصاة العشرة . وقد اختلف في مستقر الارواح ما بين الموت الى قيام
الساعة فقيل ارواح المؤمنين في الجنة وارواح الكافرين في النار وقيل ان ارواح
المؤمنين ببناء الجنة على باهاياتهم من روحها ونعيمها ورزقها وقيل على افنية قبورهم
وقال مالك بلغني ان الروح مرسله تذهب حيث شاءت . وقالت طائفة: بل ارواح
المؤمنين عند الله عز وجل ولم يزيدوا على ذلك وقيل ان ارواح المؤمنين بالجالية من
دمشق وارواح الكافرين ببرهوت ببر محض موت . وقال كعب ارواح المؤمنين
في عليين في السماء السابعة وارواح الكفار في سجين في الارض السابعة تحت
خد ابليس . وقيل ارواح المؤمنين ببر زمزم وارواح الكافرين ببرهوت
وقيل ارواح المؤمنين عن يمين آدم وارواح الكفار عن شماله قال ابن حزم وغيره
مستقرها حيث كانت قبل خلق اجسادها . وقال ابو عمر بن عبد البر ارواح

الشهداء في الجنة وارواح عامة المؤمنين على اافية قبورهم وعن ابن شهاب انه قال بلغني ان ارواح الشهداء كطير خضر معلقة بالعرش تغدو وتروح الى رياض الجنة تأتي ربها كل يوم تسلم عليه . وقالت فرقة مستقرها العدم المحض وهذا قول من يقول ان النفس عرض من اعراض البدن كحياته وادراكه وقولهم مخالف للكتاب والسنة . وقالت فرقة مستقرها بعد الموت ابدان آخر تناسب اخلاقها وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها فتصير كل روح الى بدن حيوان يشاكل تلك الروح وهذا قول التناسخية منكري المعاد وهو قول خارج عن اهل الاسلام كلهم ويضيق هذا المختصر عن بسط ادلة هذه الاقوال والكلام عليها . ويتلخص من ادلتها ان الارواح في البرزخ متفاوتة اعظم تفاوت . فمنها ارواح في اعلى عليين في الملاء الاعلى . وهي ارواح الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه وهم متفاوتون في منازلهم . ومنها ارواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وهي ارواح بعض الشهداء لا كلهم بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه . كما في المسند عن عبد الله بن جحش ان رجلا جاء الى النبي ﷺ فقال يا رسول الله « مالي ان قتلت في سبيل الله قال الجنة فلما ولي قال الا الدين سارني به جبرائيل آتفا ومن الارواح من يكون محبوبا على باب الجنة » كما في الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ « رأيت صاحبكم محبوبا على باب الجنة ومنهم من يكون محبوبا في قبره ومنهم من يكون في الارض » ومنها ارواح تكون في تنور الزناة والزواني وارواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة كل ذلك تشهد له السنة والله اعلم . واما الحياة التي اختص بها الشهيد وامتاز بها عن غيره في قوله تعالى ﴿ ولا

تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون ﴿ وقوله
 تعالى ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله اموات بل احياء ولكن لا تشعرون ﴾
 ان الله تعالى جعل ارواحهم في اجواف طير خضر . كما في حديث عبد الله بن
 عباس انه قال قال رسول الله ﷺ « لما اصيب اخوانكم يعني يوم احد جعل
 الله ارواحهم في اجواف طير خضر ترد انهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي
 الى قناديل من ذهب مظلمة في ظل العرش » الحديث رواه الامام احمد وابو
 داود وبمعناه في حديث ابن مسعود رواه مسلم فانهم لما بذلوا ابدانهم لله عز وجل
 حتى اتلفها اعداؤه فيه اعضاءهم منها في البرزخ ابدانا خيرا منها تكون فيها
 الى يوم القيامة ويكون نعيمها بواسطة تلك الابدان اكل من تنعم الارواح
 المجردة عنها . ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير او كطير ونسمة الشهيد
 في جوف طير . وتأمل لفظ الحديثين في الموطأ ان كعب بن مالك كان يحدث
 ان رسول الله ﷺ قال « ان نسمة المؤمن طائر يعاق في شجر الجنة حتى
 يرجعه الله الى جسده يوم يبعثه » فقوله نسمة المؤمن نعم الشهيد وغيره ثم خص
 الشهيد بان قال هي في جوف طير خضر ومعلوم انها اذا كانت في جوف
 طير صدق عليها انها طير فتدخل في عموم الحديث الآخر بهذا الاعتبار
 فنصيبهم من النعيم في البرزخ اكل من نصيب غيرهم من الاموات على فرشهم
 وان كان الميت أعلى درجة من كثير منهم فلهم نعيم يختص به لا يشاركه فيه من
 هو دونه والله اعلم وحرّم الله على الارض ان تأكل اجساد الانبياء . كما روي
 في السنن واما الشهداء فقد شوهدهم بعد مدد من دفنهم كما هو لم يتغير
 فيحتمل بقاؤه كذلك في تربته الى يوم محشره ويحتمل انه يبلى مع طول المدة

والله اعلم وكانه والله اعلم كل ما كانت الشهادة اكمل والشهيد افضل كان
 بقاء جسده اطول قوله ﴿وَنُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ وَجِزَاءِ الْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْعَرْضِ
 وَالْحِسَابِ وَقِرَاءَةِ الْكِتَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالصِّرَاطِ وَالْمِيزَانِ﴾
 الايمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة السليمة فاجبر الله
 سبحانه عنه في كتابه العزيز واقام الدليل عليه ورد على المنكرين في غالب
 سور القرآن وذلك ان الانبياء كلهم متفقون على الايمان بالله فان الاقرار
 بالرب عام في بني آدم وهو فطري كلهم يقر بالرب الا من عاند كفرعون
 بخلاف الايمان باليوم الآخر فان منكره كثيرون ومحمد ﷺ لما كان خاتم
 الانبياء وكان قد بعث هو والساعة كهاتين وكان هو الحاشر المفضي ^(١) بين
 تفصيل الآخرة بيانا لا يوجد في شيء من كتب الانبياء . ولهذا ظن طائفة
 من المتفلسفة ونحوهم انه لم يفسح بمعاد الابدان الا محمد ﷺ وجعلوا هذا
 حجة لهم في انه من باب التخويل والخطاب الجمهوري والقرآن بين معاد النفس
 عند الموت ومعاد البدن عند القيامة الكبرى في غير موضع وهؤلاء ينكرون
 القيامة الكبرى وينكرون معاد الابدان ويقول من يقول منهم انه لم
 يخبر به الا محمد ﷺ على طريق التخويل وهذا كذب فان القيامة الكبرى
 هي معروفة عند الانبياء من آدم الى نوح الى ابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم
 من حين اهبط آدم فقال تعالى ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ
 فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ - قَالَ فِيهَا تُحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا
 تُخْرَجُونَ﴾ ولما قال ابليس اللعين رب فانظرني الى يوم يبعثون قال

فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم . واما نوح عليه السلام فقال والله
انبتكم من الارض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا . وقال ابراهيم عليه
السلام والذي اطعم ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين الى آخر القصة وقال رب
اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب وقال رب انني كيف تحيي
الموتى الآية . واما موسى عليه السلام فقال تعالى لما ناجاه ﴿ ان الساعة آتية
اكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها
واتبع هواه فتردى ﴾ بل مؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد وانما آمن بموسى
قال تعالى حكاية عنه ﴿ ويا قوم اني اخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين
ما لكم من الله من عاصم ومن يضل الله فانه من هاد ﴾ الى قوله ﴿ يا قوم
انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار ﴾ الى قوله ﴿ ادخلوا
آل فرعون أشد العذاب ﴾ وقال موسى ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة
وفي الآخرة انا هدانا اليك ﴾ وقد اخبر الله في قصة البقرة ﴿ فقلنا اضربوه
ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريك آياته لعلمكم تعقلون ﴾ وقد اخبر الله
انه ارسل الرسل مبشرين ومنذرين في آيات القرآن واخبر عن اهل النار انهم
اذا قال لهم خزنتها ﴿ ألم ياتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم
لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ وهذا
اعتراف من اصناف الكفار الداخلين جهنم ان الرسل انذرتهم لقاء يومهم
هذا فجميع الرسل انذروا بما انذر به خاتمهم من عقوبات المذنبين في الدنيا
والآخرة . فعامة سور القرآن التي فيها ذكر الوعد والوعيد يذكر ذلك فيها
في الدنيا والآخرة وامر نبيه ان يقسم على المعاد فقال ﴿ وقال الذين كفروا

لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب ﴿ الآيات وقال تعالى
﴿ ويستنبئونك أحق هو قل إي وربى انه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ وقال تعالى
﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على
الله يسير ﴾ واخبر عن اقترابها . فقال ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر - اقترب
للناس حسابهم وعم في غفلة معرضون - سأل سائل بمذاب واقع للكافرين ﴾
الى ان قال ﴿ انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ﴾ واذم المكذبين بالمعاد فقال ﴿ قد خسر
الذين كذبوا بقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة بقتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا
فيها - الا ان الذين يمارون في الساعة لني ضلال بعيد - بل ادارك علمهم في الآخرة
بل عم في شك منها بل عم منها عمون - واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله
من يموت بلى وعدا عليه حقا ﴾ الى ان قال ﴿ وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين -
ان الساعة آتية لا ريب فيها ولكن اكثر الناس لا يؤمنون - ونحشرهم يوم
القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ساواهم جهنم كلما خبت زدناهم سميرا -
ذلك جزاؤهم بانهم كفروا باياتنا وقالوا انذا كنا عظاما ورفاتا اننا لمبعوثون خلقنا
جديدا - او لم يروا ان الله الذي خلق السموات والارض قادر على ان يخلق
مثلهم وجعل لهم اجلا لاريب فيه فابى الظالمون الا كفورا - وقالوا انذا كنا
عظاما ورفاتا اننا لمبعوثون خلقنا جديدا قل كونوا حجارة او حديد او خلقنا
مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم اول مرة فسينفضون
اليك رؤسهم ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريبا يوم يدعوكم
فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا ﴾ . فتأمل ما اجيبوا به عن كل
سؤال على التفصيل فانهم قالوا اولا ﴿ انذا كنا عظاما ورفاتا اننا لمبعوثون

خلقا جديداً ﴿ ففيل لهم في جواب هذا السؤال ان كنتم تزعمون انه لا خالق
لكم ولا رب لكم فهلا كنتم خلقا لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد وما هو
ا كبر في صدوركم من ذلك فان قلتم كنا خلقا على هذه الصفة التي لا تقبل البقاء
فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين اعادتكم خلقا جديدا او بالحجة تقدير
آخر وهو لو كنتم من حجارة او حديد او خلقا كبر منهما قادر على ان يفنيكم
ويحيل ذواتكم وينقلها من حال الى حال ومن يقدر على التصرف في هذه الاجسام
مع شدتها وصلابتها بالافتاء والاحالة فما الذي يعجزه فيما دونها ثم اخبر انهم
يسألون آخراً بقولهم من يعيدنا اذا استعالت جسامنا وفنيت . فاجابهم بقوله
﴿ قل الذي فطركم اول مرة ﴾ فلما اخذتهم الحجة ولزمهم حكمها انتقلوا الى
سؤال آخر يتعلقون به بعلم المنقطع وهو قولهم متى هو ﴿ فاجيبوا بقوله عسى
ان يكون قريبا ﴾ ومن هذا قوله ﴿ وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي
العظام وهي رميم ﴾ الى آخر السورة . فلورام اعلم البشر وافصحهم واقدرهم على
البيان ان يأتي باحسن من هذه الحجة او يمثليها بالفاظ تشابه هذه الالفاظ في
الايجاز ووضع الادلة وصحة البرهان لما قدر فانه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال
اورده ملحد اقتضى جوابا فكان في قوله ﴿ ونسي خلقه ﴾ ما يفي بالجواب
واقام الحجة وازال الشبهة لما اراد سبحانه من تأكيد الحجة وزيادة تقريرها
فقال ﴿ قل يحييها الذي انشاها اول مرة ﴾ . فاحتج بالابداء على الاعادة
وبالانشاء الاول على النشأة الاخرى اذ كل عاقل يعلم ضروريا ان من قدر على
هذه وانه لو كان عاجزا عن الثانية لكان عن الاولى اعجز واعجز واما كان الخلق
يستلزم قدرة الخالق على المخلوق وعلمه بتفاصيل خلقه اتبع ذلك بقوله ﴿ وهو

بكل خلق عليم ﴿ فهو عليم بتفاصيل الخلق الاول وجزئياته ومواده وصورته
فكذلك الثاني. فاذا كان تام العلم، كامل القدرة كيف يتمذر عليه ان يحجي العظام وهي
رميم ثم اكد الامر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر يتضمن جوابا عن سؤال ملحد آخر
يقول: العظام اذا صارت رميا عادت طبيعتها باردة يابسة والحياة لا بد ان تكون
مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة بما يدل على امر البعث ففيه الدليل والجواب.
فقال ﴿ الذي جعل لحم من الشجر الاخضر نارا فاذا اتم منه توقدون ﴿ فاخبر
سبحانه باخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر
الاخضر الممتليء من الرطوبة والبرودة فالذي يخرج الشيء من ضده وتناقضه
مواد المخاوقات وعناصرها ولا تستعصي عليه هو الذي يفعل ما انكره الملحد
ودفعه من احياء العظام وهي رميم. ثم اكد هذا باخذ الدلالة من الشيء الاجل
الاعظم على الايسر الاصغر فان كل عاقل يعلم ان من قدر على العظيم الجليل فهو
على مادونه بكثير اقدر واقدر من قدر على حمل قنطار قدر على حمل اوقية اشد
اقتدارا فقال ﴿ اولى الذي خلق السموات والارض بقادر ان يخلق مثلهم ﴿
فاخبر ان الذي ابدع السموات والارض على حالتها وعظم شأنها وكبر اجسامها
وسعتها وعجيب خلقها اقدر على ان يحجي عظاما قد صارت رميا فيردها الى حالتها
الاولى كما قال في موضع آخر ﴿ خلق السموات والارض اكبر من خلق الناس
ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴿ وقال ﴿ اولى الذي خلق السموات والارض
بقادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴿ ثم اكد سبحانه ذلك
ويبينه بينات اخر وهو انه ليس فعله بمنزلة غيره الذي يفعل بالآلات
والكلفة والنصب والمشقة ولا يمكنه الاستقلال بالفعل بل لا بد معه من

آلة ومعين بل يكفي في خلقه لما يريد ان يخلقه ويكونه نفس ارادته . وقوله
للمكون كن فاذا هو كائن كما شاء و اراده ثم ختم هذه الحجة باخباره ان ملكوت
كل شيء بيده فيتصرف فيه بفعله . وقوله ﴿ واليه ترجعون ﴾ ومن هذا قوله
سبحانه ﴿ ابحسب الانسان ان يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمني ثم كان علقة
تخلق فسوى فجعل منه الزرجين الذكر والانثى اليس ذاك بقادر على ان يحيي الموتى ﴾
فاحتج سبحانه على انه لا يتركه مهملا عن الامر والتبهي والثواب والعقاب وان
حكيمته وقدرته تأبى ذلك اشد الالباء كما قال تعالى ﴿ احسبتم انما خلقناكم عبثا
وانكم الينا لاترجعون ﴾ الى آخر السورة فان من نقله من النطفة الى العلقه
ثم الى المضغة ثم شق سمعه وبصره وركب فيه الحواس والقوى والعظام والمنافع
والاعصاب والرباطات التي هي اشده واحكم خلقه غاية الاحكام واخرجه على
هذا الشكل والصورة التي هي اتم الصور واحسن الاشكال كيف يعجز عن
اعادته وانشائه مرة ثانية ام كيف تقتضي حكيمته وعنايته به ان يتركه سدى فلا
يليق ذلك بحكيمته ولا تعجز عنه قدرته . فانظر الى هذا الاحتجاج المعجيب بالقول
الوجيز الذي لا يكون اوجز منه والبيان الجليل الذي لا يتوعم اوضح منه وما أخذه
القريب الذي لا تقع الظنون على اقرب منه . وكم في القرآن من مثل هذا
الاحتجاج كما في قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا
خلقناكم من تراب ثم من نطفة ﴾ الى ان قال ﴿ وان الله يبعث من في القبور ﴾
وقوله تعالى ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ﴾ الى ان قال ﴿ ثم
انكم يوم القيامة تبعثون ﴾ و ذكر قصة اصحاب الكهف وكيف ابقام موتى
ثلاثمائة سنة شمسية وثلاثمائة وتسع سنين قرية وقال فيها ﴿ وكذلك اعثرنا عليهم

ليعلموا ان وعد الله حق وان الساعة لا ريب فيها ﴿﴾ والقائلون بأن الاجسام
مركبة من الجواهر المفردة لهم في المعاد خبطوا وضطراب وعم فيه على قولين :
منهم من يقول بعدم الجواهر ثم تعاد . ومنهم من يقول تفرق الأجزاء ثم
تجتمع فأورد عليهم الانسان الذي يأكله حيوان وذلك اكله انسان فان اعيدت
تلك الاجزاء من هذا لم تعد من هذا واورد عليهم ان الانسان يتحلل دائماً
فاذا الذي يعاد اهو الذي كان وقت الموت . فان قيل بذلك لزم ان يعاد على
صورة ضعيفة وهو خلاف ما جاءت به النصوص وان كان غير ذلك فليس
بعض الابدان بأولى من بعض فادعى بعضهم ان في الانسان اجزاء اصلية
لا تتحلل ولا يكون فيها شيء من ذلك الحيوان الذي اكله الثاني والعلاء
يعلمون ان بدن الانسان نفسه كله يتحلل ليس فيه شيء باق فصار ما ذكره
في المعاد مما قوى شبهة المتفلسفة في انكار معاد الابدان . والقول الذي عليه السلف
وجهور العقلاء ان الاجسام تنقلب من حال الى حال فتستحيل تراباً ثم انشأها
الله نشأة اخرى كما استحال في النشأة الاولى فانه كان نطفة ثم صار علقة ثم
صار عظماً ولحماً ثم انشأ خلقاً سواها كذلك الاعادة يعيده الله بعد ان يبلى
كله الا عجب الذنب . كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال « كل ابن آدم
يبلى الا عجب الذنب منه خلق ابن آدم ومنه يركب » وفي حديث آخر « ان السماء
تمطر مطراً كمني الرجال ينبثون في القبور كما ينبت النبات » فالنشأتان نوعان
تحت جنس يتفقان ويتماثلان من وجه ويفترقان ويتنوعان من وجه والمعاد
هو الاول بعينه وان كان بين لوازم الاعادة ولوازم البداءة فرق فعجب الذنب
هو الذي يبقى وأما سائرُه فيستحيل فيعاد من المادة التي استحال اليها . ومعلوم

ان من رأى شخصا وهو صغير ثم رآه وقد صار شيخا علم ان هذا هو ذلك ثم علم
انه دائما في تحلل واستحالة . وكذلك سائر الحيوان والنبات فمن رأى شجرة
وهي صغيرة ثم رآها كبيرة قال هذه تلك وليست صفة تلك النشأة الثانية مماثلة
لصفة هذه النشأة حتى يقال ان الصفات هي المعيرة لاسماهل الجنة اذ ادخلوها
فاتهم يدخلونها على صورة آدم طولها ستون ذراعا كما ثبت في الصحيحين وغيرها
وروي ان عرضه سبعة اذرع وتلك نشأة باقية غير معرضة للافات وهذه النشأة
فانية معرضة للافات . وقوله وجزاء الاعمال قال تعالى ﴿ مالك يوم الدين -
يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق بين ﴾ والدين الجزاء
يقال كما تدين تدان أي كما تجازي تجازى وقال تعالى ﴿ جزاءا بما كانوا يعملون -
جزاءا وفاقا - من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا
مثلها وهم لا يظلمون - من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ
آمنون ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم
تعملون - من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين
عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾ وامثال ذلك وقال عليه السلام فيما يروي
عن ربه عز وجل من حديث ابي ذر الغفاري رضي الله عنه « يا عبادي
انما هي اعمالكم احصياها لكم ثم اوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن
وجد غير ذلك فلا يلو من الانفسه » وسيا تي لذلك زيادة بيان عن قريب ان شاء
الله تعالى . وقوله والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب
قال تعالى ﴿ فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك
على ارجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى

منكم خافية ﴿ الى آخر السورة ﴾ يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا
فلاقيه فاما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب الى
اهله مسرورا - واما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى
سعيра انه كان في اهله مسرورا انه ظن ان لن يحور بلى ان ربه كان به بصيرا -
وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم اول مرة - ووضع الكتاب
فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر
صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك احدا -
يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ﴿ الى
آخر السورة ﴾ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من امره على من يشاء
من عباده ﴿ الى قوله ﴾ ان الله سريع الحساب - واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله
ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴿ . وروى البخاري رحمه الله في
صحيحه عن عائشة ان النبي ﷺ قال « ليس احد يحاسب يوم القيامة الا هلك »
فقلت يا رسول الله أليس قد قال الله تعالى ﴿ فاما من أوتي كتابه بيمينه فسوف
يحاسب حسابا يسيراً ﴾ فقال رسول الله ﷺ « انما ذلك العرض وليس احد
يناقش الحساب يوم القيامة الا عذب » يعني انه لو ناقش في حسابه لعبيده
لعدبهم وهو غير ظالم لهم ولكنه تعالى يعفو ويصفح وسيأتي لذلك زيادة
بيان ان شاء الله تعالى . وفي الصحيح عن النبي ﷺ انه قال « ان الناس يصعقون
يوم القيامة فاكون اول من يفيق فاذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا ادري
افاق قبلي ام جوزي بصعقة يوم الطور » وهذا صعق في موقف القيامة اذا جاء
الله لفصل القضاء واشرفت الارض بنوره حينئذ يصعق الخلائق كلهم . فان

قيل كيف تصنعون بقوله في الحديث ان الناس يصمقون يوم القيامة فاكون
اول من تنشق عنه الارض فاجدموسى باطشاً بقائمة العرش قيل لاريب ان
هذا اللفظ قد ورد هكذا ومنه نشأ الاشكال ولكنه دخل فيه منه على
الراوي حديث في حديث فركب بين الانظفين فجاء هذان الحديثان هكذا
احدهما « ان الناس يصمقون يوم القيامة فأكون اول من يفيق » كما تقدم
والثاني « انا اول من تنشق عنه الارض يوم القيامة » فدخل على الراوي هذا
الحديث في الآخر . ومن نبه على هذا ابو الحجاج الزبي وبعدة الشيخ شمس
الدين بن القيم . وشيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير رحمهم الله وكذلك اشتبه
على بعض الرواة فقال فلا ادري افاق قبلي ام كان ممن استثنى الله عز وجل
والمحفوظ الذي توأمت عليه الروايات الصحيحة هو الاول وعليه المعنى الصحيح
فان الصمق يوم القيامة لتجلى الله لعباده اذا جاء لفصل القضاء فوسى عليه
السلام ان كان لم يصمق معهم فيكون قد جوزي بصمقة يوم تجلي ربه للجبل
بجملة كما جعلت صمقة هذا التجلي عوضاً عن صمقة الخلائق لتجلي ربه يوم
القيامة فتأمل هذا المعنى العظيم ولا تهمله . وروى الامام احمد والترمذي وابو
بكر بن ابي الدنيا عن الحسن قال سمعت اباموسى الاشعري يقول قال رسول
الله ﷺ « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فمرضتان جدال ومعاذير
وعرضة تطاير الصحف فمن اوتي كتابه يمينه وحوسب حساباً يسيراً دخل
الجنة ومن اوتي كتابه شماله دخل النار » وقد روى ابن ابي الدنيا عن ابن
المبارك انه انشد في ذلك شعراً :

وطارت الصحف في الايدي منشرة * فيها السرائر والاخبار تطلع

فكيف سهولك والانباء واقعة * عما قليل ولا تدري بما تقع
افي الجنان وفوز لا انقطاع له * أم الجحيم فلا تبقي ولا تدع
تهوي بساكنها طورا وترفعهم * اذا رجوا مخرجا من غمها قموا
طال البكاء فلم يرحم تضرعهم * فيها ولا رقية تنفي ولا جزع
لينفع العلم قبل الموت عالمه * قدسال قوم بها الرجى فارجعوا
وقوله والصراط اي ونؤمن بالصراط وهو جسر على جهنم اذا انتهى الناس بعد
مفارقتهم مكان الموقف الى الظلمة التي دون الصراط كما قالت عائشة رضي الله
عنها ان رسول الله ﷺ سئل أين الناس يوم تبدل الارض غير الارض والسماوات
فقال : في الظلمة دون الجسر وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين
ويتخلفون عنهم ويسبقهم المؤمنون ويحال بينهم بسور يمنعونهم من الوصول اليهم .
وروى البيهقي بسنده عن مسروق عن عبد الله قال « يجمع الله الناس يوم القيامة »
الى ان قال « فيعطون نورهم على قدر اعمالهم قال فمنهم من يعطي نوره مثل الجبل بين
يديه ومنهم من يعطي نوره فوق ذلك ومنهم من يعطي نوره مثل النخلة يمينه ومنهم
من يعطي دون ذلك يمينه حتى يكون آخر من يعطي نوره على ابهام قدمه يضيء
مرة ويظنأ مرة اذا ضاء قدمه واذا ظنىء قام قال فيمر ويمرون على الصراط
والصراط كحد السيف ، دحض ، مزلة فيقال لهم : امضوا على قدر نوركم فمنهم
من يمر كاتقضاض الكواكب ومنهم كالريح ومنهم من يمر كالطرف ومنهم
من يمر كاشد الرحل ويرمل رملا فيمرون على قدر اعمالهم حتى يمر الذي نوره
على ابهام قدمه قدمه تخرد وتعلق يد وتخر رجل وتعلق رجل وتصيب
جوانبه النار قال فيخلصون فاذا خلصوا قالوا : الحمد لله الذي نجانا منك بعد

ان ارانك لقد اعطانا الله ما لم يعط احد « الحديث واختلف المفسرون في المراد
بالورود المذكور في قوله تعالى ﴿ وان منكم الا واردها ﴾ ما هو والظاهر والاقوي
انه المرور على الصراط قال تعالى ﴿ ثم نجبي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها
جثيا ﴾ . وفي الصحيح انه عليه السلام قال « والذي نفسي بيده لا يابح النار احد بايع
تحت الشجرة » قالت حفصة فقلت يا رسول الله : أليس الله يقول ﴿ وان
منكم الا واردها ﴾ فقال ألم تسمعيه قال ﴿ ثم نجبي الذين اتقوا ونذر
الظالمين فيها جثيا ﴾ اشار عليه السلام الى ان ورود النار لا يستلزم دخولها وان النجاة
من الشر لا تستلزم حصوله بل تستلزم انعقاد سببه فن طلبه عدوه ليهلكوه
ولم يتمكنوا منه يقال نجاه الله منهم . ولهذا قال تعالى ﴿ ولما جاء امرنا نجينا
هوذا - فلما جاء امرنا نجينا صالحا - ولما جاء امرنا نجينا شعيبا ﴾ ولم يكن العذاب
اصابهم ولكن اصاب غيرهم ولو لا ما خصهم الله به من اسباب النجاة لأصابهم
ما اصاب اولئك وكذلك حال الوارد في النار يمرن فوقها على الصراط ثم
ينجي الله الذين اتقوا وينذر الظالمين فيها جثيا فقد بين عليه السلام في حديث جابر
المذكور ان الورود هو الورود على الصراط . وروى الحافظ ابو نصر الوائلي
عن ابي هريرة رضي الله قال قال عليه السلام « علم الناس سنتي وان كرهوا ذلك
وان احببت ان لا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدثن
في دين الله حدثا برأيك » اورده القرطبي . وروى ابو بكر بن احمد بن سليمان
التجار عن يعلى بن منبه عن رسول الله عليه السلام قال « تقول النار للمؤمن يوم
القيامة جزيا مؤمن فقد أطفأ نورك لهي » وقوله والميزان اي وتؤمن بالميزان
قال تعالى ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان

مقال حبة من خردل ائینابها وكفی بنا حاسین ﴿ وقال تعال ﴿ فن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم في جهنم خالدون ﴿ قال القرطبي قال العلماء : اذا انقضى الحساب كان بعده وزن الاعمال لان الوزن للجزاء فينبغي ان يكون بعد المحاسبة فان المحاسبة لتقرير الاعمال والوزن لظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها قال . وقوله ونضع الموازين القسط ليوم القيامة يحتمل ان يكون ثم موازين متعددة توزن فيها الاعمال ويحتمل ان يكون المراد الموازنات لجمع باعتبار تنوع الاعمال الموزونة والله اعلم والذي دلت عليه السنة ان ميزان الاعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان . روى الامام احمد من حديث ابي عبد الرحمن الحبلي قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول قال رسول الله ﷺ ان الله سيخلص رجلا من امتي على رؤس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر ثم يقول له اتنكر من هذا شيئا اظلمك كتبتي الحافظون قال لا يارب فيقول لك عذر او حسنة فيبتهت الرجل فيقول لا يارب فيقول بلى ان لك عندنا حسنة واحدة لاظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فيقول احضروه فيقول يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول انك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة قال فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم . وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه وابن ابي الدنيا من حديث الليث زاد الترمذي « ولا يثقل شيء اسم الله » وفي سياق آخر « توضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة » الحديث وفي

هذا السياق فائدة جليلة وهي ان العامل يوزن مع عمله ويشهد له ما روى البخاري
عن ابي هريرة عن النبي ﷺ قال « انه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة
لايزن عند الله جناح بعوضة قال افروا ان بشتم فلا تقيم لهم يوم القيامة وزنا »
وروى الامام احمد عن ابن مسعود انه كان يمخني سوا كامن الاراك وكان دقيق
الساقين فجعلت الريح تكفيه فضحك القوم منه فقال رسول الله ﷺ « م
تضحكون » قالوا يا نبي الله من دقة ساقيه فقال « والذي نفسي بيده لها انقل
في الميزان من احد » وقد وردت الاحاديث ايضا بوزن الاعمال انفسها كما
في صحيح مسلم عن ابي مالك الاشعري قال قال رسول الله ﷺ « الظهور
شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان » وفي الصحيح وهو خاتمة كتاب البخاري
قوله ﷺ « كلمتان خفيفتان على اللسان حبيبتان الى الرحمن ثقيلتان في الميزان
سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » وروى الحافظ ابو بكر البيهقي عن
انس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « يؤتى بابن آدم يوم القيامة فيوقف
بين كفتي الميزان وبوكل به ملك فان ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع
الخلائق سعد فلان سعادة لايشقى بعدها ابدا . وان خف ميزانه نادى الملك
بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوة لايسعد بعدها ابدا » فلا يلتفت الى
ملحد معاند يقول الاعمال اعراض لا تقبل الوزن وانما يقبل الوزن الاجسام
فان الله يقبل الاعراض اجساما كما تقدم وكما روى الامام احمد عن ابي هريرة
رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال « يؤتى بالموت كبشا اغر فيوقف بين الجنة
والنار فيقال يا اهل الجنة فيشرئبون وينظرون . ويقال يا اهل النار فيشرئبون
وينظرون ويرون ان قد جاء الفرج فيذبح ويقال خلود لاموت » ورواه

البخاري بمعناه فثبت وزن الاعمال والعامل وصحائف الاعمال وثبت ان الميزان له
كفتان والله تعالى اعلم بما وراء ذلك من الكيفيات فعلينا الايمان بالغيب كما اخبرنا
الصادق عليه السلام من غير زيادة ولا نقصان . وياخيبية من ينفي وضع الموازين
القسط ليوم القيامة كما اخبر الشارع خلفاء الحكمة عليه ويقدم في النصوص بقوله
لا يحتاج الى الميزان الا البقال والقوال وما احراه بان يكون من الذين لا يقيم
الله لهم يوم القيامة وزنا ولو لم يكن من الحكمة في وزن الاعمال الا ظهور
عدله سبحانه لجميع عباده فانه لا احد احب اليه العذر من الله من اجل ذلك
ارسل الرسل مبشرين ومنذرين فكيف ووراء ذلك من الحكم ما لا اطلاع لنا
عليه . فتأمل قول الملائكة لما قال الله لهم اني جاعل في الارض خليفة قالوا
اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك
قال اني اعلم ما لا تعلمون وقال تعالى ﴿ وما اوتيتم من العلم الا قليلا ﴾ وقد
تقدم عند ذكر الحوض كلام القرطبي رحمه الله ان الحوض قبل الميزان والصراط
بعد الميزان . ففي الصحيحين ان المؤمنين اذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة
بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فاذا هذبوا ونقوا اذن لهم في دخول
الجنة وجعل القرطبي في التذكرة هذه القنطرة صراطاً ثانياً للمؤمنين خاصة وليس
يسقط منه احد في النار والله تعالى اعلم . قوله ﴿ والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان ابداً
ولا تبدان فان الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق وخلق لهما اهلا فن شاء
منهم الى الجنة فضلا منه ومن شاء منهم الى النار عدلا منه وكل يعمل لما قد
فرغ له وصائر الى ما خلق له والخير والشر مقدران على العباد ﴾ أما قوله ان الجنة
والنار مخلوقتان فانفق اهل السنة على ان الجنة والنار مخلوقتان موجودتان

الآن ولم يزل على ذلك اهل السنة حتى نبفت نابغة من المعتزلة والقدرية فانكرت ذلك وقالت بل ينشأها الله يوم القيامة وحملهم على ذلك اصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله وانه ينبغي ان يفعل كذا ولا ينبغي له ان يفعل كذا وقاسوه على خلقه في افعالهم فهم مشبهة في الافعال وداخل التجهم فيهم فصاروا مع ذلك معطلة وقالوا خلق الجنة قبل الجزاء عبث لأنها تصير معطلة مددا متطاولة فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى وحرفوا النصوص عن مواضعها وضللوا وبدعوا من خالف شريعتهم فن نصوص الكتاب قوله تعالى عن الجنة ﴿ اعدت للمتقين - اعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ﴾ وعن النار ﴿ اعدت للكافرين - ان جهنم كانت مرصادا للطاغين ما آبا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد رآه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ﴾ وقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى ورأى عندها جنة المأوى . كما في الصحيحين في حديث انس رضى الله عنه في قصة الاسراء وفي آخره « ثم انطلق بي جبرائيل حتى أتى سدرة المنتهى فغشيها الوان لا ادري ماهي قال ثم دخلت الجنة فاذا هي جنابذ اللؤلؤ واذا ترابها المسك » وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر ان رسول الله ﷺ قال « ان احدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغدات والعشي ان كان من اهل الجنة فمن اهل الجنة وان كان من اهل النار فمن اهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » وتقدم حديث البراء بن عازب وفيه ينادي مناد من السماء ان صدق عبدي فافرشوه من الجنة وافتحوا له بابا الى الجنة قال فيأتيه من روحها وطيبها . وتقدم حديث انس بمعنى حديث البراء وفي صحيح مسلم عن عائشة رضى الله

عنها قالت خسفت الشمس في حياة رسول الله ﷺ فذكرت الحديث وفيه
وقال رسول الله ﷺ « رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم به حتى لقد
رأيتني آخذ قطفاً من الجنة حين رأيتموني تقدمت » وفي الصحيحين واللفظ
للبخاري عن عبدالله بن عباس قال انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ
فذكر الحديث وفيه فقالوا يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك ثم
رأيناك تكلمت فقال « اني رأيت الجنة وتناولت عنقوداً ولو اصبته لا كلمت
منه ما بقيت الدنيا ورأيت النار فلم ار منظراً كالיום قط اقطع ورأيت اكثر
اهلها النساء - قالوا بئ - يا رسول الله قال يكفرهن - قيل ايكفرن بالله قال يكفرن
العشير ويكفرن الاحسان لو احسنت الى احدهن الدهر كله ثم رأيت منك
شيئاً قالت ما رأيت خيراً قط » وفي صحيح مسلم من حديث انس « وأيم الذي
نفسى بيده لو رايت ما رايت لضحكتم قليلاً وبكيتم كثيراً - قالوا وما رايت
يا رسول الله - قال رأيت الجنة والنار » وفي الموطأ والسنن من حديث كعب
ابن مالك قال قال رسول الله ﷺ « انما نسمة المؤمن طير تعلق في شجر الجنة
حتى يرجعها الله الى جسده يوم القيامة » وهذا صريح في دخول الروح الجنة قبل
يوم القيامة . وفي صحيح مسلم والسنن والمسند من حديث ابي هريرة رضي
الله عنه ان رسول الله ﷺ قال « لما خلق الله الجنة والنار ارسل جبرائيل الى
الجنة فقال اذهب فانظر اليها والى ما اعددت لاهلها فيها فذهب فنظر اليها
والى ما اعد الله لاهلها فيها فرجع فقال وعزتك لا يسمع بها احد الا دخلها
فأمر بالجنة خفت بالكاره فقال ارجع فانظر اليها والى ما اعددت لاهلها فيها
قال فنظر اليها ثم رجع فقال وعزتك لقد خشيت ان لا يدخلها احد قال ثم

ارسله الى النار قال اذهب فانظر اليها والى ما اعددت لاهلها فيها قال فنظر
اليها فاذا هي يركب بعضها بعضاً ثم رجع فقال وعزتك لا يدخلها احد سمع
بها فامر بها خفت بالشهوات ثم قال اذهب فانظر الى ما اعددت لاهلها فيها فذهب
فنظر اليها فرجع فقال وعزتك لقد خشيت ان لا ينجو منها احد الا دخلها »
ونظائر ذلك في السنة كثيرة . واما على قول من قال ان الجنة الموعود بها هي
الجنة التي كان فيها آدم ثم اخرج منها فالقول بوجودها الآن ظاهر والخلاف
في ذلك معروف واما شبهة من قال انها لم تخلق بعد وهي انها لو كانت مخلوقة
الآن لوجب اضطرار ان تنفى يوم القيامة وان يهلك كل من فيها ويموت
لقوله تعالى ﴿ كل شيء هالك الا وجهه - وكل نفس ذائقة الموت ﴾ وقد
روى الترمذي في جامعه من حديث ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ
« لقيت ابراهيم ليلة اسرى بي فقال يا محمد اقرأ امتك مني السلام واخبرهم
ان الجنة طيبة التربة عذبة الماء وانها قيعان وان غراسها سبحان الله والحمد لله
ولاله الا الله والله اكبر » قال هذا حديث حسن غريب . وفيه ايضا من حديث
ابي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ انه قال من قال سبحان الله وبحمده غرست
له نخلة في الجنة قال هذا حديث حسن صحيح قالوا فلو كانت مخلوقة مفروغا
منها لم تكن قيعانا ولم يكن لهذا الغراس معنى قالوا وكذا قوله تعالى عن امرأة
فرعون انها قالت ﴿ رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ﴾ فالجواب انكم ان اردتم
بقولكم انها الآن معدومة بمنزلة النفخ في الصور وقيام الناس من القبور فهذا
باطل يردده ما تقدم من الادلة وامثالها مما لم يذكر وان اردتم انها لم يكمل خلق
جميع ما اعد الله فيها لاهلها وانها لا يزال الله يحدث فيها شيئا بعد شيء واذا

دخلها المؤمنون احدث الله فيها عند دخولهم امورا اخر فهذا حق لا يمكن رده وأدلتكم هذه انما تدل على هذا القدر . واما احتجاجكم بقوله تعالى ﴿ كل شيء هالك الا وجهه ﴾ فثبتتم من سوء فهمكم معنى الآية واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن نظير احتجاج اخوانكم بها على فنائها وخرابها وموت اهلها فلي توفقوا انتم ولا اخوانكم لفهم معنى الآية وانما وفق لذلك أئمة الاسلام . فن كلامهم ان المراد كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء وكذا العرش فانه سقف الجنة وقيل المراد الا ملكه وقيل الا ما يريد به وجهه وقيل ان الله تعالى انزل ﴿ كل من عليها فان ﴾ فقالت الملائكة هلك اهل الارض وطعموا في البقاء فاخبر تعالى عن اهل السماء والارض انهم يموتون فقال ﴿ كل شيء هالك الا وجهه ﴾ لانه حي لا يموت فايقنت الملائكة عند ذلك بالموت وانما قالوا ذلك توفيقا بينها وبين النصوص المحكمة الدالة على بقاء الجنة وعلى بقاء النار ايضا على ما ذكر عن قريب ان شاء الله تعالى . وقوله لا تغنيان ابدا ولا يتبدان هذا قول جمهور الائمة من السلف والخلف وقال ببقاء الجنة وقال بفناء النار جماعة من السلف والخلف والقولان المذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان امام المعطلة وليس له سلف قط لامن الصحابة ولا من التابعين لهم باحسان ولا من أئمة المسلمين ولا من اهل السنة وانكره عليه عامة اهل السنة وكفروه به وصاحوا به وباتباعه من اقطار الارض وهذا قاله لاصله الفاسد الذي اعتقده وهو امتناع وجود ما لا يتناها من الحوادث وهو صمد اهل الكلام المذموم التي استدلوا بها على حدوث الاجسام وحدث ما

لم يخل من الحوادث وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم فرأي الجهم ان ما
يمنع من حوادث لا اول لها في الماضي يمنعه في المستقبل فدوام الفعل عنده
على الرب في المستقبل ممنوع كما هو ممنوع عنده عليه في الماضي و ابو الهذيل
العلاف شيخ المعتزلة وافقه على هذا الاصل لكن قال : ان هذا يقتضي فناء
الحركات فقال بفناء حركات اهل الجنة والنار حتى بصيروا في سكون دائم
لا يقدر احد منهم على حركة وقد تقدم الاشارة الى اختلاف الناس في تسلسل
الحوادث في الماضي والمستقبل وهي مسألة دوام فاعلية الرب تعالى وهو لم يزل
ربا قادرا فعلا لما يريد فانه لم يزل حيا عليما قديرا . ومن الحال ان يكون الفعل
ممتنعا عليه لذاته ثم يتقلب فيصير ممكنا لذاته من غير تجدد شيء وليس للاول
حد محدود حتى يصير الفعل ممكنا له عند ذلك الحد ويكون قبله ممتنعا عليه
فهذا القول تصوره كاف في الجزم بفساده فاما ابدية الجنة وانها لا تنفي ولا
تبيد فهذا مما يعلم بالضرورة ان الرسول ﷺ أخبر به قال تعالى ﴿ واما الذين
سعدوا في الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك
عطاء غير مجدوذ ﴾ اي غير مقطوع ولا ينافي ذلك قوله ﴿ الا ما شاء ربك ﴾ .
واختلف السلف في هذا الاستثناء فقيل معناه الامدة مكثهم في النار وهذا
يكون لمن دخل منهم الى النار ثم اخرج منها للكلمة وقيل الامدة مقامهم
في الموقف وقيل الامدة مقامهم في القبور والموقف وقيل هو استثناء الرب
ولا يفعله كما تقول : والله لا ضربتك الا ان ارى غير ذلك وانت لا تراه بل
تجزم بضربه وقيل الا بمعنى الواو وهذا على قول بعض النحاة وهو ضعيف
ومن يجعل الا بمعنى لكن فيكون الاستثناء منقطعاً ورجحه ابن جرير وقال

ان الله تعالى لاخلف لوعده وقد وصل الاستثناء بقوله ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾
قالوا ونظيره ان يقول اسكتك داري حولا الاما شئت اي سوى ماشئت
ولكن ماشئت من الزيادة عليه وقيل الاستثناء لاعلامهم بانهم مع خلودهم في
مشيئة الله لانهم لا يخرجون عن مشيئته ولا ينافي ذلك عن يمينته وجزمه لهم بالخلود
كافي قوله تعالى ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي اوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا
وكيلا ﴾ وقوله تعالى ﴿ فان يشأ الله يختم على قلبك ﴾ وقوله ﴿ قل لو شاء
الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به ﴾ . ونظائره كثيرة يخبر عباده سبحانه ان
الامور كلها بمشيئته ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وقيل ان ما بمعنى
من اي الا من شاء الله دخوله النار بذنوبه من السعداء وقيل غير ذلك
وعلى كل تقدير فهذا الاستثناء من المتشابه وقوله عطاء غير مجذوذ محم . وكذلك
قوله تعالى ﴿ ان هذا لرزقنا ما له من نفاد ﴾ وقوله ﴿ اكلها دائم وظلها ﴾
وقوله ﴿ وما هم منها بمخرجين ﴾ وقد اكد الله خلود اهل الجنة بالتأيد في
عدة مواضع من القرآن واخبر انهم ﴿ لا يذوقون فيها الموت الا الموة
الاولى ﴾ وهذا الاستثناء منقطع . واذا ضمته الى الاستثناء في قوله تعالى
﴿ الا ما شاء ربك ﴾ تبين ان المراد من الآيتين واستثناء الوقت الذي لم
يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود كاستثناء الموة الاولى من جملة الموت
فهذه موة تقدمت على حياتهم الابدية وذلك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم
فيها والادلة من السنة على ابدية الجنة ودوامها كثيرة . كقوله عليه السلام « من يدخل
الجنة ينعم ولا يبأس ويخلد ولا يموت » وقوله « ينادي مناد يا اهل الجنة
ان لكم ان تصحوا فلا تسقموا وان تشبوا فلا تهرموا ابدا وان تحموا فلا

تموتوا ابدأ « وتقدم ذكر ذبح الموت بين الجنة والنار ويقال « يا أهل الجنة
خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت » واما ابدية النار ودوامها
فللناس في ذلك ثمانية اقوال (احدها) ان من دخلها لا يخرج منها ابد
الآباد وهذا قول الخوارج والمعتزلة (والثاني) ان اهلها يمدون فيها ثم تنقلب
طبيعتهم وتبقى طبيعة النارية يتلذذون بها لموافقها لطبيعتهم وهذا قول امام
الاتحادية ابن عربي الطائي (الثالث) ان اهلها يمدون فيها الى وقت محدود ثم
يخرجون منها ويخلفهم فيها قوم آخرون وهذا القول حكاه اليهود للنبي ﷺ
واكذبهم فيه وقد اكذبهم الله تعالى فقال عز من قائل ﴿ وقالوا لن نمسنا النار
الا اياما معدودة قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف عهده ام تقولون على
الله ما لا تعلمون - بلى من كسب سيئة واحاطت به خطيئته فاولئك اصحاب
النار هم فيها خالدون ﴾ (الرابع) يخرجون منها وتبقى على حالها ليس فيها احد
(الخامس) انها تفتى بنفسها لانها حادثة وما ثبت حدوده استحالة بقاؤه وهذا
قول الجهم وشيعته ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار كما تقدم (السادس)
تفتى حركات اهلها ويصيرون جمادا لا يحسون بألم وهذا قول ابي الهذيل كما
تقدم (السابع) ان الله يخرج منها من يشاء كما ورد في الحديث ثم يبقيا
شيئا ثم يفتيا فانه جمل لها امدا تنتهي اليه (الثامن) ان الله تعالى يخرج منها
من يشاء كما ورد في السنة ويبقى فيها الكفار بقاء لا انقضاء له . كما قال الشيخ
رحمه الله وما عدا هذين القولين الاخيرين ظاهر البطلان وهذان القولان لاهل
السنة ينظر في دليليهما فن ادلة القول الاول منهما قوله تعالى ﴿ قال النار مثواكم
خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم ﴾ وقوله تعالى ﴿ فاما الذين شقوا

في النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السماوات والارض إلا
ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد ﴿١﴾ ولم يأت بعهدين الاستثناءين ما أتى
بمد الاستثناء المذكور لاهل الجنة وهو قوله ﴿ عطاءً غير مجذوذ ﴾ وقوله
تعالى ﴿ لا بين فيها احقابا ﴾ وهذا القول اعني القول بفناء النار دون الجنة
منقول عن عمر وابن مسعود وابي هريرة وابي سعيد وغيرهم وقد روى عبد
ابن حميد في تفسيره المشهور بسنده الى عمر رضي الله عنه انه قال « لولبت اهل
النار في النار كقدر رمل عاج لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه » ذكر
ذلك في تفسير قوله تعالى ﴿ لا بين فيها احقابا ﴾ قالوا والنار موجب غضبه والجنة
موجب رحمته وقد قال عليه السلام « لما قضى الله الخلق كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش
ان رحمتي سبقت غضبي » وفي رواية تغلب غضبي رواه البخاري في صحيحه من
حديث ابني هريرة رضي الله عنه قالوا والله سبحانه يخبر عن العذاب انه ﴿ عذاب
يوم عظيم - وأليم - وعقيم ﴾ ولم يخبر ولا في موضع واحد عن النعيم انه نعيم
يوم وقد قال تعالى ﴿ عذابي اصيب به من اشاء ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ وقال
تعالى حكاية عن الملائكة ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ فلا بد ان تسع
رحمته هؤلاء المذنبين فلو بقوا في العذاب لا الى غاية لم تسعهم رحمته . وقد ثبت
في الصحيح تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة والمعدبون فيها متفاوتون في مدة
لبثهم في العذاب بحسب جرائمهم وليس في حكمة احكم الحاكمين ورحمة ارحم
الراحمين أن يخلق خلقاً يعذبهم ابد الا بآذ عذابا سرمداً لانهاية له واما أنه يخلق
خلقاً ينعم اليهم ويحسن اليهم نعيماً سرمداً فن مقتضى الحكمة والاحسان
مراد لذاته والانتقام مراد بالمرض قالوا وما ورد من الخلود فيها والتأيد

وعدم الخروج وان عذابها مقيم وانه غرام كله حق مسلم لا نزاع فيه
وذلك يقتضى الخلود في دار العذاب ما دامت باقية وانما يخرج منها في حال
بقائها اهل التوحيد ففرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله وبين
من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه ومن ادلة القائلين ببقائها وعدم فناها
قوله ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ لا يفتر عنهم وهم فيه مبالسون - فلن تزيدكم الاعذاب -
خالدين فيها أبدا - وما هم منها بخارجين - وما هم بخارجين من النار - لا يدخلون
الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط - لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم
من عذابها - ان عذابها كان غراما ﴿اي مقيا لازما﴾. وقد دلت السنة المستفيضة
انه يخرج من النار من قال لا اله الا الله واحاديث الشفاعة صريحة في خروج
عصاة الموحدين من النار وان هذا حكم مختص بهم فلو خرج الكفار منها
لكانوا بمنزلتهم ولم يختص الخروج باهل الايمان وبقاء الجنة والنار ليس
لذاتهما بل بابقاء الله لهما. وقوله وخلق لهما اهلا قال تعالى ﴿ولقد ذرانا لجهنم
كثيرا من الجن والانس﴾ الآية. وعن عائشة رضي الله عنها قالت دعي رسول
الله ﷺ الى جنازة صبي من الانصار فقلت يا رسول الله طوبى لهذا عصفور
من عصفير الجنة لم يعمل سوءا ولم يدر كه فقل «او غير ذلك يا عائشة ان الله
خلق للجنة اهلا خلقهم لها وهم في اصلاب آبائهم وخلق للنار اهلا خلقهم لها
وهم في اصلاب آبائهم» رواه مسلم وابو داود والنسائي. وقال تعالى ﴿انا خلقنا
الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا - انا هدينه السبيل اما
شاكرآ واما كفورآ﴾ والمراد الهداية العامة واعم منها الهداية المذكورة في
قوله تعالى ﴿الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ فالوجودات نوعان .

احدهما مسخر بطبعه . والثاني متحرك بارادته فهدي الاول لما سخره له طبيعة
وهدي الثاني هداية ارادية تابعة لشعوره وعلمه بما ينفعه وبضره . ثم قسم
الانواع الى ثلاثة انواع نوع لا يريد الا الخير ولا يتأني منه ارادة سواء
كان ملائكة . ونوع لا يريد الا الشر ولا يتأني منه ارادة سواء كالشيطان . ونوع
يتأني منه ارادة القسمين كالانسان . ثم جعله ثلاثة اصناف صنف يغلب ايمانه
ومعرفته وعقله هو اهواه وشهوته فيلتحق بالملائكة وصنف عكسه فيلتحق بالشياطين
وصنف تغلب شهوته البهيمية عقله فيلتحق بالبهائم . والمقصود انه سبحانه اعطى
الوجودين العيني والعلمي فكما انه لا موجود الا بايجاده فلا هداية الا بتعليمه
وذلك كله من الادلة على كمال قدرته وثبوت وحدانيته وتحقيق ربوبيته سبحانه
وتعالى . وقوله فمن شاء منهم الى الجنة فضلا منه ومن شاء منهم الى النار عدلا
منه الخ مما يجب ان يعلم ان الله تعالى لا يمنع الثواب الا اذا منع سببه وهو
العمل الصالح فانه من يعمل الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضمًا .
وكذلك لا يعاقب احدا الا بعد حصول سبب العقاب فان الله تعالى يقول
﴿وما اصابكم من مصيبة فيما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير﴾ وهو سبحانه
المعطي المانع لا مانع لما اعطى ولا معطي لما منع لكن اذا من على الانسان
بالايمان الصالح لا يمنعه موجب ذلك اصلا بل يعطيه من الثواب والقرب
مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وحيث منعه ذلك
فلا انتفاء لسببه وهو العمل الصالح . ولاريد انه يهدي من يشاء ويضل من
يشاء لكن ذلك كله حكمة منه وعدل فمنعه للاسباب التي هي الاعمال الصالحة
من حكمته وعدله . واما المسببات بعد وجود اسبابها فلا يمنعها بحال اذا لم

تكن اسبابا غير صالحة اما لفساد في العمل واما لسبب يعارض موجهه ومقتضاه
فيكون ذلك لعدم المقتضى او لوجود المانع واذا كان منعه وعقوبته من عدم الايمان
والعمل الصالح وهو لم يعط ذلك ابتلاء وابتداء بحكمة منه وعدلا فله الحمد
في الحالين وهو المحمود على كل حال كل عطاء منه فضل وكل عقوبة منه عدل
فان الله تعالى حكيم يضع الاشياء في مواضعها التي تصلح لها كما قال تعالى
﴿ واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما اوتى رسل الله - الله اعلم
حيث يجعل رسالته ﴾ وكما قال تعالى ﴿ وكذلك فتننا بعضهم ببعض
ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله باعلم بالشاكرين ﴾ ونحو
ذلك وسيأتي لذلك زيادة ان شاء الله تعالى قوله ﴿ والاستطاعة التي يجب بها
الفعل من نحو التوفيق الذي لا يجوز ان يوصف المخلوق بها تكون به
مع الفعل واما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة
الآلات فهي قبل الفعل وبها يتعاق الخطاب وهو كما قال تعالى ﴿ لا يكلف
الله نفسا الا وسمها ﴾ الاستطاعة والطاقة والقدرة والوسع الفاظ متقاربة
وتنقسم الاستطاعة الى قسمين كما ذكره الشيخ رحمه الله وهو قول عامة اهل
السنة وهو الوسط وقالت القدرية والمعتزلة : لا تكون القدرة الا قبل الفعل
وقابلهم طائفة من اهل السنة فقالوا : لا تكون الا مع الفعل والذي قاله عامة
اهل السنة ان لعبد قدرة هي مناط الأمر والنهي وهذه قد تكون قبله لا
يجب ان تكون معه والقدرة التي بها الفعل لا بد ان تكون مع الفعل لا يجوز
ان يوجد الفعل بقدرة ممدومة واما القدرة التي من جهة الصحة والوسع
والتمكن وسلامة الآلات فقد تقدم الافعال وهذه القدرة المذكورة في قوله

﴿ والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً ﴾ فوجب الحج على
 المستطيع فلو لم يستطع الامن حج لم يكن الحج قد وجب الاعلى من حج ولم
 يعاقب احداً على ترك الحج وهذا خلاف المعلوم بالضرورة من دين الاسلام
 وكذلك قوله تعالى ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ فأوجب التقوى بحسب
 الاستطاعة فلو كان من لم يتق الله لم يستطع التقوى لم يكن قد اوجب التقوى
 الاعلى من اتقى ولم يعاقب من لم يتق وهذا معلوم الفساد . وكذا قوله تعالى
 ﴿ فن لم يستطع فاطعام ستين مسكيناً ﴾ والمراد منه استطاعة الاسباب
 والآلات . وكذا ما حكاه سبحانه من قول المنافقين ﴿ لو استطعنا لخرجنا
 معكم ﴾ وكذبهم في ذلك القول ولو كانوا ارادوا الاستطاعة التي هي حقيقة
 قدرة الفعل ما كانوا بنفهم عن انفسهم كاذبين وحيث كذبهم دل على انهم ارادوا
 بذلك المرض او فقد المال على ما بين تعالى بقوله ﴿ ليس على الضعفاء ولا على
 المرضى ﴾ الى ان قال ﴿ انما السبيل على الذين يستأذنونك وهم اغنياء ﴾ وكذلك
 قوله تعالى ﴿ ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات المؤمنات ﴾
 والمراد استطاعة الآلات والاسباب . ومن ذلك قوله ﷺ لعمران بن حصين
 « صل قائماً فان لم تستطع فقاعداً فان لم تستطع فعلى الجنب » وانما نفى استطاعة
 الفعل معها واما ثبوت الاستطاعة التي هي حقيقة القدرة فقد ذكروا فيها
 قوله تعالى ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ والمراد نفى
 حقيقة القدرة لا نفى الاسباب والآلات لانها كانت ثابتة . وسيأتي لذلك
 زيادة بيان عند قوله (ولا يطيقون الا ما كلفهم) ان شاء الله تعالى . وكذا
 قول صاحب موسى ﴿ انك لن تستطيع معي صبراً ﴾ وقوله ﴿ ألم اقل لك

انك لن تستطيع معي صبراً ﴿ والمراد منه حقيقة قدرة الصبر لاسباب الصبر
وآلانه فان تلك كانت ثابتة له الا ترى انه عاتبه على ذلك ولا يلام من عدم
آلات الفعل واسبابه على عدم الفعل وانما يلام من امتنع من الفعل لتضييع
قدرة الفعل لاشتغاله بغير ما امر به او شغله اياها بفعل ما امر به ومن قال ان
القدرة لا تكون الا حين الفعل يقولون ان القدرة لا تصلح للضدين فان
القدرة المقارنة للفعل لا تصلح الا لذلك الفعل وهي مستلزمة له لا توجد بدون
وما قائلته القدريّة بناء على اصلهم الفاسد وهو اقدار الله للمؤمن والكافر والبر
والفاجر سواء فلا يقولون ان الله خص المؤمن المطيع باعانة حصل بها الايمان
بل هذا بنفسه رجح الطاعة وهذا بنفسه رجح المعصية كالوالد الذي اعطى كل
واحد من بنيه سيفاً فهذا جاهديه في سبيل الله وهذا قطع به الطريق وهذا
القول فاسد باتفاق اهل السنة والجماعة المثبتين للقدر فانهم متفقون على ان الله
على عبده المطيع نعمة دينية خصه بها دون الكافر وانه اعانه على الطاعة
اعانة لم يمن بها الكافر كما قال تعالى ﴿ ولكن الله حبب اليكم الايمان
وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان اولئك هم
الراشدون ﴾ فالقدريّة يقولون هذا التحبيب والتزيين عام في كل الخلق
وهو بمعنى البيان واطهار دلائل الحق والآية تقتضي ان هذا خاص
بالمؤمن . ولهذا قال ﴿ اولئك هم الراشدون ﴾ والكفار ليسوا راشدين
وقال تعالى ﴿ فن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان
يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله
الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ وامثال هذه الآية في القرآن كثير يبين انه

سبحانه هدى هذا واضل هذا قال تعالى ﴿ من يهد الله فهو المهتدي ومن
يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾ وسيأتي لهذه المسئلة زيادة بيان ان شاء الله
تعالى . وايضا فقول القائل يرجح بلا مرجح ان كان لقوله يرجح معنى زائد
على الفعل فذاك هو السبب المرجح وان لم يكن له معنى زائد كما ان حال الفاعل
قبل وجود الفعل كعاله عند الفعل ثم الفعل حصل في احدى الحالتين دون الاخرى
بلا مرجح وهذا مكابرة للعقل . فلما كان اصل قول القدرية ان فاعل الطاعات
وتاركها كلاهما في الاعانة والاقدار سواء امتنع على اصلهم ان يكون مع
الفعل قدرة تخصه لان القدرة التي تخص الفعل لا تكون للتارك وانما تكون
للفاعل ولا تكون القدرة الا من الله تعالى وهم لما راوا ان القدرة لا بد ان
تكون قبل الفعل قالوا لا يكون مع الفعل لان القدرة هي التي يكون بها
الفعل والترك وحال وجود الفعل يمتنع الترك فلماذا قالوا القدرة لا تكون الا
قبل الفعل وهذا باطل قطعا فان وجود الامر مع عدم بعض شروطه الوجودية
ممتنع بل لا بد ان يكون جميع ما يتوقف عليه الفعل من الامور الوجودية
موجودا عند الفعل فتقيض قولهم حق وهو ان الفعل لا بد ان يكون معه
قدرة لكن صار اهل الاثبات هنا حزين حزبا قالوا لا تكون القدرة الا
معه ظلنا منهم ان القدرة نوع واحد لا يصلح للضدين وظلنا من بعضهم ان
القدرة عرض فلا يبقى زمانين فيمتنع وجودها قبل الفعل والصواب ان القدرة
نوعان كما تقدم نوع مصحح للفعل يمكن معه الفعل والترك وهذه هي التي
يتعلق بها الامر والنهي وهذه تحصل للمطيع والمعاصي ويكون قبل الفعل وهذه
تبقى الى حين الفعل اما بنفسها عند من يقول ببقاء الاعراض واما بتجدد امثالها

عند من يقول ان الاعراض لا تبقى زمانين وهذه قد تصلح للضدين وامر
الله مشروط بهذه الطاقة فلا يكلف الله من ليس معه هذه الطاقة وضد هذه
العجز كما تقدم وايضا فالاستطاعة المشروطة في الشرع اخص من الاستطاعة
التي يتمتع الفعل مع عدمها فان الاستطاعة الشرعية قد تكون ما يتصور الفعل
مع عدمها وان لم يعجز عنه فالشارع ييسر على عباده ويريد بهم اليسر ولا
يريد بهم العسر وما جعل عليكم في الدين من حرج والمريض قد يستطيع القيام
مع زيادة المرض وتأخر برئه فهذا في الشرع غير مستطيع لأجل حصول
الضرر عليه وان كان قد يسمى مستطيعا فالشارع لا ينظر في الاستطاعة الشرعية
الي مجردا مكان الفعل بل ينظر الى لوازم ذلك فان كان الفعل ممكنا مع المفسدة
الراجعة لم تكن هذه استطاعة شرعية كالذي يقدر على الحج مع ضرر ياحقه
في بدنه او ماله او يصلي قائما مع زيادة مرضه او يصوم الشهرين مع انقطاعه
عن معيشة ونحو ذلك فان كان الشارع قد اعتبر في المكنة عدم المفسدة
الراجعة فكيف يكلف مع العجز ولكن هذه الاستطاعة مع بقائها الى حين
الفعل لا تكفي في وجود الفعل ولو كانت كافية لكان التارك كالفاعل بل لا بد
من احداث اعانة اخرى تقارن مثل جعل الفاعل مريدا فان الفعل لا يتم
الا بقدرة و ارادة والاستطاعة المقارنة تدخل فيها الارادة الجازمة بخلاف
المشروطة في التكليف فانه لا يشترط فيها الارادة فانه تعالى يأمر بالفعل من لا
يريده لكن لا يأمر به من لو اراده لعجز عنه وهكذا امر الناس بعضهم لبعض
فالانسان يأمر عبده بما لا يريد العبد لكن لا يأمره بما يعجز عنه العبد واذا
اجتمعت الارادة الجازمة والقوة التامة لزم وجود الفعل وعلى هذا ينبغي

تكليف ما لا يطاق فان من قال القدرة لا تكون الا مع الفعل يقول كل
كافر وفاسق قد كلف ما لا يطيق وما لا يطاق يفسر بشيئين بما لا يطاق
للعجز عنه فهذا لم يكلفه الله احدا ويفسر بما لا يطاق للاشتغال بضده فهذا
هو الذي وقع فيه التكليف كما في أمر العباد بعضهم بعضا فانهم يفرقون بين
هذا وهذا فلا يأمر السيد عبده الا معى بنقط المصاحف ويأمره اذا كان قاعدا ان
يقوم ويعلم الفرق بين الامرين بالضرورة قوله ﴿وافعال العباد هي خلق الله وكسب
من العباد﴾ اختلف الناس في افعال العباد الاختيارية فزعمت الجبرية ورئيسهم
الجهنم بن صفوان الترمذي ان التدبير في افعال الخلق كلها لله تعالى وهي كلها
اضطرارية كحركات المرتعش والعروق النابضة وحركات الاشجار وازادتها الى
الخلق مجاز وهي على حسب ما يضاف الشيء الى محله دون ما يضاف الى محصله وقابلتهم
المعتزلة فقالوا ان جميع الافعال الاختيارية من جميع الحيوانات بخلقها لا تعلق لها
بخلق الله تعالى واختلفو افيما بينهم ان الله تعالى يقدر على افعال العباد ام لا وقال اهل
الحق افعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة وهي مخلوقة لله تعالى والحق
سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات لا خالق لها سواه فالجبرية غلوا في
اثبات القدر فنفوا صنع العباد اصلا كما عملت المشبهة في اثبات الصفات فشبهاوا
والقدرية نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى ولهذا كانوا مجوس هذه الامة
بل اردي من المجوس من حيث ان المجوس اثبتوا خالقين وهم اثبتوا خالقين وهدى
الله المؤمنين اهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء الى
صراط مستقيم فكل دليل صحيح تقيمه الجبرية فانما يدل على ان الله خالق
كل شيء وانه على كل شيء قدير وان افعال العباد من جملة مخلوقاته وانه ماشاء

كان وما لم يشأ لم يكن ولا يدل على ان العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا يريد
ولا مختار وان حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح
وحركات الاشجار وكل دليل صحيح يقيمه القدرى فانما يدل على ان العبد فاعل
لفعله حقيقة وانه مريد له مختار له حقيقة وان اضافته ونسبته اليه اضافة حق ولا
يدل على انه غير مقدور لله تعالى وانه واقع بغير مشيئته وقدرته فاذا ضمنت
مامع كل طائفة منهما من الحق الى حق الاخرى فانما يدل ذلك على ما دل عليه
القرآن وسائر كتب الله المنزلة من عموم قدرة الله ومشئته لجميع ما في الكون من
الاعيان والافعال وان العباد فاعلون لافعالهم حقيقة وانهم يستوجبون عليها المدح
والدم وهذا هو الواقع في نفس الامر فان ادلة الحق لا تعارض والحق يصدق
بعضه بعضا ويضيق هذا المختصر عن ذكر ادلة القريين ولكنها تتكافأ وتتساقط
ويستفاد من دليل كل فريق بطلان قول الاخرين ولكن اذ كر شيئا مما
استدل به كل من القريين ثم ابين انه لا يدل على ما استدل عليه من الباطل
فما استدلت به الجبرية قوله تعالى ﴿وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى﴾
فنفى الله عن نبيه الرمي واثبته لنفسه سبحانه فدل على انه لا صنع للعبد قالوا
والجزاء غير مرتب على الاعمال بدليل قوله ﷺ « لن يدخل احد الجنة
بعماله » قالوا ولا انت يا رسول الله قال « ولا انا الا ان يتعمدني الله برحمته منه
وفضل » ومما استدلت به القدرية قوله تعالى ﴿فتبارك الله احسن الخالقين﴾
قالوا والجزاء مرتب على الاعمال ترتب العوض كما قال تعالى ﴿جزاء بما كانوا
يعملون - وتلك الجنة التي اورثتموها بما كنتم تعملون﴾ ونحو ذلك فاما
ما استدلت به الجبرية من قوله تعالى ﴿وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى﴾

فهو دليل عليهم لانه تعالى اثبت لرسوله ﷺ رميا بقوله اذ رميت فعلم ان
المثبت غير المنفي وذلك ان الرمي له ابتداء وانتهاء فابتداؤه الحذف وانتهائه
الاصابة وكل منهما يسمى رميا فالمنفي حينئذ والله تعالى اعلم وما اصبحت اذ حذفت
ولكن الله اصاب والافطر دقوهم وما صليت اذ صليت ولكن الله صلى
وما صمت اذ صمت وما زينت اذ زينت وما سرقت اذ سرقت وفساد هذا
ظاهر . واما ترتيب الجزاء على الاعمال فقد ضلت فيه الجبرية والقدرية وهدي
الله اهل السنة وله الحمد والمنة فان الباء التي في النفي غير الباء التي في الاثبات
فالمنفي في قوله ﷺ « لن يدخل الجنة بعمله » بباء العوض وهو ان يكون العمل
كالمن لدخول الرجل الى الجنة كما زعمت المعتزلة ان العامل يستحق دخول
الجنة على ربه بعمله بل ذلك برحمة الله وفضله والباء التي في قوله تعالى ﴿ جزاء
بما كانوا يعملون ﴾ ونحوها بباء السبب اي بسبب عملكم والله تعالى هو خالق
الاسباب والمسببات فرجع الكل الى محض فضل الله ورحمته . واما استدلال
المعتزلة بقوله تعالى ﴿ فتبارك الله احسن الخالقين ﴾ فمعنى الآية احسن المصورين
المقدرين والخلق يذكر ويراد به التقدير وهو المراد هنا بدليل قوله تعالى
﴿ الله خالق كل شيء ﴾ اي الله خالق كل شيء مخلوق قد خلق افعال العباد
في عموم كل وما افسد قولهم في ادخال كلام الله تعالى في عموم كل الذي هو صفة
من صفاته يستحيل عليه ان يكون مخلوقا واخرجوا افعالهم التي هي مخلوقة
من عموم كل وهل يدخل في عموم كل الا ما هو مخلوق فذاته المقدسة وصفاته
غير داخلة في هذا العموم ودخل سائر المخلوقات في عمومها وكذا قوله تعالى
﴿ والله خالقكم وما تعملون ﴾ ولا نقول ان ما مصدرية اي خالقكم وعمالك

اذ سياق الآية يا باه لان ابراهيم عليه السلام انما انكر عليهم عبادة المنحوت
 لا النحت والآية تدل على ان المنحوت مخلوق لله تعالى وهو ما صار منحوتاً
 الا بفعلهم فيكون ما هو من آثار فعلهم مخلوقاً لله تعالى ولو لم يكن النحت مخلوقاً
 لله تعالى لم يكن المنحوت مخلوقاً له بل الخشب او الحجر لا غير . وذ كر ابو
 الحسن البصري امام المتأخرين من المعتزلة ان العلم بأن العبد يحدث فعله
 ضروري . وذ كره الرازي ان افتقار الفعل المحدث الممكن الى مرجح يجب
 وجوده عنده ويمتنع عند عدمه ضروري وكلاهما صادق فيما ذكره من العلم
 الضروري ثم ادعى كل منهما ان هذا العلم الضروري يبطل ما ادعاه الآخر من
 الضرورة غير مسلم بل كلاهما صادق فيما ادعاه من العلم الضروري وانما وقع غلظه
 في انكاره ما مع الآخر من الحق فانه لا منافاة بين كون العبد محدثاً لفعله وكون هذا
 الاحداث واجب وجوده بمشيئة الله تعالى . كما قال تعالى ﴿ ونفس وما سواها
 فالهملها فجورها وتقواها ﴾ فقوله فالهملها فجورها وتقواها اثبات للتقوى بقوله فالهملها
 واثبات لفعل العبد باضافة الفجور والتقوى الى نفسه ليعلم انها هي الفاجرة
 والمتقية . وقوله بعد ذلك قد افلح من زكاهها وقد خاب من دساها اثبات
 ايضاً لفعل العبد ونظائر ذلك كثيرة وهذه شبيهة اخرى من شبه القوم التي
 فرقتهم بل مزقتهم كل ممزق وهي انهم قالوا كيف يستقيم الحكم على قولكم
 بأن الله يمدب المكلفين على ذنوبهم وهو خلقها فيهم فأين العدل في تعذيبهم
 على ما هو خالقه وفاعله فيهم وهذا السؤال لم يزل مطروقا في العالم على السنة
 الناس وكل منهم يتسكلم في جوابه بحسب علمه ومعرفته وعنه تفرقت بهم
 الطرق فطائفة اخرجت افعالهم عن قدرة الله تعالى وطائفة انكرت الحكم

والتعليل وسددت باب السؤال وطائفة اثبتت كسبا لا يعقل جعلت الثواب
 عليه وطائفة التزمت لاجله وقوع مقدور بين قادرين ومفعول بين فاعلين
 وطائفة التزمت الجبر وان الله يعذبهم على ما لا يقدرون عليه وهذا السؤال
 هو الذي اوجب هذا التفرق والاختلاف . والجواب الصحيح عنه ان يقال
 ان ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية وان كانت خلقاً لله تعالى فهي عقوبة
 له على ذنوب قبلها فالذنب يكسب الذنب ومن عقاب السيئة السيئة بعدها
 فالذنوب كالامراض التي يورث بعضها بعضاً يبقى ان يقال فالكلام في الذنب
 الاول الجالب لما بعده من الذنوب يقال هو عقوبة ايضاً على عدم فعل ما خلق
 له وفطر عليه فان الله سبحانه خلقه لعبادته وحده لا شريك له وفطره على محبته
 وتأله والانابة اليه كما قال تعالى ﴿ فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي
 فطر الناس عليها ﴾ فلما لم يفعل ما خلق له وفطر عليه من محبة الله وعبوديته
 والانابة اليه عوقب على ذلك بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي
 فانه صادف قلباً خالياً قابلاً للخير والشر ولو كان فيه الخير الذي يمنع ضده لم
 يتمكن منه الشر كما قال تعالى ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من
 عبادنا المخلصين ﴾ وقال ابليس ﴿ فيمزتك لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم
 المخلصين ﴾ وقال الله عز وجل ﴿ هذا صراط علي مستقيم ان عبادي ليس لك عليهم
 سلطان ﴾ والاخلاص خلوص القلب من تأله ما سوى الله تعالى وارادته ومحبته
 بخلص لله فلم يتمكن منه الشيطان واما اذا صادفه فارغاً من ذلك تمكن منه
 بحسب فراغه فيكون جعله مذنباً مسيئاً في هذه الحال عقوبة له على عدم هذا
 الاخلاص وهي محض العدل فان قلت فذلك العدم من خلقه فيه قيل هذا

سؤال فاسد فان العدم كاسمه لا يفتقر الى تعلق التكوين والاحداث به فان
عدم الفعل ليس امرا وجوديا حتى يضاف الى الفاعل بل هو شر محض والشر
ليس الى الله سبحانه كما قال عليه السلام في حديث الاستفتاح «لييك وسعديك والخير
كله بيدك والشر ليس اليك» وكذا في حديث الشفاعة يوم القيامة حين يقول الله
له يا محمد فيقول «لييك وسعديك والخير في يدك والشر ليس اليك» وقد
اخبر الله تعالى ان تسليط الشيطان ﴿ انما هو على الذين يتولونه والذين هم به
مشركون ﴾ فلما تولوه دون الله واشركوا به معه عوقبوا على ذلك بتسليط الله
عليهم وكانت هذه الولاية والاشراك عقوبة خلو القلب وفراغه من الاخلاص
فالهام البر والتقوى ثمرة هذا الاخلاص وتوجيهه والهام الفجور عقوبة على خلوه
من الاخلاص . فان قلت ان كان هذا الترك امرا وجوديا عاد السؤال جذعا
وان كان امرا عدميا فكيف يعاقب على العدم المحض قيل ليس هنا ترك هو
كف النفس ومنعها عما تریده وتحبه فهذا قد يقال انه امر وجودي وانما هنا
عدم وخلو من اسباب الخير وهذا العدم هو محض خلوها مما هو اففع شيء لها
والعقوبة على الامر العددي هي بفعل السيئات لا بالعقوبات التي تناله بعد اقامة
الحجة بالرسول فله في عقوبتان احدهما جعله مذنباً خاطئاً وهذه عقوبة عدم
اخلاصه وانابته واقباله على الله وهذه العقوبة قد لا يحس بالمها ومضرتها
لموافقها شهوته وارادته وهي في الحقيقة من اعظم العقوبات والثانية العقوبات
المؤلمة بعد فعله للسيئات . وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين في قوله
تعالى ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء ﴾ فهذه العقوبة
الاولى ثم قال ﴿ حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة ﴾ فهذه العقوبة الثانية .

فان قيل فهل كان يمكنهم ان يأتوا بالاخلاص والائابة والمحبة له وحده من غير ان يخلق ذلك في قلوبهم ويحملهم مخلصين له منيبين له محبين له ام ذلك محض جملة في قلوبهم والتمانه فيها قيل لا بل هو محض منته وفضله وهو من اعظم الخير الذي هو بيده والخير كله في يديه ولا يقدر احد ان يأخذ من الخير الا ما اعطاه ولا يتقى من الشر الا ما وقاه . فان قيل فاذا لم يخلق ذلك في قلوبهم ولم يوفقوا له ولا سبيل لهم اليه بانفسهم عاد السؤال وكان منعمهم منه ظلما ولو لم يكن القول بأن العدل هو تصرف المالك في ملكه بما يشاء لا يسأل عما يفعل وعم يسألون قيل لا يكون سبحانه بمنعمهم من ذلك ظلما وانما يكون المانع ظلما اذا منع غيره حقا لذلك الغير عليه وهذا هو الذي حرمة الرد على نفسه واوجب على نفسه خلافه واما اذا منع غيره ما ليس بحق له بل هو محض فضله ومنته عليه لم يكن ظلما بمنعه فنفع الحق ظلم ومنع الفضل والاحسان عدل وهو سبحانه العدل في منعه كما هو المحسن المنان بمطائه فان قيل فاذا كان العطاء والتوفيق احسانا ورحمة فهلا كان العمل له والغلبة كما ان رحمته تغلب غضبه . قيل المقصود في هذا المقام بيان ان هذه العقوبة المترتبة على هذا المنع والمنع المستلزم للعقوبة ليس بظلم بل هو محض العدل وهذا سؤال عن الحكمة التي اوجبت تقديم العدل على الفضل في بعض المحال وهلا سوى بين العباد في الفضل وهذا الوال حاصله لم يتفضل على هذا ولم يتفضل على الآخر وقد تولى الله سبحانه الجواب عنه بقوله ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ وقوله ﴿ لئلا يعلم اهل الكتاب ان لا يقدر ان لا يقدر على شيء من فضل الله وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ولما سأله

اليهود والنصارى عن تخصيص هذه الامة بأجرين واعطاهم اجرهم قال هل
ظلمتكم من حقكم شيئاً قالوا لا قال فذلك فضلي اوتيه من اشاء وليس في الحكمة
اطلاع كل فرد من افراد الناس على كمال حكمته في عطائه ومنعه بل اذا كشف
الله عن بصيرة العبد حتى ابصر جزءا يسيرا من حكمته في خلقه وامره ونوابه
وعقابه وتخصيصه وحرمانه وتأمل احوال محال ذلك استدل بما علمه على
ما لم يعلمه ولما استشكل اعداؤه المشركون هذا التخصيص قالوا أهؤلاء من
الله عليهم من بيننا قال تعالى محييا لهم ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ فتأمل هذا
الجواب ترى في ضمنه انه سبحانه اعلم بالحلل الذي يصلح لغرس شجرة النعمة
فتثمر بالشكر من الحلل الذي لا يصلح لغرسها فلو غرست فيه لم تثمر فكان
غرسها هناك ضائعا لا يليق بالحكمة كما قال تعالى ﴿الله اعلم حيث يجعل
رسالته﴾ فان قيل اذا حكمت باستعالة الایجاد من العبد فاذا لافعل للعبد
اصلا قيل العبد فاعل لفعله حقيقة وله قدرة حقيقة . قال تعالى ﴿وما
تفعلوا من خير يعلمه الله - فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾ وامثال ذلك .
واذا ثبت كون العبد فاعلا فافعله نوعان نوع يكون منه من غير
اقتران قدرته وارادته فيكون صفة له ولا يكون فعلا كحركات المرتعش ونوع
يكون منه مقارنا لايجاد قدرته واختياره فيوصف بكونه صفة وفعلا
وكسبا للعبد كالحركات الاختيارية والله تعالى هو الذي جعل العبد فاعلا مختاراً
وهو الذي يقدر على ذلك وحده لا شريك له ولهذا انكر السلف الجبر فان
الجبر لا يكون الا من عاجز فلا يكون الا مع الاكراه يقال للاب وللاية
اجبار البكر الصغيرة على النكاح وليس له اجبار الثيب البالغ اي ليس له ان

يزوجها مكرهة والله تعالى لا يوصف بالاجبار بهذا الاعتبار لانه سبحانه
خالق الارادة والمراد قادر ان يجعله مختارا بخلاف غيره . ولهذا جاء في الفاظ
الشارع الجبل دون الجبر . كما قال عليه السلام لا شج عبد القيس « ان فيك خلقين
يحبهما الله الحر والآنفة فقال خلقين تحقت بهما ام خلقين جبلت عليهما فقال بل
خلقين جبلت عليهما فقال الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله تعالى »
والله تعالى انما يمدب عبده على فعله الاختياري والفرق بين العقاب على الفعل
الاختياري وغير الاختياري مستقر في الفطر والعقول . واذا قيل خلق الفعل
مع العقوبة عليه ظلم كان بمنزلة ان يقال خلق اكل السم ثم حصول الموت به
ظلم فكما ان هذا سبب للموت فهذا سبب للعقوبة ولا ظلم فيها فالحاصل ان
فعل العبد فعل له حقيقة ولكنه مخلوق لله تعالى ومفعول لله ليس هو نفس
فعل الله ففرق بين الفعل والمفعول والمخلوق . والى هذا المعنى اشار
الشيخ رحمه الله بقوله وافعال العباد خلق الله وكسب من العباد اثبت للعباد
فعلا وكسبا واذن ان خلق الله تعالى والكسب هو الفعل الذي يعود على
فاعله منه نفع او ضرر كما قال تعالى ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾
قوله ﴿ ولم يكلفهم الله تعالى الا ما يطيقون ولا يطيقون الا ما كلفهم وهو تفسير
لا حول ولا قوة الا بالله تقول لاحيلة لاحد ولا تحول لاحد ولا حركة لاحد
عن معصية الله الا بمعونة الله ولا قوة لاحد على اقامة طاعة الله والثبات عليها
الا بتوفيق الله وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدرته غلبت
مشيئته المشيئات كلها وعكست ارادته الارادات كلها وغلب قضاؤه الحيل
كلها يفعل ما يشاء وهو غير ظالم ابدا لا يسأل عما يفعل وعم يسألون ﴾ فقوله

لم يكلفهم الله تعالى الا ما يطيقون قال تعالى ﴿ لا يكلف الله نفسا الا وسعها -
لا تكلف نفسا الا وسعها ﴾ وعند ابي الحسن الاشعري ان تكليف ما لا يطاق
جائز عقلا ثم تردد اصحابه انه هل ورد به الشرع ام لا واحتج من قال بوروده
بامر ابي لهب بالايمان فانه تعالى اخبر بانه لا يؤمن وانه سيصلي نارا ذات
هيب فكان مأمورا بان يؤمن بانه لا يؤمن وهذا تكليف بالجمع بين الضدين
وهو محال. والجواب عن هذا بالمنع فلانسلم بانه مأمور بانه لا يؤمن والاستطاعة
التي بها يقدر على الايمان كانت حاصلة فهو غير عاجز عن تحصيل الايمان
فما كلف الا ما يطيقه كما تقدم في تفسير الاستطاعة ولا يلزم قوله تعالى للملائكة
انثوني باسماء هؤلاء مع عدم علمهم بذلك ولا للمصورين يوم القيامة احياوا
ما خلقتهم . وامثال ذلك لانه ليس بتكليف طلب فعل يثاب فاعله ويعاقب
تاركه بل هو خطاب تعجيز وكذا لا يلزم دعاء المؤمنين في قوله تعالى ﴿ ربنا
ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ لان تحميل ما لا يطاق ليس تكليفا بل يجوز
ان يحمله جبلا لا يطيقه فيموت . وقال ابن الانباري اي لا تحملنا ما يثقل
علينا اداؤه وان كنا مطيقين له على تجشم وتحمل مكروهه قال فخطب العرب
على حسب ما تعقل فان الرجل منهم يقول للرجل يبغضه ما اطيق النظر اليك
وهو مطيق لذلك لكنه يثقل عليه ولا يجوز في الحكمة ان يكلفه بحمل جبل
بحيث لو فعل يثاب ولو امتنع يعاقب كما اخبر سبحانه عن نفسه انه لا يكلف
نفسا الا وسعها ومنهم من يقول يجوز تكليف الممتنع عادة دون الممتنع لذاته
لان ذلك لا يتصور وجوده فلا يعقل الامر به بخلاف هذا ومنهم من يقول
ما لا يطاق للمجزع عنه لا يجوز تكليفه بخلاف ما لا يطاق للاشتغال بضده فانه

يجوز تكليفه وهؤلاء موافقون للسلف والائمة في المعنى لكن كونهم جعلوا
ما يتركه العبد لا يطاق لكونه تاركاً له مشتغلاً بصدده بدعة في الشرع واللغة فان
مضمونه ان فعل ما لا يفعله العبد لا يطيقه ومع التزموا هذا لقولهم ان الطاقة التي
هي الاستطاعة وهي القدرة لا تكون الا مع الفعل فقالوا كل من لم يفعل فعلاً فانه
لا يطيقه وهذا خلاف الكتاب والسنة واجماع السلف وخلاف ما عليه عامة العقلاء
كما تقدمت الاشارة اليه عند ذكر الاستطاعة. واما ما لا يكون الا مقارناً للفعل
فذلك ليس شرطاً في التكليف مع انه في الحقيقة انما هناك ارادة الفعل وقد
يحتجون بقوله تعالى ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع — انك لن تستطيع معي
صبراً ﴾ وليس في ذلك ارادة ما سموه استطاعة وهو ما لا يكون الا مع الفعل
فان الله ذم هؤلاء على كونهم لا يستطيعون السمع ولو اراد بذلك المقارن لكان
جميع الخلق لا يستطيعون السمع قبل السمع فلم يكن لتخصيص هؤلاء بذلك
معنى ولكن هؤلاء لبغضهم الحق وثقله عليهم اما حسداً لصاحبه واما اتباعاً
للهوى لا يستطيعون السمع وموسى عليه السلام لا يستطيع الصبر لمخالفه لما
يراه لظاهر الشرع وليس عنده منه علم وهذه لغة العرب وسائر الامم فمن
يبغض غيره يقال انه لا يستطيع الاحسان اليه ومن يحبه يقال انه لا يستطيع
عقوبته لشدة محبته له لا لعجزه عن عقوبته فيقال ذلك للمبالغة كما يقول لاضر بته
حتى يموت والمراد الضرب الشديد وليس هذا عذراً فلولم يأمر العباد الا بما
يهوونه لفسدت السموات والارض قال تعالى ﴿ ولو اتبع الحق اهواءهم
لفسد السموات والارض ومن فيهن ﴾ . وقوله ولا يطيقون الا ما كلفهم
به الى آخر كلامه أي ولا يطيقون الا ما اقدرهم عليه وهذه الطاقة هي التي

من نحو التوفيق لا التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات
ولاحول ولا قوة الا بالله دليل على اثبات القدر وقد فسرها الشيخ بعدها
ولكن في كلام الشيخ اشكال فان التكليف لا يستعمل بمعنى الاقدار وانما
يستعمل بمعنى الامر والنهي وهو قال لا يكلفهم الا ما يطيقون ولا يطيقون
الا ما كلفهم وظاهره انه يرجع الى معنى واحد ولا يصح ذلك لانهم يطيقون
فوق ما كلفهم به لكنه سبحانه يريد بعباده اليسر والتخفيف كما قال تعالى
﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ وقال تعالى ﴿ يريد الله ان يخفف
عنكم ﴾ وقال تعالى ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ فلو زاد فيما كلفنا
به لاطفناه ولكنه تفضل علينا ورحمنا وخفف عنا ولم يجعل علينا في الدين
من حرج ويجاب عن هذا الاشكال بما تقدم ان المراد الطاقة التي من نحو
التوفيق لا من جهة التمكن وسلامة الآلات لكن في العبارة قلق فتأمل. وقوله
وكل شيء يجري بمشيئة الله وعلمه وقضائه وقدره يريد بقضائه القضاء الكوني
لا الشرعي فان القضاء يكون كونياً وشرعياً وكذلك الارادة والامر والاذن
والكتاب والحكم والتحرير والكلمات ونحو ذلك. اما القضاء الكوني ففي
قوله تعالى ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين ﴾ والقضاء الديني الشرعي في
قوله تعالى ﴿ وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه ﴾ واما الارادة الكونية
والدينية فقد تقدم ذكرها عند قول الشيخ ولا يكون الا ما يريد. واما
الامر الكوني ففي قوله تعالى ﴿ انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون ﴾
وكذا قوله تعالى ﴿ واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفها ففسقوا فيها فحق
عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ في احد الاقوال وهو اقواها والامر الشرعي

في قوله تعالى ﴿ ان الله يأمر بالعدل والاحسان ﴾ الآية وقوله ﴿ ان الله
 يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها ﴾ واما الاذن الكوني في قوله تعالى
 ﴿ وما مع بضارين به من احد الا باذن الله ﴾ والاذن الشرعي في قوله تعالى
 ﴿ ما قطعتم من لينة او تركتموها قائمة على اصولها فباذن الله ﴾ واما الكتاب
 الكوني في قوله تعالى ﴿ وما يعمر من ممر ولا ينقص من عمره الا في
 كتاب ان ذلك على الله يسير ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد
 الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون ﴾ والكتاب الشرعي الديني في
 قوله تعالى ﴿ وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس - يا ايها الذين آمنوا كتب
 عليكم الصيام ﴾ واما الحكم الكوني في قوله تعالى عن ابن يعقوب عليه
 السلام ﴿ فلن ابرح الارض حتى يأذن لي ابي او يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴾
 وقوله تعالى ﴿ قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ والحكم
 الشرعي في قوله تعالى ﴿ احلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم غير محلي
 الصيد وانتم حرم ان الله يحكم ما يريد ﴾ وقال تعالى ﴿ ذلكم حكم الله يحكم
 بينكم ﴾ واما التحريم الكوني في قوله تعالى ﴿ قال فانها محرمة عليهم اربعين سنة
 يتبينون في الارض - وحرام على قرية اهلكناها انهم لا يرجعون ﴾ والتحريم
 الشرعي في قوله ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير - و - حرمت عليكم
 امهاتكم ﴾ الآية . واما الكلمات الكونية في قوله تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك
 الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ﴾ وفي قوله ﷺ « اعوذ بكلمات
 الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر » والكلمات الشرعية الدينية
 في قوله تعالى ﴿ واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن ﴾ وقوله ﴿ يفعل ما يشاء ﴾

وهو غير ظالم ابدا الذي دل عليه القرآن من تنزيه الله نفسه عن ظلم العباد
يقتضي قولاً وسطاً بين قولي القدرية والجبرية فليس ما كان من بني آدم ظلماً
وقبيحاً يكون منه ظلماً وقبيحاً كما تقوله القدرية والمعتزلة ونحوهم فان ذلك
تمثيل لله بخلقه وقياس له عليهم هو الرب المغني القادر وهم العباد الفقراء
المهورون وليس الظلم عبارة عن الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة كما يقوله
من يقوله من المتكلمين وغيرهم يقولون انه يمتنع ان يكون في الممكن المقدر
ظلم بل كل ما كان ممكناً فهو منه لوفعله عدل اذ الظلم لا يكون الا من مأمور
من غيره منهي والله ليس كذلك فان قوله تعالى ﴿ ومن يعمل من الصالحات
وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴾ وقوله تعالى ﴿ ما يبدل القول لدي
وما انا بظلام لامبيد ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾
وقوله تعالى ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك احداً ﴾ وقوله تعالى
﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب ﴾ وذلك
يدل على تقيض هذا القول . ومنه قوله الذي رواه عنه رسوله « يا عبادي
اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » فهذا دل على
شيئين (احدهما) انه حرم على نفسه الظلم والممتنع لا يوصف بذلك (الثاني)
انه اخبر انه حرم على نفسه كما اخبر انه كتب على نفسه الرحمة وهذا يبطل احتجاجهم
بان الظلم لا يكون الا من مأمور منهي والله ليس كذلك فيقال لهم هو سبحانه
كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم وانما كتب على نفسه وحرم على
نفسه ما هو قادر عليه لا ما هو ممتنع عليه . وايضا فان قوله فلا يخاف ظلماً ولا
هضماً قد فسره السلف بأن الظلم ان توضع عليه سيئات غيره والهضم ان

ينقص من حسنه كما قال تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر اخرى ﴾ وايضا فان
الانسان لا يخاف الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة حتى يأمن من ذلك وانما يأمن
بما يمكن فلما آمنه من العظم بقوله فلا يخاف علم انه ممكن مقدور عليه . وكذا
قوله لا تختصموا لدي الى قوله ﴿ وما انا بظلام للمبيد ﴾ لم يعن بها نفي ما لا
يقدر عليه ولا يمكن منه وانما نفي ما هو مقدور عليه ممكن وهو ان يجزوا
بغير اعمالهم فعلى قول هؤلاء ليس الله منزها عن شيء من الافعال اصلا
ولا مقدسا عن ان يفعله بل كل ممكن فانه لا ينزه عن فعله بل فعله حسن ولا
حقيقة للفعل السوء بل ذلك ممتنع والممتنع لاحقية له والقرآن يدل على تقيض
هذا القول في مواضع نزه الله نفسه فيها عن فعل ما لا يصلح له ولا يفتني
له فعلم انه منزه مقدس عن فعل السوء والفعل المعيب المذموم كما انه منزه مقدس عن
وصف السوء والوصف المعيب المذموم وذلك كقوله تعالى ﴿ افسبتم انما
خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ﴾ فانه نزه نفسه عن خلق الخلق عبثا
وانكر على من حسب ذلك وهذا فعل وقوله تعالى ﴿ افجعل المسلمين
كالحجرمين ﴾ وقوله تعالى ﴿ ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين
في الارض ام نجعل المتقين كالفجار ﴾ انكار منه على من جوز ان يسوي الله
بين هذا وهذا . وكذا قوله ﴿ ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان
نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾
انكار على من حسب انه يفعل هذا واخبار ان هذا حكم سيء قبيح وهو مما ينزه
الرب عنه . وروى ابو داود والحاكم في المستدرک من حديث ابن عباس وعبادة
ابن الصامت وزيد بن ثابت عن النبي ﷺ « ان الله عذب اهل سمواته وارضه

اعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته خيرا لهم من اعمالهم ، وهذا الحديث مما يحتاج به الجبرية واما القدرية فلا يتأتى على اصولهم الفاسدة ولهذا قابلوه اما بالتكذيب او بالتأويل واسعد الناس به اهل السنة الذين قابلوه بالتصديق وعلموا من عظمة الله وجلاله وقدر نعم الله على خلقه وعدم قيام الخلق بمحقوق نعمه عليهم اما عجزوا واما جهلا واما تعريطا واضاعة واما تقصيرا في المقدور من الشكر ولو من بعض الوجوه فان حقه على اهل السموات والارض ان يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر وتكون قوة الحب والانابة والتوكل والخشية والمراقبة والخوف والرجاء جميعها متوجهة اليه وملتقطة به بحيث يكون القلب عاكفا على محبته وتألهه بل على افراده بذلك واللسان محبوبا على ذكره والجوارح وقفا على طاعته . ولا ريب ان هذا مقدر في الجملة ولكن النفوس تشح به وهي في الشح على مراتب لا يحصيها الا الله تعالى واكثر المطيعين تشح به نفسه من وجه وان اتى به من وجه آخر فابن الذي لا تقع منه ارادة تراحم مراد الله وما يحبه منه ومن الذي لم يصدر منه خلاف ما خلق له ولو في وقت من الاوقات فلو وضع سبحانه عدله على اهل سمواته وارضه لعذبهم بعدله ولم يكن ظالما لهم وغاية ما يقدر توبة العبد من ذلك واعترافه وقبول التوبة محض فضله واحسانه والا فلو عذب عبده على جنائته لم يكن ظالما ولو قدر انه تاب منها لكان اوجب على نفسه بمقتضى فضله ورحمته انه لا يعذب من تاب وقد كتب على نفسه الرحمة فلا يسع الخلائق الا رحمته وعفوه ولا يبلغ عمل احد منهم ان ينجو به من النار او يدخل به الجنة كما قال اطوع الناس لربه وافضلهم عملا واشدع تعظيما لربه واجلالا « لن ينج احدا

منكم عمله قالوا ولا انت يا رسول الله قال ولا انا الا ان يتغمدني الله برحمة منه
وفضل . وسأله الصديق دعاء يدعو به في صلاته فقال « قل اللهم اني ظلمت
نفسى ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب الا انت فاغفر لي مغفرة من عندك
وارحمي انك انت الغفور الرحيم » فاذا كان هذا حال الصديق الذي هو افضل
الناس بعد الانبياء والمرسلين فما الظن بسواه بل انما صار صديقاً بتوفيقه هذا
المقام حقه الذي يتضمن معرفة ربه وحقه وعظمته وما ينبغي له وما يستحقه
على عبده ومعرفة تقصيره فسحقاً وبعدا لمن زعم ان المخلوق يستغني عن مغفرة
ربه ولا يكون به حاجة اليها وليس وراء هذا الجهل بالله وحقه غاية فان لم
يتسع فهمك لهذا فانزل الى وطأة النعم وما عليها من الحقوق ووازن من
شكرها وكفرها حينئذ تعلم انه سبحانه لو عذب اهل سمواته وارضه لعذبهم
وهو غير ظالم لهم قوله ﴿ وفي دعاء الاحياء وصدقاتهم منفعة للاموات ﴾
اتفق اهل السنة ان الاموات ينتفعون من سعي الاحياء بأمرين (احدهما)
ما تسبب اليه الميت في حياته (والثاني) دعاء المسلمين واستغفارهم له والصدقة والحج
على نزع فيما يصل من ثواب الحج فعن محمد بن الحسن انه انما يصل الى الميت
ثواب النفقة والحج للحاج وعند عامة العلماء ثواب الحج للمحجوج عنه وهو
الصحيح واختلف في العبادات البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر
فذهب ابو حنيفة واحمد وجمهور السلف الى وصولها والمشهور من مذهب
الشافعي ومالك عدم وصولها وذهب بعض اهل البدع من اهل الكلام الى
عدم وصول شيء البتة لا الدعاء ولا غيره وقولهم مردود بالكتاب والسنة
لكنهم استدلوا بالمتشابه من قوله تعالى ﴿ وان ليس للانسان الا ما سعى ﴾

وقوله ﴿ ولا تجزون الا ما كنتم تعملون ﴾ وقوله ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ وقد ثبت عن النبي ﷺ انه قال « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية ، او ولد صالح يدعو له ، او علم ينتفع به من بعده » فاخبر انه انما ينتفع بما كان تسبب فيه في الحياة وما لم يكن تسبب فيه في الحياة فهو منقطع عنه واستدل المقتضرون على وصول العبادات التي لا تدخلها النيابة بحال كالاسلام والصلاة والصوم وقراءة القرآن يختص ثوابها بفاعله لا يتمدها كما انه في الحياة لا يفعله احد عن احد ولا ينوب فيه عن فاعله غيره وقد روى النسائي بسنده عن ابن عباس عن النبي ﷺ انه قال « لا يصلي احد عن احد ولا يصوم احد عن احد ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مداً من حنطة والدليل على ارتفاع الميت بغير ما تسبب فيه الكتاب والسنة والاجماع والقياس الصحيح . اما الكتاب فقال تعالى ﴿ والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ﴾ فاثبت عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم فدل على ارتفاع الميت بالاستغفار الاحياء . وقد دل على ارتفاع الميت بالدعاء اجماع الامة على الدعاء له في صلاة الجنازة والادعية التي وردت بها السنة في صلاة الجنازة مستفيضة . وكذا الدعاء له بعد الدفن في سنن ابي داود من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال كان النبي ﷺ اذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال استغفروا لآخيك واسألواه التثبيت فانه الآن يسأل وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم كما في صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصيب قال كان رسول الله ﷺ يعلمهم اذا خرجوا الى المقابر ان يقولوا « السلام عليكم اهل الديار من المؤمنين والمسلمين وانا انشاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية » وفي صحيح مسلم ايضاً عن عائشة

رضي الله عنها سألت النبي ﷺ كيف تقول اذا استغفرت لاهل القبور قال «قولي السلام على اهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين وانا ان شاء الله بكم لاحقون» واما وصول ثواب الصدقة ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ان رجلا أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ان امي افتتلت نفسها ولم توص واظن هالو تكلمت تصدقت افلها اجر ان تصدقت عنها قال «نعم» وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ان رجلا أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ان امي توفيت وانا غائب عنها فهل ينفعها ان تصدقت عنها قال «نعم» قال فاني اشهدك ان حائطي المخرف صدقة عنها . وامثال ذلك كثيرة في السنة . واما وصول ثواب الصوم ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله ﷺ قال «من مات وعليه صيام صام عنه وليه» وله نظائر في الصحيح ولكن ابو حنيفة رحمه الله قال بالاطعام عن الميت دون الصيام عنه لحديث ابن عباس المتقدم والكلام على ذلك معروف في كتب الفروع . واما وصول ثواب الحج ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما ان امرأة من جهينة جاءت الى النبي ﷺ فقالت : ان امي نذرت ان تحج فلم تحج حتى ماتت افأحج عنها؟ قال «حجني عنها ارايت لو كان على امك دين اأكنت قاضيته اقصوا الله فانه أحق بالوفاء» ونظائره ايضا كثيرة واجمع المسلمون على ان قضاء الدين يسقطه من ذمة الميت ولو كان من اجنبي ومن غير تركته . وقد دل على ذلك حديث ابي قتادة حيث ضمن الدينارين عن الميت فلما قضاهما قال النبي ﷺ «الآن بردت عليه جلده» وكل ذلك جار على قواعد الشرع وهو محض القياس فان الثواب حق العامل فاذا وهبه لاخيه المسلم لم يمنع من

ذلك كما لم يمنع من هبة ماله في حياته وبراءة له منه بعد وفاته . وقد نبه الشارع
بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب القراءة ونحوها من العبادات البدنية
يوضحه ان الصوم كلف النفس عن المفطرات بالنية وقد نص الشارع على وصول
ثوابه الى الميت فكيف بالقراءة التي هي عمل ونية . والجواب عما استدلوا به
من قوله تعالى ﴿ وان ليس للانسان الا ما سعى ﴾ قد اجاب العلماء باجوبة
أصحها جوابان (احدهما) ان الانسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الاصدقاء
واولاد الاولاد ونكح الزوجات وأسدى الخير وتودد الى الناس فترحموا عليه
ودعوا له واهدوا له ثواب الطاعات فكان ذلك اثر سعيه بل دخول المسلم مع
جملة المسلمين في عقد الاسلام من اعظم الاسباب في وصول نفع كل من
المسلمين الى صاحبه في حياته وبعد مماته ودعوة المسلمين تحيط من ورائهم .
يوضحه ان الله تعالى جعل الايمان سبباً لا تتفاد صاحبه بدعاء اخوانه من المؤمنين
وسعيهم فاذا اتى به فقد سعى في السبب الذي يوصل اليه ذلك . (الثاني) وهو
أقوى منه ان القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره وانما نفي ملكه لغير
سعيه وبين الامرين من الفرق ما لا يخفى فالخبر تعالى انه لا يملك الا سعيه
واما سعي غيره فهو ملك لسعيه فان شاء ان يبذله لغيره وان شاء ان يبقيه
لنفسه . وقوله سبحانه ﴿ ان لا تزر وازرة وزر اخرى - وان ليس للانسان
الا ما سعى ﴾ آيتان محكمتان تقتضيان عدل الرب تعالى فالاولى يقتضي انه
لا يعاقب احداً بجرم غيره ولا يواخذة بجريرة غيره كما يفعله ملوك الدنيا والثانية
يقتضي انه لا يفلح الا بعمله ليقطع طمعه من نجاته بعمل آباءه وسلفه ومشائخه
كما عليه اصحاب الطمع الكاذب وهو سبحانه لم يقل لا ينتفع الا بما سعى

وكذلك قوله تعالى ﴿ لها ما كسبت ﴾ وقوله ﴿ ولا تجزون الا ما كنتم تعملون ﴾
على ان سياق هذه الآية يدل على ان المنى عقوبة العبد بعمل غيره فانه تعالى
قال ﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون الا ما كنتم تعملون ﴾ واما
استدلالهم بقوله ﷺ « اذامات ابن آدم انقطع عمله » فاستدلال ساقط فانه
لم يقل انقطع انتفاعه وانما اخبر بانقطاع عمله . واما عمل غيره فهو لعامله فان
وهبه له وصل اليه ثواب عمل العامل لا ثواب عمله هو وهذا كالدين يوفيه
الانسان عن غيره فتهرأذمته لكن ليس له ما وافي به الدين واما تفريق من فرق
بين العبادات المالية والبدنية . فقد شرع النبي ﷺ الصوم عن الميت كما تقدم
مع ان الصوم لا تجري فيه النيابة . ولكن حديث جابر رضي الله عنه قال
« صليت مع رسول الله ﷺ عيد الاضحى فلما انصرف اتى بكبش فذبحه
فقال : بسم الله والله اكبر اللهم هذا عني وعن من لم يضح من امتي » رواه احمد
وابو داود والترمذي وحديث الكبشين اللذين قال في احدهما « اللهم هذا
عن امتي جميعا » وفي الآخر « اللهم هذا عن محمد وآل محمد » رواه احمد والقربة
في الاضحية ارافة الدم وقد جعلها لغيره . وكذلك عبادة الحج بدنية وليس
ركنا فيه وانما هو وسيلة الاترى ان المسكي يجب عليه الحج اذا قدر على المشي
الى عرفات من غير شرط المال وهذا هو الاظهر اعني ان الحج غير مركب
من مال وبدن بل بدني محض كما قد نص عليه جماعة من اصحاب ابي حنيفة
المتأخرين . وانظر الى فروض الكفايات كيف قام فيها البعض عن الباقيين
ولأن هذا ثواب وليس من باب النيابة كما ان الأجير انخاص ليس له ان
يستنيب عنه وله ان يعطي اجرته لمن شاء واما استيجار قوم يقرأون القرآن

ويهدونه للميت فهذا لم يفعله احد من السلف ولا امر به أحد من أئمة الدين ولا
رخص فيه والاستيجار عن نفس التلاوة غير جائز بلا خلاف وانما اختلفوا
في جواز الاستيجار عن التعليم ونحوه مما فيه منفعة تصل الى الغير والثواب
لا يصل الى الميت الا اذا كان العمل لله وهذا لم يقع عبادة خالصة فلا يكون
ثوابه ما يهدى الى الموتى . ولهذا لم يقل احد انه يكثر من يصوم ويصلي
ويهدى ثواب ذلك الى الميت لكن اذا اعطى لمن يقرأ القرآن ويعلمه ويتعلمه
معمونة لاهل القرآن على ذلك كان هذا من جنس الصدقة عنه فيجوز وفي الاختيار
لو اوصى بان يعطى شيء من ماله لمن يقرأ القرآن على قبره فالوصية باطلة لانه في
معنى الاجرة انتهى . وذكر الزاهدي في الغنية انه لو وقف على من يقرأ عند
قبره فالتميعين باطل واما قراءة القرآن واهدائه طوعا بغير اجرة فهذا يصل
اليه كما يصل ثواب الصوم والحج فان قيل هذا لم يكن معروفا في السلف ولا
أرشد النبي ﷺ اليه فالجواب ان كان مورد هذا السؤال معترفا بوصول ثواب
الحج والصيام والدعاء قيل له : ما الفرق بين ذلك وبين وصول ثواب قراءة
القرآن وليس كون السلف لم يفعلوه حجة في عدم الوصول ومن اين لنا هذا
النبي العام . فان قيل فرسول الله ﷺ ارشدهم الى الصوم والحج والصدقة
دون القراءة قيل هو ﷺ لم يبتدئهم بذلك بل خرج ذلك منه مخرج الجواب
لهم فهذا سأله عن الحج عن ميتة فاذن له فيه وهذا سأله عن الصوم عنه فاذن
له فيه ولم يمنعه مما سوى ذلك وأي فرق بين وصول ثواب الصوم الذي هو
مجرد نية وامسك وبين وصول ثواب القراءة والذي ذكر . فان قيل ما تقولون
في الاهداء الى رسول الله ﷺ قيل من المتأخرين من استعبه ومنهم من رآه

بدعة لان الصحابة لم يكونوا يفعلونه ولان النبي ﷺ له مثل اجر كل من عمل
خيرا من امته من غير ان ينقص من اجر العامل شيء لانه هو الذي دل امته
على كل خير وارشدهم اليه ومن قال ان الميت ينتفع بقراءة القرآن عنده باعتبار
سماعه كلام الله فهذا لم يصح عن احد من الائمة المشهورين ولا شك في سماعه
ولكن انتفاعه بالسماع لا يصح فان ثواب الاستماع مشروط بالحياة فانه عمل
اختياري وقد انقطع بموته بل ربما يتضرر ويتألم لكونه لم يمتثل او امر الله
ونواهيه او لكونه لم يزد من الخير واختلف العلماء في قراءة القرآن عند
القبور على ثلاثة اقوال : هل تكبره أم لا بأس بها وقت الدفن ؟ وتكره
بعده فن قال بكراتها كابي حنيفة ومالك واحمد وفي رواية قالوا لانه محدث
لم ترد به السنة والقراءة تشبه الصلاة والصلاة عند القبور منهي عنها فكذلك
القراءة ومن قال لا بأس بها كمحمد بن الحسن واحمد في رواية استدلوا بما
نقل عن ابن عمر رضي الله عنه انه اوصى ان يقرأ على قبره وقت الدفن
بفواتح سورة البقرة وخواتمها . ونقل ايضا عن بعض المهاجرين قراءة سورة
البقرة ومن قال لا بأس بها وقت الدفن فقط وهو رواية عن احمد اخذ بما
نقل عن ابن عمر وبعض المهاجرين واما بعد ذلك كالذين يتناوبون القبر
 للقراءة عنده فهذا مكروه فانه لم تأت به السنة ولم ينقل عن احد من السلف
مثل ذلك اصلا وهذا القول لعنه اقوى من غيره لما فيه من التوفيق بين
الدليلين ﴿ والله تعالى يستجيب الدعوات ويقضي الحاجات ﴾ قال تعالى ﴿ وقال
ربكم ادعوني استجب لكم - واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة
الداعي اذا دعان ﴾ والذي عليه اكثر الخلق من المسلمين وسائر اهل الملل

وغيره ان الدعاء من اقوى الاسباب في جلب المنافع و دفع المضار وقد اخبر
تعالى عن الكفار انهم اذا مسهم الضر في البحر دعوا الله مخلصين له الدين وان
الانسان اذا مسه الضر دعاه لجنبه او قاعدا او قائما واجابة الله لدعاء العبد مسلما
كان او كافرا واعطاؤه سؤاله من جنس رزقه لهم ونصره لهم وهو مما توجيه
الربوبية للعبد مطلقا ثم قد يكون ذلك فتنة في حقه ومضرة عليه اذ كان
كفراه وفسوقه يقتضي ذلك وفي سنن ابن ماجه من حديث ابي هريرة قال قال
رسول الله ﷺ « من لم يسأل الله بفضب عليه » وقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال :
الرب يغضب ان تركت سؤاله * وبني آدم حين يسأل يغضب
قال ابن عقيل قد ندب الله تعالى الى الدعاء وفي ذلك معان (احدها)

الوجود فان من ليس بوجود لا يدعى (الثاني) الغني فان الفقير لا يدعى
(الثالث) السميع فان الاصم لا يدعى (الرابع) الكرم فان البخيل لا يدعى
(الخامس) الرحمة فان القاسي لا يدعى (السادس) القدرة فان العاجز لا يدعى
ومن يقول بالطبائع يعلم ان النار لا يقال لها كفي ولا النجم يقال له اصلح
مزاجي لان هذه عندم مؤثرة طبعا لا اختيارا فشرع الدعاء وصلاة الاستسقاء
ليبين كذب اهل الصنائع وذهب قوم من المتفلسفة وغالية المتصوفة ان
الدعاء لا فائدة فيه قالوا لان المشيئة الالهية ان اقتضت وجود المطلوب فلا
حاجة الى الدعاء وان لم تقتضيه فلا فائدة في الدعاء . وقد يخص بعضهم بذلك
خواص العارفين ويجعل الدعاء عليه في مقام الخواص وهذا من غلطات بعض
الشيوخ فكما انه معلوم الفساد بالاضطرار من دين الاسلام فهو معلوم الفساد
بالضرورة العقلية فان منفعة الدعاء امر أنشئت عليه تجارب الامم حتى ان

الفلاسفة تقول صحيح الاصوات في هياكل العبادات بفنون اللغات تحلل
ماعدته الافلاك المؤثرات هذا وعم مشركون . وجواب الشبهة يمنع المقدمتين
فان قولهم عن المشيئة الالهية اما ان تقتضيه اولا ثم قسم ثالث وهو ان
تقتضيه بشرط لا يقتضيه مع عدمه وقد يكون الدعاء من شرطه كما توجب
الثواب مع العمل الصالح ولا توجبه مع عدمه وكما توجب الشيع والري عند
الاكل والشرب ولا توجبه مع عدمها وحصول الولد بالوظء والزرع بالبذر
فاذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح ان يقال لافائدة في الدعاء كما لا يقال
لافايدة في الاكل والشرب والبذر وسائر الاسباب فقول هؤلاء كما انه مخالف
للشرع فهو مخالف للحس والفترة . ومما ينبغي ان يعلم ما قاله طائفة من
العلماء وهو ان الالتفات الى الاسباب شرك في التوحيد ومحو الاسباب ان
تكون اسبابا نقص في العقل . والاعراض عن الاسباب بالكلية قدح في الشرع
ومعنى التوكل والرجاء يتألف من وجوب التوحيد والعقل والشرع وبيان
ذلك ان الالتفات الى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والاستناد اليه
وليس في الخلوقات ما يستحق هذا لانه ليس بمستقل ولا بد له من شركاء
واضداد مع هذا كله فان لم يسخره مسبب الاسباب لم يسخر وقولهم ان
اقتضت المشيئة المطلوب فلا حاجة الى الدعاء قلنا بل قد يكون اليه حاجة
من تحصيل مصلحة اخرى عاجلة وآجلة ودفع مضرة اخرى عاجلة وآجلة .
وكذلك قولهم وان تقتضيه فلا فائدة فيه قلنا بل فيه فوائد عظيمة من جلب
منافع ودفع مضار كما نبه عليه النبي ﷺ بل ما يعجل للعبد من معرفته بربه
واقرار به وبانه سميع قريب قدير عليم رحيم واقرار به بفقره اليه واضطراره

اليه وما يتبع ذلك من العلوم العلية والاحوال الزكية التي هي من اعظم المطالب
فان قيل اذا كان اعطاء الله معملا بفعل العبد كما يعقل من اعطاء المال للسائل كان
السائل قد اثر في المسؤل حتى اعطاه قلنا الرب سبحانه هو الذي حرك العبد على دعائه
فهذا الخير منه وتماه عليه كما قال عمر رضي الله عنه اني لا احمل هم الاجابة وانما
احمل هم الدعاء ولكن اذا اهتمت الدعاء فان الاجابة معه وعلى هذا قوله تعالى
﴿ يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يهرج اليه في يوم كان مقداره الف سنة
مما تعدون ﴾ . فاخبر سبحانه انه يبتدى بتدبير ثم يصعد اليه الامر الذي دبره
فالله سبحانه هو الذي يقذف في قلب العبد حركة الدعاء ويجعلها سبباً للخير
الذي يعطيه اياه كما في العمل والثواب فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها وهو
الذي وفقه للعمل ثم اثابه وهو الذي وفقه للدعاء ثم اجابه فامر فيه بشيء
من المخلوقات بل هو جعل ما يفعله سبباً لما يفعله . قال مطرف بن عبد الله بن
الشخير احد ائمة التابعين : نظرت في هذا الامر فوجدت مبدأه من الله
وتماه على الله ووجدت ملائكة ذلك الدعاء . وهنا سؤال معروف وهو ان
من الناس من قد يسأل الله فلا يعطى او يعطى غير ما سأل وقد اجيب عنه
بأجوبة فيها ثلاثة أجوبة محققة (احدها) ان الآية لم تتضمن عطية السؤال
مطلقاً وانما تضمنت اجابة الداعي والداعي اعم من السائل واجابة الداعي اعم
من اعطاء السائل . ولهذا قال النبي ﷺ « ينزل ربنا في كل ليلة الى السماء الدنيا
فيقول : من يدعوني فاستجيب له ، من يسألني فاعطيه ، من يستغفرني فاغفر
له » ففرق بين الداعي والسائل وبين الاجابة والاعطاء وهو فرق بالعموم
والخصوص كما اتبع ذلك بالمستغفر وهو نوع من السائل فذكر العام ثم الخاص

ثم الاخص . واذا علم العباد انه قريب ، مجيب دعوة الداعي علموا قربه منهم
وتمكنهم من سؤاله علموا علمه ورحمته وقدرته فدعوه دعاء العبادة في حال ودعاء
المسئلة في حال وجمعوا بينهما في حال اذ الدعاء اسم يجمع العبادة والاستعانة
وقد فسر قوله ﴿ وقال ربكم ادعوني استجب لكم ﴾ بالدعاء الذي هو العبادة
والدعاء الذي هو الطلب . وقوله بعد ذلك ﴿ ان الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾
يؤيد المعنى الاول . (الجواب الثاني) ان اجابة دعاء السؤال اعم من اعطاء
المسئول كما فسره النبي ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه ان النبي ﷺ قال « ما من
رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا اعطاه بها احدي
ثلاث خصال اما ان يعجل له دعوته او يدخر له من الخير مثلها او يصرف عنه
من الشر مثلها » قالوا يا رسول الله : اذا نكثرت قال « الله اكثر » فقد اخبر
الصادق المصدوق انه لا بد في الدعوة الخالية عن العدوان من اعطاء السؤال
معجلا او مثله من الخير مؤجلا او يصرف عنه من السوء مثله . (الجواب
الثالث) ان الدعاء سبب مقتض لنيل المطلوب والسبب له شروط وموانع
فاذا حصلت شروطه وانتفت موانعه حصل المطلوب والا فلا يحصل ذلك
المطلوب بل قد يحصل غيره وهكذا سائر الكلمات الطيبات من الاذكار
المأثورة المعلق عليها جلب منافع او دفع مضار فان الكلمات بمنزلة الآلة في
يد الفاعل تختلف باختلاف قوته وما يعينها وقد يعارضها مانع من الموانع
ونصوص الوعد والوعيد المتعارضة في الظاهر من هذا الباب وكثيراً ما تجرد
أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه
واقباله على الله او حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه اجابة دعوته شكر

الحسنة او صادف وقت اجابة ونحو ذلك فاجيبت دعوته فيظن ان السر في ذلك الدعاء فيأخذ مجرداً عن تلك الامور التي قارنته من ذلك الداعي وهذا كما اذا استعمل رجل دواء نافعاً في الوقت الذي ينبغي فانتفع به فظن آخر ان استعمال هذا الدواء بمجرد كافي في حصول المطلوب وكان غلطاً وكذا قديمو باضطراب عند قبر فيجاب فيظن ان السر للقبر ولم يدرك السر للاضطراب وصدق الجأ الى الله تعالى فاذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله تعالى كان افضل واحب الى الله تعالى فالادعية والتميزات والرتبي بمنزلة السلاح والسلاح بضاربه لا يجده فقط فتي كان السلاح سلاحاً تاماً والساعد ساعداً قويا والمحل قابلاً والمانع مفقوداً حصلت به النكاية في العدو ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير فاذا كان الدعاء في نفسه غير صالح أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء او كان ثم مانع من الاجابة لم يحصل الاثر قوله ﴿ ويملك كل شيء ولا يملكه شيء ولا غنى عن الله تعالى طرفه عين ومن استغنى عن الله طرفه عين فقد كفر وصار من اهل الحين ﴾ ش . كلام حق ظاهر لا خفاء فيه والحين بالفتح الهلاك قوله ﴿ والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى ﴾ ش قال تعالى ﴿ رضي الله عنهم - لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ وقال تعالى ﴿ من لعنه الله وغضب عليه - وغضب الله ولعنه - وباؤا بغضب من الله ﴾ ونظائر ذلك كثيرة ومذهب السلف وسائر الأئمة اثبات صفة الغضب والرضا والعداوة والولاية والحب والبغض ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة ومنع التأويل الذي يصر فيها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام وسائر الصفات كما اشار اليه

الشيخ فيما تقدم بقوله اذا كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف الى الربوبية ترك التأويل ولزوم التسليم وعليه دين المرسلين . وانظر الى جواب الامام مالك رضي الله عنه في صفة كيف الاستواء معلوم والكيف مجهول . وروي ايضا عن ام سلمة رضي الله عنها موقوفا عليها ومرفوعا الى النبي ﷺ . وكذلك قال الشيخ رحمه الله فيما تقدم من لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه وباتي في كلامه ان الاسلام بين الغلو والتقصير وبين التشبيه والتعطيل فقول الشيخ رحمه الله لا كأحد من الورى نفي التشبيه ولا يقال ان الرضا ارادة الاحسان والغضب ارادة الانتقام فان هذا نفي للصفة . وقد اتفق اهل السنة على ان الله يأمر بما يحبه ويرضاه وان كان لا يريد ولا يشاء وينهى عما يسخطه ويكرهه ويبغضه ويفض على فاعله وان كان قد شاء و اراده فقد يجب عندهم ويرضى ما لا يريد ويكره ويسخط ويفض لما اراده ويقال لمن تأول الغضب والرضا بارادة الاحسان لم تأولت ذلك فلا بد ان يقول لان الغضب غليان دم القلب والرضا الميل والشهوة وذلك لا يليق بالله تعالى فيقال له غليان دم القلب في الآدمي امر ينشأ عن صفة الغضب . ويقال له ايضا . وكذلك الارادة والمشيئة فينا هي ميل الحي الى الشيء أو الى ما يلائمه ويناسبه فان الحي منا لا يريد الا ما يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة وهو محتاج الى ما يريد ومفتقر اليه يزداد بوجوده وينقص بعدمه فالعنى الذي صرفت اليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه سواء فان جاز هذا جاز ذاك وان امتنع هذا امتنع ذاك فان قالوا التي يوصف الله بها مخالفة للارادة التي يوصف بها العبد وان كان كل منهما حقيقة قيل له فقل ان الغضب والرضا الذي يوصف الله به مخالف

لما يوصف به العبد وان كان كل منهما حقيقة فاذا كان ما يقوله في الارادة يمكن
ان يقال في هذه الصفات لم يتعين التأويل بل يجب تركه لانك تسلم من التناقض
وتسلم ايضا من تعطيل معنى اسماء الله تعالى وصفاته بلا موجب فان صرف القرآن
عن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرام ولا يكون الموجب للصرف ما دل عليه
عقله اذ العقول مختلفة فكل يقول ان عقله دله على خلاف ما يقوله الآخر
وهذا الكلام يقال لكل من نفي صفة من صفات الله تعالى لامتناع مسمى ذلك
في المخلوق فانه لا بد ان يثبت شيئاً لله تعالى على خلاف ما يعهده حتى في صفة
الوجود فان وجود العبد كما يليق به ووجود الباري تعالى كما يليق به فوجوده تعالى
يستحيل عليه العدم ووجود المخلوق لا يستحيل عليه العدم وما سمي به الرب نفسه
وسمي به مخلوقاته مثل الحي والعليم والتقدير اوسمى به بعض صفاته كالغضب والرضا
وسمي به بعض صفات عبادته فنحن نعقل بقاوبنا معاني هذه الاسماء في حق الله تعالى
وانه حق ثابت موجود ونعقل ان بين المعنيين قدراً مشتركاً لكن هذا المعنى لا
يوجد في الخارج مشتركاً اذ المعنى المشترك الكلي لا يوجد مشتركاً كالاني الاذهان
ولا يوجد في الخارج الامعينا مختصاً فيثبت في كل منها كما يليق به بل لو قيل
غضب مالك خازن النار وغضب غيره من الملائكة لم يجب ان يكون مماثلاً
لكيفية غضب الآدميين لان الملائكة ليسوا من الاخلاط الاربعة حتى تغلي
دما قلوبهم كما يغلي دم قلب الانسان عند غضبه فغضب الله اولى وقد نفي الجهم
ومن وافقه كل ما وصف الله به نفسه من كلامه ورضاه وغضبه وحبه وبغضه
وأسفه ونحو ذلك وقالوا انما هي امور مخلوقة منفصلة عنه ليس هو في نفسه
متصفاً بشيء من ذلك وعارض هو لاء من الصفاتية ابن كلاب ومن وافقه فقالوا

لا يوصف الله بشيء يتعلق بمشيتته وقدرته اصلاً جميع هذه الامور صفات لازمة
لذاته قديمة ازلية فلا يرضى في وقت دون وقت ولا يغضب في وقت دون وقت.
كما قال في حديث الشفاعة « ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن
يغضب بعده مثله » وفي الصحيحين عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي
ﷺ « ان الله تعالى يقول لاهل الجنة : يا اهل الجنة فيقولون : لبيك وسعديك
والخير في يديك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا نرضي يا رب وقد اعطينا
ما لم تعط احداً من خلقك فيقول : الا اعطيكم افضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب
وأى شيء افضل من ذلك فيقول : احل عليكم رضواني فلا يسخط عليكم بعده
ابداً » فيستدل به على انه يحل رضوانه في وقت دون وقت وانه قد يحل رضوانه
ثم يسخط كما يحل السخط ثم يرضى لكن هؤلاء احل عليهم رضوانا لا يتعقبه
سخط وهم قالوا لا يتكلم اذا شاء ولا يضحك اذا شاء ولا يغضب اذا شاء ولا
يرضى اذا شاء بل اما ان يعملوا الرضى والغضب والحب والبغض هو الارادة
او يعملوها صفات اخرى وعلى التقديرين فلا يتعلق شيء من ذلك لا بمشيتته
ولا بقدرته اذ لو تعلقت بذلك لكان محلاً للحوادث ففنى هؤلاء الصفات
العقلية الذاتية بهذا الاصل كما نفي اولئك الصفات مطلقاً بقولهم ليس محلاً
للاعراض وقد يقال بل هي افعال ولا تسمى حوادث كما سميت تلك صفات
ولم تسم اعراضاً وقد تقدمت الاشارة الى هذا المعنى ولكن الشيخ رحمه
الله لم يجمع الكلام في الصفات في المختصر في مكان واحد وكذلك الكلام في
القدر ونحو ذلك ولم يمتن فيه بترتيب . واحسن ما يرتب عليه كتاب اصول
الدين ترتيب جواب النبي ﷺ لجبرائيل عليه السلام حين سأل عن الايمان

فقال « ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره
وشره » الحديث فيبدأ بالكلام على التوحيد والصفات وما يتعلق بذلك ثم
بالكلام على الملائكة ثم وثم الى آخره . وقوله ﴿ ونحب اصحاب رسول الله ﷺ
ولا نفرط في حب احد منهم ولا نتبرأ من احد منهم ونبغض من يبغضهم وبغير
الخير يذكروهم ولا نذكروهم الا بخير وجهم دين وايمان واحسان وبغضهم كفر
ونفاق وطغيان ﴾ يشير الشيخ رحمه الله الى الرد على الرافض والنواصب
وقد اثني الله على الصحابة هو ورسوله ورضي عنهم ووعدهم الحسن كما قال تعالى
﴿ والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضي
الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الانهار خالدين فيها ابداً ذلك
الفوز العظيم ﴾ وقال تعالى ﴿ محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء
بينهم تراهم ركعاً سجداً ﴾ الى آخر السورة وقال تعالى ﴿ لقد رضي الله عن
المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ وقال تعالى ﴿ ان الذين آمنوا وهاجروا
وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا اولئك بعضهم
اولياء بعض ﴾ الى آخر السورة وقال تعالى ﴿ لا يستوي منكم من انفق من
قبل الفتح وقاتل اولئك اعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا وكلا
وعداً الله الحسنى والله بما تعملون خبير - للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من
ديارهم واموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله
اولئك هم الصادقون - والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من
هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم
ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون - والذين

جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا
تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم ﴿ وهذه الآيات
تتضمن الثناء على المهاجرين والانصار وعلى الذين جاؤا من بعدهم يستغفرون
لهم ويسألون الله ان لا يجعل في قلوبهم غلا لهم وتتضمن ان هؤلاء
هم المستحقون للنبي فمن كان في قلبه غل للذين آمنوا ولم يستغفر لهم لا
يستحق في النبي نصيباً بنص القرآن . وفي الصحيحين عن ابي سعيد الخدري
رضي الله عنه قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبدالرحمن بن عوف فسيبه خالد
فقال رسول الله ﷺ « لا تسبوا احداً من اصحابي فلو ان احدكم انفق مثل
احد ذهباً ما ادرك مد احدهم ولا نصيفه » انفرد مسلم بذكر سب خالد لعبد
الرحمن دون البخارى . فان النبي ﷺ يقول لخالد ونحوه « لا تسبوا اصحابي » يعني
عبدالرحمن وامثاله لان عبدالرحمن ونحوه هم السابقون الاولون وهم الذين اسماوا
من قبل الفتح وقاتلوا وهم اهل بيعة الرضوان فهم افضل واخص بصحبته ممن
اسلم بعد بيعة الرضوان وهم الذين اسماوا بعد الحديبية وبعد مصالحة النبي ﷺ
اهل مكة ومنهم خالد بن الوليد وهؤلاء اسبق ممن تأخر اسلامهم الى فتح
مكة وسموا الطلقاء منهم ابو سفيان وابناه يزيد ومعاوية . والمقصود انه نهى
من له صحبة اخرى ان يسب من له صحبة اولى لامتيازهم عنهم من الصحبة
بما لا يمكن ان يشركوهم فيه حتى لو انفق احدهم مثل احد ذهباً ما بلغ
مد احدهم ولا نصيفه فاذا كان هذا حال الذين اسماوا بعد الحديبية وان كان
قبل فتح مكة فكيف حال من ليس من الصحابة بحال مع الصحابة رضي الله
عنهم اجمعين والسابقون الاولون من المهاجرين والانصارهم الذين انفقوا من

قبل الفتح وقاتلوا واهل بيعة الرضوان كلهم منهم وكانوا اكثر من الف واربعائة
وقيل ان السابقين الأولين من صلى الى القبلتين وهذا ضعيف فان الصلاة
الى القبلة المنسوخة ليس بمجرد فضيلة لأن النسخ ليس من فعلهم ولم يدل
على التفضيل به دليل شرعي كما دل على التفضيل بالسبق الى الانفاق والجهاد
والمبايعة التي كانت تحت الشجرة. واما ما يروى عن النبي ﷺ انه قال « اصحابي
كالنجوم بايهم اقتديتم اهتديتم » فهو حديث ضعيف قال البزار هذا حديث
لا يصح عن رسول الله ﷺ وليس هو في كتب الحديث المعتمدة. وفي صحيح
مسلم عن جابر قال قيل لعائشة رضي الله عنها « ان ناسا يتناولون اصحاب
رسول الله ﷺ حتى ابا بكر وعمر فقالت وما تعجبون من هذا انقطع عنهم
العمل فاحب الله ان لا يقطع عنهم الأجر وروى ابن بطة باسناد صحيح عن
ابن عباس انه قال « لا تسبوا اصحاب محمد ﷺ فامقام احدهم ساعة يعني مع
النبي ﷺ خير من عمل احدكم اربعين سنة » وفي رواية وكيع خير من عبادة
احدكم عمره » وفي الصحيحين من حديث عمران بن حصين وغيره ان رسول الله
ﷺ قال « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران فلا ادري اذ كر
بعد قرنه قرنين او ثلاثة » الحديث وقد ثبت في صحيح مسلم عن جابر ان النبي
ﷺ قال « لا يدخل النار احد بايع تحت الشجرة » وقال تعالى ﴿ لقد تاب
الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ الآيات.
ولقد صدق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في وصفهم حيث قال ان الله
نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعته
برسالته ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب اصحابه خير قلوب

العباد بجمعهم ووزراء نبيه يقاثلون على دينه فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رآوه سيئا فهو عند الله سيء» وفي رواية وقد رأى اصحاب محمد جميعا ان يستخلفوا ابا بكر وتقدم قول ابن مسعود من كان مستنقفا ليستن بمن قد مات الخ عند قول الشيخ وتتبع السنة والجماعة . فمن اضل ممن يكون في قلبه على خيار المؤمنين وسادات اولياء الله تعالى بعد النبيين بل قد فضلهم اليهود والنصارى بخصلة قيل لليهود من خير اهل ملتكم قالوا اصحاب موسى وقيل للنصارى من خير اهل ملتكم قالوا اصحاب عيسى وقيل للرافضة من شر اهل ملتكم قالوا اصحاب محمد لم يستنوا منهم الا القليل وفيمن سبواهم من هو خير ممن استنواهم باضعاف مضاعفة وقوله ولا نفرط في حب احد منهم اي لا تتجاوز الحد في حب احد منهم كما تفعل الشيعة فيكون من المعتدين قال تعالى ﴿ يا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ﴾ وقوله ولا تتبرأ منهم كما فعلت الرافضة فمعتداهم لا ولاء الا ليراء اي لا يتولى اهل البيت حتى يتبرأ من ابي بكر وعمر رضي الله عنهم واهل السنة يوالونهم كلهم وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها بالعدل والانصاف لا بالهوى والتعصب فان ذلك كله من البغي الذي هو مجاوزة الحد كما قال تعالى ﴿ وما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ وهذا معنى قول من قال من السلف الشهادة بدعة والبراءة بدعة يروى ذلك عن جماعة من السلف من الصحابة والتابعين منهم ابو سعيد الخدري والحسن البصري وابراهيم النخعي والضحاك وغيرهم ومعنى الشهادة ان يشهد على معين من المسلمين انه من اهل النار وانه كافر بدون العلم بما ختم الله له به . وقوله وجههم دين وايمان واحسان لانه امتثال لامر الله فيما تقدم من النصوص وروى الترمذي عن عبد الله بن مغفل

قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « الله الله في اصحابي لا يتخذونهم غرضا فمن احبهم فبجبي احبهم ومن ابغضهم فببغضي ابغضهم ومن اذاع فقد اذاني ومن اذاني فقد اذى الله تعالى ومن اذى الله فيوشك ان ياخذه » وتسمية حب الصحابة ايمانا مشكل على الشيخ رحمه الله لان الحب عمل القلب وليس هو التصديق فيكون العمل داخلا في مسمى الايمان . وقد تقدم في كلامه ان الايمان هو الاقرار باللسان والتصديق بالجنان ولم يجعل العمل داخلا في مسمى الايمان وهذا هو المعروف من مذهب اهل السنة الا ان تكون هذه التسمية مجازا وقوله وبغضهم كفر ونفاق وطغيان تقدم الكلام في تكفير اهل البدع وهذا الكفر نظير الكفر المذكور في قوله ﴿ ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ وقد تقدم الكلام في ذلك قوله ﴿ وثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ اولا لابي بكر الصديق رضي الله عنه وتفضيلا له وتقديما

على جميع الامة ﴾ اختلف اهل السنة في خلافة الصديق رضي الله عنه هل كانت بالنص او بالاختيار فذهب الحسن البصري وجماعة من اهل الحديث الى انها ثبتت بالنص الخفي والاشارة ومنهم من قال بالنص الجلي وذهب جماعة من اهل الحديث والمعتزلة والاشعرية الى انها ثبتت بالاختيار والدليل على اثباتها بالنص اخبار من ذلك ما اسنده البخاري عن جبير بن مطعم قال اتت امرأة النبي ﷺ فامرها ان ترجع اليه قالت ارأيت ان جئت فلم اجدك كأنها تريد الموت قال ان لم تجديني فأت ابا بكر وذكر له سياق آخر واحاديث اخر وذلك نص على امامته وحديث حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله ﷺ « اقتدوا باللذين من بعدي ابي بكر وعمر » رواه اهل السنن . وفي الصحيحين

عن عائشة رضي الله عنها وعن ابيها قالت دخل علي رسول الله ﷺ في اليوم الذي بدى فيه فقال ادعي لي اباك واخاك حتى اكتب لابي بكر كتابا ثم قال يا ابي الله والمسلمون الا بابا بكر « وفي رواية « فلا يطعم في هذا الامر طامع » وفي رواية قال « ادعي لي عبد الرحمن بن ابي بكر لا كتب لابي بكر كتابا لا يختلف عليه ثم قال معاذ الله ان يختلف المؤمنون في ابي بكر » واحاديث تقدمه في الصلاة مشهورة معروفة وهو يقول « مروا بابا بكر فليصل بالناس » وقد روجع في ذلك مرة بعد مرة فصلى بهم مدة مرض النبي ﷺ . وفي الصحيحين عن ابي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « بينا انا نائم رأيتني على قلب عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله ثم أخذها ابن ابي قحافة فنزع منها ذنوبيا او ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له ثم استعالت غربا فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقريا من الناس يفري فريه حتى ضرب الناس بمطن » وفي الصحيح انه ﷺ قال على منبره « لو كنت متخذاً من اهل الارض خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا لا يبقين في المسجد خوخة الاسد الا خوخة ابي بكر » وفي سنن ابي داود وغيره من حديث الاشعث عن الحسن عن ابي بكرة ان النبي ﷺ قال ذات يوم « من رأى منكم رؤيا فقال رجل انا رأيت ميزانا انزل من السماء فوزنت انت و ابو بكر فرجعت انت بابي بكر ثم وزن عمر و ابو بكر فرجع ابو بكر ووزن عمر و عثمان فرجع عمر ثم رفع فرايت الكراهة في وجه النبي ﷺ فقال خلافة ثم يؤتي الله الملك من يشاء » فيبين رسول الله ﷺ ان ولاية هؤلاء خلافة نبوة ثم بعد ذلك ملك وليس فيه ذكر علي رضي الله عنه لانه لم يجتمع الناس في زمانه بل كانوا

مختلفين لم ينتظم فيه خلافة النبوة ولا الملك . وروى ابو داود ايضا عن جابر رضي الله عنه انه كان يحدث ان رسول الله ﷺ قال « راي الليلة رجل صالح ان ابا بكر نيط برسول الله ﷺ ونيط عمر بابي بكر ونيط عثمان بعمر قال جابر فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا اما الرجل الصالح فرسول الله ﷺ واما المنوط بعضهم ببعض فهم ولاه هذا الامر الذي بعث الله به نبيه » وروى ابو داود ايضا عن سمرة بن جندب ان رجلا قال يا رسول الله رأيت كأن دلوا دلي من السماء فجاء ابو بكر فأخذ بعراقيها فشرب شرابا ضعيفا ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع ثم جاء علي فأخذ بعراقيها فانتشطت منه فانتضج عليه منها شيء » وعن سعيد بن جهمان عن سفينة قال قال رسول الله ﷺ « خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله ملكه من يشاء » او الملك واحتج من قال لم يستخاف بالخبر المأثور، عن عبد الله بن عمر عن عمر رضي الله عنهما انه قال ان استخلف فقد استخلف من هو خير مني يعني ابا بكر وان لا استخلف فلم يستخلف من هو خير يعني رسول الله ﷺ مستخلفا لو استخلف والظاهر والله اعلم ان المراد انه لم يستخلف بعهد مكتوب ولو كتب عهدا لكتبه لابي بكر بل قد اراد كتابته ثم تركه وقال : يا بني الله والمسلمون الا ابا بكر فكان هذا ابلغ من مجرد العهد . فان النبي ﷺ دل المسلمين على استخلاف ابي بكر وأرشدهم اليه بامور متعددة من اقواله وافعاله واخبر بخلافته اخبار راض بذلك، حامد له وعزم على ان يكتب بذلك عهدا ثم علم ان المسلمين يجتمعون عليه فترك الكتاب اكتفاء بذلك ثم عزم على ذلك في مرضه يوم الخميس ثم لما حصل لبعضهم شك هل ذلك القول من جهة المرض او هو قول

يجب اتباعه ترك الكتابة اكتفاء بما علم ان الله يختاره والمؤمنون من خلافة
 ابي بكر فلو كان التعيين مما يشتهبه على الامة لبيته بياناً قاطعاً للعذر لكن
 لما دهم دلالات متعددة على ان ابا بكر المتعين وفهموا ذلك حصل المقصود
 ولهذا قال عمر رضي الله عنه في خطبته التي خطبها بمحضر من المهاجرين والانصار
 انت خيرنا واحبنا الى رسول الله ﷺ ولم ينكر ذلك منهم احد ولا قال احد
 من الصحابة ان غير ابي بكر من المهاجرين امير . وهذا مما ثبت بالنصوص
 المتواترة عن النبي ﷺ بطلانه ثم الانصار كلهم بايعوا ابا بكر الاسعد بن عباد
 لكونه هو الذي كان يطلب الولاية ولم يقل احد من الصحابة قط ان النبي ﷺ
 نص على غير ابي بكر لاعلي ولا العباس ولا غيرهما كما قد قال اهل البدع وروى ابن
 بطلة باسناده ان عمر بن عبدالعزيز بعث محمد بن الزبير الخنظلي الى الحسن فقال :
 هل كان النبي ﷺ استخلف ابا بكر ؟ فقال : اوفى شك صاحبك نعم والله الذي
 لا اله الا هو استخلفه هو كان اتقى لله من ان يتوق عليها . وفي الجملة جُميع
 من نقل عنه انه طلب تولية غير ابي بكر لم يذكر حجة دينية شرعية ولا ذكر
 ان غير ابي بكر افضل منه او احق بها وانما نشأ من حب قبيلته وقومه فقط
 وهم كانوا يعلمون فضل ابي بكر رضي الله عنه وحب رسول الله ﷺ له . ففي
 الصحيحين عن عمرو بن العاص ان رسول الله ﷺ بعثه على جيش ذات
 السلاسل فاتبعته فقلت : أي النساء احب اليك قال « عائشة » قلت من الرجال
 قال « ابوها » قلت ثم من قال « عمر » وعدرجالا . وفيها ايضاً عن ابي الدرداء
 قال : كنت جالساً عند النبي ﷺ اذ قبل ابو بكر آخذ بطرف ثوبه حتى ابدى
 عن ركبتيه فقال النبي ﷺ « اما صاحبكم فقد غامر فسلم » وقال : انه كان

بينى وبين ابن الخطاب شىء فأسرعت اليه ثم ندمت فسألته ان يغفر لي قال
« غفر الله لك يا ابا بكر » ثلاثاً ثم ان عمر ندم فاتي منزل ابي بكر فسأل اثم هو
قالوا لا فاتي الى النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ « ان الله بعثني اليكم فقلتم
كذبت قال ابو بكر صدقت وواساني بنفسه وماله فهل انتم تاركوالي صاحبي »
مرتين فما وذي بعدها ومعنى غامر غاضب وخاصم ويضيق هذا المختصر عن
ذكر فضائله . وفي الصحيحين ايضاً عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله ﷺ
مات واوبو بكر بالسرخ فذكرت الحديث الى ان قال واجتمع الانصار الى سعد
ابن عباد في سقيفة بني ساعدة فقالوا : منا امير ومنكم امير فذهب اليهم ابو
بكر وعمر بن الخطاب وابو عبيدة بن الجراح فذهب عمر يتكلم فلسكته ابو بكر
وكان عمر يقول : والله ما اردت بذلك الا اني هيات في نفسي كلاماً قد اعجبني
خشيت ان لا يبلغه ابو بكر ثم تكلم ابو بكر فتكلم ابلغ الناس فقال في كلامه :
نحن الامراء وانتم الوزراء اعم اوسط العرب واعزهم احساباً فبايعوا عمر اواباعبيدة
ابن الجراح فقال عمر : بل نبايعك فانت سيدنا وخيرنا واحبنا الى رسول الله ﷺ
فاخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس فقال قائل : قتلتم سعداً فقال عمر : قتله الله
والسرخ العالية وهي حديقة بالمدينة معروفة بها . قوله ثم لعمر بن الخطاب
رضي الله عنه * اى وثبتت الخلافة بعد ابي بكر رضي الله عنه وذلك
بتفويض ابي بكر الخلافة اليه واتفاق الامة بعده عليه وفضائله رضي
الله عنه اشهر من ان تنسكروا واكثر من ان تذكر . فقد روي عن محمد بن الحنفية
انه قال قلت لابي يا ابا عبد من خير الناس بعد رسول الله ﷺ فقال : يا بني او ما
تعرف فقلت لا قال ابو بكر قلت ثم من قال عمر وخشيت ان يقول ثم عثمان

فقلت ثم انت فقال ما انا الا رجل من المسلمين . وتقدم قوله عليه السلام « اقتدوا
 بالذين من بعدي ابي بكر وعمر » وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله
 عنهما قال وضع عمر على سريره فتكفنه الناس يدعون ويثنون ويصلون عليه
 قبل ان يرفع وانا فيهم فلم يرهني الا برجل قد اخذ بمنكبي من ورائي فالتفت
 اليه فاذا هو علي فترحم علي عمر وقال ما خلفت احدا الى ان التقي الله
 يمثل عمله منك وايم الله ان كنت كثيرا ما اسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جئت
 انا وابو بكر وعمر ودخلت انا وابو بكر وعمر وخرجت انا وابو بكر وعمر
 فان كنت لارجو واظن ان يجعلك الله معهما . وتقدم حديث ابي هريرة
 رضي الله عنه في رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزعه من القلب ثم نزع ابي بكر ثم
 استعالت الدلو غربا فاخذها ابن الخطاب فلم أر عبقريا من الناس ينزع نزع
 عمر حتى ضرب الناس بعطن . وفي الصحيحين من حديث سعد بن ابي وقاص
 قال استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من قريش
 يكلمنه عالية اصواتهن الحديث وفيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ايه يا ابن الخطاب
 والذي نفسي بيده ما ليك الشيطان سالكا جفا الا سلك جفا غير جفاك . وفي
 الصحيحين ايضا عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يقول قد كان في الامم قبلكم محدثون
 فان يكن في امتي منهم احد فان عمر بن الخطاب منهم قال ابن وهب تفسير محدثون
 ملهمون قوله صلى الله عليه وسلم ثم لعثمان رضي الله عنه صلى الله عليه وسلم اي وثبتت الخلافة بعد عمر لعثمان
 رضي الله عنهما وقد ساق البخاري رحمه الله قصة قتل عمر رضي الله عنه وامر
 الشورى والمبايعة لعثمان في صحيحه فاحييت ان أسردها كما رواه بسنده عن عمرو
 ابن ميمون قال رأيت عمر رضي الله عنه قبل ان يصاب بالمدينة بايام وقف

على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف فقال كيف فعلتما اتخافا ان تكونا قد
حملتما الارض ما لا تطيق قالوا حملناها امرأ هي له مطيقة ما فيها كثير فضل
قال انظرا ان تكونا حملتما الارض ما لا تطيق قالوا لا قال عمر ان سلمني الله
لادعن اراامل اهل العراق لا يحتجن الى رجل بعدي ابدا قال فما انت عليه
اربعة حتى اصيب قال اني لقاؤم ما بيني وبينه الا عبد الله بن عباس غداة
اصيب وكان اذا مر بين الصنفين قال استووا حتى اذا لم ير فيهن خلا تقدم
فسمعته يقول قتلي أو اكلني الكلب حين طعنه فطار العالج بسكين ذات
طرفين لا يمر على احد يمينا وشمالا الا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات
منهم سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما ظن انه
مأخوذ نحر نفسه وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه فاما من كان
بلى عمر فقد يرى الذي ارى واما نواحي المسجد فانهم لا يدرون غير انهم قد
فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن
صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال يا ابن عباس انظر من قتلي لجال ساعة ثم جاء
فقال غلام المغيرة قال الصنع قال نعم قال قاتله الله فلقد امرت به معروف والحمد
لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعى الاسلام قد كنت انت وابوك تحبان
ان تكثر العلوج بالمدينة وكان العباس اكثرهم رقيقا فقال ان شئت فعلت
اي ان شئت قتلنا فقال كذبت بعدما تكلموا بلسانكم وصلوا قبلكم وحجوا
حجكم فاحتمل الى بيته فانطلقنا معه وكان الناس لم تصيبهم مصيبة قبل يومئذ
فقائل يقول لا بأس عليه وقائل يقول اخاف عليه فاتي بنبيذ فشربه فخرج
من جوفه ثم اتي بلبن فشربه فخرج من جوفه فمرفوا انه ميت فدخلنا عليه

وجاء الناس يثنون عليه وجاء رجل شاب فقال ابشر يا امير المؤمنين ببشرى الله لك من
صحبة رسول الله ﷺ وقد علمت في الاسلام ما قد علمت ثم وليت فعدلت ثم شهادة
قال وددت ان ذلك كان كفا فالا علي ولا لي فلما أدبر رأى رداءه يمس الارض قال
ردوا علي الغلام قال يا ابن اخي ارفع ثوبك فانه اتق لثوبك واتق لربك يا عبد الله بن
عمر انظر ما علي من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين الفا ونحوه قال ان وفي له
مال آل عمر والافسار في بني عدي بن كعب فان لم تف امواهم والافسار في
قريش ولا تعدم الي غيرهم فادعني هذا المال انطلق الي عائشة أم المؤمنين فقل
عمر يقرأ عليك السلام ولا تغل امير المؤمنين فاني لست اليوم للمؤمنين اميرا
وقل يستأذن عمر بن الخطاب ان يدفن مع صاحبيه فسلم واستأذن ثم
دخل عليها فوجدتها قاعدة تبكي فقال يقرأ عليك عمر السلام ويستأذن ان
يدفن مع صاحبيه قالت كنت اريده لنفسي ولا وثرن به اليوم على نفسي فلما
اقبل قيل هذا عبد الله قد جاء قال ارفعوني فاسنده رجل اليه قال مالديك قال
الذي تحب يا امير المؤمنين اذنت قال الحمد لله ما كان شيء احب الي من ذلك
فاذا انا قضيت فاحملوني ثم سلم فقل يستأذن عمر بن الخطاب فان اذنت لي
فادخلوني وان ردوني الي مقابر المسلمين وجاءت ام المؤمنين حفصة
والنساء يسترنها فلما رأيتها فاقنا فوجلت عليه فبكت عنده ساعة واستأذن الرجال
فوجلت داخلا لهم فسمعنا بكاهها من الداخل فقالوا اوص يا امير المؤمنين
واستخلف قال ما احق بالامر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفي
رسول الله ﷺ وهو عنهم راض فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعد
وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الامر شيء كهيئة التعزية

له فان اصاب الامارة سعدا فذاك والا فليستعن به ايكم ما امر فاني لم اعزله
من عجز ولا خيانة وقال اوص الخليفة من بعدي بالمهاجرين الاولين ان يعرف
لهم حقهم ويحفظ لهم حرماتهم وأوصه بالانصار خيرا الذين تبوءوا الدار والايمان
من قبلهم ان يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئتهم وأوصيه باهل الامصار
خيرا فانهم رءى الاسلام وجياة الاموال وغيظ العدو وان لا يأخذ منهم إلا
فضلهم عن رضاعم وأوصه بالاعراب خيرا فانهم اصل العرب ومادة الاسلام
ان يأخذ من حواشي أموالهم وان يرد على فقرائهم وأوصه بذمة الله وذمة
رسوله أن يوفي لهم بهدم وان يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فلما قبض خرجنا
به فانطلقنا نمشي فسلم عبد الله بن عمر فقال يستأذن عمر بن الخطاب قالت ادخلوه
فأدخل فوضع هناك مع صاحبيه فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط
فقال عبد الرحمن بن عوف اجعلوا امركم الى ثلاثة منكم قال الزبير قد جعلت
امري الى علي قال طلحة قد جعلت امري الى عثمان وقال سعد قد جعلت
امري الى عبد الرحمن فقال عبد الرحمن ايكم تبرا من هذا الأمر فنجعله اليه
والله عليه والاسلام لينظرن افضلهم من في نفسه فاسكت الشيخان فقال
عبد الرحمن يجعلونه الي والله علي ان لا آلوا عن افضلكم قالان نعم فاخذ بيدي
احدهما فقال ولك من قرابة رسول الله ﷺ وقدم في الاسلام ما قد علمت
بالله عليك لأن امرتك لتعدلن ولأن امرت عليك لتسمعن ولتطيعن ثم
خلا بالآخر فقال له مثل ذلك فلما اخذ الميثاق قال ارفع يدك يا عثمان فبايعه وبايع
له علي وولج اهل الدار فبايعوه . وعن حميد بن عبد الرحمن ان المسور بن
مخرمة اخبره ان الذين ولاهم عمر اجتمعوا وتشاوروا قال لهم عبد الرحمن :

لست الذي انا فسلم عن هذا الامر ولكنكم ان شئتم اخترت لكم منكم
 فجعلوا ذلك الى عبد الرحمن فلما ولوا عبد الرحمن امرهم مال الناس الى عبد الرحمن حتى
 ما ارى احداً من الناس يتبع اولئك الرهط ولا يطاق عقبه ومال الناس الى عبد الرحمن
 يشاورونه تلك الليالي حتى اذا كانت تلك الليلة اصبحنا فيها فبايعنا عثمان قال
 المسور بن مخرمة طرفني عبد الرحمن بعد هجوع من الليل فضرب الباب حتى
 استيقظت فقال : ارا لئانما فوالله ما كتعلت هذه الثلاث بكثير نوم انطلق
 فادع لي الزبير وسعدا فدعوتهما فشاورها ثم دعاني فقال ادع لي علياً فدعونه
 ففاجاه حتى ابهار الليل ثم قام علي من عنده وهو على طمع وقد كان عبد الرحمن
 يخشى من علي شيئاً ثم قال ادع لي عثمان ففاجاه حتى فرق بينهما المؤذن بالصبح
 فلما صلى الناس الصبح واجتمع اولئك الرهط عند المنبر ارسل الى من كان حاضرا
 من المهاجرين والانصار والى امراء الاجناد وكانوا وافقوا تلك الحجة مع عمر
 فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن ثم قال اما بعد يا علي اني قد نظرت في امر
 الناس فلم اراهم يعدلون بعثمان فلا تجعلن علي تفسك سبيلا فقال لعثمان
 ابايعك على سنة رسول الله ﷺ والخليفتين من بعده فبايعه عبد الرحمن
 وبايعه الناس والمهاجرون والانصار وامراء الاجناد والمسلمون . ومن
 فضائل عثمان رضي الله عنه الخاصة كونه ختن رسول الله ﷺ على ابنتيه
 وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ مضطجعا كاشفا عن
 فخذه او ساقيه فلستأذن ابو بكر فأذن له وهو على تلك الحالة فتحدث
 ثم استأذن عمر فأذن له وهو على تلك الحالة فتحدث ثم استأذن عثمان
 فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه فدخل فتحدث فلما خرج قالت عائشة

دخل ابو بكر فلم تهش له ولم تباله ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك فقال الا استحي من رجل تستحي منه الملائكة « وفي الصحيح لما كان يوم بيعة الرضوان وان عثمان رضي الله عنه كان قد بعث النبي ﷺ الى مكة وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان الى مكة فقال رسول الله ﷺ النبي هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال هذه لعثمان قوله ثم لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه « اي وثبتت الخلافة بعد عثمان لعلي رضي الله عنها لما قتل عثمان وباع الناس عليا صار اماما حقا واجب الطاعة وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوة كما دل عليه حديث سفينة المتقدم ذكره انه قال قال رسول الله ﷺ « خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يوتى الله ملكه من يشاء » وكانت خلافة ابي بكر الصديق سنتين وثلاثة اشهر وخلافة عمر عشر سنين ونصفا وخلافة عثمان اثني عشر سنة وخلافة علي اربع سنين وتسعة اشهر واول ملوك المسلمين معاوية ولكنه انما صار اماما حقا لما فوض اليه الحسن بن علي رضي الله عنه الخلافة فان الحسن رضي الله عنه باع اهل العراق بعد موت ابيه ثم بعد ستة اشهر فوض الامر الى معاوية وظهر صدق قول النبي ﷺ ان ابني هذا سيد وسيصالح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين والقصة معروفة في موضعها فالخلافة ثبتت لامير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه بعد عثمان رضي الله عنه بمبايعة الصحابة سوى معاوية مع اهل الشام والحق مع علي رضي الله عنه فان عثمان رضي الله عنه لما قتل كثر الكذب والافتراق على عثمان وعلي وكان بالمدينة من اكابر الصحابة كعلي وطلحة والزبير . وعظمت الشبهة عند من لم يعرف الحال وقويت الشهوة في نفوس ذوي الاهواء والاغراض ممن بعدت

داره من اهل الشام ويحى الله عثمان ان يظن بالا كابر ظنون سوء ويبلغه عنهم
اخبار منها ما هو كذب ومنها ما هو محدث ومنها ما لم يعرف وجهه وانضم
الى ذلك اهواء قوم يحبون العلو في الارض . وكان في عسكر علي رضي الله
عنه من اولئك الطغاة الخوارج الذين قتلوا عثمان من لم يعرف بعينه ومن
تنتصر له قبيلته ومن لم يقم عليه حجة بما فعله ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من
اظهاره كله وراى طلحة والزبير انه ان لم ينتصر للشهيد المظلوم ويقمع اهل
الفساد والعدوان والا استوجبوا غضب الله وعقابه . فجرت فتنة الجمل على
غير اختيار من علي ولا من طلحة والزبير وانما اثارها المفسدون بغير اختيار
السابقين ثم جرت فتنة صفين لرأي وهو ان اهل الشام لم يعدل عليهم اولا
يتمكن من العدل عليهم وعم كافون حتى تجتمع الامة وانهم يخافون طغيان
من في العسكر كما طفوا على الشهيد المظلوم وعلي رضي الله عنه هو الخليفة
الراشد المهدي الذي تجب طاعته ويجب ان يكونوا مجتمعين عليه فاعتقد ان
الطاعة والجماعة الواجبين عليهم يحصل بقتالهم فيطلب^(١) امام فاعتقد انه يحصل
به اداء الواجب ولم يعتقد ان التأليف لهم كتأليف المؤلفه قلوبهم على عهد النبي
ﷺ والخليفين من بعده بما يسوغ فعله ما رآه من ان الدين اقامة الحد عليهم
ومنعمهم من الاثارة دون تأليفهم على القتال وقعد عن القتال اكبر الاكابر لما
سموه من النصوص في الامر بالعود في الفتنة ، ولما راوه من الفتنة التي تربوا
مفسدتها على مصاحبتها والقول في الجميع بالحسنى ﴿ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين
سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم﴾ والفتن

(١) كذا بالاصل فليحذر

التي كانت في ايامه قد صان الله عنها ايدينا . فنسأل الله ان يصون عنها ألسنتنا
بمنه وكرمه . ومن فضائل امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه ما في
الصحيحين عن سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ
لعلي « انت مني بمنزلة هرون الا انه لا نبي بعدي » وقال ﷺ يوم خيبر « لا عطين
الراية غدار جلا يحب الله ورسوله ومحبه الله ورسوله » قال فتطاولنا لها فقال
« ادعولي علياً » فاتي به ارمد فبصق في عينيه ودفع الراية اليه ففتح الله عليه .
ولما نزلت هذه الآية ﴿ فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم
وانفسنا وانفسكم ﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال
« اللهم هؤلاء اهلي » قوله ﴿ وعم الخلفاء الراشدون والائمة المهديون ﴾ تقدم
الحديث الثابت في السنن وصححه الترمذي عن العرياض بن سارية قال وعظنا
رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال
قائل يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فاذا تمهد الينا فقال « أوصيكم
بالسمع والطاعة فانه من بعش منكم بعدي فسيري اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي
وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ
واياكم ومحدثات الامور فان كل بدعة ضلالة » وترتب الخلفاء الراشدين رضي
الله عنهم اجمعين في الفضل كترتيبهم في الخلافة . ولا يبي بكر وعمر رضي الله عنهما
من المزية ان النبي ﷺ امرنا باتباع سنة الخلفاء الراشدين ولم يأمرنا في لاقتداء في
الافعال إلا بابي بكر وعمر فقال « اقتدوا بالذين من بعدي ابي بكر وعمر » وفرق
بين اتباع سنتهم والافتداء فحال ابي بكر وعمر فوق حال عثمان وعلي رضي
الله عنهم اجمعين . وقد روي عن ابي حنيفة تقديم علي على عثمان ولكن ظاهر

مذهبه تقديم عثمان على علي هذا^(١) عامة اهل السنة وقد تقدم قول عبد الرحمن ابن عوف لمي رضي الله عنه اني قد نظرت في امر الناس فلم ارم يمدلون بعثمان وقال ابوب السختياني من لم يقدم عثمان على علي فقد اذرى بالمهاجرين والانصار وفي الصحيحين عن ابن عمر قال كنا نقول ورسول الله ﷺ حي افضل امة النبي ﷺ بعده ابو بكر ثم عمر ثم عثمان قوله ﴿ وان العشرة الذين سماهم رسول الله ﷺ وبشرهم بالجنة نشهدهم بالجنة على ما شهدهم رسول الله ﷺ ﴾ وقوله الحق وعم ابو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وابوعبيدة بن الجراح وهو امين هذه الامة رضي الله عنهم اجمعين ﴿ تقدم ذكر بعض فضائل الخلفاء الاربعة ومن فضائل الستة الباقيين من العشرة رضي الله عنهم اجمعين مارواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها ﴾ ارق رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال لبيت رجلا صالحا من اصحابي يحرسني الليلة قال وسمعنا صوت السلاح فقال النبي ﷺ من هذا فقال سعد بن ابي وقاص يا رسول الله جئت احرسك وفي لفظ اخر وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ جئت احرسه فدعاه رسول الله ﷺ ثم نام . وفي الصحيحين ان رسول الله ﷺ جمع لسعد بن ابي وقاص ابويه يوم احد فقال ارم فدالك ابي وامي وفي صحيح مسلم عن قيس بن ابي حازم قال رأيت يد طلحة التي وقي بها النبي ﷺ يوم احد قد شلت وفيه ايضا عن ابي عثمان النهدي قال لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الايام التي قاتل فيها النبي ﷺ غير طلحة وسعد وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن جابر بن عبد الله قال ندب رسول الله ﷺ

(١) كذا بالاصل ولعله وعلى هذا

الناس يوم الخندق فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير فقال النبي ﷺ
« لكل نبي حواري وحواري الزبير » وفيها ايضا عن الزبير رضي الله
عنه ان النبي ﷺ قال « من ياتي بني قريظة فياتيني بخبرهم » فانطلقت فلما
رجعت جمع لي رسول الله ﷺ ابويه فقال فداك ابي وامي . وفي صحيح مسلم
عن انس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ « ان لكل امة امينا وان اميننا
ايها الامة ابو عبيدة بن الجراح » وفي الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال جاء
اهل نجران الى النبي ﷺ فقالوا يا رسول الله ابعث الينا امينا فقال « لا بعثن اليكم
رجلا امينا حق امين » فاستشرف لها الناس . قال : فبعث اباعبيدة بن الجراح
وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال : اشهد على رسول الله ﷺ اني سمعته
يقول « عشرة في الجنة النبي في الجنة وابوبكر في الجنة وطلحة في الجنة وعمر
في الجنة وعثمان في الجنة وسعد بن مالك في الجنة وعبدالرحمن بن عوف في الجنة
ولوشنت لسميت العاشر قال فقالوا من هو قال سعيد بن زيد قال لمشهد رجل
منهم مع رسول الله ﷺ تغير منه وجهه خير من عمل احدكم ولو عمر عمر
نوح » رواه ابوداود وابن ماجه والترمذي وصححه ورواه الترمذي عن عبد
الرحمن بن عوف وعن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه ان النبي ﷺ قال « ابو
بكر في الجنة وعمر في الجنة وعلي في الجنة وعثمان في الجنة وطلحة في الجنة
والزبير بن العوام في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وسعيد بن زيد
في الجنة وابو عبيدة بن الجراح في الجنة » رواه الامام احمد في مسنده .
ورواه ابو بكر بن ابي خيثمة وقدم فيه عثمان على علي رضي الله عنهما .
وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال كان رسول الله ﷺ على حراء وابو بكر

وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير فتحررت الصخرة فقال رسول الله ﷺ
اهدأ فاعليك الانبي وصديق وشهيد « رواه مسلم والترمذي وغيرهما . وروي
من طرق وقد اتفق اهل السنة على تعظيم هؤلاء العشرة وتقديمهم لما اشتهر
من فضائلهم ومناقبهم ومن اجهل ممن يكره لفظ العشرة او فعل شيء يكون
عشرة لكونهم يبغيضون خيار الصحابة وهم العشرة المشهود لهم بالجنة وهم
يستثنون منهم علياً رضي الله عنه . فمن العجب انهم يوالون لفظ التسعة وهم
يبغيضون التسعة من العشرة ويبغيضون سائر المهاجرين والانصار من السابقين
الاولين الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة وكانوا الفأ واربعائه وقد رضي الله
عنهم كما قال تعالى ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾
وثبت في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه قال « لا يدخل
النار احد بايع تحت الشجرة » . وفي صحيح مسلم ايضاً عن جابر ان غلاما قال
حاطب في النار فقال رسول الله ﷺ « كذبت انه شهد بدرًا والحديبية »
والرافضة يتبرأون من جمهور هؤلاء بل يتبرأون من سائر اصحاب رسول الله
ﷺ الا من نفر قليل نحو بضعة عشر رجلاً ومعلوم انه لو فرض في العالم عشرة
من ا كفر الناس لم يهجر هذا الاسم لذلك كما انه سبحانه لما قال ﴿ وكان في المدينة
تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون ﴾ لم يجب هجر اسم التسعة مطلقاً
بل اسم العشرة قد مدح الله مسماه في مواضع من القرآن ﴿ تلك عشرة
كاملة - وواعدنا موسى ثلاثين ليلة واتممناها بعشر - والفجر وليال عشر ﴾ وكان
ﷺ يمتكف العشر الاواخر من رمضان وكان في ليلة القدر يقول « التمسوها
في العشر الاواخر من رمضان » وقال « ما من ايام العمل الصالح فيهن احب

الى الله من ايام العشر» يعني عشر ذي الحجة والرافضة توالي بدل العشرة المبشرين
بالجنة اثنا عشر اماما اولهم علي بن ابي طالب رضي الله عنه ويدعون انه وصي النبي
ﷺ دعوى مجردة عن الدليل ثم الحسن رضي الله عنه ثم الحسين رضي الله عنه ثم علي
ابن الحسين زين العابدين ثم محمد بن علي الباقر ثم جعفر بن محمد الصادق ثم موسى
ابن جعفر الكاظم ثم علي بن موسى الرضى ثم محمد بن علي الجواد ثم علي بن محمد
الهادي ثم ابن علي العسكري ثم محمد بن الحسن ويقالون في محبتهم ويتجاوزون
الحد ولم يأت ذكر الائمة الاثني عشر الا على صفة ترد قولهم وتبطله وهو
ما خرجاه في الصحيحين عن جابر بن سمرة قال دخلت مع ابي علي النبي ﷺ
فسمعتة يقول « لا يزال امر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا » ثم تكلم
النبي ﷺ بكلمة خفيت عني فسألت ابي ماذا قال النبي ﷺ قال كلهم من
قريش وفي لفظ « لا يزال الاسلام عزيزا الى اثني عشر خليفة » وكان الامر
كما قال النبي ﷺ والاثنا عشر الخلفاء الراشدون الاربعة ومعاوية وابنه يزيد
وعبد الملك بن مروان واولاده الاربعة وبينهم عمر بن عبد العزيز ثم اخذ الامر
في الانحلال وعند الرافضة ان امر الامة لم يزل في ايام هؤلاء فاسدا يتولى عليهم
الظالمون المعتدون بل المنافقون الكافرون واهل الحق اذل من اليهود وقولهم
ظاهر البطلان بل لم يزل الاسلام عزيزا في ازدياد في ايام هؤلاء . قوله
﴿ ومن احسن القول في اصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات
من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس فقد برىء من النفاق ﴾ تقدم
بعض ما ورد في الكتاب والسنة من فضائل الصحابة رضي الله عنهم وفي
صحيح مسلم عن زيد بن ارقم قال قام فينا رسول الله ﷺ خطيبا بما يدعى

خم بين مكة والمدينة فقال « اما بعد ايها الناس انما انا بشر يوشك ان ياتي
رسول ربي فأجيب ربي واني تارك فيكم ثقلين : اولهما كتاب الله فيه الهدى
والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا بهما - فحث على كتاب الله ورغب
فيه ثم قال - واهل بيبي اذ كرّم الله في اهل بيبي » ثلاثا وخرج البخاري عن
ابي بكر الصديق رضي الله عنه قال : ارقبوا محمداً في اهل بيته وانما قال الشيخ
رحمه الله فقد برى من النفاق لان الرفض انما احده منافق زنديق قصده
ابطال دين الاسلام والقدح في الرسول ﷺ كما ذكر ذلك العلماء فان عبد
الله بن سبأ لما اظهر الاسلام اراد ان يفسد دين الاسلام بمكره وخبثه كما فعل
بولس بدين النصراني فظهر التنسك ثم اظهر الامر بالمعروف والنهي عن
المنكر حتى سمي في فتنة عثمان وقتله ثم لما قدم على الكوفة اظهر الغلو في علي
والنصر عليه ليتمكن بذلك من اغراضه وبلغ ذلك علياً فطلب قتله فهرب
منه الى قرقيس وخبره معروف بالتاريخ وتقدم ان من فضله على ابي بكر وعمر
جلده جلد مفترء وبقيت في نفوس المبطلين خماثر بدعة الخوارج من
الحرورية والشيعة ولهذا كان الرفض باب الزندقة كما حكاه القاضي ابو بكر
ابن طيب عن الباطنية وكيفية افسادهم لدين الاسلام قال فقالوا للداعي يجب
عليك اذا وجدت من تدعوه مسلماً ان تجعل التشيع عنده دينك وشعارك
واجعل المدخل من جهة ظلم السلف لعلي وقتلهم الحسين والتبري من تيم وعدى
وبني امية وبني العباس وان علياً يعلم الغيب يفوض اليه خلق العالم وما اشبه
ذلك من اعاجيب الشيعة عند الدعوة اجابة ورشداً او قفته على مثالب علي
وولده رضي الله عنهم انتهى ولاشك انه ينصرف من سب الصحابة الى سب

اهل البيت ثم آل الرسول ﷺ اذا اهل بيته من اصحابه مثل هؤلاء الفاعلين الضالين
قوله ﷺ وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين اهل الخير والاثار
واهل الفقه والنظر لا يذكرون الا بالجميل ومن ذكروا بسوء فهو على غير
السبيل ﷺ قال تعالى ﷻ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع
غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﷻ فيجب على
كل مسلم بعد موالاته الله ورسوله موالاته المؤمنين كما نطق به القرآن
خصوصاً الذين هم ورثة الانبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدي بهم في
ظلمات البر والبحر وقد اجمع المسلمون على هدايتهم ودرايقتهم اذ كل امة قبل
مبعث محمد ﷺ علماء وهاشر اهل الاسلام فان علماءهم خيارهم فاهم خلفاء الرسول
من امته والمحيون لما مات من سنته فيهم قام الكتاب وبه قاموا وبهم نطق الكتاب
وبه نظفوا متفقون اتفاقاً يقيناً على وجوب اتباع الرسول ﷺ ولكن اذا وجد
لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له في تركه من عذر وجماع
الاعذار ثلاثة اصناف (احدها) عدم اعتقاده ان النبي ﷺ قاله (والثاني) عدم
اعتقاده انه اراد تلك المسئلة بذلك القول (والثالث) اعتقاده ان ذلك محم، منسوخ
فلهم الفضل علينا والمنة بالسبق وتبليغ ما ارسل به الرسول ﷺ اليها
وايضاح ما كان منه يخفي علينا فرضي الله عنهم وارضاهم ﷻ ربنا اغفر لنا
ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا
انك رؤوف رحيم ﷻ . قوله ﷻ ولا تفضل احداً من الاولياء على احد من
الانبياء عليهم السلام ونقول نبي واحد افضل من جميع الاولياء ﷻ يشير الشيخ
رحمه الله الى الرد على الاتحادية وجملة المتصوفة والافهل الاستقامة يوصون

بمتابعة العلم ومتابعة الشرع فقد اوجب الله على الخلق كلهم متابعة الرسل
 قال تعالى ﴿ وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ولو انهم اذ ظلموا انفسهم
 جاؤك ﴾ الى ان قال ﴿ ويسلموا تسليما ﴾ وقال تعالى ﴿ قل ان كنتم تحبون
 الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ . قال ابو عثمان
 النيسابوري : من امر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ومن امر
 الهوى على نفسه نطق بالبدعة وقال بعضهم : ما ترك بعضهم شيئا من السنة
 الا لكبر في نفسه والامر كما قال فانه اذا لم يكن متبعا للأمر الذي جاء به
 الرسول كان يعمل بارادة نفسه فيكون متبعا لهواه بغير هدى من الله وهذا
 غش النفس وهو من الكبر فانه شبيه بقول الذين قالوا ﴿ لن نؤمن حتى نؤتى
 مثل ما اوتي رسل الله الله اعلم حيث يحمل رسالته ﴾ وكثير من هؤلاء يظن
 انه يصل برياسته واجتهاده في العبادة ويضيف نفسه الى ما وصلت اليه الانبياء
 من غير اتباع لطريقتهم ومنهم من يظن انه قد صار افضل من الانبياء ومنهم
 من يقول ان الانبياء والرسل انما يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الاولياء
 ويدعي لنفسه انه خاتم الأولياء ويكون ذلك العلم هو حقيقة قول فرعون
 وهو ان هذا الوجود المشهود واجب بنفسه ليس له صانع مبين له لكن
 هذا يقول هو الله وفرعون اظهر الانكار بالكلية لكن كان فرعون في
 الباطن اعرف بالله منهم فانه كان مثبتا للصانع وهؤلاء ظنوا ان الوجود
 المخلوق هو الوجود الخالق كابن عربي وامثاله وهو لما رأى ان الشرع الظاهر
 لا سبيل الى تغييره قال النبوة ختمت لكن الولاية لم تختم وادعى من الولاية
 ما هو اعظم من النبوة وما يكون للانبياء والمرسلين وان الانبياء مستفيدون

منها كما قال مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي وهذا قلب
 للشريعة فان الولاية ثابتة للمؤمنين المتقين كما قال تعالى ﴿ الا ان اولياء الله
 لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ والنبوة اخص
 من الولاية والرسالة اخص من النبوة كما تقدم التنبيه على ذلك وقال ابن عربي
 ايضا في فصوصه . ولما مثل النبي ﷺ النبوة بالحائط من الابن فرآها قد كملت
 الالبنة فكان هو ﷺ موضع اللبنة واما خاتم الاولياء فلا بد له من هذه
 الرؤية فيرى ما مثله النبي ﷺ ويرى نفسه في الحائط في موضع لبنتين ويرى
 نفسه تنطبع في موضع اللبنتين فتكمل الحائط . والسبب الموجب لكونه
 يراها لبنتين ان الحائط لبنة من فضة ولبنة من ذهب واللبنة الفضة هي ظاهره
 وما يتبعه فيه من الاحكام كما هو اخذ عن الله في الشرع ما هو في الصورة
 الظاهرة متبع فيه لانه يرى الامر على ما هو عليه فلا بد ان يراه هكذا وهو
 موضع اللبنة الذهبية في الباطن فانه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي
 يوحي اليه الى الرسول ﷺ قال فان فهمت ما اشرنا اليه فقد حصل لك العلم
 النافع . فن ا كفر ممن ضرب لنفسه المثل بلبنة ذهب والرسول المثل بلبنة
 فضة فيجعل نفسه اعلى وافضل من الرسول تلك امانتهم ﴿ ان في صدورهم الاكبر
 ما هم بيالغيه ﴾ وكيف يخفى كفر من هذا كلامه وله من الكلام امثال هذا وفيه
 ما يخفى منه الكفر ومنه ما يظهر فلهذا يحتاج الى نقد جيد ليظهر زيفه فان
 من الرغل ما يظهر لكل ناقد ومنه ما لا يظهر الا للناقد الحاذق البصير
 وكفر ابن عربي وامثاله فوق كفر القائلين ﴿ لن تؤمن حتى تؤتى مثل
 ما اوتى رسل الله ﴾ ولكن ابن عربي وامثاله منافقون زنادقة الاتحادية في

اندرك الاسفل من النار والمناقون يعاملون معاملة المسلمين لظاهرهم الاسلام
كما كان يظهره المنافقون في حياة النبي ﷺ ويبطنون الكفر وهو يعاملهم
معاملة المسلمين لما يظهر منهم فلو انه ظهر منهم ما يبطنه من الكفر لاجرى
عليه حكم المرتد ولكن في قبول توبته خلاف والصحيح عدم قبولها وهي رواية
معلی عن ابي حنيفة رضي الله عنه والله المستعان . قوله * وتؤمن بما جاء من
كراماتهم وصح عن الثقات من رواياتهم * فالمعجزة في اللغة تم كل خارق
للعادة وفي عرف ائمة اهل العلم المتقدمين ولكن كثير من المتأخرين يفرقون في
اللفظ بينهما فيجعلون المعجزة للنبي والكرامة للولي . وجماعها الامر الخارق للعادة
والكمال يرجع الى ثلاثة العلم والقدرة والغنى وهذه الثلاثة لا تصلح على الكمال الا الله
وحده فانه الذي احاط بكل شيء علما . وهو على كل شيء قدير . وهو غني عن العالمين
ولهذا امر النبي ﷺ ان يتبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله * قل لا اقول
لكم عندي خزانة الله ولا اعلم الغيب ولا اقول اني ملك ان اتبع الا ما يوحى
الي * وكذلك قال نوح عليه السلام فهذا اول اولي العزم واول رسول بعثه
الله الى اهل الارض وهذا خاتم الرسل وخاتم اولي العزم وكلاهما تبرأ من
ذلك وهذا لانهم يطالبونهم تارة بعلم الغيب كقوله تعالى * يسألونك عن
الساعة ايان مرساها * وتارة بالتأثير كقوله تعالى * وقالوا لن نؤمن لك حتى
تفجر لنا من الارض ينبوعا * الآيات وتارة يعيرونهم بالحاجة البشرية
كقوله تعالى * وقالوا ما لهذا الرسول يا كل الطعام ويمشي في الاسواق *
الآية فأمر الرسول ان يخبرهم بانه لا يملك ذلك وانما ينال من تلك الثلاثة بقدر
ما يعطيه الله فيعلم ما علمه الله اياه ويقدر على ما قدره عليه ويستغني عما اغناه عنه

من الامور المخالفة للعادة المطردة او مادة اغلب الناس فجميع المعجزات
والكرامات ما تخرج عن هذه الانواع ثم انخارق ان حصل به فائدة مطلوبة
في الدين كان من الاعمال الصالحة المأمور بها ديننا وشرعا اما واجب او مستحب
وان حصل به امر مباح كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكرا وان كان
على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهي تحريم او نهي تنزيه كان سببا للعذاب
او البغض كالذي اوتي الآيات فانسلخ منها بلعام بن باعورا لاجتهاد وتقليد
او نقص عقل او علم او غلبة حال او عجز او ضرورة فانخارج ثلاثة انواع محمود
في الدين ومذموم ومباح فان كان المباح فيه منفعة كان نعمة والافهوكسائر
المباحات التي لا منفعة فيها . قال ابو علي الجوزجاني كن طالبا للاستقامة لاطالبا
للكرامة فان نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة
قال الشيخ السهروردي في عوارفه ولهذا ضل كثير في الباب فان كثير من المجتهدين
المتعدين سمعوا سلف الصالحين المتقدمين وما منحوا به من الكرامات وخوارق
العادات فنفسهم لا تزال تتطلع الى شيء من ذلك ويحبون ان يرزقوا شيئا
منه ولعل احدكم يبقى منكسر القلب متها لنفسه في صحة عمله حيث لم يحصل
له خارق ولو علموا بسر ذلك لهان عليهم الامر فيعلم ان الله يفتح على بعض
المجاهدين الصادقين من ذلك بابا والحكمة ان يزداد بما جرى من خوارق
العادات واثار القدرة يقينا فيقوى عزمه على الزهد في الدنيا والخروج عن
دواعي الهوى فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة فهي كل الكرامة .
ولا ريب ان للقلوب من التأثير اعظم مما للابدان لكن ان كانت صالحة كان
تأثيرها صالحا وان كانت فاسدة كان تأثيرها فاسدا فالاحوال يكون تأثيرها

محبوباً لله تعالى تارة ومكروهاً لله أخرى وقد تكلم الفقهاء في وجوب القود على
 من يقتل غيره في الباطن وهؤلاء يشهدون بواطنهم وقلوبهم الأمر الكوني
 ويعدون مجرد خرق العادة لأحدكم انه كرامة من الله ولا يعلمون انه في الحقيقة
 انما الكرامة لزوم الاستقامة وان الله تعالى لم يكرم عبداً بكرامة اعظم من موافقته
 فيما يحبه ويرضاه وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاة اوليائه ومعاداة اعدائه
 وهؤلاء هم اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . واما ما يتلى الله به عبده
 من السر بخرق العادة او بغيرها او بالمعز فليس ذلك لاجل كرامة العبد على ربه
 ولا هو انه عليه بل قد سعد بها قوم اذا اطاعوه وشقي بها قوم اذا عصوه كما قال تعالى
 ﴿فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فاكرمه ونعمه فيقول ربني اكرم من واما اذا
 ما ابتلاه فقد ر عليه رزقه فيقول ربني اهانن كلاً﴾ ولهذا كان الناس في هذه الامور
 ثلاثة اقسام قسم ترتفع درجاتهم بخرق العادة وقسم يتعرضون به للعذاب الله وقسم
 يكون في حقهم بمنزلة المباحات كما تقدم وتنوع الكشف والتأثير باعتبار تنوع
 كلمات الله . وكلمات الله نوعان كونية ودينية فكلماته الكونية هي التي استعاذ بها
 النبي ﷺ في قوله « اعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر »
 قال تعالى ﴿انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون﴾ وقال تعالى ﴿وتمت
 كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته﴾ والسكون كله داخل تحت هذه الكلمات
 وسائر الخوارق . والنوع الثاني الكلمات الدينية وهي القرآن وشرع الله الذي
 بعث به رسوله وهي امره ونهيه وخبره وحظ العبد منها العلم بها والعمل والامر
 بما امر الله به كما ان حظ العباد عموماً وخصوصاً العلم بالكونيات والتأثير فيها
 اي بموجبها فالاولى تديرية كونية والثانية شرعية دينية فكشف الاولى العلم

بالحوادث الكونية وكشف الثانية العلم بالمأمورات الشرعية وقدرة الاولى التأثير
في الكونيات اما في نفسه كمشيه على الماء وطيرانه في الهواء وجلوسه في النار واما
في غيره باصباح واهلاك واغناء وافقار . وقدرة الثانية التأثير في الشرعيات اما في
نفسه بطاعة الله ورسوله واما في غيره فيطاع في ذلك طاعة شرعية فاذا تقرر ذلك
فاعلم ان عدم الحوادث علما وقدرة لا تضر المسلم في دينه فمن لم ينكشف له شيء
من المغيبات ولم يسخر له شيء من الكونيات لا ينقصه ذلك في مرتبته
عند الله بل قد يكون عدم ذلك انفع له فانه ان اقترن به الدين والاهلك
صاحبه في الدنيا والآخرة فان الخارق قد يكون مع الدين وقد يكون مع
عدمه او فساده او نقصه فالخوارق النافعة تابعة للدين ، خادمة له كما ان الرياسة
النافعة هي النافعة للدين وكذلك المال النافع كما كان السلطان والمال النافع كما
كان السلطان والمال بيد النبي ﷺ وابي بكر وعمر فمن جعلها هي المقصودة
وجعل الدين تابعا لها ووسيلة اليها لا لاجل الدين في الاصل فهو شبيه بمن
ياكل الدنيا بالدين وليست حاله كحالة من تدين خوف العذاب او رجاء الجنة
فان ذلك مأثور به وهو على سبيل نجاة وشرعة صحيحة . والعجب ان كثيرا
من يزعم ان همه قد ارتفع عن ان يكون خوفا من النار أو طلبا للجنة يجعل
همه بدينه ادنى خارق من خوارق الدنيا ثم ان الدين اذا صح علما وعملا فلا
بد ان يوجب خرق العادة اذا احتاج الى ذلك صاحبه . قال تعالى ﴿ ومن يتق
الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ وقال تعالى ﴿ ان تتقوا
الله يجعل لكم فرقانا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو انهم فعلوا ما يوعدون به لكان
خيرا لهم واشد تثبيتا واذ لا يتناهم من لدنا اجرا عظيما ولهديناهم صراطا

مستقيماً ﴿ وقال تعالى ﴿ الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون -
الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ وقال
رسول الله ﷺ « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله » ثم قرأ قوله تعالى
﴿ ان في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ رواه الترمذي من رواية ابي سعيد
الخدري وقال تعالى فيما يروي عنه رسوله ﷺ « من عادى لي ولياً فقد
بارزني بالحاربة وما تقرب الي عبدي بمثل اداء ما افترضت عليه ولا يزال
عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع
به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني
لاعطينه ولئن استعاذني لاعينده وما ترددت في شيء انا فاعله ترددي في
قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولا بد له منه » فظهر
ان الاستقامة حظ الرب وطلب الكرامة حظ النفس وبالله التوفيق .
وقول المعتزلة في انكار الكرامة ظاهر البطلان فانه بمنزلة انكار المحسوسات
وقوله لو صحت لاشبهت المعجزة فيؤدي الى التباس النبي ﷺ بالولي وذلك
لا يجوز وهذه الدعوى انما تصح اذا كان الولي يأتي بالخارق ويدعي النبوة
وهذا لا يقع ولو ادعى النبوة لم يكن ولياً بل كان متنبياً كذاباً ، وقد
تقدم الكلام في الفرق بين النبي والمتنبي عند قول الشيخ وان محمدا عبده المجتبي
ونبيه المصطفى . ومما ينبغي التنبيه عليه هنا ان الفراسة ثلاثة انواع :
ايمانية وسببها نور يقذفه الله في قلب عبده وحقيقتها انها خاطر يهجم على
القلب يثب عليه كوثوب الاسد على الفريسة . ومنها اشغالها ^(١) وهذه الفراسة

(٤) لعلها اشتقاقها

على حسب قوة الايمان ، فمن كان اقوى ايمانا اخذ فراسته قال ابو سليمان
الداراني رحمه الله الفراسة مكاشفة النفس ومعاينة الغيب وهي من مقامات الايمان
انتهى . وفراسة رياضة وهي التي تحصل بالجوع والسهر والتخلي فان النفس
اذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها وهذه
فراسة مشتركة بين المؤمن والكافر ، ولا تدل على ايمان ولا على ولاية ولا
تكشف عن حق نافع ولا عن طريق مستقيم ، بل كشفها من جنس فراسة
الولاية واصحاب عبادة الرؤساء والاطناء ونحوهم . وفراسة خلقية وهي التي صنف
فيها الاطباء وغيرهم واستدلوا هم خلق على الخلق لما بينهما من الارتباط التي اقتضته
حكمة الله فلا استدلال بصغر الرأس الخارج عن العادة على صغر العقل وبكبره على
كبره . وسعة الصدر على سعة الخلق وبضيقة على ضيقه وبجمود العينين وكلال
نظرهما على بلادة صاحبها وضعف حرارة قلبه ونحو ذلك . قوله ﴿ ونؤمن
باشراط الساعة من خروج الدجال ونزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء
ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها وخروج دابة الارض من موضعها ﴾ عن
عوف بن مالك الاشجعي قال اتيت النبي ﷺ في غزوة وهو في قبة ادم فقال
« اعدد ستاين يدي الساعة: موتي ثم فتح بيت المقدس ثم موتان يأخذ فيكم
كمقاص الغنم ثم استفاضة المال حتى يعطي الرجل مائة دينار فيظل ساخطا ثم
فتنة لا يبقى بيت من العرب الا دخلته ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الاصر
فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر الفا » وروي رايه
بالراء والغين وهما بمعنى رواه البخاري وابوداود وابن ماجه والطبراني . وعن
حذيفة بن اسيد قال اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة فقال « ما

تذكرون ؟ » قالوا نذكر الساعة فقال « انها لن تقوم حتى تروا عشر آيات :
 الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم
 وياجوج وماجوج وثلاثة خسوف خسف بالشرق وخسف بالمغرب وخسف
 بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم » رواه مسلم
 وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن ابن عمر رضي الله عنه قال ذكر الدجال عند النبي
 ﷺ فقال « ان الله لا يخفى عليكم ان الله ليس بأعور » وأشار بيده الى عينيه
 « وان المسيح الدجال أعور عين اليمنى كأن عينه عنبه طافية » وعن انس بن مالك
 رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « ما من نبي الا اندر قومه الاعور الدجال »
 الا انه أعور ورؤيته ليس بأعور ومكتوب بين عينيه ك ف ر » فسره في رواية ابي
 كافر . وروى البخاري وغيره عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ
 « والذي نفسي بيده ليوشكن ان ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب
 ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله احد حتى يكون
 السجدة خيراً من الدنيا وما فيها » ثم يقول ابو هريرة اقرأوا ان شئتم ﴿ وان
 من اهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ﴾
 وأحاديث الدجال وعيسى بن مريم عليه السلام ينزل من السماء ويقتله ويخرج
 يأجوج ومأجوج في ايامه بعد قتله الدجال فيهلكهم الله اجمعين في ليلة
 واحدة بركة دعائه عليهم . يضيق هذا المختصر عن بسطها . واما خروج الدابة
 وطلوع الشمس من المغرب فقال تعالى ﴿ واذا وقع القول عليهم اخرجناهم
 دابة من الارض تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ وقال تعالى ﴿ هل
 ينظرون الا ان تأتيهم الملائكة او يأتي ربك او يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي

بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها
خيراً قل انتظروا وأنا منتظرون ﴿ وروى البخاري عند تفسير الآية عن أبي
هريرة قال قال رسول الله ﷺ « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا
رآها الناس آمن من عليها فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من
قبل » وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً
لم أنسه بعد . سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان اول الآيات خروجاً طلوع
الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى فابتها ما كانت قبل صاحبها
فالاخرى على اثرها قريباً » اي اول الآيات التي ليست مألوفة وان كان
الذجال ونزول عيسى عليه السلام من السماء قبل ذلك وكذلك خروج ياجوج
وماجوج كل ذلك امور مألوفة لانهم بشر مشاهدة مثلهم مألوف ثم مخاطبتها
الناس ووسمها اياهم بالايمان أو الكفر فامر خارج عن مجاري العادات وذلك
اول الآيات الارضية كما ان طلوع الشمس من مغربها على خلاف عاداتها
المألوفة اول الآيات السماوية وقد افرد الناس احاديث اشراط الساعة مصنفات
مشهورة يضيق عن بسطها هذا المختصر قوله ﴿ ولا نصدق كاهنا ولا عرافا
ولا من يدعي شيئاً يخالف الكتاب والسنة واجماع الامة ﴾ روى مسلم والامام
احمد عن صفية بنت ابي عبيد عن بعض ازواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال
« من اتى عرافاً فسأله عن شيء لم يقبل له صلاة اربعين ليلة » وروى الامام
احمد في مسنده عن ابي هريرة ان النبي ﷺ قال « من اتى عرافاً او كاهناً
فصدقه بما يقول فقد كفر بما انزل على محمد » والمنجم يدخل في اسم العراف
عند بعض العلماء وعند بعضهم هو في معناه فاذا كانت هذه حال السائل فكيف

بالمستول . وفي الصحيحين ومسند الامام احمد عن عائشة قالت سئل رسول
الله ﷺ عن الكهان فقال « ليسوا بشيء » فقالوا يا رسول الله انهم يحدثونا
احيانا بشيء فيكون حقا - فقال رسول الله ﷺ تلك الكلمة من الحق يخطفها
الجني فيقر قرها في اذن وليه فيخلطوا معها مائة كذبة » وفي الصحيح عنه
ﷺ انه قال « ثمن الكلب خيث ومهر البني خيث وحلوان الكاهن خيث »
وحلوانه التي تسميه العامة حلوانته ويدخل في هذا المعنى ما تعاطاه النجم
وصاحب الازلام التي يستقسم بها مثل الخشبة المكتوب عليها ا ب ج د
والضارب بالحصا والذي يخط في الرمل وما تعاطاه هؤلاء حرام . وقد حكى
الاجماع على تحريمه غير واحد من العلماء كالبنغوي والقاضي عياض وغيرهما .
وفي الصحيحين عن زيد بن خالد قال خطبنا رسول الله ﷺ بالحديبية على
اثر سماء كانت من الليل فقال « اتدرون ما ذا قال ربكم الليلة » قلنا لله ورسوله
اعلم قال « قال اصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فن قال مطرنا بفضل الله
ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب » وفي صحيح مسلم ومسند الامام
احمد عن ابي مالك الاشعري ان النبي ﷺ قال « اربع في امتي من امر
الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالاحساب والطعن في الانساب والاستسقاء
بالانواء والنياحة » والنصوص عن النبي ﷺ واصحابه وسائر الائمة بالنهي عن
ذلك اكثر من ان يتسع هذا الموضوع لذكرها . وصناعة التنجيم التي مضمونها
الاحكام والتاثير وهو الاستدلال على الحوادث الارضية صناعة محرمة
بالكتاب والسنة بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين قال تعالى ﴿ ولا يفلح
الساحر حيث اتى ﴾ قال تعالى ﴿ الم تر الى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب

يؤمنون بالجبوت والطاغوت ﴿ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره الجبوت
السحر وفي صحيح البخاري قال كان لابي بكر غلام يأكل من خراجه فجاء
يوما بشيء فأكل منه ابو بكر فقال له الغلام تدري مم هذا قال وما هو قال
كنت تكهنت لانسان في الجاهلية وما احسن الكهانة إلا اني خدعته
ولقيني فأعطاني بذلك فهذا الذي اكلت منه فادخل ابو بكر يده فقاء كل شيء
في بطنه . والواجب على وال الأمر وكل قادر ان يسمى في ازالة هؤلاء المنجمين
والكهان والعرافين واصحاب الضرب بالرمل والحصى والقرع والقالات ومنهم
من الجلوس في الحوانيت والطرقات او يدخلوا على الناس في منازلهم لذلك
ويكفي من يعلم تحريم ذلك ولا يسمى في ازالته مع قدرته على ذلك قوله تعالى
﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ وهؤلاء الملاعين
يقولون الاثم وبأكلون السحت باجماع المسلمين . وثبت في السنن عن النبي
ﷺ برواية الصديق رضي الله عنه انه قال « ان الناس اذا راوا المنكر فلم
يغيروه او شك ان يعمهم الله بعقاب منه » وهؤلاء الذين يفعلون هذه الافعال
الخارجة عن الكتاب والسنة انواع : نوع منهم اهل تلييس وكذب وخداع
الذين يظهر احدع طاعة الجزله او يدعي الحال من اهل الحال من المشائخ النصايين
والفقراء الكاذبين والطرقية المكارين فهؤلاء يستحقون العقوبة البليغة التي
تردعهم وامثالهم عن الكذب والتلييس وقد يكون في هؤلاء من يستحق
القتل كمن يدعي النبوة بمثل هذه الخزعبلات او يطلب بغير شيء من الشريعة
ونحو ذلك . ونوع يتكلم في هذه الامور على سبيل الجد والحقيقة بانواع السحر
وجهور العلماء يوجبون قتل الساحر . كما هو مذهب ابي حنيفة ومالك واحمد

في المنصوص عنه وهذا هو الماثور عن الصحابة كعمر وابنته وعثمان وغيرهم
ثم اختلف هؤلاء قيل يستتاب ام لا وهل يكفر بالسحر ام يقتل لسميه في
الارض بالفساد . وقال طائفة ان قتل بالسحر يقتل والا عوقب بدون القتل
اذا لم يكن في قوله وعمله كفر وهذا هو المنقول عن الشافعي وهو قول في
مذهب احمد وقد تنازع العلماء في حقيقة السحر وانواعه والا كثرون يقولون
انه قد يؤثر في موت المسحور ومرضه من غير وصول شيء ظاهر اليه وزعم
بعضهم انه مجرد تخييل . واتفقوا كلهم على ان ما كان من جنس دعوة
الكواكب السبعة او غيرها او خطابها او السجود لها والتقرب اليها بما يناسبها
من اللباس والخواصم والتجوز ونحو ذلك فانه كفر وهو من اعظم ابواب الشرك
فيجب غلقه بل سده وهو من جنس فعل قوم ابراهيم عليه السلام . ولهذا
حكى الله عنه بقوله ﴿ فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم ﴾ وقال تعالى
﴿ فلما جن عليه الليل راى كوكبا ﴾ - الايات الى قوله تعالى ﴿ الذين آمنوا
ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن وهم مهتدون ﴾ واتفقوا كلهم ايضا
على ان كل رقية وتعزيم او قسم فيه شرك بالله فانه لا يجوز التكليم به وان
اطاعته به الجن او غيرهم وكذلك كل كلام فيه كفر لا يجوز التكلم به وكذلك
الكلام الذي لا يعرف معناه لا يتكلم به لا مكان ان يكون فيه شرك لا يعرف
ولهذا قال النبي ﷺ « لا بأس بالرقى ما لم تكن شركا » ولا يجوز الاستعاذة
بالجن فقد ذم الله الكافرين على ذلك . فقال تعالى ﴿ وانه كان رجال من الانس
يمودون برجال من الجن فزادوهم رهقا ﴾ قالوا كان الانسي اذا نزل بالوادي
يقول : اعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه فيبيت في امن وجوار حتى يصبح

فزادوهم رهقا يعني الانس للجن باستعاذتهم بهم رهقا اي اثما وطفيانا وخسرانا
وشرا وذلك انهم قالوا قد سدنا الجن والانس فالجن تعاضم في انفسها وتزداد
كفرا اذا عاملتها الانس بهذه المعاملة . وقد قال تعالى ﴿ ويوم نحشرهم جميعا
ثم نقول للملائكة اهؤلاء اياكم كانوا يعبدون - قالوا سبحانك انت ولينا من
دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون ﴾ فهؤلاء الذين يزعمون انهم
يدعون الملائكة ويخاطبونهم بهذه العزائم وانها تنزل عليهم ضالون وانما ينزل
عليهم الشياطين وقد قال تعالى ﴿ ويوم نحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم
من الانس وقال اولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا
اجلنا الذي اجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك
حكيم عليم ﴾ فاستمتع الانسي بالجن في قضاء حوائجهم وامتثال اوامره واخباره
بشيء من الغيبات ونحو ذلك واستمتع الجن بالانس تعظيمه اياه واستعانته
به واستغاثته وخضوعه له . ونوع منهم بالاحوال الشيطانية والتسوف ومخاطبته
رجال الغيب وان لهم خوارق يقتضي انهم اولياء الله وكان من هؤلاء من يعين
المشركين على المسلمين ويقول ان الرسول امره بقتال المسلمين مع المشركين
لكون المسلمين قد عصوا وهؤلاء في الحقيقة اخوان المشركين والناس من
اهل العلم فيهم على ثلاثة احزاب حزب يكذبون بوجود رجال الغيب ولكن
قد عاينهم الناس وثبت عن عاينهم او حدثه الثقات بما رأوه وهؤلاء اذا راوهم
وتيقنوا وجودهم خضعوا لهم . وحزب عرفوهم ورجعوا الى القدر واعتقدوا
ان ثم في الباطن طريقا الى الله غير طريقة الانبياء . وحزب ما امكنهم ان
يجمعوا وليا خارجا عن دائرة الرسول فقالوا يكون الرسول هو ممدد للطائفتين

فهؤلاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه والحق ان هؤلاء من اتباع
الشياطين وان رجال الغيب هم الجن ويسمون رجالا كما قال تعالى ﴿وانه كان رجال
من الانس يموذون برجال من الجن فزادوهم رهقا﴾ والافالانس^(١) يونسون
اي يشهون ويرون وانما يحتجب الانسي احيانا لا يكون دائما محتجبا عن ابصار
الانس ومن ظن انهم من الانس فن غلظه وجهله . وسبب الضلال فيهم واقتراق
احزاب هذه الثلاثة عدم الفرقان بين اولياء الشيطان واولياء الرحمن ويقول بعض
الناس الفقراء يسلم اليهم حالهم وهذا كلام باطل بل الواجب عرض افعالهم واحوالهم
على الشريعة المحمدية فما وافقها قبل وما خالفها رد كما قال النبي ﷺ «من عمل عملا ليس
عليه امرنا فهو رده» وفي رواية من احدث في امرنا هذا ما ليس منه فهو رد فلا
طريقة الا طريقة الرسول ﷺ ولا حقيقة الا حقيقة الاحيقته ولا شريعة الا شريعته ولا
عقيدة الا عقيدته ولا يصل احد من اخلق بعده الى الله والى رضوانه وجنته
وكرامته الا باتباعه باطنا وظاهرا ومن لم يكن له مصدقا فيما اخبر ، ملتزما
لطااعته فيما امر في الامور الباطنة التي في القلوب والاعمال الظاهرة التي على
الابدان لم يكن مؤمنا فضلا عن ان يكون وليا لله تعالى ولو طار في الهواء ومشى
على الماء^(٢) وانفق من الغيب واخرج الذهب من الخشب ولو حصل له من الخوارق
ماذا عسى ان يحصل فانه لا يكون مع تركه الفعل المأمور وعزل المحذور الا
من اهل الاحوال الشيطانية المبعدة لصاحبها عن الله تعالى ، المقربة الى سخطه
وعذابه لكن من ليس يكلف من الاطفال والمجانين قد رفع عنهم القلم فلا

(١) كذا بالاصل ولعل في الكلام سقطا

(٢) كذا بالاصل ولعله اخبر بشيء من الغيب

يعاقبون وليس لهم من الايمان بالله والاقرار باطنا وظاهراً ما يكون به من اولياء الله المقربين وحزبه المفلحين وجنده الغالين لكن يدخلون في الاسلام تبعاً لا بائهم كما قال تعالى ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان الحقناهم ذريتهم وماالتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين﴾ فمن اعتقد في بعض البله او المولعين مع تركه لمتابعة الرسول في اقواله وافعاله واحواله انه من اولياء الله ويفضله على متبعي طريقة الرسول ﷺ فهو ضال مبتدع مخطئ في اعتقاده فان ذلك الابله اما ان يكون شيطانا زنديقاً او زوكا ربا متحيزاً او مجنوناً معذوراً فكيف يفضل على من هو من اولياء الله المتبعين لرسوله او يساوي به ولا يقال يمكن ان يكون هذا متبعاً في الباطن فان هذا خطأ ايضاً بل الواجب متابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً . قال موسى بن عبد الاعلى الصديقي قلت للشافعي : ان صاحبنا الليث كان يقول : اذا رأيتم الرجل يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تعرضوا امره على الكتاب والسنة . فقال الشافعي : قصر الليث رحمه الله بل اذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطيير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا امره على الكتاب . واما ما يقوله بعض الناس عن رسول الله ﷺ انه قال « اطلمت على الجنة فرأيت اكثر اهلها البله » فهذا لا يصح عن رسول الله ﷺ ولا ينبغي نسبته اليه فان الجنة انما خلقت لأولي الالباب الذين ارشدتهم عقولهم والبايهم الى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر . وقد ذكر الله اهل الجنة بأوصافهم في كتابه فلم يذكر في اوصافهم البله الذي هو ضعف العقل وانما قال النبي ﷺ « اطلمت في الجنة فرأيت اكثر اهلها الفقراء » ولم يقله البله والطائفة الملامية

وهم الذين يفعلون ما يلامون عليه ويقولون نحن متبعون في الباطن ويقصدون
اخفاء المراسين ردوا باطلهم بباطل آخر والصراط المستقيم بين ذلك .
وكذلك الذين يصعقون عند سماع الانعام الحسنة مبتدعون ضالون وليس
للانسان ان يستدعي ما يكون سبب زوال عقله ولم يكن في الصحابة والتابعين
من يفعل ذلك ولو عند سماع القرآن بل كانوا كما وصفهم الله تعالى ﴿ اذا ذكر
الله وجلت قلوبهم واذ تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾
وكما قال الله تعالى ﴿ الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه
جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله
يهدي به من يشاء ومن يضل الله فما له من هاد ﴾ واما الذين ذكروهم العلماء
بخير من عقلاء المجانين فاولئك كان فيهم خير ثم زالت عقولهم . ومن علامة
هؤلاء انه اذا حصل في جنونهم نوع من الصحو تكلموا بما كان في قلوبهم
من الايمان ويهتدون بذلك في حال زوال عقلهم بخلاف من كان قبل جنونه
كافراً او فاسقاً لم يكن حدوث جنونه مزبلاً لما ثبت من كفره او فسقه .
وكذلك من جن من المؤمنين المتقين يكون محشوراً مع المؤمنين المتقين وزوال
العقل بجنون او غيره سواء سمي صاحبه مولها او ولها لا يوجب مزيد حال
بل حال صاحبه من الايمان والتقوى يبقى على ما كان عليه من خير وشر لانه
يزده او ينقصه ولكن جنونه يجرمه الزيادة من الخير كما انه يمنع عقوبته على
الشر ولا يمنحو عنه ما كان عليه قبله وما يحصل لبعضهم عند سماع الانعام المطربة
من الهديان والتكلم ببعض اللغات المخالفة للسان المعروف منه فذلك
شيطان يتكلم على لسانه كما يتكلم على لسان المصروع وذلك كله من الاحوال

الشيطانية وكيف يكون زوال العقل سببا او شرطا او تقربا الى ولاية الله
كما يظنه كثير من اهل الضلال حتى قال قائلهم :

هم معشر حلوا النظام وخرقوا ١١ • سياج فلا فرض لديهم ولا نفل

مجانين الا ان سر جنونهم • عزيز على ابوابه يسجد العقل

وهذا كلام ضال بل كافر يظن ان الجنون سرا يسجد العقل على بابه لما

راه من بعض المجانين من نوع مكاشفة او تصرف عجيب خارق للعادة ويكون

ذلك سبب ما اقترن به من الشياطين كما يكون للسحرة والكهان فيظن

هذا الضال ان كل من خبل او خرق عادة كان وليا لله ومن اعتقد هذا فهو

كافر فقد قال تعالى ﴿ هل انبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل افاك انيم ﴾

فكل من تنزل عليه الشياطين لا بد ان يكون عنده كذب وخبور . واما

الذين يتعبدون بالرياضات والخلوات ويتركون الجمع والجماعات فهم الذين ضل

سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا قد طبع الله على قلوبهم كما

قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال « من ترك ثلاث جمع تهاونا من

غير عذر طبع الله على قلبه » وكل من عدل عن اتباع الرسول ان كان عالما بها

فهو مفضوب عليه والافهو ضال . ولهذا شرع الله لنا ان نسأله في كل صلاة ان

يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين انعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء

والصالحين وحسن اولئك رفيقا غير المفضوب عليهم ولا الضالين . واما من

يتعلق بقصة موسى مع الخضر عليه السلام في تجويز الاستغناء عن الوحي

بالعلم اللدني الذي يدعيه بعض من عدم التوفيق فهو ما عهد زنديق فان موسى

عليه السلام لم يكن مبعوثا الى الخضر ولم يكن الخضر مأورا بمتابعته . ولهذا

قال له انت موسى بنى اسرائيل قال نعم ومحمد ﷺ مبعوث الى جميع الثقيلين
ونو كان موسى وعيسى حين لكانا من اتباعه واذا نزل عيسى عليه السلام
الى الارض انما يحكم بشريعة محمد فمن ادعى انه مع محمد ﷺ كاخضر مع موسى
او جوز ذلك لاحد من الامة فليجدد اسلامه وليشهد شهادة الحق فانه مفارق
لدين الاسلام بالكلية فضلا عن ان يكون من اولياء الله وانما هو من اولياء
الشیطان وهذا الموضع مفرق بين زنادقة القوم واهل الاستقامة (١) وكذا
من يقول بان الكعبة تطوف برجال منهم حيث كانوا فهلا خرجت الكعبة
الى الحديبية فطافت برسول الله ﷺ حين احصر عنها وهو يود منها نظرة
وهؤلاء لهم شبه بالدين وصفهم الله تعالى حيث يقول ﴿ بل يريد كل امرئ
منهم ان يؤتى صحفاً منشورة ﴾ الى آخر السورة ﴿ ونرى الجماعة حقاً وصواباً
والفرقة زيفاً وعذاباً ﴾ قال الله تعالى ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾
وقال تعالى ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات
واولئك لهم عذاب عظيم ﴾ وقال تعالى ﴿ ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً
لست منهم في شيء انما امرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ وقال تعالى
﴿ ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ﴾ جعل اهل الرحمة مستثنين من
الاختلاف وقال تعالى ﴿ ذلك بان الله نزل الكتاب بالحق وان الذين اختلفوا
في الكتاب لفي شقاق بعيد ﴾ وقد تقدم قوله ﷺ « ان اهل الكتابين افرقوا
في دينهم على ثنتين وسبعين ملة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين
ملة يعني الاهوا كلها في النار الا واحدة وهي الجماعة » وفي رواية قالوا من هي

(١) بياض في الاصل قدر كلمة

يا رسول الله قال « ما انا عليه واصحابي » فبين ان عامة المختلفين هالكون
إلا اهل السنة والجماعة وان الاختلاف واقع لاحالة وروى الامام احمد عن
معاذ بن جبل ان النبي ﷺ قال « ان ذئب الانسان كذئب الغنم يأخذ الشاردة
القاصية فاياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامّة والمسجدة وفي الصحيحين عن
النبي ﷺ انه قال لما نزل قوله تعالى ﴿ قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا
من فوقكم ﴾ قال اعوذ بوجهك ﴿ او يلبسكم شيئا ويذيق بعضهم بأس بعض ﴾
قال هاتان اهون فدل على انه لا بد ان يلبسهم شيئا ويذيق بعضهم بأس بعض مع
براءة الرسول من هذه الحال وعم فيها في جاهلية . ولهذا قال الزهري وقعت الفتنة
واصحاب رسول الله ﷺ متوافرون فاجمعوا على ان كل دم او مال او قرح اصاب
بتأويل القرآن فهو هدر ، نزولهم منزلة الجاهلية وقد روى مالك باسناده الثابت
عن عائشة رضي الله عنها انها كانت تقول ترك الناس العمل بهذه الآية يعني قوله
تعالى ﴿ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصالحوا بينهما ﴾ فان المسلمين لما
اقتتلوا كان الواجب الاصلاح بينهم كما امر الله تعالى فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة
وجاهلية وهكذا تسلسل النزاع ^(١) التي تنازع فيها الامة في الاصول والفروع
اذا لم ترد الى الله والرسول لم يتبين فيها الحق بل يصير فيها المتنازعون على غير
بينة من امرهم فانهم رحمهم الله اقر بعضهم بعضاً ولم ينبغ بعضهم على بعض كما
كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد فيقر
بعضهم بعضاً ولا يعتدي ولا يعتدى عليه وان لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف
المدموم فبني بعضهم على بعض اما بالقول مثل تكفيره وتفسيره واما بالفعل

مثل حبسه وضربه وقتله والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء
ابتدعوا بدعة وكفروا من خالفهم فيها واستحلوا منع حقه وعقوبته فالتاس
اذا خفي عليهم بعض ما بعث الله به الرسول اما عادلون واما ظالمون . فالعادل
فيهم الذي يعمل بما وصل اليه من آثار الانبياء ولا يظلم غيره والظالم الذي يعتدي
على غيره واكثرهم انما يظلمون مع علمهم بأنهم يظلمون . كما قال تعالى ﴿ وما
تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ وإلا فلو
سلكوا ما علموه من العدل اقر بعضهم بعضاً كالمقلدين لأئمة العلم الذين
يعرفون من انفسهم انهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله في تلك المسائل
فجعلوا أئمتهم نوابا عن الرسول وقالوا هذا غاية ما قدرنا عليه فالعادل منهم
لا يظلم الآخر ولا يعتدي عليه بقول ولا فعل مثل ان يدعي ان قول مقلده هو
الصحيح بلا حجة يبيدها ويذم من خالفه مع انه معذور . ثم ان انواع الافتراق
والاختلاف في الاصل قسمان اختلاف تنوع واختلاف تضاد واختلاف
التنوع على وجوه منه ما يكون كل واحد من القولين او الفعلين حقا مشروعا
كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة رضي الله عنهم حتى زجرهم النبي ﷺ
وقال كلاهما محسن . ومثله اختلاف الانواع في صفة الاذان والاقامة والاستفتاح
ومحل سجود السهو والتشهد وصلاة الخوف وتكبيرات العيد ونحو ذلك
بما قد شرع جميعه وان كان بعض انواعه ارجح او افضل ثم تجدد لكثير من
الامة في ذلك من الاختلاف ما اوجب اقتتال طوائف منهم على شفيع الاقامة
وايتارها ونحو ذلك وهذا عين المحرم وكذا تجدد كثيرا منهم في قلبه من
الهوى لاحد هذه الانواع والاعراض عن الآخر والنهي عنه ما دخل به

فيما نهى عنه النبي ﷺ . ومنه ما يكون كل من القولين هو في المعنى القول
الآخر لكن العبارتان مختلفتان كما قد يختلف كثير من الناس في الفاظ الحدود
وصوغ الأدلة والتعبير عن المسميات ونحو ذلك ثم الجهل أو الظلم يحمل على
حمد أحدي المقاتلين وذم الأخرى والاعتداء على قائلها ونحو ذلك . وأما اختلاف
التضاد فهو القولان المتنافيان أما في الأصول وأما في الفروع عند الجمهور
الذين يقولون المصيب واحد والخطب في هذا أشد لأن القولين يتنافيان .
لكن نجد كثيرا من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذي مع منازعه فيه
حق ما أو معه دليل يقتضي حقا ما فيرد الحق مع الباطل حتى يبقى هذا مبطلا
في البعض كما كان الأول مبطلا في الأصل وهذا يجري كثيرا لأهل السنة .
وأما أهل البدعة فالامر فيهم ظاهر ومن جعل الله له هداية ونورا رأى من
هذا ما يبين له منفعة ما جاء في الكتاب والسنة من النهي عن هذا واشباهه
وإن كانت القلوب الصحيحة تنكر هذا لكن نور على نور والاختلاف
الأول الذي هو اختلاف التنوع الذم فيه واقع على من بنى على الآخر فيه .
وقد دل القرآن على حمد كل واحدة من الطائفتين في مثل ذلك إذا لم يحصل
بني . كما في قوله تعالى ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبأذن
الله ﴾ وقد كانوا اختلفوا في قطع الأشجار فقطع قوم وترك آخرون . وكما في
قوله تعالى ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غم القوم وكنا
لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما ﴾ نخص سليمان بالفهم
وإثني عليهما بالحكم والعلم . وكما في إقرار النبي ﷺ يوم بني قريظة لمن صلى العصر
في وقتها ولمن أخرها إلى أن وصل إلى بني قريظة وكما في قوله « إذا اجتهد

الحاكم فاصاب فله اجران واذا اجتهد فالخطأ فله اجر ، وذلك الاختلاف الثاني هو ما حمد فيه احدى الطائفتين وذمت الاخرى كما في قوله تعالى ﴿ ولوشاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعدما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ﴾ وقوله تعالى ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ﴾ الآيات واكثر الاختلاف الذي يؤل الى الاهواء بين الامة من القسم الاول وكذلك الى سفك الدماء واستباحة الاموال والعداوة والبغضاء لان احدى الطائفتين لاتعترف للاخرى بما معها من الحق ولا تنصفها بل تزيد على مامع نفسها من الحق زيادات من الباطل والاخرى كذلك وكذلك جعل الله مصدره البغي في قوله ﴿ وما اختلف الذين اتوه الا من بعد ما جاءهم البينات بغيا بينهم ﴾ لان البغي مجاوزة الحد وذاكر هذا في غير موضع من القرآن لتكون عبرة لهذه الامة . وقريب من هذا الباب ما خرجه في الصحيحين عن ابي الزناد عن الاعرج عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال « ذروني ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلفهم على انبيائهم فاذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه واذا امرتكم بامر فاتوا منه ما استطعتم » فامرهم بالامسك عما لم يؤمروا به معللا بان سبب هلاك الاولين انما كان كثرة السؤال ثم الاختلاف على الرسل بالمعصية . ثم الاختلاف في الكتاب من الذين يقرون به على نوعين : احدهما اختلاف في تنزيهه والثاني اختلاف في تأويله وكلاهما فيه ايمان ببعض دون بعض فالاول كاختلافهم في تكلم الله بالقرآن وتنزيهه فطائفة قالت : هذا الكلام حصل بقدرته ومشيئته لكونه مخلوقا في غيره لم يقم به وطائفة قالت

بل هو صفة له قائم بذاته ليس بمخلوق لكنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته وكل
من الطائفتين جمعت في كلامها بين حق وباطل فأمنت ببعض الحق وكذبت
بما تقوله الاخرى من الحق وقد تقدمت الاشارة الى ذلك . واما الاختلاف
في تأويله الذي يتضمن الايمان ببعضه دون بعض فكثير كما في حديث عمرو
ابن شعيب عن ابيه عن جده قال خرج رسول الله ﷺ على اصحابه ذات يوم
وهم يختصمون في القدر وهذا ينزع باية وهذا ينزع باية فكانما فيء في وجهه
حب الرمان فقال امهنا امهنا امهنا وكلمتم ان تضربوا كتاب الله ببعضه
ببعض انظروا ما امرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فاتتهوا . وفي رواية « يا قوم
بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على انبيائهم وضربهم الكتاب ببعضه
ببعض وان القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن يصدق
بعضه بعضا ما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه فآمنوا به وفي رواية فان الامم
قبلكم لم يلعنوا حتى اختلفوا وان المرء في القرآن كفره وهو حديث مشهور
مخرج في المسند والسنن . وقد روى اصل الحديث مسلم في صحيحه من حديث
عبد الله بن رباح الانصاري ان عبد الله بن عمر قال هجرت الى النبي ﷺ يوما
فسمع اصوات رجلين اختلفا في آية نخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في
وجهه الغضب فقال انما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب . وجميع
اهل البدع مختلفون في تأويله مؤمنون ببعضه دون بعض يقرون بما يوافق
رأيهم من الآيات وما يخالفه اما ان يتأوله تأويلا يحرفون الكلم عن مواضعه
واما ان يقول ما لانفهم من معانيه وهو في معنى الكفر بذلك لان الايمان
باللفظ بلا معنى هو من جنس ايمان اهل الكتاب كما قال تعالى ﴿ مثل الذين حملوا

التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا ﴿ وقال تعالى ﴿ ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب الا امانى ﴾ اي الا تلاوة من غير فهم معناه وليس هذا كالمؤمن الذي فهم ما فهم من القرآن فعمل به واشتبه عليه بعضه فوكل علمه الى الله كما امره النبي ﷺ بقوله « فاعرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه الى عالمه » فامتثل ما أمر به ﷺ قوله ﴿ ودين الله في الارض والسماء واحد وهو دين الاسلام قال الله تعالى ﴿ ان الدين عند الله الاسلام ﴾ وقال تعالى ﴿ ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾ وهو بين التقصير وبين التشبيه والتعطيل وبين الجبر والتقدر وبين الامن والاياس ﴿ ثبت في الصحيح عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه قال « انا معاشر الانبياء ديننا واحد » وقوله تعالى ﴿ ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ عام في كل زمان ولكن الشرائع تتنوع كما قال تعالى ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ فالدين هو ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده على السنة رسله واصل هذا الدين وفروعه روايته عن الرسل وهو ظاهر غاية الظهور يمكن كل مميز من صغير وكبير وفصيح واعجمي وذكي وبليد ان يدخل فيه باقصر زمان وانه يقع الخروج منه باسرع من ذلك من انكار كلمة أو تكذيب او معارضة او كذب على الله أو ارتياب في قول الله تعالى او رد لما انزل او شك فيما نفي الله عنه الشك او غير ذلك مما في معناه . فقد دل الكتاب والسنة على ظهور دين الاسلام وسهولة تعلمه وانه يتعلمه الوافد ثم يولي في وقته واختلاف تعليم النبي ﷺ في بعض الالفاظ بحسب من يتعلم فان كان بعيد الوطن كضمام بن ثعلبة النجدي ووفد عبد القيس علمهم ما لم يسعهم جهله مع علمه ان دينه سينتشر في الآفاق ويرسل اليهم

من يفقههم في سائر ما يحتاجون اليه ومن كان قريب الوطن يمكنه الاتيان
كل وقت بحيث يتعلم على التدرج او كان قد علم فيه انه قد عرف ما لا بد منه
اجابه بحسب حاله وحاجته على ما يدل قرينة حال السائل كقوله قل آمنت بالله
ثم استقم . واما من شرع ديناً لم يأذن به الله فمعلوم ان اصوله المستزمنة له
لا يجوز ان تكون منقولة عن النبي ﷺ ولا عن احد من المرسلين اذ هو
باطل وملزوم الباطل باطل كما ان لازم الحق حق وقوله . بين الغلو والتقصير
قال تعالى ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ﴾ وقال تعالى
﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله
لا يحب المعتدين - وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي انتم به
مؤمنون ﴾ وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ان ناساً من اصحاب
رسول الله ﷺ سألوا اصحاب رسول الله عن عمله في السر فقال بعضهم لا آكل
اللحم وقال بعضهم لا اتزوج النساء وقال بعضهم لا انام على فراش فبلغ ذلك
النبي ﷺ فقال « ما بال اقوام يقول احدم كذا وكذا لكني اصوم وافطر
وانام واقوم واكل اللحم واتزوج النساء فن رغب عن سنتي فليس مني »
وفي غير الصحيحين سألوا عن عبادته في السرفكانهم تقالوها . وذكري في سبب
نزول هذه الآية الكريمة عن ابن جريج عن عكرمة ان عثمان بن مظعون
وعلي بن ابي طالب وابن مسعود والمقداد بن الاسود وسالما مولى ابي
حذيفة في اصحابه تبتلوا بجلسوا في البيوت واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح
وحرموا طيبات الطعام واللباس الا ما يأكل ويلبس اهل السياحة من بني
اسرائيل وهوا بالاختصاص واجمعوا القيام الليل وصيام النهار فنزلت ﴿ يا أيها

الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب
المعتدين ﴿ يقول لا تسيروا بغير سنة المسلمين يريد ما حرموا من النساء
والطعام واللباس وما اجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار وما هموا به من
الاختصاص فنزلت فيهم . فيمث النبي ﷺ اليهم فقال « ان لا نفسكم عليكم حقة
وان لا عينكم حقا صوموا وافطروا وصلوا ونوموا فليس منا من ترك سنتنا »
فقالوا « اللهم سامنا واتبعنا ما انزلت » وقوله وبين التشبيه والتعطيل تقدم ان
الله سبحانه وتعالى يجب ان يوصف بما وُصف به نفسه وبما وصفه به رسوله
من غير تشبيه فلا يقال سمع كسمعنا ولا بصر كبصرنا ونحوه ومن غير تعطيل
فلا ينفي عنه ما وصف به نفسه او وصفه به اعرف الناس به رسوله ﷺ فان
ذلك تعطيل . وقد تقدم الكلام في هذا المعنى ونظير هذا القول ، قوله ومن
لم يتوق النبي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه وهذا المعنى مستفاد من قوله تعالى
﴿ ليس كمثل شيء ، وهو السميع البصير ﴾ فقوله ﴿ ليس كمثل شيء ﴾ رد على المشبهة
وقوله ﴿ وهو السميع البصير ﴾ رد على المعطلة وقوله وبين الجبر والقدر تقدم الكلام
ايضا على هذا المعنى وان العبد غير مجبور على افعاله واقواله وانها بمنزلة حركات
المرتعش وحركات الاشجار بالرياح وغيرها وليست مخلوقة للعبد بل هي فعل العبد
وكسبه وخلق الله تعالى وقوله وبين الامن والاياس تقدم الكلام ايضا على هذا
المعنى وانه يجب ان يكون العبد خائفاً من عذابه راجياً رحمته وان الخوف
والرجاء بمنزلة الجناحين للعبد في سيره الى الله تعالى والدار الآخرة . قوله
﴿ فهذا ديننا واعتقادنا ظاهرا وباطنا ونحن برآء الى الله تعالى من كل من
خالف الذي ذكرناه وبيناه ونسأل الله تعالى ان يثبتنا على الايمان ويختم

لنابه ويمصنا من الاهواء المختلفة والاراء المتفرقة والمذاهب الردية مثل
المشبهة والمعتزلة والجهمية والجبرية والقدرية وغيرهم من الذين خالفوا السنة
والجماعة وحالفوا الضلالة ، ونحن منهم برآء وهم عندنا ضلال واردياء وباللّٰه العصمة
والتوفيق ﴿ الاشارة بقوله فهذا الى كل ما تقدم من اول الكتاب الى هنا
والمشبهة هم الذين شبهوا الله سبحانه بالخلق في صفاته وقولهم عكس قول النصارى
شبهوا المخلوق وهو عيسى عليه السلام بالخالق وجعلوه إلهاً وهؤلاء شبهوا
الخالق بالمخلوق كداود الجواربي وابشبايه والمعتزلة وهم عمرو بن عبيد وواصل
ابن عطاء العزال واصحابها سموا بذلك لما اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن
البصري رحمه الله في اوائل المائة الثانية وكانوا يجلسون معتزلين فيقول قتادة
 وغيره اولئك المعتزلة وقيل ان واصل بن عطاء هو الذي وضع اصول مذهب
المعتزلة وتابعه عمرو بن عبيد تلميذ الحسن البصري فلما كان زمن هارون الرشيد
صنف لهم ابو الهذيل كتابين وبين مذهبهم وبنى مذهبهم على الاصول الخمسة
التي سموها العدل والتوحيد واناذ الوعيد والمنزلة بين المنزلتين والامر بالمعروف
والنهي عن المنكر ولبسوا فيها الحق بالباطل اذ شأن البدع هذا اشتهاها على
حق وباطل وهم مشبهة الافعال لانهم قالوا افعال الله تعالى على اعمال عباده
وجعلوا ما يحسن من العباد يحسن منه وما يقبح من العباد يقبح منه وقالوا
يجب عليه ان يفعل كذا ولا يجوز له ان يفعل كذا بمقتضى ذلك القياس الفاسد
فان السيد من بني آدم لو رأى عبده تزني بأمانه ولا يمنعهم من ذلك لعد اما
مستحسنا للقيح واما عاجزا فكيف يصح قياس افعاله سبحانه وتعالى على
افعال عباده والكلام على هذا المعنى مبسوط في موضعه فأما العدل فستر وتحتة

في القدر وقالوا ان الله لا يخلق الشر ولا يقضي به اذ لو خلقه ثم يعذبهم عليه يكون ذلك جورا والله تعالى عادل لا يجوز ويلزم على هذا الاصل الفاسد ان الله تعالى يكون في ملكه ما لا يريد فيريد الشيء ولا يكون ولازمه وصفه بالعجز تعالى الله عن ذلك . واما التوحيد فستروحتة القول بخلق القرآن اذ لو كان غير مخلوق لزم تعدد القدماء ويلزمهم على هذا القول الفاسد ان علمه وقدرته وسائر صفاته مخلوقة او المتناقض . واما الوعيد فقالوا اذا اوعد بعض عبيده وعيدا لا يجوز ان لا يعذبهم ويخلف وعيدهم لانه لا يخلف الميعاد فلا يعفو عن يثاء ولا يغفر لمن يريد عتدهم . واما المنزلة بين المنزلتين فعندهم ان من ارتكب كبيرة يخرج من الايمان ولا يدخل في الكفر . واما الامر بالمعروف وهو انهم قالوا علينا ان نأمر غيرنا بما امرنا به وان نلزمه بما يلزمنا وذلك هو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وضمنوه انه يجوز الخروج على الائمة بالقتال اذا جاروا . وقد تقدم جواب هذه الشبهة الخمس في موضعها وعندهم ان التوحيد والعدل من الاصول العقلية التي لا يعلم صحة السمع الا بعدها واذا استدلوا على ذلك بادلة سمعية انما يذكرونها للاعتضاد بها لا للاعتماد عليها فهم يقولون لا تثبت هذه بالسمع بل العلم بها متقدم على العلم بصحة النقل فمنهم من لا يذكرونها في الاصول اذ لا فائدة فيها عندهم ومنهم من يذكرونها ليبين موافقة السمع للعقل ولا يناس الناس بها لا للاعتماد عليها والقرآن والحديث فيه عندهم بمنزلة الشهود الزائدين على النصاب والمدد اللاحق بمسكر مستغن عنهم وبمنزلة من يتبع هواه واتفق ان الشرع ما يهواه . كما قال عمر بن عبد العزيز لا تكن ممن يتبع الحق اذا وافق هواه ويخالفه اذا خالف هواه فاذا انت لا تثاب على ما وافقته من الحق وتماقب على ما تركته

منه لانك انما اتبعت هواك في الموضوعين . و كما ان الاعمال بالنيات
 « وانما لكل امرئ ما نوى » والعمل يتبع قصد صاحبه و ارادته فالاعتقاد
 القوي يتبع ايضاً علم ذلك وتصديقه فاذا كان ذلك تابعاً للايمان كان من الايمان
 كما ان العمل الصالح اذا كان عن نية صالحة كان صالحاً و الا فلا فقول اهل الايمان
 التابع لغير الايمان كعمل اهل الصلاح التابع لغير قصد اهل الصلاح وفي
 المعتزلة زنادقة كثيرة وفيهم من ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم
 يحسنون صنفاً والجهمية هم المنتسبون الى جهنم بن صفوان الترمذي وهو
 الذي اظهر نفى الصفات والتعطيل وهو اخذ ذلك عن الجعد بن درهم الذي
 ضحى به خالد بن عبد الله القسري بواسطة فانه خطب الناس في يوم عيد الاضحى
 وقال : ايها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فاني مضع بالجعد بن درهم فانه زعم
 ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول
 الجعد علواً كبيراً ثم نزل فذبجه وكان ذلك بعد استفتاء علماء زمانه وهم السلف
 الصالح رحمهم الله تعالى وكان الجهنم بعده بخراسان فأظهر مقالته هناك وتبعه
 عليها ناس بعد ان ترك الصلاة اربعين يوماً شكاً في ربه وكان ذلك لمناظرته
 قوماً من المشركين يقال لهم السمنية فلاسفة الهند الذين ينكرون من العلم
 ماسوى الحسيات قالوا له : هذا ربك الذي تعبده هذا يرى اويشم او يذاق
 او يلمس فقال : لا فقالوا : هو معدوم فبقي اربعين يوماً لا يعبد شيئاً ثم لما
 خالقه من معبود يألمه نقش الشيطان اعتقاداً نحته فكره فقال : انه الوجود
 المطلق ونفى جميع الصفات واتصل بالجعد . وقد قيل ان الجعد كان قد اتصل
 بالصابئة الفلاسفة من اهل حران وانه ايضاً اخذ شيئاً عن بعض اليهود

المحرفين لدينهم المتصلين بلييد بن الاعصم الساحر الذي سحر النبي ﷺ فقتل
الجهم بخراسان قتله سلم بن احوز ولكن كانت قد فشت مقالته في الناس وتقلدها
بعده المعتزلة ولكن كان الجهم ادخل في التعطيل منهم لانه ينكر الاسماء
حقيقة وهم لا ينكرون الاسماء بل الصفات وقد تنازع العلماء في الجهمية هل
هم من الثنتين وسبعين فرقة ام لا وهم في ذلك قولان . ومن قال انهم ليسوا
من الثنتين وسبعين فرقة عبد الله بن المبارك ويوسف بن اسباط وانما اشهرت
مقالة الجهمية من حين محنة الامام احمد بن حنبل وغيره من علماء السنة فانه
من امارة المأمون قووا وكثروا فانه قد قام بخراسان مدة واجتمع بهم . ثم
كتب بالحنة من طرطوس سنة ثمان عشرة ومائتين وفيها مات . وردوا لامام
احمد الى الحبس ببغداد الى سنة عشرين وفيها كانت محنته مع المعتصم ومناظرته
لهم بالكلام فلما رد عليهم ما احتجوا به عليه وبين انه لا حجة لهم في شيء من
ذلك وان طلبهم من الناس ان يوافقوهم وامتنعوا منهم اياهم جهل وظلم واراد المعتصم
اطلاقه ، اشار عليه من اشار بان المصاحبة ضربه لثلاث تنكسر حرمة اخلافة
من بعد صرة فلما ضربوه قامت الشناعة في العامة وخافوا فاطلقوه وقصته
مذكورة في كتب التاريخ . ومما انفرد به الجهم ان الجنة والنار تفتيان وان
الايمان هو المعرفة فقط والكفر هو الجهل فقط وانه لا فعل لاحد في الحقيقة
الا لله وحده وان الناس انما ينسب اليهم افعالهم على سبيل المجاز كما يقال
تحركت الشجرة ودار الفلك وزالت الشمس ولقد احسن القائل
عجبت لشیطان دعا الناس جهرة * الى النار واشتق اسمه من جهنم
وقد نقل عن ابي حنيفة رحمه الله لما سئل عن الكلام في الاعراض والاجسام

فقال لعن الله عمرو بن عبيد هو فتح على الناس الكلام في هذا والجبرية اصل
قولهم من الجهم بن صفوان كما تقدم وان فعل العبد بمنزلة طوله ولونه وهم
عكس القدرية نفاة القدر فان القدرية لما نسبوا الى القدر لفهم اياه كما سميت
المرجئة لفهم الارزاء وانه لا احد مرجأ لامر الله اما يعذبهم واما يتوب عليهم
وقد تسمى الجبرية قدرية لانهم غلوا في اثبات القدر وكما يسمى الذين لا
يجزمون بشيء من الوعد والوعيد بل يغفلون في ارجاء كل امر حتى الانواع
فلا يجزمون بثواب من تاب كما لا يجزم بعقوبة من لم يتب وكما لا يجزم
لمعين وكانت المرجئة الاولى يرجئون عثمان وعلياً ولا يشهدون بايمان ولا كفر
وقد ورد في ذم القدرية احاديث في السنن منها ما روي ابو داود في سننه من
حديث عبد العزيز بن ابي حازم عن ابيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال «القدرية
مجوس هذه الامة ان مرضوا فلا تعودوهم وان ماتوا فلا تشهدوهم»
وروي في ذم القدرية احاديث آخر كثيرة تكلم اهل الحديث في صحة رفعها
والصحيح انها موقوفة بخلاف الاحاديث الواردة في ذم الخوارج . فان
فيهم في الصحيح وحده عشرة احاديث اخرج البخاري منها ثلاثة واخرج
مسلم سائرهما ولكن شبههم للمجوس ظاهر بل قولهم اردى من قول المجوس
فان المجوس اعتقدوا وجود خالفين والقدرية اعتقدوا خالفين وهذه البدع
المتقابلة حدثت من الفتن المفرقة بين الامة كما ذكر البخاري في صحيحه عن
سعيد بن المسيب قال : وقعت الفتنة الاولى يعني مقتل عثمان فلم تبق من اصحاب
بدر احداً . ثم وقعت الفتنة الثانية فلم تبق من اصحاب الحديدية احداً . ثم
وقعت الثالثة فلم ترتفع والناس طباخ اي عقل وقوة فالخوارج والشيعمة حدثوا

في الفتنة الاولى والقدرية والمرجئة في الفتنة الثانية والجهمية ونحوهم بعد الفتنة
الثالثة فصار هؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً يقابلون البدعة بالبدعة
اولئك غلوا في علي واولئك كفروه واولئك غلوا في الوعيد حتى خلدوا بعض
المؤمنين واولئك غلوا في الوعد حتى نفوا بعض الوعيد اعني المرجئة واولئك
غلوا في التنزيه حتى نفوا الصفات وهؤلاء غلوا في الاثبات حتى وقعوا في
التشبيه وصاروا يبتدعون من الدلائل والمسائل ما ليس بمشروع ويعرضون
عن الامر المشروع وفيهم من استعان على ذلك بشيء من كتب الاوائل
اليهود والنصارى والمجوس والصابئين فانهم قرأوا كتبهم فصار عندهم من
ضلالتهم ما ادخلوه في مسائلهم ودلائلهم وغيره في اللفظ تارة وفي المعنى
أخرى فلبسوا الحق بالباطل وكتبوا حقاً جاء به نبهم فتفرقوا واختلفوا
وتكلموا حينئذ في الجسم والعرض والتجسيم نفيًا واثباتًا . وسبب ضلال
هذه الفرق وامثالهم عدوهم عن الصراط المستقيم الذي امرنا الله باتباعه فقال
تعالى ﴿ وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن
سبيله ﴾ وقال تعالى ﴿ قل هذه سبيلي ادعوا الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني ﴾
فوجد لفظ صراطه وسبيله وجمع السبل المخالفة له . وقال ابن مسعود رضي الله
عنه : خط لنا رسول الله ﷺ خطاً وقال « هذا سبيل الله » ثم خط خطوطاً
عن يمينه وعن يساره وقال « هذه سبل على كل سبيل شيطان يدعو اليه »
ثم قرأ ﴿ وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن
سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ ومن ههنا يعلم ان اضطرار العبد الى
سؤال هداية الصراط المستقيم فوق كل ضرورة ولهذا شرع الله تعالى في

الصلاة قراءة ام القرآن في كل ركعة اما فرضاً او ايجاباً على حسب اختلاف
العلماء في ذلك لاحتياج العبد الى هذا الدعاء العظيم القدر المشتمل على اشرف
المطالب وأجلها . فقد امرنا الله تعالى ان نقول ﴿ اهدنا الصراط المستقيم
صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ وقد ثبت
عن النبي ﷺ انه قال « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » وثبت في
الصحيح عن النبي ﷺ انه قال « لتبتعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة
حتى لو دخلوا جعر ضب لدختموه » قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟
قال « فن » قال طائفة من السلف : من انحرف من العلماء ففيه شبهة من
اليهود ومن انحرف من العباد ففيه شبهة من النصارى . فلهذا تجد اكثر
المنحرفين من اهل الكلام من المعتزلة ونحوهم فيه شبهة من اليهود حتى ان
علماء اليهود يقرأون كتب شيوخ المعتزلة ويستحسنون طريقتهم وكذا
شيوخ المعتزلة يميلون الى اليهود ويرجعونهم على النصارى واكثر المنحرفين
من العباد من المتصوفة ونحوهم فيه شبهة من النصارى . ولهذا يميلون
الى نوع من الرهبانية والحلول والاتحاد ونحو ذلك وشيوخ هؤلاء يذمون
الكلام واهله وشيوخ اولئك يعيبون طريقة هؤلاء ويصنفون في ذم السماع
والوجد وكثير من الزهد والعبادة التي احدثها هؤلاء وللفرق الضلال في
الوحي طريقتان طريقة التبديل وطريقة التججيل اما اهل التبديل فهم نوعان
اهل الوهم والتخييل واهل التعريف والتأويل فاهل الوهم والتخييل هم الذين
يقولون ان الانبياء اخبروا عن الله واليوم الآخر والجنة والنار بامور غير
مطابقة للأمر في نفسه لكنهم خاطبوه بما يتخيلون به ويتوهمون به ان الله

شيء عظيم كبير وان الابدان تعادوان لهم نعيما محسوسا وعقابا محسوسا وان كان
الامر ليس كذلك لان مصالحة الجمهور في ذلك وان كان كذبا فهو كذب لصحة
الجمهور وقد وضع ابن سينا وامثاله قانونهم على هذا الاصل . واما اهل التعريف
والتأويل فهم الذين يقولون ان الانبياء لم يقصدوا بهذه الاقوال ما هو الحق
في نفس الامر وان الحق في نفس الامر هو ما علمناه بقولنا ثم يجتهدون
في تأويل هذه الاقوال الى ما يوافق رأيهم بانواع التأويلات . ولهذا كان
اكثرهم لا يجزمون بالتأويل بل يقولون يجوز ان يراد كذا وغاية ما معهم
امكان احتمال اللفظ . واما اهل التجهيل والتضليل الذين حقيقة قوتهم ان
الانبياء واتباع الانبياء جاهلون ضالون لا يعرفون ما اراد الله بما وصف به
نفسه من الآيات واقوال الانبياء ويقولون يجوز ان يكون للنص تأويل
لا يعلمه الا الله لا يعلمه جبرائيل ولا محمد ولا غيره من الانبياء فضلا عن
الصحابة والتابعين لهم باحسان وان محمدا صلى الله عليه وسلم كان يقرأ ﴿ الرحمن على العرش
استوى - اليه يصعد الكلم الطيب - مامتك ان تسجد لما خلقت بيدي ﴾ وهو
لا يعرف معاني هذه الآيات بل معناها الذي دلت عليه لا يعرفه الا الله تعالى
ويظنون ان هذه طريقة السلف . ثم منهم من يقول ان المراد بها خلاف
مدلولها الظاهر المفهوم ولا يعرفه احد كما لا يعلم وقت الساعة ومنهم من يقول
بل تجرى على ظاهرها وتحمل على ظاهرها ومع هذا فلا يعلم تأويلها الا الله
فيتناقضون حيث اثبتوا لها تأويلا يخالف ظاهرها وقالوا مع هذا انها
تحمل على ظاهرها وهؤلاء يشتركون في القول بان الرسول لم يبين المراد
بالنصوص التي يجعلونها مشكلة او متشابهة ولهذا يجعل كل فريق المشكل

من نصوصه غير ما يجعله الفريق الآخر مشكلا ثم منهم من يقول لم يعلم
معانيها ايضا ومنهم من يقول علمها ولم يبينها بل احال في بيانها على الأدلة
العقلية وعلى من يجتهد في العلم بتأويل تلك النصوص فهم مشتركون في ان
الرسول على ما يوافق معقولنا وان الانبياء واتباعهم لا يعرفون العقليات ولا
يفهمون السمعيات وكل ذلك ضلال وتضليل عن سواء السبيل نسأل الله
السلامة والعافية من هذه الاقوال الواهية المفضية بقائلها الى الهاوية سبحانه
ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . تم

فهرست

شرح الطحاوية في العقيدة السلفية

صحيفة

- ٢ مقدمة النشر
٣ شارح العقيدة
٤ مقدمة ائشارح . والبحث في اصول الدين
٥ البحث في وجوب الايمان بما جاء به الرسول ايمانا عاما مجملا وان معرفته على
التفصيل فرض على الكفاية
٧ بحث الشارح في صاحب الرسالة الطحاوية
١٢ التوحيد وانواعه
٢٣ مراتب الشهادة
٢٩ التنبيه على عدم الالتفات الى اقوال علماء الكلام في التوحيد
٣٢ بحث في ان الله تعالى (ليس كمثل شي)

- ٣٦ البحث في ان المخاطب لا يفهم المعاني الا اذا عرف عين مسماها او ما يناسب عينها
٣٩ « في قدرة الله تعالى وانه لا شيء يعجزه
٤١ مذهب اهل السنة والمعطلة في التعبير عن الحق بالالفاظ الشرعية
٤٢ تفسير كلمة التوحيد . اعراب لا إله إلا الله
٤٣ البحث في قوله قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء
٤٤ البحث في الاستدلال بالمقدمات الخفية
٤٦ البحث في قوله لا يفنى ولا يبديد ، ولا يكون الا ما يريد
٤٦ البحث في الارادة وانواعها وفي مذهب المعتزلة والرد عليهم
٤٧ « في ان الامر هل هو مستلزم للارادة ام لا .
٥٠ « في ان الله تعالى لا تبلغه الاوهام ولا تدركه الافهام ولا يشبه الانام
وقول المشبهة ورد شبههم
٥٣ « في ان الله تعالى حي لا يموت قيوم لا ينام
٥٥ « في ان الله تعالى هو الخالق الرازق . وانه المميت الباعث
٥٦ « في ان الله تعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال ، صفات الذات والفعل
٥٨ « في ان الذات لا يتصور انفصال الصفات عنها والرد على من خالف ذلك
٥٩ مذهب المعتزلة والجهمية في الصفات والرد عليهم
٦٣ البحث في تسلسل الحوادث في الماضي والمستقبل وتقرير ذلك
٦٤ مذهب الجهم واتباعه في تسلسل الحوادث
٦٨ البحث في معنى الربوبية والخلق . وثبوت صفاته سبحانه في الازل . ومذهب
اهل السنة والمعتزلة في ذلك
٧٠ البحث في المثل الاعلى
٧١ الجمع بين قوله تعالى - وله المثل الاعلى - وبين قوله - ليس كمثله شيء
٧٢ اعراب ليس كمثله شيء . والقول بان الله خلق الخلق عالما بهم

- ٧٤ بحث في تقدير الاقدار، وضرب الآجال
- ٧٥ « في الدعاء
- ٧٧ « في المشيئة
- ٧٩ « في الهدى والضلال . ومذهب المعتزلة والرد عليهم
- ٨٠ « في الايقان
- ٨١ « في ان كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى
- ٨١ « في المعجزات
- ٨٣ « في خبر الآحاد
- ٨٩ « في الفرق بين النبي والرسول . وان محمداً خاتم النبيين
- ٩٠ « في ان محمداً خاتم الانبياء ، وسيد المرسلين
- ٩١ « في التفضيل بين الانبياء
- ٩٢ « في المحبة وان محمداً حبيب الله . والتفريق بين المحبة والخلة
- ٩٤ « في مراتب المحبة
- ٩٥ « في كذب من ادعى النبوة بعد محمد . وان محمداً أرسل للعالمين جميعاً
- ٩٦ اعراب وما ارسلناك الا كافة
- ٩٧ « في ان القرآن كلام الله . وفي اقوال الفرق في مسألة الكلام وهي تسعة . توضيح مذهب اهل السنة والرد على من خالفهم
- ١٠٨ « في ان ما في المصحف كلام الله والرد على من خالف ذلك
- ١١٧ « في المقدار المعجز من القرآن
- ١١٨ « في نفي التشبيه عن الله تعالى . الرؤية والرد على من نقاها
- ١٢٨ « في التأويل
- ١٣٠ « في وجوب تحكيم الرسول والانقياد له
- ١٣٢ « في انه لا يثبت اسلام من لم يسلم لنصوص الوحي

- ١٣٤ بحث في التحذير من الكلام في اصول الدين بغير علم
- « ١٣٨ في ان الواجب ان يجعل ما قاله الله ورسوله هو الاصل . في الالفاظ التي لم ترد في الشرع ولا في اللغة كالجوهر والتحيز وما شابهها معاني التركيب وهي ستة
- « ١٤٠ في بيان حال من عدل عن الكتاب والسنة الى كلام الكلاميين والاستشهاد على ذلك بقول فحول العلماء كالغزالي والرازي وغيرها
- « ١٤٢ في بيان حكم من طلب الدين بعلم الكلام
- « ١٤٣ في الرد على المعتزلة ومن نحا نحوهم في نفي الرؤية وعلى من يشبه الله تعالى بشيء من مخلوقاته
- « ١٤٧ في بيان درجة الراسخين في العلم وامتيازهم على العوام
- « ١٤٩ في امراض القلوب وتقسيمها
- « ١٥١ في ان الله تعالى منزه عن الحدود والغايات الخ
- « ١٥٢ في معنى الحد
- « ١٥٤ في لفظ الجمة
- « ١٥٧ في الاسراء والمعراج
- « ١٦١ في الحوض
- « ١٦٣ في الشفاعة وانواعها وهي ثمانية
- « ١٧١ في الاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وسلم وغيره في الدنيا الى الله تعالى في الدعاء وتفصيل ذلك
- « ١٧٣ في الميثاق الذي اخذه الله تعالى من آدم وذريته
- « ١٨١ في ان الله تعالى علم في الازل من يدخل الجنة ومن يدخل النار الخ
- « ١٨٢ في ان كل انسان ميسر لما خلق له ، وان السعيد من سعد بقضاء الله ، والشقي من شقي بقضاء الله
- « ١٨٣ في القدر والنهي عن السؤال لم فعل

- ١٨٥ بحث في ان منشأ الضلال انما هو من التسوية بين المشيئة والارادة ، وبين المحبة والرضى
- ١٨٦ « في المراد واقسامه
- ١٨٧ « في آثار القدر
- ١٩٣ « في اوجه القضاء
- ١٩٥ « في ان مبنى الايمان بالله تعالى ومبنى العبودية على التسليم
- ١٩٧ « فيما يجب اعتقاده والعمل به مما جاءت به الشريعة
- ١٩٧ « في اللوح والقلم
- ١٩٩ « في القلم واقسامه الاربعة
- ٢٠٢ تنمة في القول بان الله تعالى قد سبق علمه بالكائنات وانه قدر مقاديرها قبل خلقها
- ٢٠٤ تنمة في القول بالقدر وسبق علمه بالكائنات قبل خلقها
- ٢٠٥ بحث في اصول القدر وهي خمسة
- ٢٠٦ « في ان القلب له حياة وموت ومرض وشفاء
- ٢٠٩ « في ان العرش والكرسي حق
- ٢١٢ « في ان الله تعالى غنى عن العرش وما دونه ومحيط بكل شيء و فوقه
- ٢١٧ « في بيان النصوص الواردة المتنوعة المحككة الدالة على علو الله تعالى على خلقه وكونه فوق عباده
- ٢٢١ « بالدليل على ثبوت علو الله تعالى بالعقل
- ٢٢٣ « في الرد على من قال ان السماء قبلة الدعاء
- ٢٢٥ « في الخلة والمحبة وان الله تعالى اتخذ ابراهيم خليلا وكلم موسى تكليما
- ٢٢٨ « في وجوب الايمان بالملائكة والنبين والكتب المنزلة على المرسلين
- ٢٣٣ « في المفاضلة بين الملائكة وصالحى البشر وقول الفرق في ذلك

- ٢٤١ بحث في بيان اولى العزم من الرسل
- ٢٤٢ « في ان الاسلام والايمان واحد وان المسلم لا يخرج من الاسلام
بارتكاب الذنب ما لم يستحلّه
- ٢٤٣ « في عدم المجادلة في القرآن وبيان معناها
- ٢٤٦ « في الرد على الخوارج القائلين بالتكفير بكل ذنب
- ٢٥٠ نكتة في عيوب اهل البدع وممدوح اهل العلم
- ٢٥٥ بحث في رجاء العفو للمحسنين وان الله تعالى يدخلهم الجنة برحمته ولا
تأمن عليهم الخ .
- ٢٥٧ « في الاسباب التي تسقط عن طاعل السيئات عقوبة جهنم وهي عشرة
- ٢٥٧ « في التوبة . وفي الاستغفار والفرق بينها
- ٢٦٠ « في الرجاء والخوف
- ٢٦١ « في تعريف الايمان وقول العلماء فيه
- ٢٦٥ « في ان زيادة الايمان من جهة الاجمال والتفصيل
- ٢٧١ « في تقسيم القول وتقسيم العمل
- ٢٧٤ « في الايمان اذا عطف عليه العمل الصالح
- ٢٧٧ « في الاسلام والفرق بينه وبين الايمان
- ٢٨١ « في مسألة الاستثناء في الايمان
- ٢٨٤ « في قول الفرق في المتواتر والآحاد
- ٢٨٧ « في ان السنة قسمان تشريع ابتدائي . وبيان لما شرع الله في كتابه .
وان المؤمنين كلهم اولياء الرحمن : والقول في الولاية
- ٢٩١ « في ان اكرم المؤمنين هو الاطوع لله والاتبع للقرآن
- ٢٩٢ « في اركان الايمان
- ٢٩٦ « في ان الله تعالى لا يؤيد الكاذبين بالمعجزات

- ٢٩٧ بحث في الهداية واقسامها
٣٠٠ « في ان اهل الكباثر لا يخلدون في النار
٣٠١ « في الكباثر وتعريف الكبيرة والصغيرة
٣٠٣ نكتة في الفرق بين العارف والمؤمن
٣٠٤ بحث في حكم الصلاة خلف البر والفاجر
٣٠٥ « فيمن تجوز الصلاة خلفه
٣٠٩ « في الشهادة بالجنة
٣١٠ « فيما يحل دم المسلم
٣١٠ « في وجوب طاعة ولي الامر وعدم الخروج عليه
٣١٢ « في وجوب اتباع السنة والجماعة وتعريفهما
٣١٤ « في الحب لله والبغض لله
٣١٥ « في حكم من تكلم بغير علم
٣١٦ « في حكم المسح على الخفين
٣١٨ « في الرد على الرافضة الذين قالوا: لاجهاد في سبيل الله حتى يظهر الرضي
٣١٩ « في الايمان بالكرام الكاتبين
٣٢٠ « في وجوب الايمان بملك الموت
٣٢١ « في الروح والنفس
٣٢٤ « في الفرق بين مسمى النفس والروح
٣٢٦ « في القبر ووجوب الايمان بعذابه ونعيمه
٣٢٩ انواع تعلق الروح بالبدن
٣٣٣ بحث في امكنة الارواح
٣٣٥ « في وجوب الايمان بالمعاد
٣٤١ « في قول من يقول ان الاجسام مركبة من الجواهر المفردة

- ٣٤٥ بحث في الصراط
« ٣٤٦ في الميزان
« ٣٤٩ في الجنة والنار وانها مخلوقتان موجودتان الآن
« ٣٥٣ في القول ببقاء الجنة وفناء النار
« ٣٥٦ في ابدية النار ودوامها والاقوال في ذلك
« ٣٥٨ في حكم من مات وهو صغير
« ٣٦٠ في الاستطاعة
« ٣٦٥ في ان افعال العباد هي خلق الله و كسب من العباد
« ٣٦٩ في الاخلاص
« ٣٧٢ في انواع افعال العبد
« ٣٧٣ في ان الله تعالى لم يكلف العباد الا ما يطيقون . ولا يعطيون الا ما كفهم
في ان كل شيء يجري بقضاء الله . وتقسيم القضاء الى شرعي و كوني
« ٣٧٦ وكذلك الامر ، والكتاب ، والحكم ، والتحرير ، والسكيات .
« ٣٧٨ في تنزيه الله نفسه عن ظلم العباد
« ٣٨١ فيما ينتفع به الاموات من سعي الاحياء
« ٣٨٣ في وصول ثواب الصدقة الى الميت وكذلك الصوم
« ٣٨٤ في وصول ثواب قراءة القرآن الى الميت
« ٣٨٥ في استئجار قوم يقرءون القرآن ويهدونه للميت
« ٣٨٦ في الاهداء الى رسول الله ﷺ
« ٣٨٧ في قراءة القرآن عند القبور
« ٣٨٨ في ان الدعاء من اقوى الاسباب في جلب المنافع ودفع المضار . وفي
المعاني التي تاخذ من نذب الله تعالى الى الدعاء
« ٣٨٩ في ان الاعراض عن الاسباب بالكلية قدح في الشرع

- ٣٩٠ بحث فيمن يسأل الله تعالى ولا يعطى او يعطى غير ما سأل
- ٣٩٢ « في ان الله تعالى يملك كل شيء ولا يملكه شيء »
- ٣٩٦ « في وجوب الحب لصحابة رسول الله ﷺ والرد على من خالف ذلك »
- ٣٩٩ « في معنى قول من قال : الشهادة بدعة والبراءة بدعة »
- ٤٠٠ « في خلافة ابي بكر رضي الله عنه و بيان فضله »
- ٤٠٤ « في خلافة عمر رضي الله عنه و بيان فضله »
- ٤٠٦ مقتل عمر رضي الله عنه ودفنه مع صاحبه »
- ٤٠٩ بحث في خلافة عثمان رضي الله عنه و بيان فضله »
- ٤١٠ « في خلافة علي رضي الله عنه و بيان فضله »
- ٤١١ « في ذكر الفتنة »
- ٤١٢ « في ان الخلفاء الاربعة بعد الرسول هم الراشدون والائمة المهديون وانهم من العشرة المبشرين بالجنة »
- ٤١٣ « في ذكر فضائل باقي العشرة الذين بشرهم الرسول بالجنة »
- ٤١٥ « في الرد على من يبغض لفظ العشرة »
- ٤١٦ « في وجوب احسان القول في صحابة رسول الله ﷺ وازواجه وذرياته »
- ٤١٧ « في أصل الرفض واسم واضعه وان الرفض باب الزندقة »
- ٤١٨ « في وجوب احترام علماء الاسلام وتفضيل الانبياء على الاولياء والرد على من خالف ذلك »
- ٤٢١ « في كرامات الاولياء »
- ٤٢٢ « في تأثير القلوب »
- ٤٢٥ « في انواع الفراسة »
- ٤٢٦ « في وجوب الايمان باسراط الساعة و ذكرها »
- ٤٢٨ « في النهي عن تصديق الكاهن والعراف ومن ادعى شيئاً يخالف الكتاب والسنة واجماع الامة »

صحيحة

- ٤٣٤ بحث في البله وفيمن اتبع الابله وترك اتباع الرسول
 ٤٣٥ « في حكم من يصعق عند سماع الانغام الحسنة . وفي حكم المجنون
 ٤٣٦ « في ذكر من يعتقدون بالرياضات ويتركون الجمع والجماعات
 ٤٣٧ « في ان الجماعة حق والفرقة زيغ والتدليل على ذلك
 ٤٤١ « في ان الاختلاف في الكتاب بمن يقرون به على نوعين
 ٤٤٣ « في ان دين الله في الارض والسماء واحد الخ
 ٤٤٤ « في ان دين الاسلام بين الغلو والتقصير
 ٤٤٥ « في ان دين الاسلام بين التشبيه والتعطيل وبين الجبر والقدر
 ٤٤٦ « في ذكر بعض الفرق كالمعتزلة والجهمية والجبرية والقدرية وغيرهم
 ٤٤٦ اشارة مجملة الى ما حوى الكتاب
 ٤٤٨ بحث في ذكر الجهمية وأصل منشأهم
 ٤٥٠ « في ذكر الجبرية ومنشئهم
 ٤٥١ « في سبب ضلال هذه الفرق وأمنالهم
 ٤٥٢ « في ان للفرق الضلال في الوحي طريقتين
 ٤٥٢ « في ذكر اهل التبديل
 ٤٥٣ « في ذكر اهل التحجيل والتضليل
 ٤٥٤ فهرست الكتاب

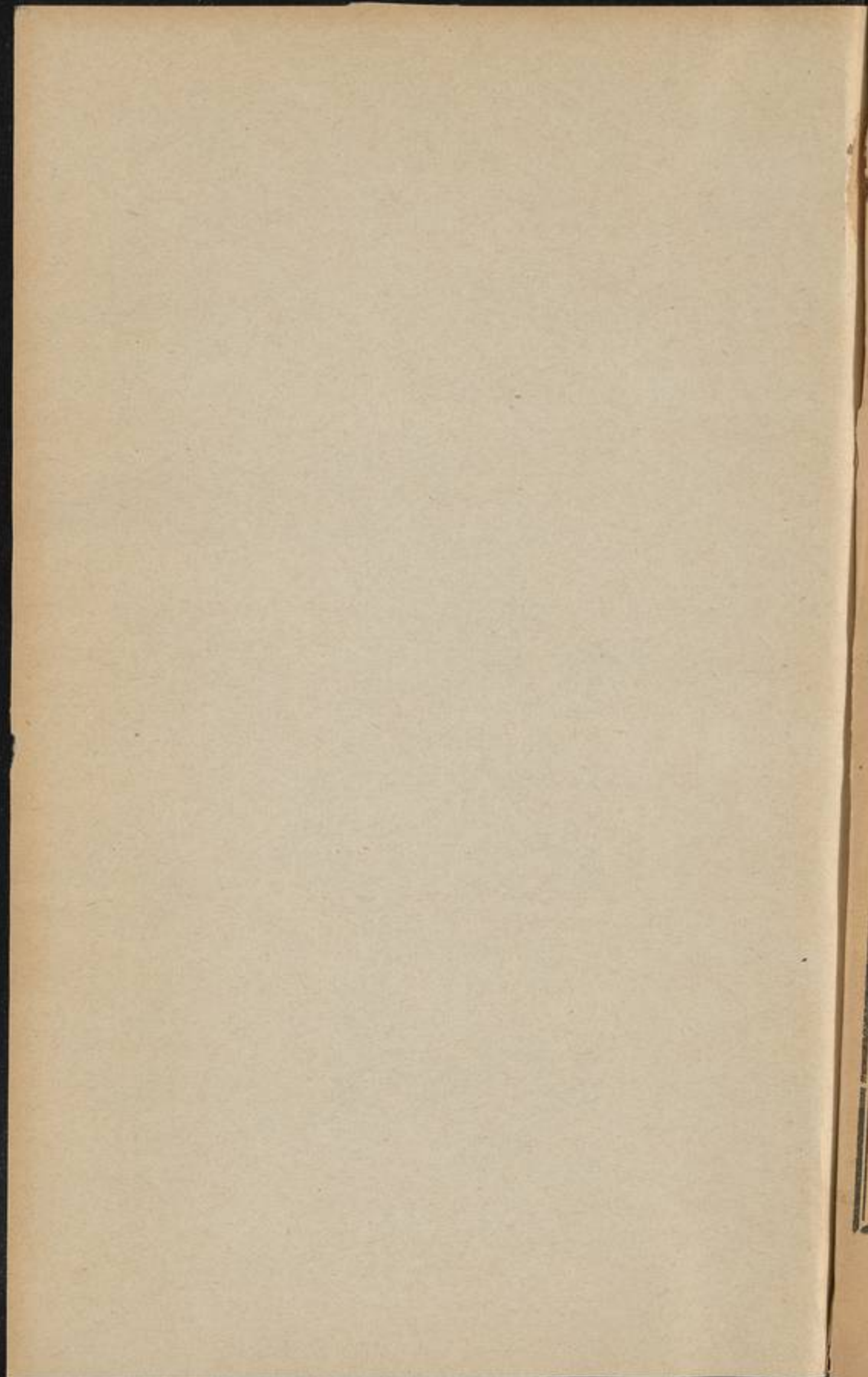
﴿ تنبيهات ﴾

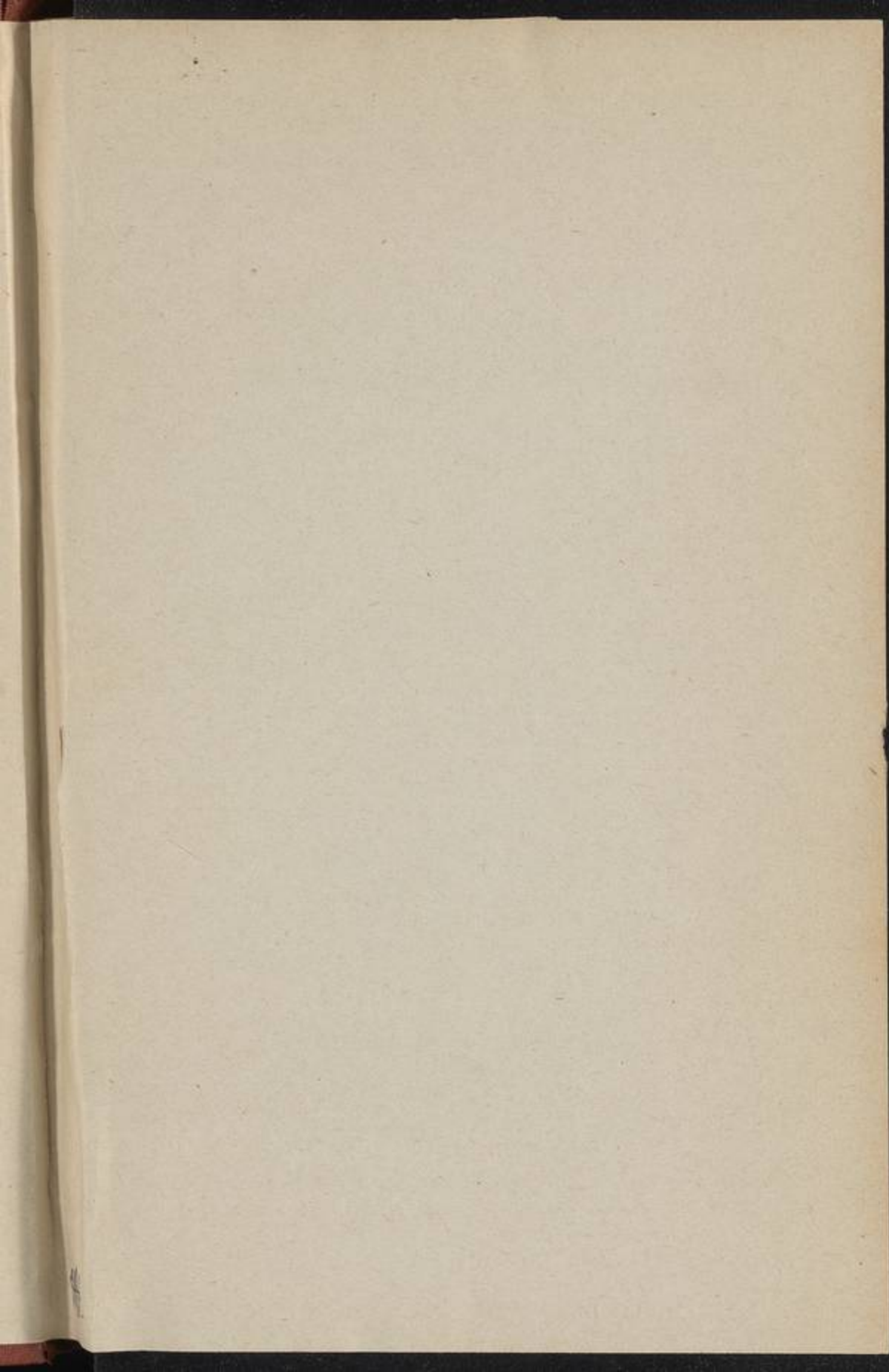
- ١ - وقعت بعض هفوات بسيطة في بعض الكلمات موجودة في الاصل لا تخفى على
 نباهة القارى فتركنا اصلاحها بناء على حسن الظن به غير مهملين ولا مقصرين
 ٢ - ووقع في صفحة ٨٩ سطر ١٦ ما ذكر في النسخة المخطوطة التي اعتمدنا
 عليها في الطبع حديث « مثلى ومثل الانبياء كمثل قصر احسن بناؤه الخ »
 وقد اطلعنا في الصحيحين كما نبه الشارح على مظان الحديث فوجدنا انه

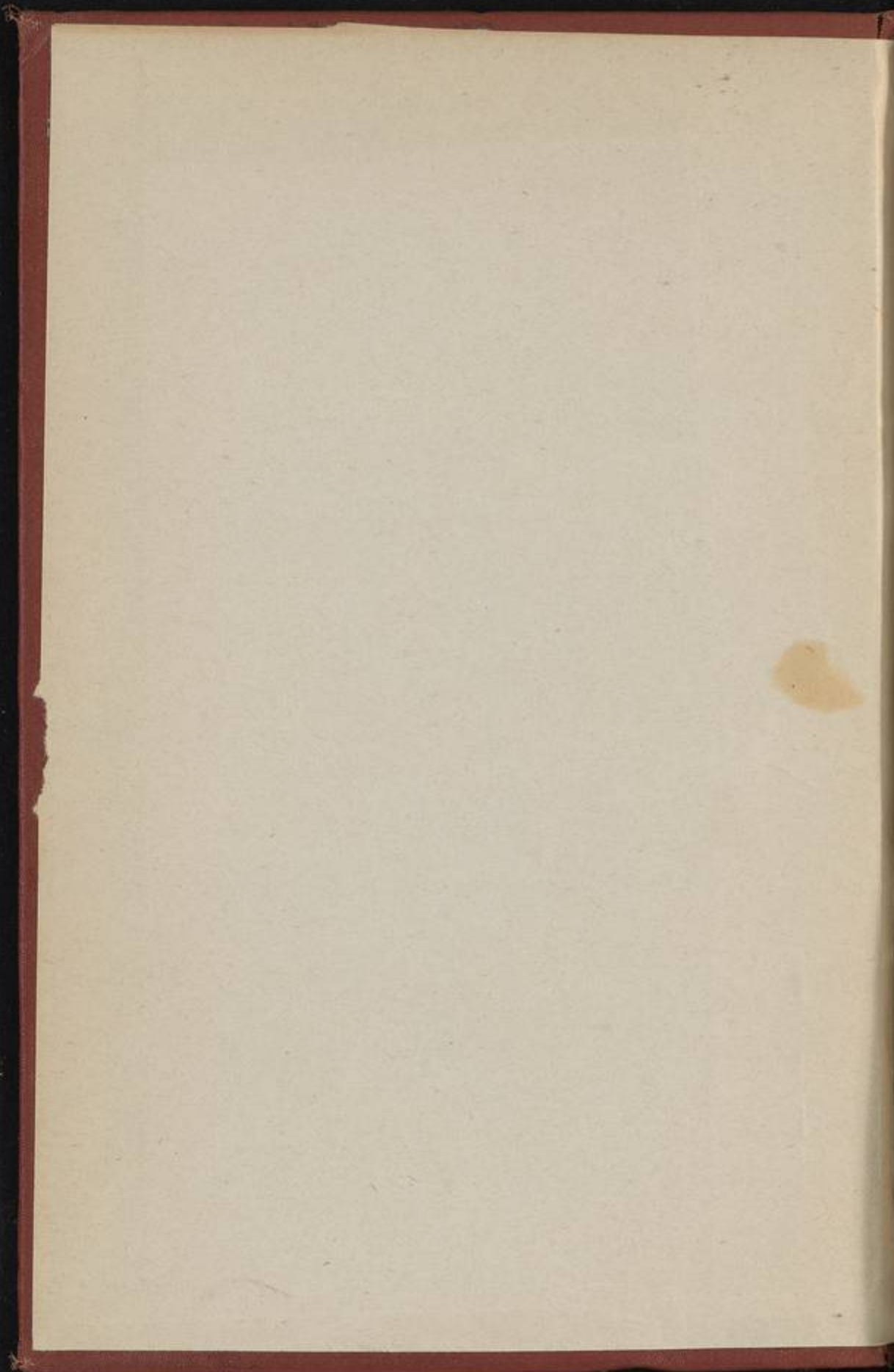
روى بعدة وجوه ليس فيها ما ذكره الشارح . ومما هو في البخارى في باب خاتم النبيين مانصه « ان مثلى ومثل الانبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه اجمله الاموضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ، قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » وقد وقع ايضا في صفحة ١٦٤ سطر ٥ حديث « ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله » والصواب « لم يغضب قبله مثله »

٣ - اتماماً للفائدة رأينا بعض غلطات يجب التنبيه عليها نذكرها فيما يلي :
راجين من القارىء اصلاحها

ص	س	خطأ	صواب	ص	س	خطأ	صواب
٦	١٠	بناء	نبأ	١٦٥	١٧	الله	الله
٢٦	١٣	مطرين	مضطرين	١٧٣	١٢	قاع	رقاع
٣١	١٧	يا أهل	قل يا أهل	٢٠٠	٥	واخشونى	واخشون -
٥٥	١٤	والحياة	والحياة	٢٠٠	٧	ويخشى	ويخش
٦١	١٧	الله	الله	٢٠٩	٨	لا إله هو	لا إله الا هو
٧٣	١	ولاً	ولاً	٢١٧	٧	ياتون	ياتوا
٧٧	١٥	اذ قال لقومه	اذ قال لقومه خارج القوس	٢٢٣	١٧	ليخرجنكم	ليخرجكم
٨٠	٤٠٢	ومن يشاء . ومن يشاء . من	يشاء . من	٢٥٠	١٦	وحتى	حتى
٨١	٥	الله	الرحمن	٢٧٥	٤	وكتبه	زائدة
٨٩	١٣	منهم	من انفسهم	٢٨٢	٥	الثانى ا	الثانى ا
٩٧	٣	بما كافتة	كافة	٢٩٥	١	ان تصبهم	وان تصبهم
١٠٠	١٢	صحيح	صحيحه	٣٣٧	١٠	عليه	عليه
١٢٠	٦	فنظرت بنوره فنضرت بنوره	صحيحه	٣٣٨	١٠	فاجيبوا	(خارج
١٢٣	١٤	رئبها	رئبها	٣٣٨	١٠	بقوله	(القوس
١٤٦	١٣	يجب	يجب	٣٤٢	٨	بين	المبين
١٥٧	١٢	الاسرى	الاسراء	٣٤٣	٩	ذوا	ذو
١٥٧	٢٠	فيما اراد	فيما ارادا	٣٥٦	٩	اتخذتم	اتخذتم
١٥٨	٢	الاسرى	الاسراء	٣٧٠	٦	(زائدان
				٤٢١	١٢	انى	لكم انى
				٤٤٥	٧	يا أهل	قل يا أهل







COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU59575395

ME06501

Kitab shah al-Tahaw